

هاري ساغر

عظيمة آنفنور

ترجمة

خالد أسعد عيسى

أحمد عساق سبيلو



دار سلمان

عظمتہ آشور

عظمة آشور

تأليف

هاري ساغر

ترجمة

خالد أسعد عيسى

أحمد غسان هادي

عظمة آشور

قائفة: هاري ساغر

ترجمة: خالد اسعد عيسى / أحمد عثمان سنانو

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعة تمت بـ:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

بجوف الطب مع محفوظ

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٥٦٣٧٠٦٠ ١١ ٥٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٥٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

القدمة

جرت العادة تقديم تبرير إيضاحي لأي كتاب من نوع كتابنا هذا ، فالسبب الموجب لكتابة هذا الكتاب بسيط ، فلقد قضيت حوالي نصف عمري في دراسة موضوع الآشوريين ، ولهذا أود أن أتميز بإشراك الآخرين في معرفة بعض الفوائد التي وجدتُها بعد دراسة أحوال ذلك الشعب.

والحقيقة أن الفارئ سرعان ما سوف يدرك أنني أحب الآشوريين حقاً ، مع ما فيهم من سلبيات وإيجابيات دون الشعور بوجوب الاعتذار عن هذا الحب ، ومع أن الآشوريين شأنهم شأن الشعوب الأخرى القديمة والحديثة قد أظهروا أساليب لا نعتبرها الآن لائقة في تعاملهم مع بني البشر حولهم ، إلا أنني لا أشعر بأي حرج عند الترويج لفكرتي وصوابها عن طريق تقديم الحكم على كل فعلٍ فعلوه ، وكل موقف اتخذوه على أساس معتقدات دينية قوية أو لبرالية متداولة.

إنني أعلم علم اليقين أن هناك كثيراً من الموضوعات التي قد حُذفت وُكِن من الأجدر مناقشتها ، إذ إن لدي ملاحظات تحتوي مواد ربما تُولف كتاباً ضئيف حجم هذا الكتاب ، غير أنه من الواجب أن نضع حداً لممارسة أي عمل ، لأنني عند اختياري لما يجب مناقشته تَوَخَّيتُ أن أركز على الشؤون التي يسهل إثباتها بعلوم المناطق المتصلة بالعالم الحديث بشكلٍ أكثر وضوحاً وعلى الموضوعات التي تبدو أكثر مُتعة وإمتاعاً.

ولكن من الواضح أن لا تلتقي هذه المعايير الثلاثة دوماً ولذلك فكان من واجبي أن أضحي بواحد منها أو أكثر.

ربما كان من الأجدي قول كلمة حول التواريخ ، إذ إننا نجد كتاباً آخرين يقدمون بعض تواريخ تختلف عن تواريخي بالنسبة للألف الأول قبل الميلاد بواقع سنة أو سنتين ، وبالنسبة للألف الثاني قبل الميلاد بواقع عقد أو أكثر ، وبالنسبة للألف الثالث بواقع قرن واحد ، ويمود وجود مثل هذه الفروق إلى الطريقة التي تتلاحم فيها مجموعات الشواهد التي قلَّما تتواجد فيها تلك الحقيقة المطلقة

(باستثناء الظواهر الفلكية) وفي رأيي أن التواريخ الدقيقة ليست ذات أهمية شريطة وضوح تماهب الحوادث نسبياً.

ولكن التواريخ تؤلف كياناً مفيداً يُجبرني على تقديمها بحرية نسبياً.

هذا ، وسوف يلاحظ أولئك المتعمسون بمناقشة تواريخ منطقة ما بين النهرين أنني قد اتبعت النظام الذي اتبعه أستاذي السابق المحترم سيثي سميت ، وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أتمكن من الموضوع كما فعل ، حيث لا يستطيع أحد غيره أن يفعل ذلك ، ولهذا فإن جميع التواريخ المتعلقة بأشور القديمة ينبغي أن يكون من المفهوم بأنها ترجع إلى فترة ما قبل الميلاد دون وجود أي دلالات خاصة.

وفي بعض الحالات أشير إلى أي تاريخ ذي علاقة بمنطقة ما ، وخوفاً من وقوع بعض الإشكالات البسيطة ، أضيف كلمتي بـ م أي: بعد الميلاد.

وليس بإمكانني أن أنهي هذه المقدمة دون التويه بشكري وامتناني لزوجتي التي كان لروحها المتفائلة التي لا تتوقف ولحماسها وآرائها العملية ، ما عزز تلك المتعة والاهتمام بالقيم طيلة تلك الرحلات العديدة التي قمنا بها معاً إلى بلاد آشور ، وفي آشور نفسها ، خلال سنوات وسنوات.

هاري ساغز

Hary Sags

الفصل الأول

آشور - الخلفية - البدايات

لا بُدَّ أن القراء في العالم الغربي قد سمعوا بالآشوريين فيما ذكرته التوراة عنهم، فقد أشارت إليهم التوراة بأنهم القوة الإمبراطورية التي قضت على مملكة إسرائيل، وأوقفت ما يسمَّى بالقبائل العشر في الأسر.

وبعد جيل من ذلك التاريخ قام الآشوريون بمهاجمة أورشليم عاصمة ما كان يسمَّى دولة يهوذا، ذلك الهجوم الذي أوحى إلى الشاعر بايرون نظم قصيدته التي تبدأ بـ: **هجم الآشوريون كالثئاب على قطع الخنم.**

وكانت مكتائبهم الحربية تلمع بالألوان الأرجوانية والذهبية.

ونتيجة لما ذكرته التوراة وما ذكره الشاعر بايرون، فقد وُصِمَ الآشوريون بالنسبة للعالم المتكلم باللغة الإنكليزية بصفاتهم البربرية الخالصة من الشفقة والرحمة، فكما وصفوا بالضرر والخبث.

والحقيقة أنهم كانوا خشنين وقساء وغلاظ القلوب عند معاظلتهم على النظام، ولكنهم كانوا حماة للمدنية ولم يكونوا مغربين أو برابرة.

لقد حدثت فصول حوادث أورشليم خلال قرن اختفى فيه الآشوريون نهائياً كشعبٍ مميز، ولصكن معظم ما ميَّز الآشوريين في تاريخ العالم كان له جنوره خلال ألف سنة أو ما يزيد ظهرت فيها هويتهم الوطنية التي كانت خلفهم عندما هاجموا فلسطين.

الإطار الجغرافي

لقد كانت الإمبراطورية الآشورية في أقصر امتدادها واسعة، فقد امتدت تلك الإمبراطورية لمدة قصيرة خلال تلك الفترة التوراتية من مصر من جهة إلى بلاد المجمع (إيران) من الجهة الأخرى، والحقيقة أن الوطن الآشوري المركزي الذي

سيطر على أراضي الشرق الأدنى كان منطقة صغيرة جداً، فلم يكن أكبر من منطقة انجليا الشرقية أو ويلز في بريطانيا أو فلسطين، أو ولاية كونيتكتكوت في أمريكا.

فلقد كانت آشور أصلاً تضم الأرض الممتدة على طول نهر دجلة الأوسط، وكانت حدودها الشمالية ممتدة من شمال الموصل حيث سفوح الجبال لتصبح سهلاً، وأما جنوباً فقد امتدت إلى مسافة مئة وثلاثين ميلاً شمال غرب بغداد، في منطقة ينساب فيها نهر دجلة خلال سلسلة من التلال تدعى جبل مغول غرب دجلة، وجبل حميرين إلى الشرق، ويقع إلى غرب دجلة سهل واسع (وهو عبارة عن هضبة منخفضة من الحجر الكلسي) يدعى: منطقة الجزيرة، حيث هناك سلسلة جبلية تدعى: جبل سنجار في نهايتها الشمالية، وتمتد منطقة الجزيرة دون أي تقاطع شرقي غربي حتى نهر الخابور، وفي هذا السهل المفتوح أمام البدو الرُحَّل من جهة الصحراء السورية كان امتداد السيطرة الآشورية في أي وقت من الأوقات يعتمد على القوة العسكرية والتصميم والعزم الآشوري.

وفي الجهة الجنوبية الشرقية لهذه المنطقة وعلى محاذاة نهر دجلة كانت تقع مدينة آشور وهي أقدم عواصمهم.

وفي المنطقة الشرقية داخل بلاد آشور كان هناك راقدان رئيسان لنهر دجلة وهما يحملان اسم الزَّاب، وكان الزاب الأصغر أو الأدنى يلتقي بدجلة شمال جبل حرمين، بينما كان الزاب الأكبر أو الأعلى يرفد دجلة على بُعد خمسة وعشرين ميلاً متحرراً من الموصل.

وتؤلف سلاسل الجبال العالية التي يبدأ منها نهر الزاب منطقة ريع دائرية تحيط بدولة آشور من الشرق والشمال.

وهكذا وبينما نجد هناك سهلاً متحرراً إلى الغرب من دجلة، إلا أن آشور الشرقية تنقسم إلى ثلاث مناطق، فالقطاع الأول: عبارة عن سهل واقع بين الزاب الأكبر والجبال الشمالية، وهذا ما جعل نينوى أعظم مدينة في الأزمنة القديمة، كما هو الحال بالنسبة إلى الموصل في هذه الأيام.

أما القطاع الثاني: فهي المنطقة الواقعة بين الزابين ومركزها أربيل، وكان هذان القطاعان دوماً ابتداءً من الزمن الذي ظهرت به آشور هما العنصرين الرئيسيين في دولة آشور.

أما القطاع الثالث: فهو المنطقة الواقعة جنوب الزاب الأصفر الممتدة حتى جبل حرمين، وتضم هذه المنطقة كركوك وهي الآن مركز آبار البترول، أما في الأزمنة القديمة فكانت تدعى أرابخا Arabkha ولكن دولة آشور لم تسيطر على هذه المنطقة، وكانت أرابخا وأربيل ونيوى مع مدينة آشور الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة، هذه المدن كانت هي المدن الرئيسية المهمة، وذلك لأن دولة آشور كانت على الغالب مؤلفة من مناطق ريفية.

وباعتبار هذه الأقسام الرئيسية الأربعة لم تكن آشور عبارة عن وحدة جغرافية متكاملة، فقد كانت هنالك فروق بارزة ذات علاقة بالأرض والمناخ موجودة بين كل جزء من هذه الأجزاء والجزء الآخر.

ولكن ومن جهة أخرى فقد كانت الجهات الرئيسة الأساسية متشابهة بحيث تصبح المنطقة بأكملها بلداً واحدة منفصلة ومتميزة عن المنطقة الواقعة جنوبها، وفي معظم أراضيها كان معدل هطول الأمطار كافياً للزراعة دون اللجوء إلى عمليات الري وذلك على الأقل في السنوات الخصبة الجيدة، مع أنه وبالنسبة إلى المناطق الجنوبية القصية في آشور كان الوضع الزراعي هامشياً يتصف بتخلف وقصور زراعي أثناء الفصول الرديئة المحاصيل.

وإذا تابعنا الاتجاه جنوباً فيما وراء خط عرض جبل حرمين ينخفض معدل هطول الأمطار الكلي لنمو الحبوب دون اللجوء إلى عمليات الري، وفي نفس منطقة خط العرض هذه هناك تغيرات في التربة وذلك لأن سهول آشور هنا معرضة لوجود الطمي الذي يسببه مجرى نهر دجلة، وتتعد هاتان الميزتان لإنشاء حدود جغرافية فيما بين آشور والأراضي المجاورة في الجنوب.

وخلال الألف الأولى والثانية قبل الميلاد كانت تلك الأراضي الجنوبية تعرف باسم بابل، وفي زمن أقدم كانت تعرف باسم أكاد وسومر (وهما نصفاهما

الشمالي والجنوبي) ولم تكن الحدود ما بين آشور وبابل في الأزمنة القديمة لتتبع الحدود الطبيعية، ولكنها كانت تتقدم وتتراوح إلى الأمام والخلف طبقاً لمقايير حياة الدولتين، هذا وتبقى الميزات الجغرافية التي تميز آشور عن بابل واضحة في هذه الأيام، فالرحلة في فصل الربيع من بغداد وهي عاصمة العراق الحديثة وخلال منطقة بابل القديمة إلى الموصل التي تقع قرب عدة عواصم آشورية تقود السائح إلى منطقة مختلفة، ففي منطقة بغداد جنوباً تصبح الزراعة المائدة هي زراعة أشجار النخيل، وليس هناك من غطاء عشبي عدا المناطق التي تكثر فيها الحدائق والمزارع، فالأراضي تبدو منبسطة في الأفق، وفي معظم أوقات السنة تصبح الأرض المعرضة لحرارة الشمس قاحلة وميتة ولا سيما حيث لا تصل إليها أفتية الري، ولكن عندما يقترب السائح من الموصل يجد هناك تغييراً جذرياً، فالأراضي المنبسطة تتحول إلى سهول منخفضة، وفي فصل الربيع تصبح خضراء بما تحمله من محاصيل الحبوب والمراعي المزدهرة بما فيها من الأزهار والأعلاف، وتخترق الوديان تلك السهول المتلوجة وتمتلئ تلك الوديان بالمياه بعد سقوط أمطار الربيع حيث ترى سلاسل التلال العالية في الأفق، وهنا يشعر السائح أنه قد وصل إلى آشور.

وتعتمد القوى الرئيسية في آشور القديمة على أراضيها الخصبة المزروعة بالذرة، ففي كل منطقة من مناطق آشور هناك بقع من الأرض مزروعة بالذرة، ولكن هناك منطقتين كبيرتين بصورة خاصة متميزتين بالقدر على الإنتاج وقد كانتا دوماً بهذا الشكل إحداهما سهل أربيل الذي يوصف بأنه أفضل منطقة منتجة للقمح في العراق، أما المنطقة الثانية فهي منطقة سهل الموصل، وإلى الغرب من نهر دجلة هناك حزام مزروع بالذرة الجيدة، وفي الجزيرة الواقعة إلى الجنوب من جبل سنجار يستطيع المرء أثناء السنوات الخصبة رؤية نبات الشعير النامي في ذلك السهل، مع أنه يقل حالماً ينتقل المرء إلى الجنوب حتى يصل إلى الخط الواصل بين الحرة وقلعة شرفاقل (وهي موقع عاصمة آشور القديمة).

وتذكر التوراة شيئاً عن أصل مملكة آشور ولكن باختصار، ويذكر في سفر التكوين رقم (١٠ و ١١) أن مملكة نمرود كانت تتألف من بابل وأريش وأكاد وكلانة وكلها واقعة في أرض شنعار، ومن تلك الأرض هاجر نمرود إلى آشور وبني نينوى وقلة مكاخ **Calah**، وليس هناك سوى قلة من علماء آثار آشور مستمدين للدفاع عن تلك التفاصيل، ولكن وبالنسبة لأشور فإن الملابس الرئيسية متفقة مع ما نعرفه من علم الآثار، فشنعار ما هي إلا صورة طبق الأصل عن سومر التي كانت هي الاسم القديم لأقصى جنوب العراق التي يرويها النهران العظيمان دجلة والفرات، فسي سومر بالذات بدأت الحضارة الأولى، وفي حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م ولا نعرف إلا القليل عن المكان الذي أتى منه السومريون فيما لو كانوا حقيقة مهاجرين أم كانوا من أهل البلاد الأصليين، ولسكننا نعرف الكثير عن حضارتهم القديمة في جنوب العراق.

وكانت إحدى مراكزهم الثقافية تدعى: أوروك، وإن اسم أيريشين التوراتي هو شكل من أشكال هذا الاسم، وكانت نينوى وكالا عاصمتين آشوريين في أزمان مختلفة، وكانت الأولى أقدم عهداً من الثانية ولكن مؤسستها المزعوم هو نمرود الذي يُعد أحجية من الأحاجي، وإن اسم آشور (الذي نُقِلَ على شكل اسهور أو اسشور أو أسور) ربما انطبق على اسم البلاد ككل، أو على اسم أقدم عاصمة من عاصمها، أو على اسم الإله الرئيسي فيها، مع أن ذكرها في التوراة يدل على البلاد فحسب.

هذا وقد انتشرت الحضارة السومرية في أعالي الفرات ودجلة. وإن المقولة التوراتية حول الهجرة من شنعار إلى آشور ما هي إلا انعكاس للحقيقة التي مفادها: إن أصول الحضارة الآشورية كانت على الأغلب من سومر.

لاحظ استعمال كلمة على الأغلب، فلقد كانت الأحوال الجغرافية شديدة الاختلاف بالنسبة إلى المنطقتين بحيث كان من الصعب انتقال الحضارة السومرية دون تغيير أو تبديل إلى آشور.

ولكن ظهرت عوامل جديدة لعبت دورها ، فقد كانت هناك وسيلة سهلة للاتصال عن طريق وادي نهر الخابور مع سورية ومع منطقة البحر الأبيض المتوسط والأناضول (اواسط سورية) وراء ذلك ، ولقد شجعت هذه الطريق في جميع الأزمنة ومسائل التواصل فيما بين آشور وأجزاء الشرق الأدنى الأخرى مما سبب حدوث نتائج ثقافية ، فمن نعلم الآن أنه قد حدثت تطورات مرموقة في الحضارة في فترة مبكرة في سورية الشمالية ظهرت آثارها في آشور ، إذ لم تكن التلال والجبال المحيطة بآشور من الشمال والشرق خالية من المصكان لتشكّل حواجز تامة تمنع الاتصال مع الأراضي حولها (وهي التي تدعى الآن تركيا وإيران) وهكذا أصبحت آشور مفتوحة لتلقي التأثيرات ذات الأنواع المختلفة من تلك الجهات أيضاً .

فترة ما قبل التاريخ

إن للمناطق المتاخمة لشمال وشرق آشور أهمية رئيسية بالنسبة للتاريخ البشري كشكل فضلاً عن صلتها بتاريخ آشور ، وتختص أهميتها على المدى الواسع ببداية القرى والزراعة .

وبالنسبة لأية فترة واقعة قبل عشرة آلاف عام قبل الميلاد ، فلا يلزم أن نتحدث عن وجود قرى في أو حول آشور أو في أي بقعة من بقاع المالم ، فقد كانت الكائنات البشرية لا تزال عبارة عن مخلوقات نادرة الوجود ، فعلى سفوح التلال كانت الكائنات البشرية أهل وجوداً من الأغنام البرية والماعز ، بينما كلما كانت هذه الكائنات البشرية ترى في سهول آشور عدا عن وجودها أشاء حملات صيد الحمر الوحشية التي كانت ترعى النباتات حتى بداية القرن العشرين بعد الميلاد .

ثانياً : كانت مثل هذه الكائنات تعيش على صيد الحيوانات وجمع النباتات البرية والبذور والفواكه بحيث لم يكن هناك من جامع يجمعهم بشكل دائم في بقعة معينة ، ولا يمكننا إنكار وجود قواعد موسمية بشكل كهوف أو مواقع في الهواء الطلق أو مساكن تعود إلى العهد الأول من العصر الحجري ، وهي معروفة قرب السليمانية ورواندوز Rowandoz بينما عثر على موقع في الهواء الطلق إلى

الشرق من كركوك، وعلى كل حال فإن عدم وجود الزراعة يُسقط من وجود المستوطنات الدائمة، فهناك موقع على ضفاف الفرات في سورية بُنيت فيه المستوطنات الدائمة قبل أن يبدأ الإنسان في ممارسة الزراعة المبكرة أو تربية الحيوانات، ولقد باثت الخطوة الأولى تجاه الزراعة تُعد أكبر تغيير حدث في أساليب البشر المعيشية نحو عام ٩٠٠٠ ق.م.

وتتراكم الشواهد حول المراحل الأولى لهذا التطور بشكل سريع من المواقع المكتشفة حديثاً في فلسطين وسورية، وفي مواقع ومناطق واقعة شمال وجنوب جبال طوروس، وعلى طول الجانب الغربي لزاغروس، ولقد نمت أنواع مختلفة من النباتات التي أصبحت في أشكالها المدججة من الأغذية الأساسية في العالم الغربي في هذه الأيام، وأهم هذه النباتات وحبيرة خاصة القمح البري والشعير البري والبقول المختلفة، وقد كانت الأغنام البرية والماعز تتجول في تلك المنطقة نفسها، وبالتدريج بدأ الناس القاطنون على سفوح الجبال في ممارسة زراعة النباتات المفذية، ولا تزال الأنواع البرية الأصلية للقمح والشعير تنمو في بعض الأجزاء النائية من سفوح التلال، ولقد استطاع علماء الوراثة النباتية تتبع التغيرات ابتداءً من الأشكال البرية إلى الأشكال المعروفة التي وجدت في المواقع المكتشفة.

ولقد وصل تدجين الأغنام البرية والماعز مرحلة مرموقة في نفس تلك الفترة مع أنها لم تكن من المجموعة نفسها من الناس، أو مع أنها ربما لم تكن بدعة مفاجئة، ومن الممكن أن يكون الصيادون قد تعلموا خلال ألف سنة تنظيم حركات قطعانهم والحيوانات التي اصطادوها، وحصر الحدود التي تتجول فيها تلك الحيوانات، وإن توسيع هذا المجال بشكل عقلائي بقصد وضع قطعان المواشي تحت المراقبة سوف يصبح بداية عملية التهجين والانتقاء، وذلك إما بذببحها أو إطلاق سراح الحيوانات التي لا يمكن ضبطها لتذهب إلى البراري، وهنا تنتج فعلاً سلالات منتقاة للحصول على نوع من الحيوانات سهلة القيلولة.

ويشار إلى هذه التطورات أي: ضبط المواد الغذائية نظراً لأهميتها بأنها ثورة العصر الحجري الحديث، ولكن المصطلح الزمني يجمع اصطلاحاً الثورة غير

مناسب، وقد انتشرت هذه التغييرات خلال ألاف السنين ، هذا ولم تستطع عملية رعي المواشي وزراعة الحبوب أن تحل محل المصادر القديمة لإنتاج الطعام خلال عقود أو حتى قرون، والحقيقة أنه ولادة فترة تقاس بألاف السنين بدلاً من مئات السنين، فإن عملية الصيد قد بقيت ذات أهمية مرموقة لأجل زيادة كميات المواد الغذائية.

وتعكس هذه الآثار في الحقيقة التي مفادها أن عملية الصيد بقيت عبارة عن نشاط شعائري مهم يظهر حق الملوك حتى نهاية الإمبراطورية، بينما كانت عملية صيد الأسماك (التي تختلف عن عملية تربية الأسماك) شكلاً من أشكال الصيد التي لا تزال من المصادر الرئيسة للحصول على الطعام.

ومع ذلك فقد أصبح إنتاج الطعام الطريقة السائدة للمعيشة في سفوح التلال الملاصقة لآشور، وحالما حدث هذا فقد حدثت حتماً نتائج أبعد تأثيراً، ولشدة التفاضل فقد اشتملت هذه النتائج على أمرين متناقضين الاستقرار والهجرة، فمن جهة أولى فقد ربطت الأعمال الزراعية (مع أنها لا تشمل تربية الأغنام والماعز) الأفراد المختصين لخدمة مساحة خاصة من الأرض، وكنتيجة لذلك نمت المستوطنات الدائمة - بشكل قرى وبعدها مدن- ومن جهة أخرى فإن تقنيات التدجين الجديدة كانت تعني أن لا ينحصر الإنسان في موطن معين عند عمله في تربية الأغنام والماعز، إذ من الممكن إطعام هذه المواشي وتربيتها في أي مكان مناسب حيث يوجد الكلاً المناسب.

وسكذلك فإن معاصيل النرة من الممكن إنهاؤها بعيداً عن المستوطنة الأصلية حيث توجد التربة مع كميات من المطر كافية، وهكذا لم يعد الناس مرتبطين بنوع خاص من الأراضي والمناطق، فأصبح استعمار السهول الآشورية ممكناً، وهكذا نشأت في هذه الطريقة أولى القرى في تلك المنطقة.

ولقد كانت لهذه التغييرات نتائج مرموقة على كل من المسكان البشر وعلى المؤسسات البشرية الاجتماعية، فقد أصبح الإنسان والحالة هذه قادراً على توسيع مدى نفوذه لاسيما بعد تطوير أدوات الري، فأصبحت منطقة معينة من الأرض

قدرة على إعالة أعداد أكثر من البشر بعد إعطاء القدرة لعدد أكبر من السكان على استثمار مناطق كاملة من المستوطنات، وهكذا فعند ازدياد عدد السكان في مستوطنات معينة توجب إيجاد مؤسسات اجتماعية قادرة، بينما أصبحت زيادة عدد المستوطنات قادرة على جلب نوع من البنى التحتية، وعلى تنظيم قواعد السلوك عند هؤلاء، وذلك بقصد تقليل عدد الخصومات.

وعندما امتلكت العائلات أو المستوطنات المولفة من مجموعات من العائلات مخازن القمح وقطعان المواشي فقد أصبح من الواجب أن يستطيعوا حماية أنفسهم ضد المجموعات الأخرى من البشر الذين كانت تمرزهم تلك المخازن والقطعان، وكان هؤلاء ينظرون بأعين فارغة جاثمة إلى تلك الممتلكات، وهذا ما أدى إلى ظهور المؤسسات الاجتماعية للدفاع والحرب، وبهذا نجد أن تهجين النباتات والحيوانات قد عدل وأملأ أشكالا في المجتمعات الأولى.

وتبع ذلك تغييرات أخرى، فقد دعت الحاجة عندها لاستخدام الأدوات والأواني ل تخزين الفائض من الطعام، وكان هناك عدة مواد متواجدة تحت الطلب ابتداء من الحجارة التي كان من الممكن اقتلاعها حتى القصب المجذول، ولكن سوف تظهر مادة مناسبة بشكل أكثر لتستعمل بشكل عام حالما يتم اكتشاف الحقيقة التي مفادها أن الفخار إذا تعرض للنار فإنه يصبح قاسياً ضد الماء وأطول دواماً، هذا وقد استعمل الإنسان النار منذ عهد بعيد قبل وقت طويل من تدجين مواد الطعام والحيوانات، ولكننا لا نعلم متى حدث استعمال النار في صنع الفخار، فمن المحتمل أن ذلك الاكتشاف قد حدث من خلال احتراق القصب أو حاويات القصب من السلال المبطنة بالفخار، وهكذا بدأ عصر الفخار بهذه الطريقة.

ولقد تبع ذلك عدة نتائج، فقد أدت الحاجة إلى وجود نارٍ حامية من الممكن السيطرة عليها، والتي تتج درجات حرارة عالية وذلك لإنتاج الأواني الفخارية الجيدة، أدى ذلك إلى تطوير صنع المواد القادرة على إنتاج حرارة هائلة، وهذا ما

أعطى الوسيلة التي استطاعت بها الأجيال القادمة القدرة على صهر المواد المعدنية
الخام.

وتأتي الشواهد الأولى على هذه التطورات في منطقتنا من مواقع زاوي وتشيمي
وشانيدار، فالموقع الأول على بعد ١٥ ميلاً إلى الشمال الشرقي من أنقرة ، وعلى
بعد نحو ثلاثين ميلاً من مهل الموصل قد حدد تاريخه عن طريق تحليل الكربون
بواسطة الأشعة السينية بحوالي (٩٠٠٠) عام ق. م ، وكانت المساكن هناك عبارة
عن أكواخ دائرية بُنيت جدرانها من جلاميد النهر ، وتظهر الأدوات الحجرية أن
بعض المنهوجات النباتية قد زُرعت لاستعمالها كطعام ، مع أننا في الوقت الحاضر
ليس لنا أي وسيلة لمعرفة فيما إذا كانت هذه المنهوجات من الحبوب أو حبوب
البلوط أو الجوز أو المكسرات الأخرى المتوفرة في تلك المنطقة.

وأما الصيد فلا يزال المصدر الرئيس للحصول على الطعام مع أن هناك بقايا
الأغنام وعظامها تدل على ترويض الأغنام مما يظهر أن تربية الماشية قد بدأت.

وأما (شانا دار) قرب رواندوز فهو عبارة عن كهف يعود إلى نفس فترة زاوي
تشيمي ، وهناك إمكان اتصال هذين الموقعين وذلك لأن شانيدار من الممكن أن
تكون الملبأ الشتوي للأشخاص الذين كانوا يقضون الصيف في زاوي تشيمي ،
وهذا الموقع مهم بالنسبة لنا لكونه يملأنا فكرة عن الاتصالات العائدة ، وقد
وجد هناك على السطح وهو مصدر بركماني زجاجي فاسي جذاب يستعمل في عمل
أدوات الزينة ، ولما لم يكن هناك أي مصدر للحصول على ذلك الحجر أقرب من
منطقة بحيرة فان الواقعة على بعد أكثر من مئة ميل إلى الشمال فوق أراضي جبلية
صعبة لذلك فلا مانع من وجود نوع من التجارة والصلات التجارية فيما بين هذه
المناطق.

نستطيع تتبع عمليات التطور في ضبط مواد الطعام من مواقع تعود إلى فترات
متأخرة ، ففي الحافة الشمالية لآشور عند جازمو إلى الشمال الشرقي من
كركوك كان هناك مستوطنة تبلغ مساحتها من ثلاثة إلى أربعة هكتارين قد
احتلها الآشوريون ابتداءً من ٧٠٠٠ سنة ق. م فصاعداً ، ويميل علماء الآثار لأن

يكونوا أكثر كرمًا بالنسبة إلى الزمن وهم يفكرون أن هذا الزمن قصير بعد بداية عصر الزراعة ، ولكن علينا أن نلاحظ أن فترة هذا التطور قد دامت مدة تقرب من مدة عصر المسيح حتى يومنا هذا ، وقد كانت جارمو قرية صغيرة تحتوي على عشرين بيتاً أو ما يقارب ذلك وبها من السكان ما يقدر بمئة أو خمسين نسمة ، وقد زرع هناك نوعان من القمح (يعرفان بالأسير والابن ككورن) ونوع من الشعير وقد دلت بعض الشواهد على وجود ماعز مدجن وخنازير وكلاب في جارمو ، ولكن من الغرابة عدم وجود أغنام مدجنة وذلك بشواهد من زاوي تشيمي ، ولو كان عدم وجود هذه الشواهد مجرد حادث اكتشف فإن المفارقة مع زاوي تظهر وجود عدة طفرات فجائية عند تدجين أنواع مختلفة من الحيوانات مع اقتتار أهالي جارمو للأغنام.

أقدم القرى الأولى

وجدت أقدم أنواع المستوطنات في سهول آشور وسميت باسم موقع أم الدباغية على بُعد ١٥ ميلاً إلى الغرب من الحدود ، أو ما يقارب ذلك على الحدود الجنوبية القاصية للمنطقة حيث من الممكن الزراعة بعد هطول الأمطار ، وهناك اختلاف حول ما إذا كانت هذه مستوطنة زراعية ، فهناك بقايا بيوت تدل على أن هذا الموقع كان مسكوناً باستمرار ولكن ليس من أول السنة إلى آخرها ، ولكن العنصر الأساسي في حياة مستوطنات أم الدباغية كان الصيد مع وجود الهدف الرئيس وهو حمار الوحش ، وهناك عدة شواهد تشير إلى هذا الاتجاه.

وتظهر الرسومات الجدارية في البيوت مشاهد الصيد وتشمل البنايات صفوفاً من القنور المستعملة لخزن الجلود (مع أن هذا الاستعمال لم يثبت تماماً) وقد وجد نحو سبعون في المئة من عظام الحيوانات في الموقع وكانت عظام حمار الوحش ، ومعظم العظام الأخرى كانت عظام غزلان ، مع أن هناك بعض عظام حيوانات مُدجَّنة.

وهناك دلائل على تقنيات الصيد التي كانت تستعمل هناك وهي عبارة عن الوف من كُرّات من الفخار كانت تستعمل في المقاييع ، ولهذا فمن الممكن لذلك أن لا يكون موقع أم الدباغية هو مستوطنة زراعية بل قاعدة للصيد ، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه من المظنون أنها بُنيت من قِبَل شعب متحرك على سطوح التلال يريدون استثمار الحمر الوحشية التي كانت متواجدة في الجزيرة (وظلت حتى استقذمت في القرن العشرين).

ولقد وجدت مواقع لثقافة أم الدباغية إلى الشمال تجاه جبل سنجار ، وما لم نُعدّ أم الدباغية نفسها مستوطنة زراعية ، فإنها إحدى تلك المستوطنات ، وبعد تل سوتو معثلاً لأقدم مستوطنة زراعية مبكرة في السهول الآشورية مع وجود أول دليل مؤرخ من قبل الحفريات الروسية الذي يعود إلى حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م ، هذا وبعد تل سوتو من المستوطنات (وهي القرى الصغيرة) الخلفية التي تكمن وراء بعض التطورات في أمكنة أخرى ، مثل كافال هوبوك في الأناضول حيث نمت بلدة مساحتها نحو اثنين وثلاثين فدانا أو في أريحا في فلسطين.

ولقد سُبقت أول مستوطنات معروفة في آشور من قبل بعض القرى في فلسطين التي سبقتها زمنياً بمدة ألفي عام أو يزيد ، وكذلك في الأناضول وإيران ، ولكن ربما كان هناك بعض القرى المتقدمة والأقدم عهداً في آشور وهي أقدم من تلك القرى التي ذكرناها ، لأنه من الواجب أن نتذكر أن معلوماتنا محدودة ومعرضة لضغوط من قبل البحوث في علم الآثار ، مثلاً تقع مدينة أرييل في سهل تكسر مياهه ، يمد الآن أفضل منطقة لزراعة الذرة في العراق ، وهو على بعد مسيرة يوم واحد عن المناطق التي يمكن أن توجد فيها حتى الآن الحبوب البرية ، والتي لا تزال نامية هناك ، وإنه لتخمين معقول قولنا: إن أرييل كانت إحدى أقدم المستوطنات الزراعية الدائمة ، ويمكن أرييل كانت مدينة ناجحة جداً بحيث تعرضت للاحتلال باستمرار منذ نشوئها.

وهذا ما أنتج وجود روابي أو تلال كبيرة ضخمة (لا تزال مسكونة) وكانت المسافة عميقة من قمة التلة حتى الأرض البكر بحيث أصبح من المستحيل إجراء

أي حفريات من مستويات باكورة، وعادة ما يسمي علماء الآثار بعض التجمعات (إذا جاز لنا أن نستعمل هذه الكلمة أو الرطانة التي يفضل علماء الآثار استخدامها عندما يعنون المرحلة الثقافية) باسم ذلك الموقع الذي ثبتت معرفته لأول مرة، ولكن هذا العمل الملائم ربما كان مضللاً للرجل العادي نظراً لأنه يشجع الانطباع بأن تلك المرحلة الثقافية كان لها ارتباط وثيق مع الموقع الأول الذي سُميت باسمه، ولكن غالباً ما أصبح حامل الاسم عبارة عن مستوطنة صغرى واقعة خلال منطقة صغيرة جداً، وهكذا حالما تستمر نحن الآن بالإشارة إلى مراحل ثقافة تُل حسونة وتُل حلف، فلا ينبغي أن نفكر بها ونمدها أول المتطورين بالنسبة للمواقع التي تحمل تلك الأسماء.

تُل حسونة

بعد تلك البدايات المُمثلة بتُل سوتو، فإن أول نموذج رئيسي للمستوطنات الزراعية المعروفة في السهول الآشورية هي ما تدعى (بالحسونة) وهذا الاسم مأخوذ من اسم تلة نرابية صغيرة واقعة على بعد اثنين وعشرين ميلاً جنوب الموصل، ولقد أظهرت الحفريات بعض المراحل الثقافية التي تعود إلى تاريخها في الوقت الحاضر إلى بضعة قرون واقعة بعد عام ٦٠٠٠ ق.م، وقد حدثت تلك الحفريات في الجزيرة إلى الشرق من أربيل.

وفي مجمع حسونة كانت الزراعة بالتأكيد من النشاطات الرئيسية حيث وجدت أشكال من الشمير وعدة أنواع من القمح، ولقد وجدت عدة أدوات مطبخية نموذجية في حسونة تشير أيضاً إلى استعمال الحبوب على مقياس واسع، فقد وجد نوع غريب من الصحن المسطحة ذات سطوح داخلية مثقبة كانت تستعمل لفصل الحبوب عن الحسك، وقد كان وجود الحيوانات المبدجة التي ظهرت عظامها والتي برهنت على وجود الأغنام والماعز والخنازير والأبقار، وإن وجود فلصكات المفزل تشير إلى وجود إنتاج الأقمشة، ويشار إلى التجارة في مسافات طويلة بوجود حجارة الأولسيديان وبعض الأحجار الكريمة الثمينة، ولما كان أقرب مصدر

لبعض هذه المواد يبعد نحو مئتي ميل بعيداً عن الجبال، وسواء كانت هذه المواد قد حملها التجار المسافرون أو أنها انتقلت من مستوطنة إلى مستوطنة، إلا أن ليس لدينا أي واسطة لمعرفة ذلك، هذا وإن الاتصالات مع أي من هذه الأنواع ربما أسهمت في انتشار معرفة التكنولوجيا، مثلاً الإنتاج الزراعي أو وسائل البناء، وأعمال الري وصنع النحاس، ولقد وصل صنع النحاس إلى حسونة ومستوطناتها من أقصى الشمال.

وبحسب معرفتنا في الوقت الحاضر فإن أول استعمال للنحاس الذي كان يُطرق وهو بارد ويؤخذ من النحاس الوطني لعمل الأدوات الصغيرة، وحدث ذلك هيماً بين عام ٧٥٠٠ و ٦٥٠٠ ق.م في سايونو قرب ديار بكر، في جنوب شرقي تركيا وهذه كانت قريبة من السهول الآشورية ومن المصادر الآشورية للنحاس، ولقد حدثت عملية صهر النحاس من خاماته في كماتال هويوك الواقعة في أقصى غرب تركيا وربما كان ذلك بعد نحو ألف عام، فقد عرف استعمال النحاس بما فيه صهره مع أن ذلك كان على مقياس ضيق، وكان ذلك في أحد مواقع حسونة.

ولما لم يكن هناك أي مصدر من مصادر خامات النحاس في أي مكان قرب الموقع المشار إليه، فإنه من الواجب أن تكون آشور قد نالت نصيب السبق بالنسبة للتقدم إلى العصر المعدني، وذلك بالاتصال مع الشعوب الواقعة في أقصى الشمال في سفوح تلال طوروس.

لا نعلم إلا القليل عن مجتمع حسونة ولكن هناك أمراً نقوله بكل ثقة وهو: إن بنيتهم الاجتماعية كانت مؤسسة على العائلة، وقد استنتجنا ذلك من كون بيوتهم عبارة عن مساكن صغيرة منفردة ولم تكن بنايات جماعية، ونحن نعلم أيضاً أنهم كانوا ملتزمين بالملكية الخاصة، نظراً لأنهم كانوا يستعملون اختتاماً كان المقصد الأساسي منها تحويل الملكية.

وكانت مستوطنات حسونة محددة في المناطق ذات الطول الكافي للأمطار اللازمة لنمو الحبوب، ومع ذلك فكان هناك في الجنوب، حيث لم يكن هطول المطر كافياً، أقوام آخرون قد طوروا أساليب بدائية للري وتدعى هذه المجموعات

باسم سامراء، ويختلف علماء طبقات الأرض فيما إذا كان هذا الاسم متميزاً عن حصونة أم لم يكن، وإن أحد هذه المواقع الذي حُدد تاريخه عن طريق فحص الكربون بالأشعة السينية (أوالتحديد الزمني) حكما يحلو لعلماء الآثار أن يسموه عندما يسمحون للمرء أن يفترض بأنهم أصبحوا يقدمون تاريخاً مطلقاً) حُدد تاريخه بحوالي ٥٥٠٠ ق م بالنسبة لأقدم مرحلة، وبعد ذلك حدثت تطورات معتبرة فأصبحت إحدى المستوطنات السامرية ذات اتساع كبير بحيث جاز لنا أن ندعوها بلدة صغيرة.

تل حَلَف

لقد طُغى على مجموعات حصونة المحصورة في شمال العراق نوع من الثقافة الأخرى والتي انتشرت وعرفت باسم حلف، وكان انتشار حلف واسعاً ليس جغرافياً فحسب بل زمنياً أيضاً، إذ إنه غطى نحو ألف عام تقريباً ابتداء من منتصف الألف السادس فصاعداً.

ويقسم علماء الآثار هذه الثقافة إلى ثقافة مبكرة وثقافة متوسطة وثقافة متأخرة حلفية، ويشيرون إلى تطورات مرموقة حدثت بين ثقافة وأخرى، وكان لهذا الوضع علاقة بأغراضنا الحالية، فهو يدل أن ثقافة حلف لم تكن مجلوبة بشكل جاهز من أي مكان آخر بل إن المستوطنين بنوها بالتدريج وبنوا طريقة حياتهم بأنفسهم بشكل ميداني، ولقد ثبت هذا الاعتقاد وهو أن مستوطنات حلف لم تكن وليدة حصونة أو سامراء وذلك لوجود الفروق الظاهرة في أساليب صنع الفخار، وهناك شواهد إضافية تمل على أصول ثقافة حلف المستقلة، وهي وجود الطواهر المعمارية التي تبين أن أبنية حلف كانت ذات أشكال تشبه خلية النحل مركزة على أسس حجرية، ولم يكن هذا الشكل معروفاً في أي ثقافة أخرى قبل التاريخ، ولكن هائلة هذه الأبنية غير معروفة وغير أكيدة، مع أن بعض العلماء يفسرونها بأنها نوع من الأضرحة، ولكن ومهما كان عملها أو فائدتها،

فلن براعتها تظهر أن شعب حلف الأوثل كانوا من القاطنين الجدد إلى آشور،
وتثبيتها لهذا القول وجود بعض مستوطنات حلقية على أرض بكر.

إن أول موقع حلفي معروف في آشور هو الأرياشية على مشارف نينوى القديمة،
وهي الآن جزء من الموصل الشرقية، ولكن هذه المجموعات ككل بدأ انتشارها
تقريباً من مرمسين في مكليشكة عبر مديرة وآشور حتى حوالي السليمانية في
مكدستان شمالاً إلى ديار بكر وبحيرة فان، وهناك تفسير ممكن لهذا التوسع
هو أنه كان يعكس نجاحاً زراعياً وزيادة في عدد السكان، نظراً لأن كل
ظاهرة وجود أرض زراعية خصبة واقعة حول مستوطنة بعينها قد فسرت بكونها
ناتجة عن ارتفاع عدد السكان، وهكذا كان أولئك الذين لا يملكون أرضاً
يرحلون ليؤسسوا مستوطنات جديدة في أمكنة أخرى، وأصبح المستوطنون في
السهول الآشورية جزءاً من المجموعات المترابطة من الشعب، ولكن هذه الفكرة
لا تزال مجرد تخمين ولم تثبت بعد كحقيقة، أي: من الممكن أن تكون الثقافة
المشتركة الواسعة الانتشار بدلاً من ذلك قضية روابط تجارية واقعة فوق هذه
المساحة المرموقة من الأرض.

هناك بعض المظاهر في المستوطنات المتأخرة في حلف تعكس تحسناً متميزاً
في نوعية الحياة، مثلاً: أصبحت الأواني الفخارية المزخرفة ذات جمال لا بأس به،
ووجد هناك حُجُب سعيرية ولوحات مزخرفة وخزف مصفوفة من الحجارة، وكانت
الأعمال النحاسية متطورة، وكان في الأرياشية شبكة من الشوارع المرسوفة
بالحجارة، وذلك خدمة للسكان في الطقس الحار حيث يحترق البهل بالماء،
وكان فيها ورشة لعمل الأدوات الفخارية مما يدل على تطور الصناعة والتخصص،
ويظن بعض العلماء أنه كان في الأرياشية صانعو فخار متخصصون يصنعون
البضائع الضرورية للقرى القريبة من نينوى، وتبقى هذه الفكرة مجرد تخمين في
الوقت الحاضر دون وجود أي شاهد لتأييدها، ولكن هناك بالتأكيد إمكان
وجود مدن صغيرة قرب نينوى في أمكنة أخرى (ربما أرييل) خلال عصر حلف.

نقد لاحظنا وجود التجارة إلى جانب الزراعة الناجحة وكونها عاملاً معيئاً في ازدياد ازدهار حلف، وربما كانت الملاحظات التجارية لشعب حلف راجمة إلى الزمن الواقع قبل وصول هذا الشعب إلى آشور، وهناك اقتراح مفاده أن المنطقة التي أتى منها مستوطنو حلف كانت واقعة بين السهول الآشورية وبحيرة هان، وأنه مكان هذا الشعب يمارس التجارة في أوبسديان حيث كان هناك مصدر للتجارة إلى الغرب من بحيرة هان.

وإذا اعتبرنا هذه الفرضية فإن شعب حلف الذي استقر في سهول آشور كان من الممكن أن يحتفظ بعلاقاته التجارية مع المناطق الشمالية وبهذا يحصلون على الثروة كوسطاء في تجارة أوبسديان، وهناك عامل آخر تسبب في ثراء حلف وهو التجارة بالمنسوجات ويظهر هذا الرأي من وجود بعض نواح بارزة في الأواني الفخارية من الممكن أنها قد نُقلت عن المنسوجات فإذا كانت المنسوجات حقاً جزءاً مرموقاً من تجارة حلف فإن هذا ربما أثر على أساليب الحياة بشكل دائم في تلك المنطقة، وأسهم في زيادة أهمية تجارة المنسوجات في آشور فيما بعد.

ولكن ما هي أهمية هذه المراحل الثقافية في ما أصبح فيما بعد يعرف باسم آشور، إذ إنه من الصعب أن ندعو ونعد شعوب أم الدبجية وحسونة وحلف أنهم هم الآشوريون الأوائل، ولكن ومن جهة أخرى فإنه من الصعب أيضاً أن نظن بأن هذه الشعوب قد اختفت أو ذابت من على وجه الأرض ولم تترك أي أثر من الخلف أو التراث الثقافي، وهكذا يبقى الاحتمال الذي مفاده أن هؤلاء المستوطنين الأوائل كانوا بالإضافة إلى كثير من الطوائف التي أسهمت في خلق الآشوريين فيما بعد (مهما كان الزمن بعيداً) وأن بعض مظاهر الحياة التي قدموها قد استمرت.

عيد

لقد بدأ نوع جديد من الفخر في الظهور في آشور بعد حلف وقد انتشر هذا النوع في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط.

إنني مدّين بالاعتذار السريع لأنني بدأت بموضوع جديد بالحديث حول الفخار بدلاً من الحديث عن الشعب والناس. ولكن مهما ظهرت القطع الفخارية بشكل ممل، إلا أننا يجب أن نستعمل الشواهد الفخارية لأنها تمثل علامة تفسر وجود مجموعات ثقافية خاصة. وإن الثقافة الجديدة (أو المجموعات) التي تتميز بوجود نوع جديد من الفخار تدعى ثقافة عبيد. ولا شك أن كلا الفخار والثقافة المرافقة تطورت في أول الأمر في جنوب العراق في اقتصاد مرافق للري. وأن عدد وحجم مجموعات التلال التي تدل على وجود مستوطنات قديمة تظهر وجود زيادة لا بأس بها في عدد سكان جنوب العراق، وذلك بسبب الهجرة من جهة، ومن جهة أخرى الزيادة الطبيعية في عدد السكان الأصليين نتيجة لازدهار الزراعة التي أصبحت ممكنة عن طريق أدوات الري الفعالة.

ولقد انتشرت ثقافة عبيد التي كان الفخار عاملاً في وجودها انتشاراً واسعاً ابتداء من الخليج الفارسي إلى سورية ولا يمكننا القول بالتأكيد إن ذلك قد حدث بسبب الانتشار الثقافي أو أنه قد ترافق مع الهجرات الحقيقية، مع أن زيادة الفخار في حلف وعبيد في بعض المواقع يصوب الرأي الأخير.

من كان شعب عبيد ياترى؟ إن هذا سؤال خلاف في جدلي. ففي جنوب العراق وجدوا حلقة واحدة في سلسلة المرتحل الثقافية تدعى أحياناً أريثور أو حاجي محمد أو عبيد، أو أوروك أو جمعت نصر مع أن الميول المتداولة بين علماء الآثار اعتبار الاسمين الأولين من هذه الأسماء هما الأسماء أو الوجوه الأولى لعبيد، وأن جمعت نصر هي آخر وجه من وجوه أوروك، وقد استعملنا هذا الاصطلاح البسيط هنا. إذ إن فترة أوروك متصلة بالسومريين في الأزمنة التاريخية، وفي هذه الفترة نجد بعض البدع المؤثرة مثل نشوء المدن أو فن المعمار التذكاري. ومع ذلك يواجهنا الآن الجزء الأعرض من المعضلة، فهل كانت ثقافة أوروك نتيجة لقدوم (أو إصرار) في اظهار النفس) السومريين الذين يمثلون مجموعة عرقية جديدة ذات ميول جديدة، أو هل هي تمثل فترة نوعية إلى الأمام تمثل تطوراً مستمراً. ففي الحالة الأخيرة فإن شعوب

المراحل المتتابعة في جنوب العراق وعبيد في جميع مراحلها من الممكن أن نعدّها من الشعوب السومرية الأصلية أو الأولى.

وإن زيادة السكان المرتبطة بمبيد تقدم لنا إمكان دخول نفوذ جماعة عرقية جديدة حتى في الحالة الأخيرة. ويبدو أنه من المؤكد أن هناك لغة غير لغة السومريين التي كانت سائدة في بداية الألف الثالثة وكانت معروفة هناك قبل عام ٢٥٠٠ ق.م، وذلك من أسماء الأمكنة التي ظلت باقية في جنوب العراق. وهذا يشير إلى أن السومريين كانوا فعلاً قادمين جديداً خلال الألف الرابع أو أنه على الأقل كانوا مجموعة متميزة بدأت تستقل نفوذها الثقافي، وجعلت هذا النفوذ معروفاً حينذاك، ولكن هناك شواهد ملموسة تزيد وجهة النظر التي مفادها أن مجموعة عرقية خاصة قد لعبت دوراً مرموقاً في خلق ما يدعى بالثقافة السومرية، مع أن هذا الرأي لا يوافق عليه علماء الآثار الشباب الذين عدوا هذا الرأي شوكة في حلوقهم، وعدوا أنه من الظلم اعتبار تفوق أي مجموعة عرقية على أخرى.

فهل كان العبيديون سومريين أصليين أم لم يكونوا؟ فقد كان وصولهم الطارئ إلى السهول الآشورية (أو بدلاً من ذلك انتشار نفوذهم الثقافي) قد جلب تطورات مهمة وخصوصاً في التجارة. هذا وإن اختفاء ثقافة حلف قد رافقه الانهيار في شبكة تجارتهم التي كانت واسعة الانتشار. وربما كانت هذه التجارة سبباً لهذا الانهيار. ولكن الاتصالات التجارية الواسعة التي مهزت نموذج الحياة الذي طفى على أشور فيما بعد، ولخصه تطور مرة ثانية في فترة عبيد الأخيرة، وهذا كان يشمل الروابط مع شمال سورية بالنسبة للخشب وفي المناطق الجبلية بالنسبة للنحاس الذي بدأ يلعب دوراً هاماً بعد أن تطورت تقنيات صب النحاس وسكبّه في قوالب. وإن اعتماد أهالي ما بين النهرين على هذه المواد الخام المطلوبة من تلك المناطق أصبحت فيما بعد العامل المهم في استراتيجية آشور الاقتصادية والمسكرية في المستقبل.

فجر التاريخ

لم تكن التطورات خلال بلاد آشور خلال فترات عبيد وما تلاها أي بين عام 1500 وعام 750 ق م واضحة بالقدر الذي نتمناه. إذ إن زيادة حجم وكثرة المواد المعاصرة الآتية من أقصى الجنوب قد أبرزت هذه الحقيقة. ففي جنوب العراق تُظهر الفترات التالية للعبيدية المعروفة أثرياً باسم أوروك والسلالات الملكية الأولى، تظهر تطورات جديدة من نوع رائع ملفت للنظر. وهنا نقابل بداية تلك المجتمعات المعقدة التي ندعوها المدن ذات البنى ذات المنظمة للهياكل والاختصاصات الفائقة التطور والسكنية، أي جميع النواحي البارزة والمعالم المرافقة للصومريين. وسرعان ما بدأت هذه التطورات بالتأثير على أمكنة واقعة في خارج جنوب العراق. مثلاً في موقع يدعى حبويه الكبير الواقعة على الفرات في سورية. وهناك خرائب مدينة رئيسة عاشت قبل عام 3000 ق م وهي تظهر روابط لا يتطرق إليها الشك، مع فترة أوروك في جنوب العراق. ولقد انتشرت تطورات أوروك والسلالات القديمة في أعالي نهر دجلة مع أن تأثيراتها لم تظهر في آشور مدة عدة قرون، وبسبب هذا التخلف أو التأخر الزمني عليها أن نفتحه عند إعادة تصديرتنا، ولبنس لدينا ما يبرر ملء شواهدنا القليلة النادرة حول آشور خلال هذا الزمن بأخذها من المعلومات الوافية التي تشمل في حوالي نهاية هذه الفترة والوثائق المكتوبة التي لدينا والمختصة بـ سومر.

ومع ذلك يمكننا رؤية بعض تلك الاتجاهات التي كانت تطور بها الأشياء في آشور خلال هذين الألفين من السنين. فقد أضحت المستوطنات أكبر حجماً، لتصبح مدناً حقيقية وبمضها كان معاصراً بالأسوار لحمايتها. والاستنتاج الواضح كان خطر تمرض هذه المدن للهجوم المركّز من الخارج الذي أظهر أن الحرب أصبح من معالم الحياة، وكان لهذه الملامح تأثير على البنى الاجتماعية. فقد كانت عمليات تحصين المدن تشمل التخطيط الاستراتيجي والتكتيكي، وهذا يلزم ظهور زعماء الحروب القادرين على القيام بمهام القيادة الناجحة، وكل شيء ضروري في مصطلحات التنظيم الاجتماعي وترتيب الطبقات الاجتماعية. ولقد وجد

أحد الاختتام من تلك الفترة وهو يصور أحد مظاهر الحرب، أي: مثلاً صف من الأسرى، وإن الاستيلاء على الأسرى في الحرب يمثل بداية مؤسسة المييد والعبودية، مع وجود مجموعة اجتماعية معرومة من الحقوق، وإن تفسيرات هذا الختم لا يتطرق إليها الشك، ومع ذلك فهناك دلالات أخرى عن تطور الاختلافات الطبقية. وهكذا بدأت الينيائات المخصصة للعبادة تظهر وكان بعضها يؤلف مساكن تخص أقلية من الناس ذات ثروات أو قوى سياسية أو كليهما، وكانت القبور تقدم صورة مشابهة نظراً لأن قلة من هذه القبور كانت تحتوي مدافن فخمة لم تكن متوفرة للكثيرين.

ولكن التطور في بناء الأبنية الدينية غالباً ما يدل على تطور في المجتمع ككل. وهكذا فإننا نرى في معظم المواقع الآشورية خلال تلك الفترة المعابد التي تظهر زيادة متواضعة في الثروات والحجم. وهذا منافض للوضع الذي كان سائداً في سومر المعاصرة. فهناك ظهرت أبنية المعابد المفلتة للنظر بحيث أصبحت هذه في أواخر الألف الرابع النفاط الرئيسية التي تدل على الحياة الاقتصادية فضلاً عن الحياة الدينية. ولكن رغم هذه التفاضات العامة، كان هناك بعض الأمكنة داخل منطقة آشور حيث كان للتفوذ السومري تأثيره في بناء المعابد، وهناك اثنان من هؤلاء وجدت في تل باري في أعالي الخابور وتيب جاورا إلى الشمال الشرقي من نينوى، فضلاً عن سلسلة من المعابد الرائعة التي تشبه مثيلاتها في الجنوب شهاباً تماماً. وفي الواقع أنها قد تأثرت بهؤلاء ولكن يبقى ذلك ضعفاً شاداً، وعلى العموم كانت المعابد خلال هذه الفترة أقل بهاءً من القلاع، وهناك تمييزان لهذه الظاهرة. أحدهما أن الزعماء العلمانيين كانت لهم المقتلة الأرفع في المجتمع تقوق منزلة الكهنة، والتفسير الثاني هو أن زعماء الشؤون العلمانية هم نفس زعماء الكهنة، وأن رجال الطبقة الحاكمة قد استعملوا الأبنية العلمانية مراكز للإدارات الاجتماعية والاقتصادية، ولذلك لم يكن هناك من حافز لنمو فكرة أبنية المعابد البارزة اللافتة للانتباه.

ولقد استمر تطوير التجارة، ويظهر هذا بوجود الأشياء المستوردة في القبور مثل الودع الآتي من المحيط الهندي، أو الأشياء المصنوعة من المواد المستوردة مثل العقيق الأحمر وحجر الجعشت أو اللازورد ومصدر الأخير هو أفغانستان. وهناك شاهد آخر على تقدم التجارة، إذ تظهر الأختام من فترة أوروك ومن تيب جاورا صلات الود والمحبة مع أولئك السحكان من مستوطنتين معاصرتين في إيران، وقد قيل إن هذا يعني ويدل على نفوذ متبادل. ولما كان الفرض الرئيسي من الأختام هو وضع علامات على البضائع، فيصبح هذا دلالة قوية على سفر التجار من آشور إلى إيران، ويؤيد هذا الرأي أن تيب جاورا قد انحطت وتأخرت أهميتها في أواخر عصر أوروك مع حدوث توقف في العمل في إحدى المواقع الإيرانية المذكورة، وهي جيان ويمكن أن نمزو كلا هاتين الحقيقتين إلى توقف الطريق التجارية التي كانت قد تسببت بزيادة أهمية هذين السحكان.

وتشير الشواهد من تل براك أنه قد أضيف إلى المعبد بعض الفخاتين وصانفي الذهب، وهذا يدل على أنه قد بدأت في آشور نماذج منتشرة للتخصصات المهنية، ومع ذلك ينبغي علينا الحيلة في استنتاجاتنا من هذه الشواهد نظراً لأن تل براك كانت خاضعة لنفوذ الجنوب السومري فلم يمكن من الضروري أن يكون هذا منطبقاً على بقية آشور، ولكي نرى كيف حدثت المرحلة التالية من التطور في آشور فإننا نحتاج لدراسة خلاصة مقتضية للحوادث في جنوب العراق خلال النصف الأول من الألف الثالث ق. م.

التطورات في سومر

بعد ظهور المدن ظهر في سومر وبمحاذاة الفرات وإلى حد ما بمحاذاة دجلة عند من أول المدن، وكانت مستقلة ولكنها متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً، وظهرت سلالات وراثية ولكن الدول القوية مثل كيش وأوروك بدأت تمارس بعض أشكال الحكم على الآخرين، واتخذ أولئك الحكام لقب الملوك (ومعناها

الحربي الرجل العظيم) وإن الزمن الذي علا فيه شأن هذه التنظيمات السياسية يدعى فترة السلالات الأولى (مع تقسيمات ثانوية متعددة).

وفي أثناء فترة السلالات الأولى ظهر بعض الأقبام الذين أثبتوا وجودهم بالتدريج إلى جانب السومريين، ولكنهم كانوا من عناصر ثقافية أجنبية أخرى، وكانت هذه هي المجموعة الناطقة باللغات السامية هم الذين نعرفهم باسم الأكاديين، وكان أصلهم وموطنهم في الصحراء السورية إلى الغرب من منطقة ما بين النهرين، وقد وصلوا بعد عمليات طويلة من الهجرة (وربما بدأوا من فترة سابقة لعهد السومريين) فلم يبدؤوا بفزو حربي مفاجئ.

أسرة أكاد

في أوائل القرن الرابع والعشرين ق. م استطاع أحد أولئك الأكاديين المعروف باسم سرجون الذي كان يعمل أولاً في خدمة أحد ملوك السلالة الرابعة في كيش، استطاع أن يحصل على الاستقلال، ونفى لنفسه عاصمة تدعى أكاد وسرعان ما استطاع سرجون أن يوقع الهزيمة في جميع الحكام المحليين، فأصبح ملكاً لجميع أرجاء ما بين النهرين الجنوبية، ويمكننا أن نحدد تاريخ حكمه ما بين (٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م) مع أن بعض العلماء الآخرين يخالفوننا التقدير بعدة عقود على أساس اختلاف التقديرات والحسابات.

وإن أهمية كل ذلك بالنسبة لآشور هي أن سرجون أظهر نفسه كأول رجل اميريالي، فقد قام آخر ملوك السلالات السومرية بهجوم على مناطق أعالي الفرات وربما وصل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، إلا أن سرجون تابع ذلك التوسع بقيامه بحملات واسعة عبر سورية حتى البحر الأبيض المتوسط وجبال أمانوس وربما فيما وراء تلك الجبال، حتى اجتاز أعماق آسيا الصغرى، ولكنه لم يكتف بذلك بل هاجم واستولى على منطقة أخرى تدعى سوبارتو وكان هذا يعني الأراضي الشمالية إلى الشرق من سورية حيث كان الجزء الأوسط منها هو ما يدعى آشور.

وهكذا أصبحت آشور جزءاً من إمبراطورية أكاد ، ولقد استنتجنا هذه المقولة من نقش وجد على رأس رمح من النحاس اكتشف في المدينة ينص على ما يلي:

((مانشتوسو ، ملك كيش: أزورو خلدته صنع هذا الإهداء إلى الإله)).

وكان مانشتوسو هو حفيد مرجون والحاكم الثالث في تلك السلالة وكان لقبه ملك كيش يدل على كلمة إمبراطور ، وكان (أزورو) واحداً من عدة أتباع تحكم باسم مانشتوسو وتابعة له.

ولقد سيطرت أسرة أكاد على نينوى أيضاً وهي إحدى المدن الرئيسية في آشور ، ونعلم هذا من قناع برونزي يخص أحد ملوك أكاد ، وهو قناع لنينوى من سلالات خاصة مع مانشتوسو عرفت من نقش يعود إلى ملك متأخر ، وهو يسجل أن المعبد الذي كان يعبد بناءه هذا الملك قد كان مانشتوسو قد بناه ، وهكذا وعلى الأقل في حكم مانشتوسو وربما أثناء فترات طويلة من حكم الإمبراطورية الأكادية ، كانت آشور ونينوى جزءاً من كيان سياسي متكامل يدل على وضع ربما حدد الخطوة الأولى تجاه إنشاء مملكة موحدة ، وهي مملكة آشور ، مع وجود هاتين المدينتين كمركزين جنوبي وشمالي من مراكز تلك القوة.

نشوء البلدات والمدن

عدا عن شواهد الارتباط مع الإمبراطورية الأكادية ، لا نعلم إلا القليل بالضبط عن آشور قبل نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، مع أن علم الآثار قد ملأ تلك الصورة مثلاً ، نعلم الآن أن عدداً من البلدات كانت تنشأ في آشور في منتصف الألف الثالث ق م ، وقد وجدت إحدى هذه البلدات في تل تاي ، اكتشفت حفرياتها عام ١٩٦٧ م ، وفيما يمد من قبل الدكتور (جوليان ريد) من المتحف البريطاني ، وكان هذا المركز المزدهر الواقع إلى الجنوب من سلسلة جبال منجار يتألف من ١٢٠ فدانا بامتداد كثيف مع وجود منازل من الحجر والطوب ومسور خارجي

وشوارع ثم قلعة في الوسط، ويقدر عدد السكان بعشرة أو خمسة عشر ألف نسمة على الأقل.

ولكن يبقى أمامنا عدد من المشكلات بالنسبة لآشور في الألف الثالث ق.م: فهناك مثلاً السؤال الأمامي حول وجود ذلك الكيان الذي نستطيع أن ندعوه آشور، وكما رأينا فقد مضت فترة كانت آشور ونيوى تحت حكم أكاد، ولكن هذه العلاقة قد أتت من الخارج ولم تكن وحدة عضوية، إذن متى كان هناك لأول مرة وحدة مستقلة وطنية سياسية مؤسسة من ثلاث مدن رئيسية وهي نينوى وآشور وأربيل؟

إلى أي حد كانت ثقافة تلك البلاد ذات عنصر وطني مميز؟ وإلى أي حد قد استعيرت تلك الثقافة من الجنوب أو (بالنظر لما بدأنا في تعلمه حول الحضارة المبكرة في سورية) من الغرب؟ وماذا كان التركيب العرقي لتلك البلاد؟ وهل كان ذلك التركيب موحداً على صورة واحدة أم كان هناك مناطق متميزة متصلة بهجرات مشابهة لجماعات خاصة؟ وما هي اللغة التي كانت مستعملة؟

يمكن الإجابة على بعض هذه الأسئلة بشكل تجريبي وبعضها لا يمكن ذلك أبداً، هذا وإن كثرة الشواهد التصويرية القادمة من الجنوب تجعل جهلنا أسوأ وتزيد الطين بلة، ولكن هناك بعض الإشارات التي تقدم إجابات لبعض هذه الأسئلة على الأقل، إذ إن إلقاء نظرة على موقع آشور ربما أعطت بعض الدلالات لمعرفة أي نوع من الناس قد عاشوا هناك، ولماذا كان ذلك، فقد بُنيت على صحرة من الحجر الرملي مشرفة على الضفة القريبة لنهر دجلة، وإن هطول الأمطار لا يخدم إلا بصفة هامشية بالنسبة للزراعة في تلك المنطقة دون اللجوء إلى الري، ولطالما حدث نقصان وقحط في المحاصيل الزراعية، إذ إن الاستنتاج المعقول الوحيد هو أن الشعب الذي استقر في تلك الفترة لأول مرة كان يبني قاعدة من الممكن الدفاع عنها، ذات إمدادات دائمة من المياه، وقريبة من المراعي، ولكن هذا الشعب لم يكن مهتماً بالزراعة، وهذا يشير إلى أنهم كانوا رعاة من الجزيرة، كانوا في حالة منظمة بشكل كاف في مجتمع بحاجة إلى قاعدة رئيسية دائمة،

وأن أول المستوطنين قد أتوا من الجزيرة يظهر من كيون وقوع آشور إلى الغرب من نهر دجلة ، فالمستوطنون يتوقفون عند النقطة حيث يصلون إلى النهر الرئيسي.

وبالمقارنة نجد أن نينوى واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، إلى أقصى الشمال على مرأى سفوح التلال في طوروس، وهذا يوحي أنها قد سكنت في الأصل من قبل أناس خرجوا من التلال في الجهة الشمالية الشرقية، ولكن مركز أربيل يوحي بأصل مشابه، وأن التقاليد الدينية تبدو بأنها تصل نينوى بأربيل ولكنها تفصلها عن آشور.

وكانت الآلهة التي تترافق مع المعبدين هي الآلهة عشتار، وقد ذكرت عشتار نينوى وعشتار أربيل في مناسبات عدة واعتبرت إلهتين وطنيتين رئيسيتين، ولكن الإله المرافق لمدينة آشور كان إلهاً ذكراً يحمل نفس الاسم آشور، ولا نعلم بعد كثيراً حول التاريخ المبكر لأي من المدن الثلاث الرئيسية: آشور، ونينوى، وأربيل، مع أن هذه المدن قد تأسست منذ عهد طويل منذ عام (٢٥٠٠ ق.م) وتحتوي التلال التي تضمهم شواهد نستطيع أن نتقصى تلك التطورات في آشور لو كان لدينا النقود والوقت، ولسوء الحظ فإن أربيل ظلت غير مكتشفة ، ومع أنه قد حصلت نشاطات أثرية لا بأس بها في آشور ونينوى إلا أن هناك صعوبات تقنية حددت المعلومات حول الفترات المبكرة، وقد بدأ استكشاف نينوى بشكل متقطع منذ عام (١٨٤٢) ولكن الجزء الأعظم من نشاطات من هذا النوع قد تركزت بالقصور التي بُنيت في عصر الإمبراطورية في الألف الأول، وكان الاستثناء الوحيد هو السبر العميق الذي حُفر من قبل M. E. (سمي فيما بعد السيد ماكس مالمون عام ١٩٢٢) الذي وصل إلى الأرض المبكر بعد حفر تسعين قدماً أسفل قمة التل، ولكن وبينما أعطى هذا العمل تنابع الأواني الفخارية رجوعاً إلى أزمنة ما قبل التاريخ، وأظهر أن هذا التركام قد كان مسكوناً نحو عام (٥٠٠٠ ق.م) إلا أنه لم تقدم سوى معلومات قليلة نوعية حول نمو تلك المدينة وتقدمها اعتباراً من كونها مستوطنة حتى أصبحت مدينة رئيسية.

آشور الأولى

تأتي معلوماتنا حول آشور الأولى من معبد مكرس للإله عشتار، وقد ثبتت صحة هذه المعلومات بعد عام (٢٨٠٠) ومن الواضح أن آشور في ذلك الوقت كانت عبارة عن مركز ديني تحتوي على عدة أبنية أثرية، على الرغم من أنها كانت مصنوعة من الآجر، وكان الدين يحتل مكاناً مرموقاً في البنية الاجتماعية والاقتصادية، وليس من الضروري أن نستنتج والحالة هذه أن القوة الدينية كانت منفصلة عن القوة المدنية على ضوء الألقاب الدينية ووظائف الملوك الآشوريين الذين سوف نقابلهم فيما بعد، بل إن كلتا القوتين كانتا متشابكتين.

هذا وإن اللقى التي وجدت في المعبد القديم لا تخبرنا إلا القليل حول الحياة في الألف الثالث ق.م، وبين هذه توجد نماذج من الفخار للمنازل، ومع أنه كان لتلك النماذج بعض الوظائف الدينية إلا أنه من المعقول أن نفترض أنها كانت نماذج لأنواع حقيقية من المساكن، وأن ما يظهر منها هو منزل ذو سقف منبسط مؤلف من طابقتين من الأمام وطابق واحد من الخلف.

وهذا يوحي أن المسكن النموذجي كان مؤلفاً من طابق واحد فيه حجرة واحدة عليها حسب ما تذكره التوراة، وهذه الحجرة مبنية فوق المنزل من الأمام، وهناك نموذج لنفس الشكل يظهر ثلاثة طوابق أي: حجرة علوية واحدة مبنية فوق بناء مؤلف من طابقتين، وهناك في المعبد القديم تماثيل يظهر بأنها سومرية تعود إلى فترة السلالات الأولى، وهذا لا يتطلب منا أن نفترض أن المجموعة الحاكمة في آشور كانت من السومريين ولكنها تظهر أنه قد كان هناك نفوذ سومري ثقافي قوي.

وقد وجد نقش نافر من الجص يظهر الآلهة وهي مرتدية جواهرها حتى أذنيها وجيدها ولسكنها عارية عند ثدييها وسررتها وهي مضطجعة على الفراش في سريرها، وهذا يظهر في الوقت نفسه وجود مراسم وطقوس تعبدية جنسية على شرف الآلهة ويظهر أيضاً استعمال السرير ويظهر هذا السرير بشكل لوح منبسط دون أرجل.

وهناك معلومات أخرى حول آشور الأولى يتقدمها اسم آشور ، فبالإضافة إلى الاسم المعتاد إلا أنه يشار إليه باسم بالتيل مع أن هذا الاسم الأخير قد حظي بتفسير سومري فيما بعد من قبل علم اشتقاق اللغة السامي إلا أنه لا ينتمي إلى السومرية ولا إلى السامية ، والحقيقة أنه ينتمي إلى لغة تابعة إلى طبقة قديمة من السكان كانت تستعمل حرفة (el) في نهاية بعض أسماء الأماكن مثل كلمة بابل أو أربيل أو كوربيل ولقد فسرت هذه الذي (el) بشكل مفلوط بأنها تشير إلى اسم الإله باللغة السامية. ولكن هذا الاسم غير السومري وغير السامي يوحي أنه قد نشأت مستوطنة هناك قبل أن يستوطن السومريون أو الساميون ويصبحون مهيمنين عرقياً في تلك المنطقة.

الفصل الثاني

ملوك آشور الأوتل

تنتهي فترة ما قبل التاريخ وتبدأ الفترة التاريخية عند كتابة المصادر، وأما بالنسبة لآشور فقد وصلت تلك المرحلة في النصف الثاني للألف الثالث ق. م أي بعد نصف ألف بالنسبة لوجود سومر في الجنوب، إذ إن علم الآثار الملوكي في إقليم ما قبل التاريخ لم يعد كذلك مع أنه يستمر في لعب دور حيوي، وذلك لأنه ترك لنا نقوشاً تعتمد عليها إعادة بناء التاريخ بصورة منتظمة، وبالنسبة لهذه الفترة وبالنسبة للألوف التالية من المئتين، فإن هذه النصوص على اختلافها في محتوياتها أو لغتها تمتلك شيئاً واحداً مشتركاً، فهي كلها مكتوبة بالخط المسماري، وفي هذا الخط تضغط الحروف في أقراص صغيرة من الغضار أو تقش على أنصاب من الحجر أو المعدن، وأما في محتوياتها فإنها اقتصادية ودينية وتاريخية أو قاموسية معمجة أو واحدة من الفصائل الأخرى، وبالنسبة للغة فمع أن اللغة السامية الأكادية كانت أكثر استعمالاً إلا أن هناك عدة لغات استعملت في النصوص، ولكن كان لجميع هذه النصوص جذورها القديمة حيث اخترعت الكتابة قبل عام ٣٠٠٠ بوقت قصير.

قائمة ملوك آشور

نعود بعض هذه النصوص المسمارية مثل النقوش الموجودة على بعض الأشياء المكسرة للمعابد مباشرة إلى الزمن الذي كتبت فيه، وهناك نصوص أخرى أكثر أناقة تحفظ فيها المعلومات حول الحوادث قبل تاريخ تأليفها.

وهناك وثيقة واحدة من النوع الأخير تبدو أنها تسهل عملنا في تأليف أطر التاريخ الآشوري القديم، فالوثيقة المذكورة تدعى عادة قائمة ملوك آشور (وهي موجودة بعدة نسخ) وفيها يذكر أسماء الحكام اعتباراً من الألف الثالث حتى القرن الثالث ق. م وعندما تذكر هذه الوثيقة الملوك بتواريخ وجودهم وتضع

افتراضات معقولة للملوك ترجع إلى نحو ٢٥٠٠ قم ولتكن هناك أسباباً لعدم استعمالنا لها بهذا الأسلوب البسيط.

إن أول ملك آشوري معروف من النقوش التي صنعها انغمه هو شمسي آداد الأول (١٨١٢ - ١٧٨١) إن هذا الملك هو الذي يقدم لنا أول نقطة ثابتة معينة بالنسبة للتواريخ الآشورية، نظراً لأنه تواكب مع تاريخ حمورابي في بابل الذي كانت تواريخه معروفة، وقبل الملك شمسي آداد، تذكر القائمة ثمانية وثلاثين ملكاً أو ملوكاً فرعونيين، وهذه الأسماء موضوعة بشكل مجاميع، فالسبعة عشر الأولى لخصت حياتهم بأنهم ملوك يعيشون في الخيام، وبعدها عشرة ملوك وصفوا بأنهم من الأجداد، وبعدها ذكرت مجموعتان كل منها تحتوي على أسماء ستة ملوك، وبعدها شمسي آداد.

ويلاحظ القارئ النبيه أن أعداد الملوك في قائمة الملوك (قبل شمسي آداد) تصل إلى ٢٩ ملكاً، مع أنه قد ذكر أن الملوك قبل شمسي آداد كان عددهم ٣٨، وهذا التناقض وقع لأن نقص الاسم ذكر في نهاية كل مجموعتين وهذه مصادفة تدل على أن بنية وأصل هذه القوائم تستحق فحصاً واستقصاء أكثر.

إن المجموعة الأولى وهي أسماء الملوك الذين كانوا يعيشون في الخيام هي قائمة صحيحة ذات ترتيب تاريخي، نجد فيها أن الملكين الأخيرين يدعيان أشبها وأبهاشال، ولتكن المجموعة الثانية وهي مجموعة الملوك الذين كانوا أجداداً قد رُتبت بشكل مختلف فالأخير في الخط ذكر أولاً، وكان يتبع كل ملك اسم والده وبعده ذلك جدّه بهذه الطريقة.

امنو ابن ايلو كبكبكي

ايلو كبكبكي ابن يازخور ايلو

يازخور ايلو ابن ياكاميني

وبالنسبة لمجموعة ياكاميني وستة أجيال أخرى قبله كان أقدمهم زمناً هو: أبهاشال بن أشبها.

وهكذا وفي هذه المجموعة الثلثة ذكرت أسماء الملوك اعتباراً من الأخير إلى الأول، ولكن أياشال كما هو الحال في القائمة الأولى يذكر في المؤخرة مع أن هذا الترتيب يجعله أقدم المجموعة، وبهذه الطريقة أصبح أياشال يخدم كهمزة وصل بين القائمتين مع أن الفروق بالشكل بين القائمتين تومي بأن لا علاقة بينهما.

إن هذه الترتيبات الاصطناعية غير الطبيعية تثير الشك حول طبيعة قائمة الملوك الآشوريين بالنسبة لفترة الأولى، وهكذا فسوف نمود إلى الأرض الصلبة لنرى ما تقوله الوثقة حول شمسي أداد.

وبالنسبة لمعظم الملوك هناك تفاصيل وافية، أما بالنسبة لشمسي أداد فإن القائمة تطلي تفاصيل خاصة بشكل استثنائي عندما تصف الظروف التي ارتفع بها إلى السلطة، وهنا نقرأ في الجزء المختص بهذه القضية مايلي:

شمسي أداد ابن إيلوككبكي في زمن نارام سن (أحد ملوك آشور القدماء) ذهب إلى كاردونياش (أي: بابل) ثم رجع من كاردونياش، واستولى على بلدة إيكالاتو وبقي في إيكالاتو مدة ثلاث سنوات، ثم خرج من إيكالاتو وأزال إيديشوم ابن نارام سن عن العرش واستولى على العرش.

ولا يخفى أن شمسي أداد استولى على العرش في آشور بعد إزالة ممثل أسرة حاكمة موجودة كانت هي الأسرة الآشورية الوطنية، مما يوضح أن شمسي أداد كان مقتصباً للسلطة، وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال الذي يطرحه المعاصرون فضلاً عنّا نحن وهو: ماذا كانت خلفية شمسي أداد؟ والجواب الذي تقدمه قائمة الملوك: إنه كان ابن إيلوككبكي.

ولكننا صادفنا إيلوككبكي قبلاً في تلك القائمة فقد كان هو والد أمهنو الذي كان هو الأول المذكور ولكنه كان الأخير بالنسبة للملوك الذين كانوا أجداداً، وهكذا يصبح السؤال: أجداد من؟

ومن الممكن الإجابة على هذا السؤال بشكل موثوق: فقد كانوا أجداد شمسي أداد الذي أدخل بشكل ذكي إلى قائمة آشورية من الحكام بقصد تدعيم

سلطاته وجعلها شرعية أي جعل سلطة المقتضب شمسي أداد شرعية، وهكذا بإضافة اسمه عن طريق أبياشال إلى قائمة الملوك القدماء في آشور الذين حكموا قبل الأسرة التي خلفها.

فقد استطاع شمسي أداد أن يتقدم وكأنه وريث الحق لتولي عرش آشور من أجداده الذين حكموا قبل الأسرة التي خلفها.

وهنا نود أن نمود بشكل مقتضب إلى المجموعة القديمة للحكام المزعومين في قائمة الملوك الآشوريين وهم السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن لدينا قائمة بأسماء أجداد الملك حمورابي البابلي الذي كان معاصراً لشمسي أداد، وفي هذه القائمة نجد اثني عشر اسماً في قائمة حمورابي متطابقة مع الاثني عشر اسماً من أسماء الملوك السبعة عشر الذين كانوا يعيشون في الخيام وهم من قائمة الملوك الآشوريين، والآن نلاحظ أن عائلات ككل من حمورابي وشمسي أداد كانت من أصل عموري وكان العموريون شعباً سامياً أتى إلى منطقة ما بين النهرين من الصحراء الغربية في وقت قصير قبل أو بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. وهكذا فإن الأسماء الاثني عشر المشتركة بين الآشوريين والبابليين ينبغي أن تمثل بعض الرؤساء والشيوخ من عهد البدو الرحل، قبل أن ينضم العموريون إلى مجموعات منفصلة، وقبل أن يستقروا في منطقة ما بين النهرين، وإن يلو كيكيمي والد شمسي أداد يتصل مع هذا الخط من خلال أبياشال بن اشببا، وبهذا يصبح شمسي أداد هو السليل المباشر المنحدر من خط أقدم للزعماء البدو الرحل من الأزمنة القديمة.

وهنا لا بد أن نذكر كلمة عن الأسماء الخمسة في مجموعة السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن بعضهم ربما كانوا هم الحكام الحقيقيين القدماء الذين حكموا آشور، واحدهم الذي كان حاكماً حقيقياً هو اشببا والد أبياشال نظراً لأن هناك إحدى الروايات المستقلة عن قائمة الملوك الآشوريين تذكر أنه كان قد بنى واحداً من أقدم المعابد في آشور، وإن هذا الاتصال مع إحدى المجموعات للزعماء العموريين من البدو الرحل المفترض أنهم من

أجداد شمسي أداد ، ولكونهم الحكام الحقيقيين لآشور منذ الأزمنة القديمة ككل هذا يخدم في إعطاء شمسي أداد صلة (ولو أنها زائفة) مع ملوك آشور تعود إلى المهود التي امتد بها حكم ملوك آشور الحقيقيين.

وهكذا فنحن لا نستطيع أن نثق بقائمة الملوك الآشوريين وبقيمتها كقائمة صادقة موثوقة لتمام جميع الملوك في آشور قبل شمسي أداد ، وهذا يوصلنا إلى سؤال عمن كان الحكام الحقيقيون القدماء في آشور؟ وفي معالجة هذه المشكلة علينا أن نلاحظ أن كثيراً من الشواهد القديمة لدينا إنما تعود إلى مدينة آشور بالذات أكثر من عودتها إلى آشور بشكل واسع ، ومع أن نفس الاسم يستعمل لمدينة آشور وبلاد آشور في اللغة الأكادية ، إلا أنه جغرافياً لم يكن الاسمان متماثلين ، فالأرض التي حكمتها مدينة آشور كانت أصغر مما نفهمه من بلاد آشور.

وعدا عن اشتغال قائمة ملوك آشور لبعض الأسماء القديمة الذين لم يكونوا في أي وقت من الأوقات ملوكاً لآشور ، إلا أن هذه القائمة تفضل ذكر أسماء آخرين كانوا كذلك ، وإن أول هؤلاء المروطين لدينا كان شخصاً اسمه (إيتي) وهو مذكور في نقوش مقتضبة على قطعة من الألواح تعود إلى الفترة الأكادية القديمة ٢١٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م. ومفادها مايلي: إيتي: الحاكم ابن إيتن لآبا قد كرس هذا النقش إلى الآلهة إيتن من غنائم (جاسور).

وكانت جاسور هي الاسم القديم لإحدى المدن عرفت فيما بعد باسم نوزي قرب كركوك ، وهكذا يخبرنا هذا النقش أن منطقة كركوك لم تكن في ذلك الوقت جزءاً من مملكة آشور ، بل كانت عبارة عن دولة مدينية منفصلة ومعاوية ، وهذا الانفصال لم يكن قضية عرقية نظراً لأن النصوص التي وجدت في جاسور تظهر أنه عند الحكم عن طريق الأسماء الخاصة الموجودة خلال الفترة الأكادية القديمة (وليس في وقت متأخر) فإن أكثرية السكان في تلك المدينة كانوا من الساميين كما هو الحال لدى سكان آشور ، ونظراً لأن آشور كانت لا تزال مستقلة ، عندها ربما يستتج المرء أن المدينتين الرئيسيتين نينوى وأربيل

وكلاهما بمهدتان عن جاسور لم تكونا في ذلك الوقت جزءاً من مملكة أسامها آشور.

وقد لاحظنا في الفصل الأول سيطرة وقوة آشور ونيوى اللتين كانت تحكمهما الأسرة الأكادية (في القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثاني والعشرين) وعند سقوط الإمبراطورية الأكادية بسبب غارات قامت بها شعوب آتت من جبال زاغروس تدعى (غوثي) ولكن آشور أيضاً قد تأثرت وعانت من هذا السقوط كما نعلم من خراب أبنيتها التي كشفت عنها أبحاث علم الآثار.

سُلالة أور الثالثة

قبل عام ٢١٠٠ ق م بقليل ظهرت إمبراطورية أخرى في الجنوب وحكمت جميع منطقة ما بين النهرين لمدة قرن وتعرف هذه باسم سُلالة أور الثالثة، وقد كانت هذه الإمبراطورية أقل نفوذاً من إمبراطورية أكد ولكنها كانت أكثر تنظيمياً إذ كان لها مراكز رئيسية يحكمها حكام منتقلون بدلاً من الأتباع المحليين، وهناك نقش يصف واحداً من هؤلاء الحكام يعود إلى عام ٢٠٠٠ ق م يذكر أنه - وفي ذلك التاريخ - كانت آشور تحت حكم أور، وأما أربيل فكانت تحكمها من حين لآخر سُلالة أور الثالثة وذلك طبقاً لما نعرفه من الوثائق الاقتصادية في الزمن الذي نُهب به أربيل ومن نقش سوري يعود إلى الزمن الذي يحدد فيه اسم الحاكم العسكري لأربيل.

لقد انهارت الإمبراطورية البيروقراطية التي تحكمها أور، وهي الرمز الأخير للسلطة السومرية السياسية، وذلك في عام ٢٠٠٦ ق م تحت ضغط العموريين الذين انقضوا عبر نهر الفرات من الصحراء السورية، ولكن بدأت تلك الإمبراطورية بالتفكك خلال بضعة عقود قبل انهيارها نهائياً وبذلك سمحت لأشور أن تستعيد بعض استقلالها.

نحن نستنتج هذه الفكرة من إحدى القصص التي تذكر أن شخصاً يدعى كيكيا بني أسوار آشور، ويمكننا أن نعرف تاريخ كيكيا نظراً لأن اسمه

مذكور في قائمة الملوك الآشوريين قبل اسمي ملوكين نملك نقوشاً تخصهما، ونظراً لأن هذين النقشين يمكننا من معرفة تاريخ هذين الملوكين إلى زمن بعد ٢٠٠٠ ق م بقليل، لذلك فإن حكم كيكيكا ينبغي أن يكون قبل عام ٢٠٠٠، ولكن تظهر الحفريات أن بناء أسوار آشور قد حدث قبل ذلك بقرون، ومع ذلك فإن القصة التي تقول: إن كيكيكا هو الذي بنى تلك الأمور لا تخلو من الصعقة وأن لها بعض الأساس، ومن المحتمل أنها تمكمن خبر إعادة بناء الأسوار من قبل كيكيكا في الوقت الذي استطاع به أن يثبت نفسه كحاكم مستقل، وهذا من الممكن أن يكون في الزمن الذي بدأت به الأسرة الثالثة بالتقلم والتفتت.

آشور والتجارة

وحتى زمن كيكيكا فإن آشور مع أنها كانت ذات أهمية استراتيجية بصفتها مركزاً قوياً في منتصف منطقة دجلة الوسطى، إلا أنها لم تكن ذات أهمية رئيسية عالمياً، ولقد بدأ هذا الوضع بالتغير فقد أصبحت النقوش التي تمثل ملوك آشور أكثر انتشاراً وإظهاراً لامتداد نفوذ آشور في الخارج ويشير أحد ملوك آشور في ذلك العهد، وهو إيلوشوما الذي حكم بعد عام ٢٠٠٠ ق م مرتين بأنه قد أتم تحرير شموب أككاد (يعني بابل جنوب منطقة ما بين النهرين) ويذكر بعض مدن بابل حتى مدينة أور جنوباً وهي على بُعد أربعمائة ميل من آشور، ومن الواضح أن هذا الملك قد قام بنوع من التدخل هناك، إذ إن معنى تحريره الدقيق يبقى غامضاً، ولكن هناك شيئاً آخر وهو أنه من الخطأ التاريخي محاولة ربط هذا التحرير بمعنى التحرير السياسي، وهناك كلمة أككادية تترجم بالتحرير بمعنى الإغناء من الضرائب ومن المحتمل أن يكون هذا المعنى عندما ذكر أنه قرر تحرير الفضة والذهب والنحاس، والقصدير والشعير والصوف والنعالة والتبن، وهذا يظهر أن لهذه الكلمة معنى اقتصادياً أي: إنه أعفى التعامل بمثل هذه البضائع من الضرائب، وهناك معنى غامض آخر في إحدى نقوش إيلوشوما من الممكن أن يكون مناسباً هنا، فمتى ذكر شعب بابل يقول: لقد غسلت نحاسهم. ومن الممكن أن يكون معنى هذا القول أنه باع للبابليين نحاساً نقياً.

وهذا يدل أن هؤلاء الملوك الآشوريين القمءاء كانوا مهتمين بالتجارة نظراً لأن التجارة لم تجلب لهم النفوذ السياسي فحسب ولكن الازدهار الاقتصادي المتزايد، وقد انعكس هذا الازدهار الاقتصادي في مشاريع الأبنية الطموحة داخل آشور، ولدينا نقوش تعود إلى إيريشوم الأول حيث يصف كيف أنه قد زاد حجم وعظمة منطقة المعبد ومدّاً سوراً كلن قد بدأ والده بينائه.

مستعمرات كابادوكيا التجارية

إن قلة المعلومات السياسية حول آشور القديمة تجعل تلك المعلومات التجارية المقترضة ذات أهمية، والحقيقة أننا نعرف الكثير عن التجارة في آشور ما بين عامي ٢٠٠٠ ق م، وزمن شمسي أداد الأول أكثر مما نعرف عن السياسة، ولا تأتي معظم هذه المعلومات من آشور نفسها ولكن من مصدر واقع على مسافة مئات من الأميال إلى الشمال، وتتألف معظم أجزاء هذه الشواهد من بعض الألواح الفخارية التي وجدت في موقع يدعى كولتهيب (اسم قديم لكينيمتهم إلى الشمال من هيسرية في تركيا الآسيوية في المنطقة التي غالباً ما تسمى كابادوكيا، وهذه الألواح هي من محفوظات تعود إلى أجيال عديدة لإحدى المستعمرات التجارية الآشورية كانوا يعيشون هناك في بداية الألف الثاني، وكان هنالك عشرون مستوطنة من هذا النوع في هيسرية الأناضول، وذلك كما نذكر بعض أسماء الأمكنة في تلك النصوص ولكن هناك مستوطنة أو مستوطنات عرفنا عن طريق الألواح التي وجدت في مواقعها، ولا نعلم كم من الزمن كان التجار الآشوريون يعملون في الأناضول، إذ إن أقدم التواريخ في السجلات الآشورية الموجودة في كابادوكيا لا تثبت أقدم الأزمنة التي عملت فيها المستعمرات التجارية.

ومن الممكن أن يكون هناك مستعمرات في كابادوكيا لم يكشف عنها بعد، قبل الواحدة في كانيش أو حتى في كانيش نفسها، ومن الممكن أن يكون هناك نشاطات تجارية أقدم تعود إلى إجراءات تجارية لا تحتاج إلى التوثيق على ألواح من الفخار، وطبقاً لرواية متأخرة يقال: إن سرجون أول حاكم للإمبراطورية

الأكلادية قد استُدعي إلى كبادوكيا لحماية التجار هنالك وذلك في أوائل القرن الرابع والعشرين قـم.

فإذا كانت هذه حقيقة ملموسة فإن تاريخ المستعمرات التجارية سوف يتأخر عدة قرون إلى الوراء، ولكن هناك إمكان أن تكون هذه القصة مختلفة لعكس الحالة في كبادوكيا في أوائل الألف الثاني.

يتألف موقع كولتوب وهو المكان الذي بُنيت فيه مدينة كانايش القديمة، من رابية كبيرة حيث كانت القصور واقعة مع وجود مساحة للمساكن في أسفل تلك الرابية، ومن منطقة المساكن هذه كانت المحفوظات الخاصة بالأعمال التجارية، وتبلغ كمية هذه المحفوظات ١٤٠٠٠ لوحة، مع أنه لم ينشر إلا القليل منها، وتغطي الصورة الأساسية لهذه الألواح الانطباع أن لأماكن الأعمال التجارية ممثلين في كبادوكيا (وربما كان هؤلاء هم أصحاب الأعمال أنفسهم) وكانوا ينظمون التجارة في كانايش وغيرها من المدن، وكان هناك في قلب هذه التجارة قوافل الحمير التي كانت تحمل ما تحمله السفن من القصدير والمنسوجات وتقلها من آشور إلى كبادوكيا.

من المستفيد من هذه المستعمرات التجارية الآشورية؟ إن المجموعة الأولى ينبغي أن يكون الحكام المحليون الذين ما كانوا ليسمحوا للمستوطنات أن تستمر في أعمالها، ولكن الحوافز الرئيسية التي جعلت المستوطنين يستمرون في العمل هي تلك الفوائد التي كانوا يؤمنونها للآشوريين أنفسهم، فالرحلة من آشور إلى كانايش أو بالكلوم الدارج، من قلعة شرجات في العراق إلى قرب فيسرية في أواسط تركيا الآسيوية، لهمت رحلة سهلة حتى في هذه الأيام التي يتوفر فيها النقل بالسيارات، فالمسافة تبلغ نحو خمسمائة ميل على الأقل، ولكن أي طريق برية عملية تبلغ حوالي أكثر من سبعمائة ميل على الأقل، وحتى في هذه الأيام فإن بعض الطرق لهمت أكثر من طرق مملوءة بالحصى والتراب، ومن الواجب قطع جبال طوروس وهي سلسلة جبلية ضخمة حيث ليس هناك أمان بالمعنى الصحيح. وفي عام ٢٠٠٠ قـم كانت كل هذه العوامل المحيطة موجودة بدرجة أقوى. ويمتد

البعض أنه في الوقت الذي تبدأ هذه القوافل رحلاتها عبر هذه المنطقة فإنها تستطيع الاستمرار في العمل بقوة الاستمرار الذاتي خصوصاً أنه كان هناك نظام يريد مساعدتها بمراحله المتعددة التي نشأت حول تلك الأماكن، ومع ذلك فإن هناك علامات استنفهام حول سبب بدء مثل هذه الأنظمة في المقام الأول.

لم تكن المستعمرات في كبادوكيا هي المستعمرات الآشورية التجارية الوحيدة المعروفة، فهناك شواهد على مقياس محدود على وجود تجار من آشور كانوا يعملون في مقاطعة كركوك قبل الفترة التي كتبنا عن وجود شواهد فيها من كبادوكيا، وكانت هذه النشاطات أقرب إلى مركز آشور ولكنها تدل وتصور مدى اهتمام آشور بالتجارة، فإذا كانت آشور في مركز الحضارة التي تبدأ من سومر فإن التجارة كانت مُجدية بالنمبة إليها، وذلك لأن آشور (شأنها شأن سومر نفسها) كانت بحاجة إلى مادتين من المواد الخام وهي الخشب والمعادن. لقد كان توسع آشور التجاري إلى الأناضول رغبة بالحصول على المعادن، فقد كانت آشور بحاجة إلى النحاس وكانت الأناضول قادرة على تأمينه، ولكن لم يكن هنا حل كامل للمشكلة نظراً لأنه كان هناك مصادر للنحاس في الأناضول أقرب من كبادوكيا بكثير، ومع ذلك فلم يكن الآشوريون يستخرجون النحاس من مناجمه بأنفسهم، ومن الممكن أن أهالي الأناضول أنفسهم الذين كانوا يقومون بهذا العمل قد ركزوا على عمليات التعدين في كبادوكيا.

وكانت هناك مشكلة أخرى وهي من أين يمكن للآشوريين أن يحصلوا على القصدير الذي كانوا يتاجرون به فلم يكن هناك مصدر للقصدير في آشور أو بابل، وبالاقتدار إلى شواهد مرموقة علينا أن نخمن أن القصدير قد استورد إلى آشور من زاغروس أو غيرها ولكن ليس مصدر القصدير هو ما نجهله فحسب بل نحن نجهل أيضاً الأغليات التي كان القصدير يصل بها إلى آشور، ومن الممكن وجود مستعمرات آشورية تجارية في إيران أو زاغروس تساعد على الحصول على القصدير ولكن ليس لنا من دليل على ذلك، وحتى كلمة أناككو التي نترجمها

بكلمة القصدير تقدم لنا مشكلة، فقد ثار الجدل فيما إذا كانت هذه الكلمة تعني القصدير أو الرصاص مع أن الرأي الآن يميل إلى الأولي أي: القصدير، وحتى ولو كان الأمر كذلك فلم يتأكد أبداً أن هذا الاصطلاح يعني القصدير النقي، إذ من الممكن أن يكون أحد خامات القصدير، ولكن الرأي السائد أثناء كتابة هذا الكتاب هو أن أناكو مزيج يحتوي كميات متفاوتة من القصدير والزنبرغ وكان يستعمل لإنتاج البرونز من النحاس أو خامات النحاس وكان الزنبرغ والقصدير يختلطان مع النحاس لإنتاج البرونز.

وإلى جانب القصدير فقد كانت البضاعة الرئيسية التي تعامل بها الآشوريون هي المنسوجات، هذا وإن مصدر هذه المنسوجات النهائي يقدم لنا مشكلاته، إذ نحن نعلم أن أفضل نوع من المنسوجات كان يأتي من بابل، ولكن هل كانت هذه المنسوجات تصنع في ورشات عمل أم هل كانت من مصنوعات أعمال بيتية؟ ولكن هنالك مشكلات أخرى غير محلولة فمن كان مستهلكو هذه المنتجات في الأناضول؟ وكيف كانت هذه البضائع توضع خلال الأناضول؟ وكيف كان نظام الحكم في الأناضول وكيف كانت علاقة التجار الآشوريين بحكام الأناضول المحليين؟ هذا وإن التهديد والتعدي ليس يبيد حول أي من هذه المشكلات أو غيرها من نفس الطبيعة ولكن نترك هذا لتعالجه إحدى (إطروحات نهل الدكتوراه من الطلأ).

هنالك بعض الأشياء التي نعرفها حول التجارة الآشورية في الأناضول على الأقل بخطوطها العامة فنحن نعرف بشكل مصكف عن إجراءات النقل. فكانت البضائع تجمع في آشور -ربما- وفي حالة القصدير كانت تستورد من أقاصي الشرق، ومن بابل بالنسبة إلى المنسوجات، وبعد ذلك كانت ترسل إلى الأناضول على ظهور الحمير.

وفي الوقت الحاضر لا نعرف كم كانت القافلة تحتوي من الحمير؟ وتذكر النصوص أرقاماً تقرب من عشرين، ولكن هذه تمثل فقط الحيوانات التي تعمل بضائع تاجر واحد، فإذا حكمنا عن طريق الإجراءات المتبعة في كل

وقت وكل مكان في الشرق الأدنى فلننا نتوقع أن يكون هناك عدد من التجار مجتمعين معاً بشكل مواكب أو قوافل كبيرة تقدم المساعدة المتبادلة والحماية، وإن حدوث مثل هذا الأمر لا مجال فيه للشك لوجود بعض الوثائق التي تذكر وجود حمار واحد. وليس هناك من شخص يضع حمار واحد محمل بالبضائع النفيسة في طريق يبلغ طولها ٧٥٠ ميلاً تسير فوق جبال صعبة.

إن ما يحمله حمار واحد بمجموعه بما فيه المرح يبلغ مئة كيلو غرام، وكان القصدير يحمل في سلتين تتوازن إحداهما مع الأخرى في كل جانب مع وضع المنسوجات في الأعلى.

ولمع السلب والنهب في الطريق فكانت رزم القصدير تختم بختم من الفخار وكان فتحها بعد ذنباً يعاقب عليه، وكانت المنسوجات التي ترزم بشكل لفائف تختم بطريقة أو أخرى ولكن لا نعرف هذه الطريقة. وكانت عبارة عن بالات من القماش الصوفي مع أنه كان هناك ملابس مصنوعة تصلح لمقاسات مختلفة.

ونذكر إحدى النصوص نوعاً من المنسوجات كاملاً مقاسه ١٢ ١/٢ قدماً ب ١٢ قدماً، وكان من النادر وجود أنوال لنسيج منسوجات بهذا المرض في تلك الفترة وهكذا كانت المنسوجات الكاملة مؤلفة من اتصال شقني طبقتين كما كان الحال على الأقل حتى الخمسينات ١٩٥٠ بالنسبة للقماش المصنوع يدوياً في كردستان.

كانت قوافل الحمير المحملة بالقصدير والمنسوجات تتجه نحو الأناضول ومعها وثائق كانت تحتويها فخص بموجب هذه الوثائق عند الوصول، وبالنسبة للطرق المختلفة المتواجدة لا يمكننا أن نحدد أيها بالتأكيد ولكن من المحتمل أن تكون الطريق الرئيسية تسير نحو نهر الخابور وبعدها إلى بلخ ومن ثم تجاه الأناضول عبر سهل البستان، وهذه من الممكن أن تكون رحلة خطيرة تقطع ٧٥٠ ميلاً وتستغرق نحو شهرين وتذكر النصوص موت عدة حمير على الطريق. وكانت البلدات على طول الطريق تسهل المميرة وكان هناك طريق واحد في حوالي منتصف الطريق حيث كان من الممكن استئجار سائقي حمير جدد،

وكانت هناك إشاعات تشير أن الأمن في الطريق كان مخيفاً للامال، فقد وجدت هناك بعض الحالات حول بعض التجار الذين حُطِّقوا وطلب الخاطفون فدية، وأما الرحلة خلال الشتاء فقد كانت تسبب خطراً إضافية للقافلة من الطقوس السيئة ومن الذئاب فإذا نجا التاجر من الذئاب فكان أمامه دوماً جباة الضرائب، وذلك أن الضرائب التي تبلغ عشرة بالمئة من قيمة الحمولات، كان ينبغي دفعها على الطريق، بالإضافة إلى ضريبة إضافية تدفع عند الوصول إلى مكانيش، ومن المحتمل أن يلجأ التاجر إلى عمليات التهريب وذلك للتخلص من تكاليف الجمارك، هناك بعض المقاطع في بعض النصوص تشير إلى هذه الأمور ويذكر فيها كلمة طريق المهربين، وتكون هذا التفسير ربما جعلنا نتوقف قليلاً، فلا يتوقع الإنسان أن يقوم بعمل ثمهد لإنجاز عمل غير قانوني كالتهريب الذي تعاقب عليه السلطات أكثر من أن تحفه، ولهذا فإننا نجد أن طريق التهريب ما هي إلا اصطلاح بمعنى طريق قروي غير مطروق.

إن الهيئة التي تنظم شؤون التجارة وشؤون المراكز التجارية الأخرى كانت تعرف بالكروم **Karum** وهذه الكلمة تعني: ميناء أو مرسى السفن.

وهناك مشكلة أساسية وهي فيما لو أن "تجار الذين يتألف منهم الكروم تعاونوا من الراسمالين أو من وكلاء الدولة، فالنصوص تقترح الصفة الأولى، إذ عندما تصل البضائع إلى كانيش كانت هذه البضائع تُسجل وتدفع عليها الضرائب في الكروم وبعد ذلك يسمح ببيعها، وكانت البضائع تباع بأثمان من الفضة أو (بشكل أقل) من الذهب، ولكن من الممكن أن تكون الذهبات بالإنحاس أو الصوف الذي كان يباع ببعده بالمعادن الثمينة.

وكانت الأرباح الصافية على القافلة وافرة، وكانت الأرباح تقارب مئة في المئة بالنسبة للقاصدين، وربما أكثر من ذلك بالنسبة للمنسوجات، ولكن كان من الواجب دفع الضرائب من هذه الأرباح فضلاً عن مصروفات الرحلة، وكان التجار في الأناضول يعيدون الفضة إلى وكلائهم في آشور (وفي بعض الأحيان يكون من هؤلاء الوكلاء زوجة) وهناك عدة حالات كان التجار يأمرهم وكلائهم أن

بصرفوا نصف الأموال لشراء القصدير اللازم للرحلة القادمة ونصفها على المنسوجات وكان هذا عملاً مألوفاً.

وكان كبار التجار يبقون في الأناضول عدة سنوات حيث يتزوجون زوجات من المنطقة حتى ولو كان لهم زوجات في آشور.

لدينا معلومات محددة قليلة حول نهاية المستعمرات في الأناضول أكثر من المعلومات حول بداية تلك المستعمرات، ولقد أظهرت الحفريات أربعة مستويات من الاحتلال في كانيش، ولكن وحتى الآن لم تظهر المستويات الأعماق عهداً (أو الأقدم) أي نصوص، إذ إن معظم الأنواع كانت تأتي من الفترة الثالثة من الاحتلال، وقد انتهت هذه الفترة بحدوث كارثة وهي حدوث حرائق عامة.

ومن الممكن أن يكون المكان قد هوجم ونهب وبمرور الزمن بعد نحو ثلاثين إلى خمسين عاماً بقي المكان فيها في حالة خراب، ثم عاد الآشوريون التجار واستأنفوا احتلالهم للمكان وبدأت الوثائق تظهر مرة أخرى وكانت أقدم وثيقة قد كتبت أثناء حكم شمشي آداد (١٨١٢ ~ ١٧٨١) ق.م، ونضع الفترة التي لم يحدث فيها أي احتلال نهاية المجموعة الرئيسية الأقدم من الوثائق وعندها فيما بين ١٨٦٠ و ١٨٤٠ ق.م، وهكذا فهي تغطي حوالي ستين إلى ثمانين عاماً تشمل حكم إيريشوم الأول (الذي امتد أربعين عاماً بدءاً من عام ١٩٠٠) وهذه النتيجة التاريخية تتطابق مع الحقيقة التي مفادها أن إيريشوم كان أقدم حاكم آشوري مذكور في النصوص الكانيشية، ولقد لاحظنا سابقاً نشاطات هذا الملك التجارية في بابل ولذلك فإنه من المعقول أن نفترض أنه بالإضافة إلى ذلك قد قدم تأسيساً نشيطاً للتجارة مع كبادوكيا.

ويقترح البعض أن يكون إيريشوم قد أسس بعض المستعمرات الآشورية في كانيش وأماكن أخرى كممثل زرين من أعمال السياسة، ولكن لا يبدو هذا الرأي مقبولاً فالبنية التحتية المشمولة في هذه التجارة من الصعب أن تنشأ فجأة بمجرد إصدار قرار سياسي إذ إنها لا بد أن نمت ونشأت عن طريق توسع تدريجي في الاتصالات خلال مدة طويلة من الزمن.

الفصل الثالث

الفترة الفاصلة الحورية

من ظلال التبعية حتى الاستقلال

تعد العلاقات مع كبادوكيا في التاريخ الآشوري مظهراً حضارياً تمتلك معظم التفاصيل الواضحة عنه بالنسبة لبداية الألف الثاني ق م ، ولكن حدثت أشياء أخرى قدر لها أن تكون ذات تأثيرات بالغة على آشور ، إذ ولدت قرنين بدأ الشعب السامي المعروف باسم العموريين بالتحرك خارجين من الصحراء العربية السورية والإقامة في الأراضي الخصبة حولها ، وكان ضغطهم هذا سبباً وعاملاً من عوامل انهيار أسرة أور الثالثة ، حيث بدأت مجموعات من العموريين بالاستقرار على طول نهر الفرات في بابل وشكلت أسراً محلية ، وربما كان هجوم أيريشوم وغزوه لبابل سبباً عن أرباك وتشويش الحركة التجارية هناك من قبل العموريين ، وأن إعلان والده ايلوشوما عن عزمه على إقامة وتأمين الحرية لشعب أكاد ربما يعكس تبريراً لتلك التدخلات.

مملكة شمشي آداد الأول

ومع أن آشور التي كانت تحجبها مدن مثل مارى الواقعة في أواسط الفرات لم تتأثر بنفس الدرجة التي تأثرت بها بابل من الموجات الأولى للضغط العموري ، إلا أن آشور لم تستطع أن تبقى معزولة بشكل غير محدود ، ففي أواسط منطقة الفرات الأوسط قام زعيم إحدى القبائل العمورية المدعو ايلوككبكي (وقد ذكر اسمه في قائمة ملوك آشور) بإنشاء مملكة صغيرة لنفسه ، وكان له ابن وهو شمشي آداد الذي قضى بعض الوقت في بابل ، إذ من المحتمل أنه قد أرسل إلى هناك ليحكمون تابعاً لملك آشور في ذلك الوقت ولمعالجة التهديدات ضد الأمن الآشوري ، ولكن شمشي آداد عاد من بابل معلوماً بالطموح.

وقد استولى في أول الأمر على إحدى القلاع المدعوة (ايكالا مو) المشرفة على المنطقة إلى الغرب من دجلة، وبعد ذلك وبعد ثلاث سنوات نصبتة آشور ملكاً عليها، فبادر إلى توسيع سيطرته حتى منتصف منطقة الفرات الوسطى التي نشأ فيها، وهناك كانت المدينة والمملكة الرئيسية ماري التي نجح في ضمها إليه.

وهنا نجد لدينا بعض الصعوبات في الحصول على المعلومات اعتباراً من هذه النقطة ولدة جيل من الأجيال، ويأتي قسم قليل من هذه المصاعب من النقوش الرسمية التي تركها (شمسي أداد) وهي الكميات الكبيرة من المحفوظات التي وجدت في ماري.

وكان موقع ماري موقعاً استراتيجياً في منتصف الفرات وكان لها شبكات من العلاقات مع بابل وسورية وتعكس المحفوظات المحتوية عشرات الألوف من الوثائق هذا الشيء، وقد أقام شمسي أداد مع أنه كان يمد آشور عاصمته الرسمية وكان يجبي الأنوات والخراج منها، أقام في (شويات نيل) الواقعة إلى الشمال الغربي حيث كان قريباً من التيارات السياسية في سورية، ولأجل السيطرة على منطقة الدجلة الأوسط والفرات الأوسط فقد نصب ابنه الأكبر كملك تابع في (ايكالاتو) والابن الأصغر (ياسماخ أداد) في ماري، وتقدم الرسائل التي وجدت في ماري والتي جرت بين ياسماخ أداد ووالده وأخيه وبعض الأشخاص الآخرين، تفاصيل حول الحوادث في ذلك الزمن، وهناك مجموعة صغيرة من النصوص تعود إلى نفس الفترة وجدت في موقع (شمشارا) قرب رانبا في كردستان العراقية، تظهر أن مملكة شمسي أداد قد امتدت حتى زاغروس شرقاً.

وحتى هذا الزمن لهم لدينا أي شواهد تشير إلى أن المدن الثلاث الرئيسية في آشور ونيوى وأربيل كانت متحدة في مملكة واحدة، ولكن هذا الوضع قد تغير بمجيء شمسي أداد وأصبحت هذه المدن جزءاً من مملكة واحدة، إذ نجد أن الملك كان يحدد بناء أحد المعابد في نيوى ويسجل انتصاراته على جميع المدن المحصنة في أرض أربيل، وقد سيطر أيضاً على منطقة (أرانجا) (كركوك الحديثة) بحيث أصبحت جميع مناطق آشور قاطبة تحت حكمه مملكة واحدة، وقد امتدت

المنطقة التي كان يسيطر عليها شمسي أداد وأولاده من الفرات ومن نهر (أضاييم) إلى مشارف هضبة الأناضول عبارة عن ثلاثمائة ميل من كل جهة، وقد امتدت سيطرته دبلوماسياً إلى أبعد من ذلك فقد لمس التجار الآشوريون في مستعمرة كبادوكيا نشاطاً متجدداً، وقد ادعى شمسي أداد أنه وضع أنصايه الحجرية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ومن الواضح أن الحكام المموريين المعاصرين عدوا شمسي أداد القوة العظمى.

كيف نجح شمسي أداد في جعل آشور أبرز وأعظم مملكة في عصره؟

هناك عاملان ينبغي أن ننظر إليهما بالحسبان وهما كفاءته الإدارية ومهارته السياسية، وإن مراسلاته الواصفة تظهر أن شمسي أداد كان يعطي عيناً مساهمة بالنسبة لهذه الأشياء ولجميع الأشياء حوله منغيرها وكبيرها التي لها علاقة بتسيير شؤون مملكته بكفاءة (ويمكن أن ينطبق هذا القول عن معاصر شمسي أداد الناجح وهو (حمورابي) في بابل فقد أنشأ شبكة من الموظفين الأكفاء.

فهو يقول: ((إنني عيَّنتُ حكامي في كل مكان)) وتحت الحكام كانت هناك سلسلة من الإداريين وناقلي الأخبار وموظفي الإحصاء الخ..

وقد نجح شمسي أداد بالتحالف إما عن طريق المعاهدات أو بواسطة المصاهرة مع أمراء حاكمين آخرين ولاسيما في سورية، ولكن كان جزء من نجاح شمسي أداد دون شك استخدامه القوة العسكرية.

ويموازة ادعائه أنه قد عين الحكام في كل مكان، فإنه قد وضع الحاميات العسكرية في كل مكان أيضاً، ولدعم الحاميات الدائمة أرسلت الفرق العسكرية في حملات خاصة، وقد اشتملت هذه الحملات في إحدى الحالات على ستين ألفاً، وأما فتون الحصار التي بلغ الآشوريون الشاؤ الأعظم فيها منذ الألف الأول ق.م، فقد وصلت درجة عالية من الكفاءة بما فيها من استعمال آلات الحصار.

ولكن امتدادات مملكة شمسي أداد قد نقصت وتقهقرت بعد موته بالسرعة التي وصلتها في حياته، وتذكر قائمة الملوك الآشوريين أن ابنه (شمسي راکان)

قد حكم مدة أربعين عاماً، ولكن حكمه كان معسوراً بأشور وفي المنطقة المحيطة بأشور ونيوى وأربيل وارانجا (كر كوك).

وهناك شك حول حكمه اللينة الأخيرة، أما ممتلكات آشور الأوسع بمعاذلة الفرات الأوسط وشمال شرقي سورية وحتى مسكن والده المفضل في (شويات اينليل) شكل هذه المواقع قد سلبت من سيطرته.

ويعد ذلك التور الذي سلع في فترة شمسي أداد وأولاده نجد أنفسنا ننقل إلى أقاليم مظلمة من التاريخ، لأنه وفي القرون الثلاثة التالية فإن النقوش ومحفوفات الملوك الآشوريين أصبحت قليلة ونادرة وأحياناً انقطعت، مع أن قائمة الملوك الآشوريين تدل على تتابع غير منقطع للملوك الآشوريين، فقد أصبحت سلطة ملك آشور لا تتجاوز مدينته ولم تتجاوز منطقة شمال نيوى وأربيل.

المهاجرون الحوريون

عندما ركزنا على أعمال شمسي أداد الباهرة لم نعط اهتماماً كبيراً بالنسبة للعالة المرقية في المنطقة الواقعة تحت حكمه ما عدا ذكر المموريين، والحقيقة كانت هناك حركات عرقية جارية وقد قدر لها أن تكون ذات نتائج بالغة بالنسبة لآشور، وإن أهم مجموعة في هذا الصدد هم الشعب المدعو الحوريون، ولقد تكلم هؤلاء لغة مختلفة عن سكان السومريين والأكاديين بحيث إن أسماء الحوريين الشخصية مميزة وتؤلف علامات واضحة تدل على الأشخاص من أصل حوري، وهذه الشواهد تشير إلى وجود الحوريين في جنوب ما بين النهرين منذ فترة (أكاد) وفي حوالي نهاية تلك الفترة حيث نشأت دول صغيرة قصيرة العمر في منطقة الخابور يحكمها حكام يحملون أسماء حورية، وسرعان ما وجدت عدة أسماء حورية في فترة الأسرة الثالثة في أور في المنطقة شمال نهر دجلة.

وهناك دلالات تشير بأن هؤلاء الحوريين قد أتوا من الشمال إلى منطقة ما بين النهرين، وربما من مرتفعات أرمينيا، ويناقش بعض مناقضي هذا الرأي بقولهم إن الحوريين كانوا هم سكان آشور الأصليين قد دُفِعُوا وأخرجوا على أيدي

المماليك المهاجرين إلى سفوح التلال في الألف الثالث ق.م، ولكن هذه النظرية كانت مؤسسة على تحاليل غامضة لأسماء الأمكنة القديمة التي تعد حورية.

أصبح الحوريون واسمي الانتشار في شمال منطقة ما بين النهرين في زمن شمسي أداد ومع مناطق إلى الغرب من (طور عابدين) التي حكمها أمراء الحوريين، وكان هناك عنصر قوي من عناصر الحوريين في زانغروس أيضاً، وقد تزوج أحد أحفاد شمسي أداد سيدة أو أميرة من إحدى القبائل القوية هناك التي كان اسمها يدل أنها حورية، وفي سورية أصبح الحوريون عنصراً قوياً في الألاخ وهي مدينة واقعة على نهر العاصي معروفة من كمية من الألواح الفخارية التي وجدت هناك.

ويظهر أن حركتين عرقيتين كانتا تتحركان في الوقت نفسه، الحوريون الذين أتوا إلى منطقة ما بين النهرين وسورية من الشمال الشرقي، في نفس الوقت الذي كان العموريون يتحركون آتئين من الصحراء السورية مع بعض التجاوزات التي تظهر أن الفرات قد شكل حداً فاصلاً بينهم، وفي منطقة أواسط الفرات كان العموريون ذوي السيادة ولكن إذا اتجهنا شمالاً نجد الحوريين، قد أصبحوا العنصر المهم، وهناك تطورت في منطقة الخابور العليا السلطة الحورية، بينما إذا اتجهنا جنوباً كان العموريون ذوي نفوذ مرموق على بابل، أما في آشور ففي أثناء منتصف الألف الثاني فقد كان الحوريون هم المتفوقون ثقافياً وسياسياً إلى حد ما.

لم يكن الحوريون هم الشعب الوحيد الذين انطلقوا كقوة سياسية وثقافية جديدة خلال الألف الثاني، ففي الأناضول المجاورة لأراضي الحوريين كان هناك الحيثيون وهم مجموعة من الشعوب الذين يتكلمون اللغات الهندو أوروبية، ولقد دخلوا الأناضول من الشمال فيما وراء البحر الأسود في وقت لا يعتمد عن بداية الألف الثاني، وقد اسم هؤلاء مملكة في منطقة نهر (هاليس) (كوزول إيرماك) وانتشروا بالتدريج في نفوذهم جنوباً حتى الفرات وشمال سورية وكليكميا، وهذا سبب احتكاكهم بالمناطق التي يسيطر عليها الحوريون ثقافياً وسياسياً، وبذلك نشأت منافسات وحزازات ثقافية متبادلة ما بين الحيثيين والحوريين.

مملكة ميتاني

في منتصف القرن السابع عشر أصبح الحوريون منظمين تنظيمياً كافياً بحيث استطاعوا مهاجمة مملكة الحثيين إلى الشمال الغربي من مملكتهم، وهناك نقش يمود إلى أحد ملوك الحثيين يسجل وجود هجوم خطير على مملكته من قبل شعب يدعى الحوريون (الهائي جالبات) وسوف تقابل هذه الأسماء فيما بعد.

وهناك نص آخر حول الأنشطة الحربية في تلك الفترة يذكر أسماء أربعة ملوك من ملوك شعب الحوريين، وهذا يظهر أنهم كانوا لا يزالون اتحاداً وليس مملكة موحدة، وبعد عام (1550) بقليل ظهرت مملكة مؤسمة على قواعد حورية تدعى: ميتاني إلى الشرق من نهر الفرات، وقد وجدت دويلات أخرى مشابهة في سورية وكميكيا وشمال ميتاني، وكانت ميتاني أقوى الممالك الحورية وقد ناضت وأحياناً حاربت كلاً من الحثيين والمصريين وهما القوتان الرئيسيتان في منتصف الألف الثاني ق.م.

وفي حوالي عام (1772) اصطدم أحد ملوك ميتاني مع تحتمس الثالث ملك مصر الذي ادعى أنه قد سيطر على سورية واخترق بجهشة الحدود حتى نهر الفرات، وقد كان هذا الردع الميتاني ما رُحِبَ به الدويلات الأخرى في الشرق الأدنى، وأرسلت آشور بالإضافة إلى بابل والحثيين هدايا وتهنئة لتحتمس عدها المصريون لزيادة نفوذهم وهيبتهم عبارة عن جزية.

لدينا تفاصيل قليلة حول ظهور ميتاني ولا يمكن معرفة ذلك بالضبط إلا بعد اكتشاف المحفوظات الميتانية الرئيسية، ولا نعلم إذا كان هناك محفوظات لدى الميتانيين إذ أشك في وجودها، فقد وجدت بضعة رسائل من ميتاني بشكل الواح من الفخار منقوشة بالخط المسماري في تل العمارنة في مصر، وهناك دلالات على وجود مراسلات بين ميتاني والفلو المجاورة، ولقد مكثت الفجوة في الشواهد بشكل جهد لجزء التخمين...

وهناك إحدى الفرضيات، التي رفضت، مع أنها ظلت موثوقة لعدة سنوات، وهي تصف ميتاني بأنها عبارة عن تكافل من الأجناس.

وطبقاً لهذه الفرضية فإن دولة ميتاني ظهرت عندما تركت الأريستقراطية الآرية (الهندو إيرانية) التي كانت تمتلك الخيول والعربات، وذهبت وهي من الهجرات الآرية الرئيسية من جنوب شرقي آسيا إلى الهند في أوائل الألف الثاني ق.م، وقد فرضت نفسها على المجموعات الحورية.

ولكن أحد العلماء الروس ذي البصيرة الثيرة نقض هذه النظرية نهائياً، وقد أشار هذا العالم أن الأساس الرئيسي لهذه النظرية هو وجود بعض الرقم الهندو أوروبية خمس مرات في بعض النصوص التي تعد بعشرات الألف، ووجود اصطلاحين أو ثلاثة تتعلق بتمرينات الخيول، ووجود أربعة أسماء آلهة هندو أوروبية بشكل حوري، ونحو عشرين من الأسماء الشخصية من أصول غير معروفة التي تظهر بشكل سطحي كما لو أنها كانت هندو إيرانية.

إن الأهمية الرئيسية بالنسبة للتاريخ الآشوري الذي يصف مملكة ميتاني الحورية هي أنها حالما توسعت بدأت بالتحرك شرقاً إلى أراضي ما نفهم عادة بأنها أراضي آشور التي حولوها إلى أراضي تابعة لهم، ولكن قسماً من آشور كان ما يزال مستقلاً في النصف الثاني من القرن السادس عشر، نظراً لأنه وبعد عام (١٥٥٠) - إذا كنا نستطيع الوثوق بأي تاريخ- فإن أحد ملوك آشور الصغار الأهمية استطاع عقد معاهدة حدودية مع بابل، وهناك دلالة أخرى تدل على استمرار استقلال آشور، وهي الهدية التي أرسلتها آشور إلى مصر بعد الصدام الذي حدث بين مصر وميتاني عام (١٤٧٢) وظهر أنه بعد هذا التاريخ بزمان قصير استطاع الملك الميتاني زواستر ضم آشور إلى حكمه.

ضم آشور

لقد سُجِّل أن زواستر نهب من آشور باباً مرصعاً بالفضة والذهب زين به قصوره في (وشوكاني) وكان هذا قد حدث أثناء غارة خاطفة، ولكن هناك شواهد تدل على وجود ميتاني في آشور فترة طويلة، إذ أصبح ملوك آشور الآن تابعين لميتاني ولم يكن حكمهم إلا بالاسم فعصب، وتذكر النصوص الشرعية التي وجدت في

آشور ابتداءً من القرن الخامس عشر وجود موظفين بأسماء حورية، وترك موظفان أنصافاً تدل أن أسلافهم قد خدموا ملك (هاني جالبات) وهو اسم آخر لميتاني، ويذكر الملك الآشوري (آشور بالبيت) في عام (١٢٦٠) أن ملك (هاني جالبات) كان أحد أسلافه قبل عدة أجيال، ولقد امتدت سيطرة ميتاني عبر بلاد آشور حتى (زاغروس) وإلى الجنوب الشرقي لتشمل منطقة كركوك.

وتحت سيادة ميتاني أصبحت آشور ذات وضع ثانوي حيث إنه ولدة حكم ستة ملوك حتى عام (١٤٢٠) لم يلاحظ وجود أي نقوش ملكية أبداً، وقد وجدت هذه الشواهد عن أحوال آشور في تلك الفترة من محفوظات وجدت في بعض البلدات في منطقة كركوك، ومعظمها من موقع يدعى (نوزي) وهذه الوثائق تعطينا إدراكاً ممتازاً بالنسبة للحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة (نوزي) ويظهر أن نفوذ الثقافة الحورية كان قوياً جداً، وليس هناك من شيء يوحي أن منطقة نوزي التي كانت هامشية سياسياً وثقافياً بالنسبة لآشور قد أصبحت ذات أهمية عظيمة أكثر من ذي قبل، وأن التأكيد الظاهر على هذه المنطقة في ذلك الوقت ما هو إلا مجرد حادث سببته الاكتشافات الأثرية.

وهناك شيء واحد تظهره لنا وثائق (نوزي) حول آشور بصورة عامة أنه وأثناء الحكم والسيطرة الميتانية، لم تكن آشور مملكة واحدة حتى وعندما كانت تابعة لميتاني، إذ إن منطقة (نوزي) المؤسسة على أرانجا (كركوك) كانت تعامل بالتأكيد كمملكة ثانوية لها ملكها الضعيف الخاص بها وهي منفصلة عن آشور إدارياً، وهناك ثلاثة ملوك من (أرانجا) معروفون بأسمائهم، وكان هناك حضور ميتاني قوي هناك، وقد وجد كثير من الأشخاص هناك يحملون أسماء (هنيجالباتية) أي: (ميتانية) وكان بعضهم مقيماً هناك ويستلمون إعاشات غذائية، والآخرين مستقرون بصورة مؤقتة كموظفين أو مراسلين، وأن التوثيق بالعربات الحربية الهنيجالباتية يبرهن على وجود وحدات عسكرية ميتانية، وكانت مراكز آشور وأربيل ونيوى مناطق إدارية منفصلة، مع أن الشواهد على ذلك لم تظهر بعد.

استقلال آشور

عند نهاية القرن الخامس عشر ظهرت دلالات عن بداية انتماش آشور، فقد بدأ إعادة بناء أسوار آشور، نظراً لأن وجود أسوار في أي عاصمة قديمة في الشرق الأدنى كان دالة على استقلالها، لاسيما وأنه قد عقلت معاهدة حدودية بين آشور وبابل، ونحو عام ١٤٠٠ قـم أظهر أحد ملوك آشور أنه رجل الموقف عندما تراسل مع ملك مصر واستعق هدية مقدارها عشرون مثقالاً من الذهب، تلك الحقيقة التي ذكرها خليفته الثاني آشور أباليت الأول (١٢٦٥ - ١٢٢٠).

ويخبرنا أحد ملوك ميتاني عن الظروف ولكن ليس في السنة ذاتها التي تخلصت بها سورية من السيطرة الميتانية، وثاني هذه المعلومات من معاهدة (مؤلفة من نسختين عقدت بين ميتاني والحثيين، ومع هذا الوضع وجدت مملكة حورية ثانية بجانب ميتاني تعرف باسم حوري مع وجود المنافسة بين حاكمي المملكتين الأقرباء. وعندما ظهر الاحتكاك الأوسع بين ميتاني والحثيين سمح الموقف الموالي للحثيين في حوري أن يهاجم هؤلاء ميتاني، وتبع ذلك حدوث أزمة في ميتاني وفي آشور ومملكة أخرى، وقد انتهز هذه الفرصة (الشي) (ربما في طور عابدين) ليستولي على أراضي ميتاني، ولم يذكر اسم الملك الآشوري ذي العلاقة ولكن التواريخ تشير أنه والد (آشور أباليت) المدعو (ايريبا أداد) ١٢٩٢ - ١٢٦٦.

وعندما كتب آشور أباليت رسالة إلى ملك مصر بعد عام ١٢٦٥ فقد كان قد تحرر من آخر مظهر من مظاهر تابعية للسيطرة الميتانية، وشمر بأنه قادر على التكلم معه كائند اللدّ وخاطبه باسم أخي، ولم يقبل استقلال آشور الجديد من قبل الجميع، فقد شكك ملك بابل إلى ملك مصر ضد الآشوريين عندما ادعى أن هؤلاء من أتباعه، فقد قال في الرسالة إلى ملك مصر:

لماذا أتى هؤلاء الآشوريون الذين هم أتباعي إلى بلادك؟ فإذا كنت تحبني لا تدعهم يحصلون على ما يريدون بل أرجعهم فارغي اليده.

ولكن إهداء ملك بابل بأن الآشوريين أتباعه لم يكن سوى انعكاس لبدائية
طموح لا ملاقاة له به، وهو أن يعيد السيطرة على جيرانه الشماليين نظراً لأن حكم
المهتانيين الآشوريين قد انتهى.

لقد بدأت آشور تزيد من أهميتها الدولية أثناء حكم (آشور أباليث) فنحن
نعلم أنه كان لديه روابط أسرية مع بابل، وكان قادتها راغبين في التدخل في
قضايا وراثته المرش هناك، وهناك نص يدل ويسجل المواجهة بين بابل وآشور
يخبرنا مايلي:

في زمن آشور أباليث ملك آشور هجرت جنود ككاليبث ضد ككاراهار داشن
ملك ككاردونيش (بابل) وهو ابن السيدة (موبالتهات شيرا) وهي ابنة آشور أباليث
وقتلوه.. وقد ذهب آشور أباليث إلى ككاردونيش لينتقم لحفيده ولتصهيب
ككوريجالزو الأصغر ملكاً.

الروابط مع مصر

وكما ذكرنا آنفاً كان آشور أباليث يتواصل مع ملك مصر ولدينا رسالتان
من رسائله وإحداهما تستحق أن ننقلها للقارئ كاملة وهي:

((إلى ملك مصر، هكذا يقول ملك آشور، أتمنى أن تكون بصحة جيدة،
وكذلك أهلك وبلادك وعربانتك الحربية وجنودك لقد أرسلت مبعوثي إليك ليرأك
ويرى بلادك، لقد بدأت بالاتصال بك اليوم نظراً لأنه وحتى هذا الزمن لم يتصل
أحد من أجدادي بكم، ولقد أرسلت لك عربة حربية جميلة وجوهرة من اللازورد
الحقيقي، لا تتردد رسولتي الذي أرسلته لرؤيتك هو سوف يراك ويمود، دعه يطلع
على أحوالك وبلادك ويعنها دعه يمود)).

نحن نرى أن الملك يؤكد أن المبعوث لا ينبغي أن يبقى في مصر بل يهود إلى
آشور فوراً بعد أن يطلع على مصر والملك المصري، ومن الواضح أن آشور أباليث لم
يفكر أن يصبح تابعاً لمصر بل كان ينوي أن يستفيد من هذه الروابط مع مصر ما
هو من مصلحة آشور..

إن الهدايا التي أرسلها آشور أباليت تستحق التعليق وهي تدعى **Sulmanu** وهذا معناه هدايا للمبادرة بصنع علاقات ودية مع توقع شيء مقابل ذلك، وهذا هو **Sulmanu**، وهي مقدمة لعلاقات تجارية فضلاً عن علاقات سياسية، وهذا ينطبق على تقاليد آشور بالنسبة للتجارة العالمية المتمثلة بالعلاقات القديمة مع الأناضول الوسطى.

لقد افترضت الصلات المصرية المرتقبة، وهذا يظهر من الرسالة الثانية التي وجدت في المحفوظات المصرية من آشور أباليت، وهي تشير إلى أن الرسل من مصر إلى آشور قد قوبلوا بالحفاوة البالغة في البلاط الآشوري، وهكذا بدأت التجارة، أو كانت على وشك أن تبدأ نظراً لأن آشور أباليت قد أرسل هدايا أخرى وطلب كمية مناسبة من الذهب مقابل ذلك لأجل زخرفة القصر الذي كان يبنيه، ولقد أمر على طلب الذهب وأكد أن الكمية التي أرسلها لم تكن أقل من الكمية التي أرسلت إلى بعض الملوك القدامى فحسب بل إنها كانت غير كافية لتغطية المصاريف للحفاظ على العلاقات المصرية، وهذه الإشارة الواضحة الصريحة لمظاهر الريح والخسارة من الواضح أنها سوف تثير العناصر التجارية في هذه المفاوضات.

من الملكية إلى الإمبراطورية

إن آشور أباليت هو الذي تمود إليه بداية الإمبراطورية الآشورية، إلا أن آشور نفسها هي التي مارست النقص والإبطال، ولكن هذه لم تقدم أي كبح دائم لعملية قيامها بتوسيعها في الشرق الأدنى، وكان للدول الأخرى طريقتها بالتوسع ولكن لم يكن هناك أي دولة تستطيع أن تباري آشور في طلب السيادة لمدة قرون على أراضي فيما وراء حدودها الطبيعية.

لم يعطنا آشور أباليت نفسه أي تفاصيل عن حملاته العسكرية، ولكننا نعلم عن مثل هذه الحملات من بعض التلميحات من قبيل ذريته، وهذه التلميحات تدل على أنه قد يادر بالهجوم شمالاً، وهذا كان طبيعياً زمن ملك نشيط في آشور

التي قد تحررت حديثاً من الحكم الأجنبي، وكانت إحدى مشكلات آشور المناطق الجبلية فيما وراء نينوى وأربيل إلى الشمال والشرق، حيث كان الرجال الجيليون يقومون بغارات على سهول آشور، وكانت هذه المناطق مهمة لكونها مصادر للحصول على الخامات المعدنية والخشب والحجارة نصف الصخرية، وكانت تحتوي على مناطق مهمة لتربية الخيول، وحالما بدأ الملوك الآشوريون في كتابة النقوش التي تعطي أوصافاً مفصلة لحملاتهم أصبحت النشاطات العسكرية في الجبال الشمالية والشرقية موضوعاً كثير الحديث، ولمسوء الحظ فإن المناطق ذات العلاقة، مثل المناطق الجبلية في العراق وسورية وتركيا وإيران، كانت لا تزال حساسة، وهذا يفرض إعادة إمكان عمل مسح لهذه المناطق مما ترك شوكوكاً لا يأمن بها حول تحديد الأمكنة المذكورة في النقوش الآشورية.

ولقد قال الحفيد الأكبر لأشور أبايت عنه إنه كان حريصاً على تأمين الأمن والسلامة لنفسه في أي مناطق بعيدة حتى حدود الجبال، وقد عزز لنفسه النضاح ضد القوى القاطنة في الأراضي الواسعة التي يسكنها (السباريان) -بيل- تدعى (موسري). وإن كلمة السباريان هي كلمة جالبة للمشكلات لها جذور في مختلفه في فترات متعددة، إن عنصرها الدائم أنها تدل دائماً على شعوب تسكن في شمال المثلث (وهذه من الممكن أن تعني كلمة تعود إلى عصر ما قبل السومريين تعني السابريين).

وهذا الاستعمال يعني أن كلمة أرض عند السابريان في ذلك الوقت تشير إلى مكان يقع إلى الشمال من الموصل، وهناك اختلاف حول المكان الدقيق (المصري) ولكن هاتين الكلمتين ربما تدلان على أن آشور أبايت اندفع إلى الشمال الغربي للسيطرة على (طور عابدين) وهضبتها، ونحن نسمع بعد ذلك الشيء الكثير عن هذه المنطقة التي تعرف طبقاً للمصادر الآشورية باسم كاشياري.

وعندما قدمنا النصف الثاني للقرن الرابع عشر وقلنا: إنه يولف بداية عصر جديد بالنمبة لآشور، كانت هذه المقدمة وسيلة حديثة لفرز التاريخ وتقسيمه إلى شرائح من الممكن التعامل معها، ولقد تعامل الآشوريون وعلوكم مع هذه

الحقيقة بنفس الطريقة وهي حقيقة تعكسها الألقاب الملكية، ومع أننا كنا نتكلم عن الملوك الآشوريين ابتداء من زمن الحكام الوطنيين في الألف الثالث، وجدنا أن حاكماً واحداً لأشور قد اتخذ لقب ملك خلال هذه النقوش الرسمية قبل القرن الرابع عشر، ويحكم تحت هذا سبب من الممكن أن ندعوه لاهوتي أو ديني. إذ إنه من وجهة الشخص الآشوري المتدين فقد كان الإله آشور هو الملك، أما الحاكم فهو ممثله من البشر.

أما الأبنية الملكية والنقوش الكريمة فقد كانت أصلاً وثائق دينية يتعهد بها أن تحل أعمال الحاكم التي تلقت انتباه الإله، وهكذا كان من المناسب أن نقول: إنه وفي مثل هذه الوثائق كان الملك يشير لنفسه بأسماء مثل الحاكم، أو النائب، أو رئيس العمال أو الخدم، أو القاضي الأعلى، ولقد ظهرت بدعة في النقوش الرسمية المتأخرة (أريك دن ايلي) (١٢١٩ - ١٢٠٨) الذي تجاسر وقدم لنفسه لقب الملك القوي، ملك آشور، وهذا تغيير يوحى بقرار حازم لتقديم اصطلاحات طنانة، فمن جهة حقاً لقد لقب (أريك دن ايلي) من قبل جده آشور أباليت الذي دعا نفسه ملك آشور، الملك العظيم وذلك في مراسلاته مع ملك عصر وسمى نفسه ملك آشور وذلك في ختمه، ولم يكن نفس هذه الألقاب لتستعمل في النقوش الرسمية المقصود بها اطلاع الآلهة.

ولقد تجاوز (حدد نيراري) وهو ابن (أريك دن ايلي) والده بدعوة نفسه ملك الكون.

لم تكن المناطق الشمالية فقط هي التي تأثرت بتوسع الآشوريين في بدايته، فلقد رأينا أن قتل أحد ملوك بابل وهو حفيد (آشور أباليت) قد أدى بالملك الآشوري للتدخل في شؤون وراثة العرش البابلي، ولقد استمر التوتر الناتج عن ذلك بعد موت آشور أباليت ويوصف خليفته أناليل ناراري الأول (١٢٢٩ - ١٢٢٠) من قبل حفيدته بأنه الرجل الذي ذبح ملوك الكاسيت، وهذا يدل على بابل التي كانت منذ عام ١٦٠٠ تحت حكم الأسرة الكاسيتية من زاغروس، وتذكر إحدى التواريخ معركة آشورية بابلية في مكان على بعد عشرين ميلاً جنوب غرب أربيل،

وقد بدا حكما أن ملك بابل قد غزا آشور في محاولة لتأكيد سيادته على آشور التي ادّعى بها قبل نصف قرن خلال مراسلاته مع ملك مصر، ولكن أضيف وصف آخر منح لأنليل ناريري الأول وهو:

«الشخص الذي وسّع الحدود والتخوم» وذلك يشير إلى محاولة قام بها لتوسيع أو على الأقل لدعم هذا التوسع تحت حكم آشور أبايته.

ولقد وسّع الملك الآشوري التالي وهو (أريك دن إيلي) (١٢١٩ - ١٢٠٨)، وطبقاً لما ذكر ابنه، وسّع الحدود الآشورية وتتفق إحدى التواريخ الآشورية ولكن بتفاصيل تُظهر أن انشطة (أريك دن إيلي) العسكرية لم تكن مجرد توسع، بل حرباً للحصول على بقاء الوطن، ويذكر هذا التاريخ حادثة طرد الأعداء من منطقة تيمد بضعة أميال إلى الشمال من نينوي، وهذا يدل على أنه حتى وسط البلاد الآشورية كانت مهددة من قبل غزاة من سفوح جبال طوروس، وقد تقلب (أريك دن إيلي) على هذه التهديدات وانسحب شمالاً إلى طوروس الشرقية حيث سكن الشعب المنتشر بكثافة المدعو شعب (القرطيين) وبعد ذلك اندفع باتجاه شمال غربي للاستيلاء على سهل كادموخ وهو المثلث الواقع غربي نهر دجلة والذي تحيط به هضبة (طور عابدين).

الفصل الرابع

توسُّع آشور

ندخل فترة أغنى بكثير بالنسبة للنقوش التاريخية، والملك المقصود هو (حدد نيراري) الأول (١٢٠٧ - ١٢٧٥) وقد كنا نحسُّنا الفضل لأشور أباليت باتخاذ الخطوات الأولى التي كانت سوف تؤدي إلى نشوء وارتقاء شأن الإمبراطورية الآشورية، ولقد كانت منجزات (حدد نيراري) كافية لجعل بعض المؤرخين يضمونه في دور مؤسس الإمبراطورية، وهذه النقطة تدعو للجدل ولكن من المؤكد أن حدد نيراري كان شخصية رئيسية بالنسبة للتوسع الآشوري.

حدد نيراري الأول

لقد وصف حدد نيراري نفسه بـ «قاهر الجماعات المتوحشة من قبائل الككاشيات والكوتيان واللولومونيان والسويريان»، وكانت كلمة الككاشيات تعني عادة البابليين في هذا الوقت (من المحتمل هنا بالإشارة إلى الحدود الجنوبية الشرقية لأشور) وكان الآخرون هم الشعوب الجبلية في زاغروس وطوروس الشرقية ابتداءً من جنوب كردستان إلى شمال غرب آشور، وأما في المناطق الأخرى فقد حدد نيراري فتوحاته بمصطلحات أرضية مثلاً من بلدة (لويدي) وأرض رابيككو إلى ايلوهات، وكانت لويدي قرب كركوك وهي قلعة تشير إلى الحدود في الغرب.

وأما ايلوهات فلم يتحدد موقعها، وقد ذكر بعضهم أنها واقعة إلى الشمال من ديار بكر، ولكن يظهر أنها كانت إلى الجنوب من ذلك الموقع، وتقع نهر بكر إلى الشمال من مضية طور عابدين، بينما هناك ثلاث بلدات سماها حدد نيراري كانت بالتأكيد إلى الجنوب من طور عابدين، وهذا يوحي أن حدد نيراري كان يماثل طور عابدين كحدود يسيطر عليها، ونجد الآن أن الجانب الجنوبي من مضية طور عابدين يرتفع فوق السهل، وهناك قلة بارزة واقعة فوق تلة (وتدعى الآن ماردين) وهي تحرس أحد الممرات، وابتقاء للأمان فإن أي شعب يحتل السهل

إلى الجنوب من طور عابدين سوف يحاول الاستيلاء على ماردين. وهكذا من الممكن أن تكون نقطة الحدود (أيلوهات) التي ذكرها حدد نيراري، هي ماردين بالذات.

ولقد اشتملت فتوحات حدد نيراري جنوب طور عابدين عدة مدن ميثانية بينها المدينة الميثانية العاصمة وهي واشوكاني (أوشوكاني) وهنا بدأت العلاقات بالتوتر ما بين ميثاني وآشور مع بقية مملكة ميثاني التي يشار إليها الآن بأسم هانيجالبات أو (هانيجالبات) التي ادعى الآشوريون أنها خاضعة لهم، وعندما أظهر ملك هانيجالبات المداوة لآشور، عمد (حدد نيراري) إلى اعتقاله ثم جلبه إلى مدينة آشور حيث أقسم بأن يكون تابعاً، وأجبر على إرسال جزية سنوية، ولكن هذه التبعة ضعفت واستغرق توقف هانيجالبات عن المقاومة وقتاً طويلاً، ولكن الملك الذي تلاه أعلن عصيانه وطلب المساعدة العسكرية من الجيش وهي القوة الرئيسية في المنطقة، إلا أن الجيشيين بقوا معابدين في هذا الطرف وبذلك سمحوا لحدد نيراري بالتغلب على قوى هانيجالبات وضم بلاده إلى آشور، ولقد تشجع حدد نيراري بما لحقه من حياد الحثيين فبدأ بإقامة علاقات سياسية مع ملك الحثيين القوي وتكلم عن الأخوة بينهما.

ولكن الملك الحثي لم يكن متائراً بالمعظمة الآشورية فعامل حدد نيراري بازدراء فكتب له يقول:

((لماذا تود أن أكتب لك حول الأخوة؟ فهل أنت وأنا خلقنا من نفس الأم؟)).

وبعد أن أصبحت هانيجالبات تحت قبضته أصبح حدد نيراري الآن مسيطراً على المنطقة بأجمعها حتى المنمطف الكبير للفرات، وهو من الحدود الطبيعية الرئيسية، وإلى الغرب والشمال من هذه المنطقة كانت تقع الإمبراطورية الحثية، وهكذا فقد أصبحت المنطقة الغربية والشمالية الواقعة بين دجلة والفرات تحت السيطرة الآشورية حتى المنطقة، حيث يقرب هذان النهران العظيمان من بعضهما في الشمال، وقد ساعد النهران على جعل هذه المنطقة منيمة ولكنهما أعطيا هذه المنطقة أهمية أخرى، إذ نظراً لأن هذين النهرين يحددان الطرق التجارية الرئيسية

في الشرق الأدنى القديم، لهذا أصبحت آشور الآن تمتلك السيطرة على هذه الطرق، مع أننا ينبغي أن نفترض أن أجزاء هذه الطرق التي تسير من غرب الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط كانت تحت سيطرة أيام صديقة، وخوفاً من أن يحدث العكس بالنسبة لهذه المناطق فقد كان هذا سبباً رئيسياً للتوسع خلال منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وأما في الجنوب وإلى الشرق من نهر دجلة فقد كان هناك ثلاثة حدود محتملة ما بين آشور وبابل ابتداء من الشمال إلى الجنوب، وكانت هذه الحدود الثلاثة منحصرة ما بين الروافد الثلاثة وهي الزاب الأدنى والدهم وديالا، ولقد شهدت هذه الحدود تصادمات عديدة خلال التاريخ الآشوري البابلي.

وقد عكس الخمد الذي اتخذته هذه الحدود الحالات النسبية الراهنة للمملكتين، إذ إنه وبعد المصادمات الحدودية امتطاع حدد نيراري أن يُملي اتفاقاً مع إحدى مناطق الحدود في خط يتبع نهر ديبالا من الزاغروس وتلالها حتى نهر دجلة، وقد ظهرت قصائد بطولية وهي إحدى الأعمال الأدبية الآشورية الأولى الغت للاحتفاء بالنصر الآشوري.

ولكن بابل أيضاً قد أحرزت نصراً ظُلّ وقتاً طويلاً، إذ إنه ومنذ هذا الزمن أصبح هناك تزايد مرموق لنفوذ الثقافة البابلية في آشور فقد أصبح أنليل الذي كان يتمتع بالسيادة في بابل تلك السيادة التي كانت تنتمي إلى الإله آشور في دولة آشور، هذه السيادة للإله أنليل أصبحت واضحة وبارزة في آشور، ولكن كلاً من حدد نيراري وابنه شلمنصر الأول أطلقا على أنفسهما لقباً رئيسياً وهو حاكم الإله أنليل.

وهذا وإن كانت أول قصيدة آشورية بطولية ذكرت أعلاه ما هي إلا علامة أخرى لوجود النفوذ البابلي في آشور، وأيضاً استعمال اللهجة البابلية (وليس الآشورية) عند كتابة النقوش الملكية الآشورية وهذه اللهجة البابلية قد ازداد عددها ابتداءً من زمن شلمنصر الأول.

شلمناصر الأول

يمود شلمناصر الأول (١٢٧٤ - ١٢٤٥) قم وهو ابن حلد نيراري إلى فترة قدر لها أن تلعب دوراً مرموقاً في الشؤون الآشورية خلال القرون الخمسة التالية، فتعز تقابل في نقوشه بكلمة يورواتري الذي تغير إلى يورواتري، فهي أوائل الألف كانت يورواتري تدل على مملكة قوية متمركزة على بحيرة (هان) شرقي تركيا، وكانت هذه قلادة أن تتحدى الإمبراطورية الآشورية نفسها، ولكن وفي أثناء حكم شلمناصر كانت هذه المملكة تتألف من اتحاد شعوب واقعة في جبال أرمينيا.

ويذكر شلمناصر شاتني أراضي جبلية تؤلف اسم يورواتري، ومع أن هذه لم تصبح مملكة واحدة إلا أنها كانت امتداداً واسعاً من السكان المستعدين نظراً لأن شلمناصر يتكلم عن تقريبه إحدى وخمسين مدينة من مندهم، حيث يشير المصطلح الآخر إلى أي مركز سكني ابتداءً من القرية حتى المدينة الرئيسية..

ومطبقة لأفضل الترجمات الحديثة يقول شلمناصر: إنه قد هاجم شعب يورواتري لأنهم تمردوا. والترجمة تدل أن شلمناصر كان يظن أن هذا الشعب من أتباعه الخاضعين له، ولكن الفعل يستعمل غالباً للدلالة على معنى محايد عن أولئك الذين يمبرون الحدود، ويبدو أنه من المحتمل أن هذا هو المعنى الصحيح للكلمة، فإن بعض شعب يورواتري كانوا يحاولون الاندفاع جنوباً إلى حيث كان شلمناصر يدعي بأنها أرض آشورية، وهكذا تقدم شلمناصر لهاجتهم ومدهم حفاظاً على الأمن القومي.

ويخبرنا شلمناصر أنه قد مجل بعض شباب يورواتري جنوداً في خدمته، وهذا يعني: وجهاً جديداً في السياسة الآشورية، إذ إنه ابتداءً من هذا الزمن أصبحت تتقل الشعوب المغلوبة على مقبلات أصبح واسعاً حقاً، وهذا العمل يتطلب بعض التفسير، فهناك تفسير مألوف وهو أن الهدف الرئيسي للآشوريين هو إسكان الشعوب المغلوبة ذات الميول التمردية حيث لا يستطيعون القيام بأي إزعاج لاسيما إذا سكنوا بين ظهر أي مجموعة عرقية غريبة.

ومن الممكن أن يكون هذا سبباً وجيهاً لهذه السياسة، ولكن من الصعب أن يكون سبباً وتفسيراً كاملاً، فلو كان الأمن العسكري هو الاعتبار الرئيسي فإن الآشوريين الذين لم يكونوا شعباً متأنقاً، فلن باستطاعتهم إحراز هذه الغاية عن طريق القتل الجماعي، ولذلك فإنه من الممكن أن يكون الحافز لهذه العملية من الإبعاد والتجهير الجماعي هو حافز إقتصادي.

وبعد التوسع في داخل هانيجالبات (وهي أساس ميثاني القديمة) فقد كسبت آشور أراضي جديدة واسعة لا تمتلك صفات زراعية مزدهرة فحسب، بل بلدات ومدين ناجحة وهذه الأخيرة قد وجد فيها صناعات مزدهرة متعددة من أعمال معدنية، ونشر الخشب، وخرابة بالمخرطة، والبناء، وصناعة الجواهر وهلم جرا، وقد ألف أصحاب الحرف هؤلاء مجموعة من المختصين يمكن استخدامها لمصلحة آشور.

هذا وإن القوة البشرية الإضافية التي أصبحت متوفرة حالما استولت آشور على مناطق أخرى إلى الشمال، سمحت بالاستثمار الواسع للأراضي الآشورية الزراعية المنتجة، وإن تنفيذ مثل هذه الإجراءات اقتضى حدوث حركات وتنقلات على مقياس واسع للسكان، ويذكر شلمناصر نفسه عن تجهير (١١.٤٠٠) من الشعب من هانيجالبات، ومن الممكن أن نضيف أنه ذكر قضية إحداث العمى بالنسبة لهؤلاء المهجرين، ولكننا نظن أن العمى كان لمين واحدة فقط، وإلا فإن هؤلاء العميان سوف يصبحون عبئاً اقتصادياً أكثر منهم مصادر قوة نافعة.

ولم يذكر شلمناصر ما فعله بأولئك الأسرى، ولكن هناك بعض الوثائق الإدارية التي صدرت في زمن شلمناصر أو خلفائه أعطت فكرة عما حدث لهؤلاء من أسرى الحرب من المناطق الأخرى، وهذه النصوص تذكر وجود حصص من الإعاشة من الحبوب والصوف، وهذا الأخير كان لتزويد العمال بمادة خام لصنع ملابسهم.

وهناك نص يذكر حصص الإعاشة من القصر (وهذا يعني: رئاسة الإدارة) وهو يمين شخصية الممثلين، وكان هناك (٧٢٠) أسيراً من أراضي شويرو

مقسمين في أربع مجموعات، كل مجموعة تحت إشراف مشرف آشوري مع وجود رئيس مسؤول عن الجميع، وكان هناك (٩٩) أسيراً من أراضى نينوى و (١٧٤) أسيراً من كادموخ تحت إشراف موظفين آشوريين، وكانت هذه الأراضي في المناطق الشمالية.

وكانت كادموخ في المنطقة ما بين الدجلة وطور عابدين، وكانت شويرو داخل أو شمال طور عابدين، كانت نينوى تقع إلى الشمال من نهر دجلة وإلى الغرب من بحيرة (هان).

ومع أننا لا نعلم الأعمال التي كان هؤلاء يكفون بعملها، إلا أننا من الممكن أن نستنتج ذلك، ففي النص يذكر وجود (عاشة) (على مقياس أكثر كرمًا) لبعض الآشوريين الذين يعملون كبنايين، وإن شمول البنائين الآشوريين يعني: إنهم كانوا مهندسين معماريين يشرفون على أعمال البناء بينما كان يعمل الأجانب كعمال بناء، وينبغي أن نلاحظ أن مجموع العمال الأجانب بالإضافة إلى سبعة موظفين آشوريين مسؤولين عنهم فإن المجموع النهائي يبلغ الألف.

وإذا أننا للتاريخ السياسي نجد أنه وخلال حكم شلمنصر كان هناك استئناف لأعمال الشعب في هانيجابات، فقد ثارت تلك المنطقة بقيادة ملكها التابع لآشور، وهكذا انقضى شلمنصر على تلك المنطقة طبقاً للأسلوب الذي اتبعه والده، ولكن ظهر عامل جديد الآن في هذه القضية والوضع وهو أننا نسمع الآن عن شعب يدعى (أخلامو) قد دعموا وساعدوا الهانجالباتيين، وهؤلاء الأخلامو كانوا حلفاء للأراميين وهم موجة جديدة من الساميين أتوا من الصحراء خلال الألف الثاني، وقد قرر لهم أن يقوموا بصدمات وتأثيرات كبيرة في الشرق الأدنى.

وفي هذه المناسبة استلم المتمردون الهانجالبات مساعدات من الحثيين وكانت هذه المساعدات لا تشمل المساعدات العسكرية ولكنها اشتملت على عقوبات اقتصادية ضد الآشوريين، ففي إحدى المعاهدات مع إحدى الدول الخاضعة وهي دولة أمورو في سورية، يقول الملك الحثي:

«لا ينبغي لأي تاجر من تجاركم أن يذهب إلى بلاد آشور، ولا ينبغي أن

تسمعوا لأي تاجر منهم أن يدخل بلادكم».

وكان الحثيون لا يزالون هم القوة المهيمنة الرئيسية، ولكن الأهمية المتنامية لآشور قد اعتُرف بها الآن، وعدا عن الاحتكاك فإن سكاناً من شلمناسر وظهفته (توكولتي نينورتا) قد قاما بمحادثات دبلوماسية مع الملك الحثي وذلك كما تدل بعض القطع من رسائلهم، ولم يعد الملك الحثي يهزأ بنظيره الآشوري كما حدث في زمن آشور ابلات، ولكنه كان يطلق عليه اسم الأخ المساوي له.

إن التطورات التي حدثت في زمن شلمناسر تقدم لنا الفرصة المناسبة للمس طبيعة الملكية الآشورية، ومنذ البداية كنا نتكلم عن الحكام الآشوريين كمملوك، ولكن الأشخاص المشار إليهم كانوا غالباً ما يستعملون ألقاباً أخرى، وكانوا يظنون أنفسهم تقريباً ملوكاً، فقد كان الملك الحقيقي للبلاد هو الإله آشور.

ومن وجهة دينية كان الحاكم البشري هو نائب الملك الإلهي، ومع ذلك وبسبب ذلك كانت قوته تعد أكثر من قوة بشرية نظراً لأنه كان يمثل نائباً عن الإله، ونحن نلاحظ هذا الوعي والشعور بأن الملك هو ممثل الإله وبصورة خاصة لدى شلمناسر، فإن توسعه ودخوله المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية قد أدت به أن يفكر أنه هو الراعي الإلهي الذي رفعت الآلهة فوق البشر المتحضرين، ولقد كان يُجبر الآخرين أن يدعوه راعي المجتمع البشري والمستوطنات البشرية، والراعي الصادق، وكان هذا اللقب من ألقابه الفريدة التي استعملها الكثير من خلفائه.

وعلى المستوى الإنمائي فإن أنشطة شلمناسر في الحدود الشمالية يبدو أنها كانت تضارع اهتماماً جديداً بالمدينة الشمالية العظيمة نينوى، فالنصوص من زمن شلمناسر تذكر عن إعادة بناء أحد المعابد هناك بالإضافة إلى معبد يخص آلهة تدعى: آلهة نينوى (أي: عشتار التي يحترمها أهالي نينوى) وقد وجدت هذه النصوص في داخل (الماصمة آشور نفسها).

هذا وقد وجدت أنواع من الألواح المختصة بشؤون العمل في نل (الرماح) على بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الغرب من نينوى، ويعود تاريخها إلى عهد متأخر من حكم شلمنصر أوائل عهد خلفته، وهذا يشهد على وجود تجارة مزدهرة في القطاع الشمالي من آشور بما فيها تجارة التصدير مع بلاد ناپيري، والأناضول.

وقد سمعنا فيما بعد انه لا شك ولحماية هذه التجارة فإن شلمنصر قد وضع حاميتين في مدينتين على حدود (ناپيري) ولكن هاتين الحاميتين قد احتلتهما جيوش الآراميين فيما بعد، ومع أن نينوى لم تصبح العاصمة الرسمية لآشور حتى الألف الأول ق م إلا أن أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية بدأت تتفوق على آشور حالما بدأت فترة توسع الدولة الآشورية شمالاً وغرباً، وإن اهتمام شلمنصر بنينوى ينعكس هذا الوضع.

توكولتي نينورتا الأول

لقد استمرت عملية توسع آشور المتحركة تحت حكم توكولتي نينورتا الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨) وهو ابن شلمنصر، وكان هذا من الفاتحين الذين يشبههم البمض بنمرود، وأنه كان نسخة عن نمرود، وهو الذي تصفه التوراة في سفر التكوين (٨/١٠) بكونه الصياد القوي، أمام الإله، وهناك حالات مشتركة بين أعمال توكولتي نينورتا الباهرة وأعمال والده وجدده، ولا عجب في ذلك ما دام أن المشكلات التي كانت آشور مضطرة لمعالجتها لم تتغير.. ولكن (توكولتي نينورتا) هاق أجداده ليس في النسبة للمسافة فحسب، بل بالنسبة لاستثمار المناطق التي كانت تدور في فلك آشور.

هذا ولقد أصبح اختراق آشور واضحاً للعيان.. ولقد أصبح توكولتي نينورتا صريحاً بالنسبة للأراضي التي غزتها جيوشه خلال المنطقة الواسعة في الجبال الشمالية التي دعاها أرض القوطيين، وتظهر المعلومات التي أوردها أن لديه معرفة أوسع من معرفة أسلافه بالنسبة لتنظيم الشعب في تلك المنطقة، فلقد سعى

الململكة الرئيسية وحدها باسم (أكوميني أو أكوماني) وفيما بعد أصبح اسمها كوماني) واستطاع أن يعرف اسم ملكها.

ولقد عرف أن البنية الاجتماعية في تلك المملكة كانت اتحاداً مفصلاً تحت حكم الأمراء، ولكنها كانت متقدمة اجتماعياً نظراً لأنه كان فيها مدن مسورة، وكانت جيوشها حسنة التنظيم، وهذه الحقيقة أدت إلى إقتراف سكان الجبال خطأ تكتيكياً، إذ بدلاً من الاعتماد على حرب العصابات في أرضهم الجبلية الصعبة، الأمر الذي كان سوف يقدم لهم فوائد للتفوق على الجيوش الفازية، فقد أشرعوا قوامهم في معركة محددة، وفي مثل هذه الأمور لم يكونوا أكفاء للقوى الآشورية المدربة، وهكذا أصبح نوكلوتي نينوترا سيداً لأراضي القوط الواسعة، وقد أسر أمراء أكوميني وتقلهم إلى آشور وأخذ منهم عهداً بالولاء، وبعدها سمح لهم بالعودة إلى بلادهم كأتباع.

وهنا نرى المظهر الاقتصادي للفتوحات الآشورية، وذلك لأن أولئك الأمراء الأتباع المطلوبين كانوا خاضعين لنظام التجنيد وجباية الضرائب الذي في هذه الحالة يعني أن عليهم أن يؤمنوا العمال لقطع الأخشاب وإرسالها إلى آشور، وهكذا بدأ نوكلوتي نينوترا في استثمار غلات طوروس الشرقية خدمة لمشاريعه العمرانية في آشور، وكان على الأمراء تقديم جزية ثقيلة سنوياً لآشور، وكانت الزيارات المنتظمة من هذا النوع تؤمن القضاء التي من خلالها يؤثر النفوذ الثقافي الآشوري على شعب أكوميني، ونجد أيضاً بعض الموظفين من أكوميني يعملون عمالاً في آشور في ذلك الوقت، مقابل استلام الإعاشة من آشور.

ولقد عمل نوكلوتي نينوترا على جمع أخبار فتوحاته بالوصف الجغرافي لحدوده، التي كانت عبارة عن نصف دائرة من الجبال والأراضي الجبلية ابتداءً من الرأب الأدنى حتى الفرات، وتعتمد التفسير الدقيقة لهذا الوصف على إثبات شخصية الأماكن المذكورة التي لم تكن خالية من الاتيلسات، ولكن إحدى التفسير الممكنة لحدوده موجودة في الخارطة في الصفحة المقابلة.

ويعد أن أصبح الشمال هادئاً اتجه توكونلي نينوترا الآن إلى جلقته الجنوبية وهي بابل، وكانت المصادمات الحدودية الظاهرة الصائدة في العلاقات الآشورية البابلية، ولكن ما حدث الآن كان مسألة أشد خطورة تطورت إلى غزوة ناجحة لبابل، ولقد أنشبت قصيدة بطولية لألاحتال بهذا النصر وطبقاً لهذه القصيدة التي تعبر عن وجهة النظر الآشورية، فإن الملك البابلي (كاشتيلاش) هو الذي انتهك حرية السلام وذلك بالإغارة على آشور.

ولكن محب السلام (توكونلي نينوترا) عمل على حل الخصام بصبر عن طريق الوسائل الدبلوماسية حتى أجبرته غطرسة الملك البابلي ولم تترك له خياراً سوى إعلان الحرب، ولقد تبع ذلك غزو ونهب وسلب لبابل ومعبداتها العظيم، قد عُزل ملك بابل وأصبحت بابل معكومة لمدة سبع سنوات من خلال حكام آشوريين.

وكان لهذه الأحداث أبعاد دينية، فلم تكن لبابل بلاداً بريرية بممكن غزوها مثل المناطق الواقعة فيما وراء آشور الشمالية، بل كانت مصدراً ومركزاً حضارياً وكانت العاصمة بابل مزاراً دينياً ذا مرتبة عالية للقداصة، وإذا سلبت بابل في العالم القديم كان مثل سلب الفاتيكان أو القدس في هذه الأيام.

وكان للقصيدة البطولية وظيفة تقديم تبرئة لآشور من التهجيم ضد الدين والتقوى، فضلاً عن تنفيذ الشعور بالفخر لدى الآشوريين بالنصر، فقد عمل توكونلي نينوترا ما قصدت القوى الإلهية منه أن يعمل، وتروي القصيدة كيف أن آلهة بابل بالإضافة إلى الحارص الإلهي مردوك في مقدمتهم قد أشاروا في أول الأمر عن عدم رضاهم عن أعمال ملك بابل كاشتيلاش، وذلك برفض أي إشارات مشجعة لمقاومته توكونلي نينوترا، ولهذا فقد هجرته هذه الآلهة كلياً، وانسحبت من تلك المدن التي كانت تخصهم، وقد تمثل هجر مردوخ لمدينته بابل بأن أخذ ملك آشور تمثال الإله مردوخ ونقله إلى آشور حيث ظل هناك نحو قرن من الزمان على الرغم من استعادة بابل لاستقلالها.

وبشكل تهكمي فإن استيلاء ملك آشور على بابل كان له تأثير طويل الأمد على آشور أكثر من تأثيره على بابل نفسها ، إذ إنه عن طريق هذا الانتصار والاحتكاك الثقلي الواسع فإن آشور أصبحت مفتوحة لتأثير النفوذ البابلي الديني والسياسي ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأسرى الذين أخذوا إلى آشور ومن بينهم ملك بابل كان لهم وقع وتأثير مرموق على آشور ، إذ إنه وخلال سبع سنوات حدث عصيان في بابل مما سبب حدوث صدمة بالنسبة لملك آشور.

يذكر ملك آشور في نقشين مكتبا في نهاية حكمه أنه وفي بداية حكمه جلب إلى آشور (٢٨٨٠٠) أسير حتى من منطقة فيما وراء نهر الفرات (أي: من شمال سورية) وهذا القول محير وذلك لأنه لم يذكر أي خبر من هذا القبيل في أي نقوش من السنوات الأولى ، فنحن نعلم من كثير من الرسائل أن ملك آشور وفي بداية حكمه كان يحاول أن يبدأ علاقات سياسية حسنة مع الحثيين ، فهل من المقبول أن يكون ملك آشور قد ألغى نقوشه الماضية للحفاظ على حساسية الحثيين ، لكن هذا يبدو غير محتمل الوقوع.

إن أي هجوم عام يقوم به ملك آشور على الأراضي الحثية سوف يُسبب إلى العلاقات. وبغض النظر عن كون ملك آشور قد اختار أن يسجل هذه الحقيقة أو لا ، وعلى كل حال فإن والده شلمنصر في نقوشه يشير إلى ذبح الجيوش الحثية ، وكانت هذه النقوش موضوعة في آشور بحيث إن المراسلات التي قام بها ملك آشور قلما تسبب الفتور بين الدولتين ، ويبدو أن ادعاء ملك آشور بالانتصار على الحثيين لم يكن سوى نوع من المبالغة المؤسسة على غارة بسيطة ، وقد قدم هذا الانتصار على الحثيين في نقوشه لتلميح اسمه وصورته عندما سادت الأمور معه بعد التمرد التاجع الذي حدث في بابل ، وهكذا أصبحت كرامته في الميزان فأصبح من الواجب اختراع انتصار ضد قوة عظمى ليقابل تأثيرات حظه العاثر.

وخلال القرون بدل الملوك الآشوريون عواصمهم ومن بينهم توكلتي نينوترا ، ولم يوضح الملوك الذين قاموا بالتبديل أسبابهم ، ولكن هناك عاملين بارزين يبدو أنهما عملا في ذلك المسبيل في درجات متفاوتة.

والأول: كان استراتيجياً، فالعاصمة القديمة ربما كانت لا تصلح بأن تكون مركزاً للدولة في الحالة الراهنة، ولكن هناك علماً ثانياً : وهو التوتر الحاصل بين المواطنين والحكومة ، ففي المدن القديمة كان المواطنون يتمتعون بحقوق تقليدية بما فيه الإغناء من بعض أشكال الضرائب فضلاً عن الحقوق المتوارثة على الأرض، فقد كان من الممكن أن تطفئ المشاريع العمرانية في العاصمة على حقوق المواطنين تلك، أو ربما كانت احتياجات الدولة الحالية تقنع الملك أن يخفف من الامتيازات الضرائبية للمواطنين، وأن أياً من هذه العوامل سوف يولد الاحتكاك.

وهكذا ولتخفيف مثل هذه الاحتكاكات كان الملك يجد أنه من المرغوب فيه نقل عاصمته، وهذا ما فعله ملك آشور توكونوتي نينورتا، فقد بنى في أواخر مدة حكمه عاصمة جديدة هي كار توكونوتي نينورتا على الضفة المقابلة لنهر دجلة لأشور، وذلك لكي تستخدم هذه المدينة كمركز لحكومته ابتداء من زمن حملته على بابل حتى نهاية حكمه.

فلقد كانت التوترات خلال دولة آشور هي العامل الرئيسي لبناء العاصمة الجديدة، وقد سبب هذا التوتر إنهاء حكم توكونوتي نينورتا وإنهاء حياته أيضاً، وخلال سبع سنوات من تقلب الآشوريين على بابل حدث عصيان هناك سبب إرجاع ملك بابل الشرعي إلى عرشه الموروث من أجداده، وإرجاع استقلال بابل عن آشور، فقد عملت التقاليد الدينية القديمة في المشرق الأدنى على زعزعة حكم توكونوتي نينورتا، فقد كان أي عصيان ناجح تهديداً لحكم الملك مستدعياً موافقة الإله على حكم الملك، وكان هذا العصيان خطراً عندما يحدث في بابل نظراً لما تمتعت به بابل وأنها من هبة وكرامة.

وهكذا حدث بالانتمية لملك آشور، إذ إنه وطبقاً لبعض التواريخ لقد تبع استيلاء بابل لنيل الاستقلال حدوث مؤامرة في القصر في كار توكونوتي نينورتا، وتقول هذه النبذة التاريخية:

((لقد عمد ابن توكونلي نينوترا وهو آشور ناصر بعل ونبلأ آشور إلى القيام بعصيان ضد الوالد الذي مدّ يد الشر على بابل، وأنزلوه عن عرشه وسجنوه في بناء في كارتوكونلي نينوترا، وقتلوه بواسطة أحد الأملة)).

لقد سبب قتل الملك مع تورط أمير من الأمراء في الجريمة بعض التشويش والبلبلة في قضية وراثية العرش، وقد انعكست هذه البلبلة على مصادرنا التاريخية، فالتقاتل قد ربح العرش مؤقتاً ولكن ومع أنه فعل هذا فإن ذلك لم يدم طويلاً، لأن الوريث الشرعي المعترف به كان ابناً آخر عن أبناء توكونلي نينوترا وهو (آشور نادين ابلي) وإن المدة القصيرة التي حكم بها هذا الابن وثلاثة من خلفائه، فقد حكم الأربعة مدة ثمانية وعشرين عاماً فقط، تشير إلى وجود فترة من عدم الاستقرار نتجة لذلك التوتر الداخلي الذي انعكس من خلال تلك المواقف ضد الملك توكونلي نينوترا.

صمت مرحلة الاضطراب

لقد أحب الملوك الآشوريون تسجيل أعمالهم ومآثرهم ليس لاطلاع البشر عليها بل للتأكد أنهم قد حصلوا على التأييد من الآلهة.

وهكذا فإن حدوث فترة تخلو من النقوش الملكية من المحتمل أن تكون فترة افتقر فيها ملك آشور إلى وجود منجزات كبيرة أثناء حكمه، ونحن الآن ندخل في مثل هذه الفترة، فقد أصبحت النقوش قليلة تعكس العجز الذي ضرب آشور، فنحن لا نعرف شيئاً مهماً عن حكم آشور نادين ابلي سوى أن نهر دجلة قد تغير مجراه، فقد عاد إلى مجراه القديم بفضل الأدعية الملكية للآلهة مع مساعدة المهندسين الآشوريين، ولم يحسن هذا أمراً مهلاً، فإن انتقال نهر يعني الحسم بالموت على أي مدينة تعتمد على النهر في مواصلاتها وأساليب الري فيها، وحتى حدوث تغيير طفيف في مجرى النهر ربما أدى إلى نتائج خطيرة لاسيما بالنسبة لوسائل الدفاع عن المدينة، إما عن طريق تقويض أسس الأسوار والتسبب في

سقوطها ، أو عن طريق تركه أجزاء صغيرة من السور كانت تحميها مياه النهر معرضة للانقياس.

والحقيقة أن طوفان المياه كان من الأسباب الأساسية لسقوط آشور نهائياً عندما كانت آخر عاصمة فيها وهي نينوى تحت الحصار عام ٦١٢ ق.م.

وكانت هناك عدة مشكلات تواجه آشور في هذه الفترة المظلمة عدا عن انتقال النهر، فقد حدثت حركات لبعض الشعوب على مقياس واسع بحراً وبراً في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط مما سبب انهيار الإمبراطورية الحثية، وحدثت محاولات استيطانية على طول الشواطئ الشرقية، ولقد كان لهذه الحوادث صدى وأثار تالية على التجارة وطرقها، قد أثرت على آشور بشكل منعكس، بينما أثرت الشعوب المهاجرة تأثيراً مباشراً على ممتلكات آشور الغربية والشمالية، وأصبحت بابل حسب بعض المراسلات بين حكام الملكتين، في حالة ووضيع سياسي مكفئها من التدخل في شؤون آشور، وانعكس هذا في قضية وراثة العرش الآشوري، فقد كان الملك الرابع من الملوك الصفار الذين تلو توكولتي نينوترا واسمه (نينوترا - إيبيل - إيسكور) بعيداً جداً عن الأسرة الحاكمة بحيث إنه عزا حقه في الوراثة إلى ملك عاش قبل قرن.

وهكذا أصبح هناك بعض التدخل في قضية وراثة العرش، وقد أصبحت خلفية هذا الوضع ظاهرة عندما نعلم أن (نينوترا - إيبيل - إيسكور) حصل على السلطة من إحدى قواعد بابل بعد اصطدام آشوري بابلي، وقد حصل هذا الأمير على السلطة بعد دعم وموافقة بابل.

ولكن وبمرور الزمن فقد خدم هذا التدخل مصالح آشور، إذ أعطى هذا التقارب قاعدة لتجديد الاستقرار الداخلي بحيث إن ابن الملك الجديد وهو آشور - دان الأول (١١٧٩ - ١١٢٤ ق.م) كان حكمه أطول حكم في تاريخ آشور، إذ إن ندرة وجود النقوش توحى أن آشور كانت على طريق التوحد بهدوء، دون حدوث أي مقامرات سياسية وعسكرية.

وقد ذكر عن تصادم حدودي بين آشور وبابل ولكن هذا لم يكن أكثر من حادث عارض موضعي ولم يكن يعني أي اعتداء من قبل إحدى المملكتين.

والحقيقة أنه ونحو منتصف القرن العشرين لم تكن آشور ولا بابل هي التي سيطرت على الحوادث في منطقة ما بين النهرين، بل وجدت قوة ثالثة وهي عيلام في جنوب غرب إيران (خوزستان) فكانت هذه المنطقة ابتداء من الألف الثالث حتى يومنا هذا ذات تورطات قليلة من حين لآخر مع الثقافة والتاريخ في منطقة ما بين النهرين، وقد انعكست هذه الروابط الثقافية في التوراة التي تقول: إن عيلام سكان آخا آشور (سفر الخروج ١٠ - ٢٢). مع أنه بالنسبة للغة كانت لغة عيلام مختلفة عن لغة بابل وآشور.

وفي أوائل حكم آشور - دان عندما حدثت بعض الاضطرابات في بابل حاولت عيلام التوسع إلى جنوب ما بين النهرين، فقد غزا أحد حكام عيلام بابل في القرن الثالث عشر، وتصادم هناك مع توكلوتي - نينورتا ولكن التوسع العيلامي في القرن الثاني عشر كان قضية طويلة الأمد، فقد هاجم العيلاميون المنطقة المحاذية لنهر دجلة - حيث كان هناك طرق تجارية مهمة ووصلوا إلى بابل نفسها عام ١١٦٠ ق.م، وهكذا انتهت سلالة الملوك الكاشيين القديمة وظل قسم كبير من منطقة شمال شرق بابل تحت الحكم العيلامي نحو ثلاثين عاماً حتى أصبح حكم بابل عبثاً على موارد العيلاميين، ولقد أثر هذا على آشور هامشياً عندما امتدت سيطرة الميلايين شمالاً تجاه الزاب الأدنى في منطقة حدودية وكانت معرضة للخصومات ما بين بابل وآشور، ونتج عن ذلك تأكيد أهمية آشور استراتيجياً واقتصادياً في المنطقة إلى الجنوب الشرقي من الزاب الأدنى.

في منطقة الشرق الأدنى القديمة كانت الفرصة الرئيسية لظهور تأثير الرأي العام الشعبي عند موت أحد الملوك، إذ إنه كانت تحدث اضطرابات عند موت أحد الملوك لاسيما إذا كان حكمه طويلاً، تصل إلى حد التمرد.

وكان الأمراء المتنافسون يضمون أنفسهم على رأس الفئات المتنافسة، وقد حدث هذا عند موت آشور - دان، عندما اختصم ولداه الذي فكانت بابل تؤيد أحدهما، فقد حكم أحدهما وطرد وأما الثاني فمن المحتمل أنه قتل.

هذا وقد عادت الحالة السوية الاعتيادية إلى آشور عند حكم آشور - ريمش - ابشي الأول (١١٢٢ - ١١١٦) ق م ولكن الحالة الطبيعية الاقتصادية لم تُعقد أبداً، ويمكن أن نستنتج ذلك من نصوص ترجع إلى هذه الفترة تذكر وتسجل وصول بعض الأغنام والمواشي إلى البلاط الملكي من بعض الموظفين المختلفين، وإعطاء الترتيبات المفضلة بالنسبة لتوزيع هذه المواشي في العاصمة، وأما الإنتاج الزراعي والأعمال الرتيبة لمصلحة الإدارة الآشورية فقد استمرت ولم تقاطعها سوى بعض المصادمات في الخارج أو النزاعات للحصول على السلطة في الداخل.

الفصل الخامس

الإمبراطورية الآشورية الوسطى

لقد وصلنا الآن إلى واحد من أبرز الشخصيات في التاريخ الآشوري وهو تملات - بلاسر الأول (١١١٥ - ١٠٧٧) ق م وهذا يضمننا وجهاً لوجه أمام مشكلة متواترة، فقد بدا أن الفترات التي كانت آشور فيها دولة فتية نشيطة وكان ملوكها شخصيات مرموقة، هذه الفترات كانت تتعاقب في أوجه كانت الشخصيات الرئيسية تدوى وتذوب في خفايا التسيان، وهكذا يجابهنا السؤال: هل رفع الملوك الأقوياء شأن آشور وقوتها إلى درجة الازدهار عن طريق قدرتها الموروثة الداخلية؟ أم أن تلك الظروف المواتية المألوفة التي مرت بها الدولة الآشورية قد أثرت في ملوكها، وأثرت على تجسيد الدولة المنظور بحيث أكسبتها هالة من التصميم والقوة؟ وأظن أن الحقيقة تقع فيما بين هذين الرأيين المتطرفين.

إذ لا يستطيع أي ملك مهما كانت قوته أن يرفع آشور إلى ما كانت عليه من قوة وازدهار ضمن ظروف معاكسة دلياً وأحوال قاسية، ولكن عندما ظهرت ظروف دولية مواتية لأشور فإن أي ملك حازم قادر يستطيع تحقيق الفوائد الكاملة من هذه الظروف.

ففي الجزء الأعظم من القرن الثاني عشر كانت الظروف غير مواتية لتقدم آشور، فلقد ظهر العامل الميلاي ولكن الحركة العنصرية التي حدثت حول الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط والتي كشفت عن خرافة مقوطة طروادة بعد أن جرفت وطردت الإمبراطورية الحيثية من الأناضول، وجلبت بعض الشعوب الجديدة التي تتمثل في أفضلها المعروفة وهم الفلسطينيون الذين في سورية وفلسطين وهددوا حتى مصر.

ولا شك أن الموجات الطاغية الناتجة عن هذه الحركات (إذا جاز لنا أن نستعمل هذا العنوان لنقضي ممرتها بالتعاصيل) ينبغي أن تكون قد وصلت إلى

منطقة الفرات وعملت التجارة على طول ذلك النهر وبذلك قد عطلت التماذج التجارية في آشور نفسها.

تجدد آشور

بدأت المسائل بالتعسّن في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر عندما ظهر بعض الملوك المرموقين مرة ثانية في آشور وبابل، وتبدل النقوش المعتمدة إلى آشور - ريثن - إيشي أنه كان في وضع يستطيع فيه أن يقوم بزحف على الجبال الواقعة إلى شرق وشمال آشور خارج أراضي آشور الأصلية، ولكنها واقعة ضمن السيطرة الآشورية، وقد ساعد الازدهار المتزايد على تنفيذ بعض مشاريع إعادة البناء مثلاً إصلاح الأبنية المتضررة بسبب حدوث زلزال في أوائل القرن.

ويظهر تفلّات بلاسر الأول ابن ووريث آشور - ريثن - إيشي، ظهرت لنا علائم واضحة على انبعاث آشور الذي أصبح ممكناً عند حدوث التجديدات في الظروف العامة، ولكن وبسبب شخصية الملك نفسه، فقد ظهرت استراتيجيات واضحة عن طريقها استطاع تفلّات بلاسر أن يمالج بنجاح المشكلات المواجهة لآشور، وقد سوّت كل خطوة من خطواته إقدامه على معالجة الخطوة التالية.

ولكن لدينا الآن الصدي الأخير، وهو حوادث تفلّات بلاسر والحركات التي قامت بها الشعوب في شواطئ البحر الأبيض المتوسط وأسيا الصغرى حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. ويخبرنا تفلّات بلاسر أنه وفي بداية حكمه إلى شعب يبلغ تعدادهم عشرين ألفاً يدعى شعب الموشكي الذين احتلوا الأراضي الواقعة إلى شمال غرب طور عابدين لمدة خمسين عاماً اتوا واحتلوا أرض (ككادموغ) المجاورة لأور من الجهة الشمالية الغربية والتي كانت تعد مقاطعة آشورية، وقد ترك أسلاف الموشكي بعض الشك أنهم أحد الشعوب التي قامت بالهجرات العامة في آسيا الغربية في أواخر الألف الثاني ق.م.

الحرب الوقلانية

ليس لدينا أي دلالة عن أي عمل آشوري ضد شعب الموشكي ما داموا ساكنين فيما وراء (طور عابدين) إذ كانت أعمال تغلات بلاسر تقتصر بالدفاع عن أمن آشور ولم تكن أعمالاً عدائية نظراً لأن التدخلات الآشورية إنما بدأت عند غزوهم كادموخ، والحقيقة أن هذه الغزوة اعتبرت تهديداً مباشراً لآشور وذلك لأن تغلات بلاسر قام بهجوم سريع ممالكهم، وقد سجل أنه لم ينتظر حتى يؤمن مؤخرة الجيش أي: إنه رأى الوضع بشكل ينفي فيه العمل السريع الذي لا يسمح بالتأخير بالنسبة للإجراءات العادية التحكيفية.

ولقد نجحت هذه المهجمة الطفانية الأولى، فقد وقع ستة آلاف من الموشكي في الأسر وبعد ذلك استقروا في الأراضي التي غزوها واعتبروا كأتباع لآشور، وفضلاً عن مساعدة هؤلاء في الإنتاج الزراعي، فقد كانت لهم فوائد عسكرية لتغلات بلاسر وذلك لأنهم قدموا له (١٢٠) عربة حربية وقطيعاً من الخيول وبعض الملحقين من الموظفين الأكفاء.

إن نجاح العملية ضد شعب الموشكي شجعت تغلات بلاسر على اتخاذ خطوات أخرى في بيان الحرب، فقد عبر بعض أهالي كادموخ الموالين للغزاة إلى الضفة الشمالية من نهر الفرات لكي يتعدوا الآشوريين من قلعة هناك، فقد طارد تغلات بلاسر هؤلاء المتمردين ثم بدأ في خصام مع شعب يدعى بابنجو (من الواضح أنهم كانوا يتكلمون اللغة السورية، مما يظهر من أسماء ملوكهم) وكان هؤلاء منتشرين إلى الشمال من نهر دجلة، ويظهر أن اسم بابنجو لم يكن اسماً اصطلاحياً عرقياً بل كلمة (حورية) تعني: شعب جبلي.

وبعد مناقشات طفيفة حدثت في جوار نهر دجلة قاد تغلات بلاسر جيشاً واتجه إلى حيث كان شعب البابنجو في الداخل، ومع أنه كان يشير إلى حرق المدن والاستيلاء على الفنائم، إلا أن قلة التفاصيل حول أسماء المدن يجعل من الواضح أن هذه الغزوة لم تكن سوى غزوة استطلاعية.

وقد كان لغزوة وعمل تغلات بلاسر القوي الحازم ضد شعب الموشكي في كادموخ آثاره على المناطق المجاورة الواقعة إلى الغرب حيث كان هناك مجموعات أخرى من الشعوب، وقد وصف أحدهم الشعوب بكونه المماكر غير الراضين من الحثيين، وربما كان ذلك يعني المجموعات المنظمة التي انتقلت باتجاه جنوب شرقي بعد تفسخ الامبراطورية الحثية.

وهناك أيضاً ذكر لشعب (كاسكا) الذين كانوا يعيشون بمحاذاة البحر الأسود في فترة سابقة، وربما رحب مثل هؤلاء بالفرصة التي تجعلهم يُقبلون أعضاء ضمن قوة وطنية راسخة ولهذا فقد خضع هؤلاء عند قدوم تغلات بلاسر الذي قبلهم أتباعاً له وهكذا بدأ تكوين ذلك التمازج المرقى الفريد الواسع في آشور.

تغلات - بلاسر في الأناضول

لقد تابع تغلات بلاسر غزواته الاستطلاعية فيما وراء كادموخ بقيادة جيشه الرثيسي المدعوم بالمربيات البحرية عبر نهر دجلة ثم شمالاً إلى داخل أرض (بانجو) وحيث كانت الجبال غير صالحة لمسير المربيات يخبرنا تغلات بلاسر أن جنوده كانوا يحركون المربيات بالقوة البدنية فقط وذلك لأن ذلك كان ضرورة في بعض الأحيان، ولكن كان هناك طرقاً يمكن أن تمر بها المربيات بسهولة فوق جزء كبير من تلك المنطقة، ولقد حاول شعب (بانجو) إيقاف جيش تغلات بلاسر عن طريق بعض المناوشات في الجبال ولكنهم فشلوا واستمر الجيش الآشوري في تخريب ونهب عدد من الأراضي في (بانجو).

وقد عدد أسماء تلك الأماكن مما يدل أنه كان على معرفة بالمنطقة، ويبرهن تعداده لأراضٍ مختلفة أنه لم يكن هناك أي مملكة قد نشأت هناك.

من الواضح أن حملات تغلات بلاسر قد قادته إلى شمال نهر دجلة وإلى الأناضول الشرقية ولكن لا يعلم بالضبط إلى أين وصل، ومع ذلك فإن لدينا وسيلتين من المعلومات حول هذه القضية، إحداهما وصوله إلى مدينة (ماليد) (تعرف اليوم باسم ملاطية) وقد سجل فتحه لهذه المدينة.

وهناك إثبات آخر يقدمه نقش تركه تغلات بلاسر على إحدى الصخور في منطقة (ملازكرد) إلى الشمال الغربي من بحيرة (فان) وقد كان نص النقش كما يلي:

«تغلات بلاسر، الملك القوي، ملك العالم، ملك آشور، ملك أرمكان العالم قاهر بلاد (نايري) ابتداءً من أرض (تومي) إلى أرض (دايننو) وقاهر أرض حيجا حتى البحر العظيم».

من الواجب أن يقدم لنا هذا النص حدود حملات هذا الملك، فهو يمتد خمس مناطق جغرافية ولسمو الحظ لا يمكن تعريف أي واحدة بشكل حازم لا بتلحق إليه الشك، وحتى وبالنسبة لتغلات نفسه كانت (نايري) اسماً غامضاً فقد كانت الأرض المرافقة للملوك الستين (لنايري) الذين واجههم وطاردهم خلال إحدى حملاته، وكانت (تومي) ودايننو تعني شيئاً معروفاً لديه، فقد كان يثبت مناطق تدخل داخل ذلك الاسم العام وهو (نايري) ولكن وعلى الرغم مما كتب عن تلك البلدان إلا أنه ليس هناك من شيء أكيد.

وكل ما يستطيع أن يقوله المرء هو أن (نايري) كانت واقعة إلى الغرب من بحيرة (فان) وجنوب (طور عابدين) مع وجود قليل من التأكيد حول الحدود الغربية والشمالية وأن (تومي) و(دايننو) كانتا النهايتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية بالتوالي بالنسبة (لنايري) والبحر العظيم، ولكن يعتمد الفهم الخاص لهذه الأمور على ماذا يعني البحر العظيم؟ ومن المعتاد أن يعني: البحر الأبيض المتوسط، ولكن هناك اسم آخر لهذا البحر وهو البحر الأعلى مع أو دون إضافة كلمة (إلى الغرب).

وتظهر بعض الملاحظات بالنسبة للحقيقة التي مفادها أن البحر الأعلى (دون إضافة كلمة (إلى الغرب) من الممكن أحياناً أن يدل على بحيرة (فان) وليس من المستحيل أن للبحر العظيم صفتين مزدوجتين وهما البحر الأعلى وفي نقوش تغلات بلاسر تعني بحيرة فان.

هذا وإن التفسيرات الوحيدة غير هذه، هي إما أن نفهم البحر العظيم هنا بمعنى العام وهو البحر الأبيض المتوسط الذي لا يمكن أن يطابق الوضع جغرافياً أبداً أو أن نعتبره البحر الأسود، وهذا التفسير يناسب اختراقات تفلّات بلاسر، مع أن بعض العلماء يقبلون ذلك بالمعنى المذكور هنا.

ومهما كانت جغرافية توسعات تفلّات بلاسر إلى الشمال، فمن الواضح أن الباعث الرئيسي لهذه التوسعات كان اقتصادياً، فهو يسجل الغنائم بشكل أوان نحاسية وبرونزية وكذلك مجموعات الخيول والمواشي التي تُعدّ بالأنوف وقطعان الثيران والحمير، ولقد ذكرت الاهتمامات الاقتصادية لتفلّات بلاسر في نقوشه فهو يقول:

((لقد جمعت جميع أراضي آشور مجهزة بالمحاريث بحيث تزيد مخزونات القمح فوق التي كانت في زمن أسلا في، ولقد ربيت قطعان الخيول والمواشي والأغنام)). وكان واضحاً أيضاً بالنسبة لسياسته الرامية لزيادة مساحة أراضي آشور وطبقة الممال فيها وذلك بواسطة تهجير الشعوب المهزومة، وكذلك فقد طوّر الذراع الحربي وزاد في عدد العربات الحربية بشكل لم يمهّد به أحد من قبل.

تهدد الآراميين

لم تكن أعمال تفلّات بلاسر البطولية متعددة بحملاته إلى الشمال، فقد امتدت نشاطاته إلى جميع الجهات حوله ولاسيما على ضفاف الفرات وهي التي يقول عنها:

لقد عبرت نهر الفرات ثمان وعشرين مرة في اقتفاء آثار الآراميين. ولقد عرف نهر الفرات وهو الشريان الرئيسي للمواصلات وشهد حركات القبائل الرحل التي كانت تتدخل بالمسكن المستقرين أو بالإدارة المركزية، وفي زمن تفلّات بلاسر الأول ازداد هذا التهديد بنسب هائلة وذلك عند ظهور أولئك الآراميين الرحل من الصحراء.

فقد كانت أموالهم من الداخل من منطقة جبل بشري، وهي المنطقة الواقعة ما بين الفرات والموقع الذي أصبح فيما بعد مدينة القواضل تدمر، ولم يكن سبب تهديد الآراميين وهجومهم إلى منطقة الفرات الذي بدأ في هذا الزمن مبروفاً أو واضحاً، ولكن مع غياب أي شواهد ملموسة يمكننا أن نخمن فقد كان جبل بشري مشجراً، إلا أنه كان عارياً من الأشجار بشكل أكيد قبل العصر المسيحي، وإنه لتخمين معقول أن إزالة الأحراج كانت مسببة عن السكان الأصليين في تلك الفترة وهم الآراميون في الألف الثاني ق.م، إذ إن إزالة الأحراج ستكون سبباً في إفراغ وتوقف ما يدعى بالأمطار العاصفة المسببة لخصب التربة، والتي راحت بالتناوب مع فترات من القحط تسبب تآكل التربة وحدث فترة من الجفاف، وعند حدوث هذا فإن هذه العملية سوف تجعل المنطقة عاجزة عن إعالة سكانها السابقين مما يستغرق مضي نحو سنتين أو ثلاث سنوات عجاف لبدء عمليات الهجرة العامة من المنطقة.

وطبقاً لتفلات بلاسر فقد عمد الآراميون إلى عبور نهر الفرات ودخول ما يدعى الأراضي الآشورية الدائمة، والاستقرار بمعاذاة الطول الكامل للنهر ابتداءً من منطقة الحدود البابية حتى (كار شمش) (كر كمش).

ولكن تفلات بلاسر طردهم بعد أن نقل جنوده عبر الفرات على طوافات مصنوعة من جلود الماعز، ربما كانت من نوع الطوافات المعروفة في هذه الأيام وتدعى: كليك **Kelek**.

لقد سجل تفلات بلاسر أن أذى الآراميين كان مستحقلاً بحيث إنه كان مجبراً على ملاحقتهم ثمانية وعشرين مرة: مرتان في كل سنة وليس من المؤكد كيف ينبغي أن نفهم الجملة الأخيرة، فهل كان ((مرتان في كل سنة)) بحيث كان زمن الحملات أربعة عشر عاماً؟ أم أن إظهار القوة مرة واحدة تكفي بشكل طبيعي ما عدا سنة واحدة حين كانت الحالة في غاية السوء بحيث إن تفلات بلاسر كان مجبراً أن يقوم بحملة ثانية؟

والنتيجة هي تأييد وجهة النظر التي مقادها أن تغلات بلاسر مكان يعني مرتين
كل سنة وأنه وبعد أربعة عشر عاماً ، قام الأموريون بمغادرة الأراضي الآشورية.
وبالواقع وقبل نهاية حكمه الذي دام ثمانية وثلاثين عاماً استطاع تغلات
بلاسر الاختراق حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ليس بطريق سورية الشمالية
خلال أراضي الحثيين فحسب ، بل أيضاً من خلال تدمير وهذا يعني أنه كان
يزحف خلال قلب الأراضي الآرامية.

فهل ظل الآراميون وحتى نهاية عهد تغلات بلاسر يؤلفون تهديداً كافياً على
مجازاة الفرث مما يلزم القيام بحملة سنوية تأديبية؟ وكان هذا العمل بمنتهى
الغباء تحكيته كماً علماً بأن تغلات بلاسر كان رجلاً عسكرياً ولم يكن أحمق.
وعندما وصل تغلات بلاسر إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط أظهر فجأة أن
لديه شعوراً إنسانياً ، فقد أراد أن يقوم برحلة قصيرة في أحد القوارب ، وعندما
كان في القارب فإنه ربما حاول تجريب التحريون وهو رجع يستعمل لصيد الحيتان ،
وقد قال في هذه المناسبة :

«لقد ركبت السفن في مدينة أرواد الواقعة في أراضي أسورو وقمت برحلة
ناجحة دامت ثلاث ساعات من أرواد حتى سامورو ، وقد قتلت في البحر نهيرو وهو
حصان البحر».

ولقد ذكر الملك هذه المغامرة بفخر واعتزاز فقد سجل هذه المغفرة في زينة
مدخل قصره ، وقد قال :

«لقد صنعت من البازولث صورة لما يسمونه نهيرو وهو حصان البحر الذي قتلته
بواسطة الرمح في بحر (أمورو) وذلك بأمر الآلهة المعظم أسيادي».

هذا وإن تحديد حصان البحر هذا قد سبب صروف تكهيات من الخبر حين
سجلت الآراء المختلفة حول كون هذا المخلوق دولفيناً أم حوتاً.

من الواضح أنه كان لتغلات بلاسر اهتمام بالحيوانات القريبة وكانت هذه
ظاهرة اتصف بها كثير من الملوك الآشوريين الذين كانوا يرحبون بامتلاكهم

الحيوانات الغريبة مثل السمكيات والتماسيح التي وردت إليهم كحجزة ، أو من الحيوانات هذه أنشأ تفلات بلاسر حقيقة حيوان من الحيوانات التي حصلوا عليها من الصحراء السورية ، وكان هناك عدد من الحيوانات البرية حول آشور القديمة ، وكانت هذه الحيوانات أكثر عدداً مما هي عليه الآن ، وكان فيها أنواع كثيرة من الحيوانات اللبونة .

وتشير النصوص إلى صيد النخبة والضباع ، والأسود والتمور والفهود ، والفزلان والماعز البري ، وكل هذه الأنواع لا تزال موجودة في منطقة ما بين النهرين قبل قرن من الزمن ، مع أن القطط الكبيرة الحجم قد اختفت ، وهناك حيوانات لبونة مثل البهزون (الثور الأمريكي) والجاموس الماشي (وقد كان هذا في الأصل برياً ثم أعيد تقديمه كحيوان أهلي بعد أن انقرض من البراري) أما الخنازير البرية (التي لا تزال موجودة بأعداد واطرة) وعدة أنواع من الفزلان (التي اعتبر بعضها منقرضاً وأما الباقي فهو معرض للخطر من الصيادين العرب الذين يصطادونها في الصحراء بواسطة استخدام مركبات ذات أربعة دواليب ومعهم أسلحة أوتوماتيكية .

وكان هناك الأغنام البرية والوشق والفهد الصياد وحمير الوحش أو (الأخدرى) التي لا تزال موجودة في سورية بشكل واضح في الجزيرة في القرن التاسع عشر ق.م ، ولكنها انقرضت منذ عام ١٩٢٧ .

وهناك نوع من الحيوانات أرسله التجار إلى تفلات بلاسر من الخارج ، والتي حاول تربيته بشكل قطمان وهو الجمل ذو السنامين وقد ذكر هذا الجمل ابن الملك ضمن نصوص العلة المكشورة ، وربما جلب هذا الحيوان من المنطقة فيما وراء زاغروس نظراً لأن الاسم الذي عُرف به وهو (أوردو) مشتق من الكلمة الهندية الأوروبية التي تعني: الجمل ذو السنامين .

ويذكر تفلات بلاسر حيواناً آخر يدعى يورهيشي كان قد أرسل إليه كنوع من الجزية ، ويعتقد بعض العلماء أن هذا الحيوان هو الهالك (ثور التبت) ولكن الحقيقة أن الهالك موجود في أراضيه وبيته (وهي جبال التبت العالية) فلا يمكن أن يكون موجوداً في آشور سواء عن طريق الجزية أو عن طريق التجارة ، والحقيقة أن

كلمة بورهيشي موجودة إلى جانب كلمة أورمو المكتوبة على المسلة المكسورة، ومن الممكن أن يكون هذا الاسم قد اخترعه الآشوريون عندما قابلوا الجمل لأول مرة، نظراً لأن الكلمة ربما تعني (ذو العجزة) وهذا يشير إلى السنم.

وهناك حيوانات من ذات الأربع قوائم وجدت قرب منطقة ما بين النهرين في الأزمنة القديمة وهي تشمل حيوانين مسهبين جداً وهما الثور البري وهو حيوان بري كان ارتفاع العجل من هذا النوع ستة أقدام حتى منطقة الكتف، وكان هناك نوع من الفيلة، وقد كان الملوك الآشوريون مولعين بصيد الأسود والفيلة فما سبب انقراض هذين النوعين مع أنهما كانا ما يزالان موجودين بعد قرنين من عهد تقات بلاسرة؟

وهناك نوع آخر من الحيوانات المرموقة القديمة وهو النعام الذي وجده الملوك الآشوريون وصادوه وأتلفوه في الصحراء السورية مع أن هذا النوع نجا وكان ما يزال يشاهد هناك في القرن العشرين الميلادي.

أما الأسود فقد كانت شائعة الوجود وخطرة بالنسبة للحيوانات الأليفة وللشعر في الأرياف المكشوفة، ويذكر الملوك الآشوريون المجازر التي حدث فيها قتل نحو ثمانمائة أسد مرة واحدة، ويبدو أن هذه الضحايا كانت تصطاد وبمدها يطلق سراخا وتوضع في حدائق مخصصة، إلا أن الرسوم تعطينا بعض الدلالات التي تشير إلى الانتشار الواسع للأسود.

وفي قصة الطوفان يقترح على الإله إنليل استخدام الأسود للفتك بالبشر بدلاً من الطوفان وهذه طريقة أفضل، وهذا يدل أن الأسود كانت تعد تهديداً حقيقياً لحياة الإنسان، ويأتي تقرير من ماري يعود إلى الألف الثاني ق.م، أن أسداً قد أمسك به على سطح أحد المنازل، وكان من الواضح أن الأسود كانت تستطيع الدخول مباشرة إلى داخل القرية.

كان تقات بلاسر الأول رجلاً ذا همة عالية ونشاط مستمر واهتمامات واسعة، وفي أثناء حكمه حصلنا على مجموعة من القوانين الآشورية التي تم تنظيمها في مجمل القوانين الآشورية، وربما كان ذلك بناءً على أوامر هذا الملك،

وكانت إحدى تلك القوانين تعالج مشكلات ملكية الأراضي وغيرها وكان يعالج مشكلات تختص بالنساء.

مراكز الحدود البابلية

نتقل من تفلات بلاسر المهتم بالحيوانات والمشرع القانوني إلى تفلات بلاسر مؤسس الاستراتيجية العسكرية، وذلك لكي نطلع على مواقفه بالنسبة لقضية الحدود، وهي القضية الحساسة سياسياً في الجبهة الجنوبية مع بلاد بابل، وقد حدثت هنا المصادمات الحدودية المعتادة التي استجاب لها تفلات بلاسر أخيراً ودفع بقواته إلى ما وراء الحدود للاستيلاء على المدن الشمالية بما فيها العاصمة بابل، ولكنه لم يقدّم أي محاولة لتصيب نفسه ملكاً على بابل، وبدلاً من هذه الحملة لم تكن سوى غارة تأديبية للضغط على بابل لقبول حدود تمر أبعد جنوباً.

ومن جهة أخرى كان للتماس مع بابل نتائج تزايد نفوذ الثقافة البابلية والنفوذ البابلي في آشور، وكانت إحدى مظاهر هذا النفوذ ابتداء إبدال أسماء الأشهر البابلية لتعمل محل الأسماء الآشورية.

ولقد شهد حكم تفلات بلاسر أيضاً نمواً متزايداً لأهمية نهوى السياسية، وهذا كان ضرورياً لأجل السيطرة على الشمال، وقد اعترف بهذه المدينة أنها المدينة الثانية والعاصمة الثانية لدولة آشور، وقد كانت مشهدة للأعمال العمرانية المرموقة وذلك بما فيه إعادة بناء سورها.

لا تكفي الظروف الدولية لوحدها لتفسير الحماس والنشاط الآشوري في زمن تفلات بلاسر إذ إن حكمه يعطي مثلاً جيداً لأهمية المقدرة الشخصية والنشاط عند هذا الحاكم، وقد مرّ على عرش آشور ههنا بعد ملوك اتخذوا لهم اسم تفلات بلاسر، وهذا ما يدل على شخصية تفلات بلاسر العظيمة الدائمة التي تبشر بالنجاح، ولكن لم يعمد أي حاكم فيما بعد إلى اتخاذ أسماء أبنائه هذا الملك الذين خلفوه رغماً عن الاسم الشهير لابن الثاني وهو آشور - بيل - كالا وهذا

الاسم يعني: الإله آشور هو سيد الجميع وهذا الاسم يمسك أماني الأب أكثر من إنجازات الابن.

الهجرات الآرامية

بعد انتهاء حكم تغلات بلاسر حدث انعطاف سريع يصاحبه التزايد الدائم لأهمية الآراميين، الذين ناضل هذا الملك ضدهم بشكل مثابر وناجح، ويعتمد البحث حول كيفية تركيب التفاصيل حول الطريقة التي استطاع بها الآراميون قلب الموازين ضد آشور على كيفية فهمنا لأحد الأسماء المعروف باسم المسلة المكسورة، ونظراً لأن المسلة مكسورة فنحن لا نستطيع معرفة اسم الملك الذي كتب تلك النقوش، ولكن غالباً ما ينسب الآن إلى ابن تغلات بلاسر وهو الخليفة الثاني لوالده واسمه آشور - بيل - كالا.

وتمتلك هذه النصوص بعض المظاهر القديمة، فهي تتكلم بضمير الغائب وأحياناً بضمير المتكلم وتبدو أن المقاطع المكتوبة بضمير الغائب وكأنها لا تتحدث عن آشور بيل كالا بل عن أحد أسلافه، وباعتبارات القوى فقط أن هذا السلف من المحتمل أن يكون والد آشور - بيل كالا وهو تغلات بلاسر وعندما نجد أن هذا النص يذكر شلون الصيد، وجمع الحيوانات، وهذا يتفق مع ما يذكره تغلات بلاسر عن نفسه، عند ذلك تبدو المسألة وكأنه ليس فيها مجال للشك، ولكن وبينما تذكر نقوش تغلات بلاسر عن أحوال مقاومة الآراميين عبر الفرات (وهذه المسألة مذكورة من المسلة المكسورة) فإن المسلة المكسورة تضيف بعض المراجع التي تعود إلى الشهر التالي حول مهاجمة إحدى القواهل الآرامية في أماكن مختلفة، وتقع بعض هذه الأماكن بعيداً عن نهر الفرات في مواقع داخلية في أراضي آشور مثلاً في طور عابدين بمحاذاة نهر دجلة قرب حران وبمحاذاة نهر الخابور، وليس هناك ما يدل فيما إذا كانت القواهل الآرامية تحتوي على التجار والوحدات المقاتلة، أو أنها عبارة عن مجموعات تحاول أن تجد لنفسها مكاناً ناوي إليه.

ولكن من الواضح أن هذه القوافل كانت واسعة الانتشار، وبمنفس الوقت لم تكن هذه القوافل قوية، ولم تكن تعمل بشكل متناسق نظراً لأن الملك الآشوري كان قادراً على مطاردة كل مجموعة بسرعة، وفي الوقت نفسه مطاردة قافلتين أو ثلاث وحتى أربع في الوقت نفسه، وفي نفس الشهر، ويمتدح من ككل ما ذكر أنه رغم محاولات تغلات بلالسر الناجحة لضبط محاولات الآراميين وهكبعها عند عبور الفرات من جبل اليعشري، فإن مجموعات صغيرة كانت تنجو من هذه الشبكات وتتجح في التناز إلى بلاد آشور، وهذا ما سبب عدم قدرة خلفاء تغلات بلالسر على عدم التأثير بالضغط الآرامية.

تولى آشور - بيل - كالا - العرش (من ١٠٧٤ - ١٠٥٧) بعد أحد أخوته الذي حكم مدة سنتين، وتتحدث تواريقه بطلاقة عن الأعمال السريعة ضد المناطق الشمالية الجبلية، وقد ادعى عن حصوله على نجاحات عسكرية.

ولكن الأمر الواضح هو أنه مع ذكر الغنائم التي غنمها الآشوريون إلا أنه لم يذكر كلمة واحدة عن الجزية، وأنها جلبت إلى آشور من قبل الأتباع المغلوبين، وكان يوسع الجيوش الآشورية أن تعيث خراباً ولكن دون هدف ثابت، وذلك لأنه، وفي أثناء حكم آشور - بيل - كالا، لم تدم آشور قادرة على تجسيد انتصاراتها العسكرية في ترهبات إدارية مهمة أكثر من القبول الرسمي بالسيادة الآشورية، وهكذا يذكر آشور - بيل - كالا حملات له ضد الآراميين، ولكن كانت مضامين تماييره تدل أن الآراميين لم يعودوا ذلك الشعب الذي يمكن طرده من الفرات بمحض الإرادة، إذ إن قول هذا الملك: إنه كان ينهب الآراميين باستمرار يدل أن المشكلة الآرامية قد استعصفت.

الاتفاق الآشوري البابلي

في الحقيقة إن الآراميين قد تحولوا إلى تهديد خطير بالنسبة إلى كل منطقة ما بين النهرين، بلاد بابل وبلاد آشور على السواء، وكانت النتيجة الحتمية أن

تتعد آشور مع بابل لدره الخطر المشترك وللدفاع المشترك، ويوصف هذا الموقف في إحدى الحوليات:

((في زمن آشور بيل - كالا ملك آشور ومردوك - شايك - زيزي ملك كاردونيش (بابل) عقد في هذا المكان اتفاق ودي بينهما))، وهذا مما قوى مركز الآشوريين، ولكنه لم يكن منعزلاً من الضغط الآرامي، وعند موت ملك بابل أصبح آشور - بيل - كالا ملك آشور في وضع اضطره للتدخل في شؤون قضية الوراثة البابلية، وطبقاً للحولية التي ذكرت آنفاً فقد عين آداد - ابلا - أدينا ابن اسجيل - شادوني ابن شخص مجهول ملكاً عليهم، هذا وإن كلمة شخص مجهول تدل أن أسرة الملك الجديد لم تكن من أصل ملكي بابلي قديم، ونستطيع أن نحصل على صورة واضحة لما كان يحدث عندما نجد أن هناك حولية أخرى تدعو آداد - ابلا - أدينا رجلاً آرامياً مختصاً (مع وضع اسم مختلف لوالده لإضافة علائم الشك حول أصوله).

ويبدو أن آشور بيل كالا كان الآن يملك الطرق الدبلوماسية في معالجة التهديدات الآرامية وذلك بقبول أمير آرامي بارز تابعاً وحليفاً له، وقد استخلص أقصى قدر من المنفعة من الموقف وذلك بالزواج من ابنة آداد - ابلا - أدينا.

وتقول الحولية: لقد تزوج آشور - بيل - كالا ملك آشور ابنة آداد - ابلا - أدينا ملك كاردونيش وحملها معه مع مهرها الثمين، ولقد كانت نتيجة هذه الحوادث أن وضعت آشور في مركز قوى بالنسبة إلى بابل في الوقت نفسه، وبكسب ولاء الزعيم الآرامي الرئيسي فقد أزال خطر التهديدات الآرامية مؤقتاً.

وفي الوجه الآخر للعملة وجد أن آشور قد أظهرت نفسها أنها غير قادرة في تلك الظروف أن تتابع سياسة مستقلة، وفي الوقت نفسه أن الحلف الذي استطاعت آشور عن طريق التدخل في شؤون وراثة العرش في بابل ترك آشور معرضة لتدخل بابل في شؤون آشور الداخلية الخاصة، ولقد حدث هذا بالضبط وبمرور الزمن فقد أزيح ابن آشور - بيل - كالا عن العرش بعد مرور أقل من عام على يد عمه شمسي - آداد الرابع وهو ابن آخر من أبناء تفلالت - بلاسر الذي وكما عرفنا من

قائمة الملوك الآشوريين استولى على العرش من قاعدة بابلية وذلك بدعم ومواظقة البابليين.

وفي القرن التالي الذي تم فيه حكم ستة من نمل شمسي أداد الرابع فإن معرفتنا بالتاريخ الآشوري كانت سطحية نظراً لعدم وجود نقوش ملكية وهذه دلالة واضحة على ضعف الدولة الآشورية، وهناك نص يعود إلى حوالي عام ٩٧٠ يحمل هذه الحقائق، وهذا النص يمجّد أحد الحكام المحليين لكونه شيد الأبنية وحفر الأبنية ونهر الخابور، وذلك أنه وعند زمن آشور البقية كانت مثل هذه الأعمال من صلاحيات الملك، وإن قيام حاكم محلي بمثل هذه الأعمال يدل أن السلطة المركزية في تلك الفترة كانت ضعيفة جداً، إن لم تكن معدومة.

تظهر الشواهد من بابل البلية الجدية التي سببتها الهجرات الآرامية المستمرة في ذلك الزمن، وفي تلك المدينة (أي: بابل) كان يقام مهرجان سنوي ديني يدعى (الأكيتو) الذي كان يلقى عندهما تكون الظروف السياسية غير مواتية بحيث يستحيل القيام بالمسيرات، وتذكر الحوليات التي تسجل هذا الخرق للعادة المذكورة في عامي ٧٧١ و ٧٧٠ حين ألقى المهرجان نظراً لأن الآراميين المهادين قد هددوا ضواحي مدينة بابل مباشرة.

الممالك الآرامية

بعد أن استقر الآراميون شكلوا لأنفسهم ممالك بشكل تدريجي وكان أقدم هذه الممالك في سورية، وإن إحدى هذه الممالك الآرامية وهي مملكة (صوبا). (سوبيات حسب النقوش المسمارية) قد تعرضت إلى الهجوم من قبل الملك شاول الإسرائيلي قبل عام (١٠٠٠) ق م بقليل. (وبعد ١) قليل توسعت المملكة الإسرائيلية الجديدة تحت حكم داود وسليمان لتشمل المنطقة حتى الفرات، وإن عدم وجود

^(١١) لقد أطلق المؤلف هذه الملاحظات من التوراة وليس هناك أي نقش آشوري يؤيد هذا الكلام الذي نعره مختلفاً - المرحان.

مواجهة آشورية والقدرة على تنفيذ هذا التوسع على الحدود هو سبب آخر يظهر عجز وعدم قدرة آشور من ذلك الزمن).

لماذا أدى الوضع الآرامي إلى ضعف دول منطقة ما بين النهرين بحيث سمحت لإسرائيل بالتوسع شمالاً حتى الفرات

إن الإجابة على هذا السؤال تتوقف على المدى الذي وصلت إليه تلك المجموعات من البدو الرحل من الآراميين في استيطانهم وإنشائهم ممالك مستقرة، إذ إنه عند حدوث اتحاد بين العشائر القبلية فليس هناك أي سلطة مركزية، وهذا ما أشارت إليه النصوص التوراتية، ومن مثل هذه الحالات فإن كل فريق يفعل ما يريد وهو يعني ما يفعله حقاً في نظره، وعلى العموم فليس هناك أي حاكم منفرد يستطيع قبول أي معاهدة وينفذها في جميع أرجاء المنطقة.

وليس هناك من أحد يستطيع تأمين حركات التجار وللتأكد من أن قوافلهم سوف لا تتعرض للنهب أو تهديدات أي عشيرة يمكن للقوافل أن تدخل أراضيها وتمر بها.

وكذلك ليس هناك من أحد يستطيع أن يتكلم عن العلاقات السياسية بالنسبة للمنطقة بأكملها، ففي سورية أصبح الآراميون على طريق الاستقرار في ممالك مستقرة حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، بينما وفي منطقة ما بين النهرين كانوا ما يزالون في طريق الهجرات والاستقرار خلال جيلين.

وفي النصف الثاني من القرن العاشر أصبحت الجماعات الآرامية المستقرة تولى ممالك منظمة في منطقة ما بين النهرين كما كان الحال في سورية، ولقد استقادت آشور من هذا الوضع، وابتداء من حكم آشور دان الثاني (٩٣٤ - ٩١٢) بدأت النقوش الآشورية بالتكاثف معلنة استئناف ازدهار الآشوري من جديد.

الفصل السادس

نشوء الامبراطورية الآشورية الجديدة

في حولياته يكتب (آشور دان) وكأنه يخاطب القارئ الحديث عندما يسجل أنشطته وأعماله العسكرية الخاصة ، فهو ينظر إلى الماضي إلى الاضطرابات التي مرت بآشور خلال القرن السابق الذي لا نملك عنه سوى قليل من المعلومات ، ويخبرنا أنه كانت إحدى الشعوب المغلوبة على أمرها تقترف أعمالاً تخريبية وجرائم قتل منذ زمن شلمنصر الثاني (١٠٢٠ - ١٠١٩ ق.م).

وقد قام الآراميون الذين بدأ بتدمير وإحراق مدنهم بالاستيلاء على الأراضي الآشورية في زمن آشور رابي الثاني (١٠١٢ - ٩٧٢) وهو يتكلم عن أهالي آشور الكادحين الذين غادروا مدنهم وبيوتهم بسبب الفقر والحاجة والجوع والمجاعات وغادروها إلى بلاد أخرى ، وهو يؤكد لنا أنه قد أرجع هؤلاء إلى مدنهم وبيوتهم وأعاد استقرارهم فأصبحوا يعيشون بسلام.

الأمن العسكري والتطور الاقتصادي

تشير التعليقات التي أعدها آشور دان أنه وخلال القرن السابق لعام ٩٢٤ كانت الإدارة المركزية في دولة آشور قد أصابها الانهيار التام مع حدوث انهيار اقتصادي ، ونتيجة لذلك فإن أنشطة آشور دان الاقتصادية قد اتجهت إلى تطوير الاقتصاد بشكل لا يقل عن تطوير الأنشطة العسكرية والأمن العسكري ، ولم يتم بأي محاولة لتناقض المآثر العسكرية التي قام بها تغلات بلاسر ، ولكنه اكتفى بتأسيس سيطرة سليمة لآشور داخل حدودها الطبيعية ابتداء من الجانب الأقرب من (طور عابدين) حتى الهضاب الواقعة فيما وراء أربيل ، وأما سياسته بالنسبة إلى إعادة إسكان الشعوب في آشور فقد تطرقنا إليها في الفقرة السابقة ، ولكي يعالج الانهيار الذي ذكر سابقاً في الإدارة لتركزية أنشأ بعض الوظائف الحكومية في المقاطعات ، ولدعم الاقتصاد بشكل مباشر تبارى مع منجزات

تفلات بلاسر الأول في تأمين المحارث في جميع أنحاء البلاد، وذلك لزيادة إنتاج القمح في كل مكان بكميات أكبر من السابقة، ولقد ساعدت كل هذه الأمور على تأمين قاعدة متينة لتطوير وتوسع أفضل بشرط أن يستطيع الحكام الذين نلوا الاستفادة من هذه الإصلاحات.

ولقد ثبت أنهم استفادوا فقد خلف آشور دان أربعة ملوك أكفاء من أسرته المباشرة، وخلال قرن من اعتلائه العرش أصبحت آشور قوة عالمية يحسب حسابها، وهؤلاء الحكام الأربعة وبصورة خاصة الثالث منهم رووا منجزاتهم بالتفصيل، ولا يتسع هذا المقام لسرد أكثر من خلاصة موجزة لأعمالهم الرئيسية أثناء حكمهم.

ولقد قام ابن آشور دان وهو حدد نيراري الثاني (٩١١ - ٨٩١) بحملة لإعادة وتوكيد السيطرة الآشورية في المنطقة الشمالية الغربية، فقد زحف نحو الجبال الشمالية فيما وراء (طور عابدين) ومع أنه قد اتخذت إجراءات عسكرية عنيفة ضد المعارضين، إلا أن إجراءاته لم تكن تأديبية وضارية على شكل طائش، فإن غرضه كان إنشاء أحوال مستقرة بحيث يحصل على الاستفادة التامة المنتجة من الموارد التي تسبب أكثر القوائد بالنسبة لآشور.

وهو يقول عند تسجيل نتيجة حملته ضد شعوب الشمال في (كوماني): لقد أسكنت بقية عساكرهم الذين هربوا أمام أسلحتي الحربية ولصحتهم رجعوا، لقد أسكنتهم في مساكن آمنة.

ظل الآراميون المشكلة المزمعة، ففي أسفل طور عابدين استقر بعضهم بشكل واسع فيما بين الخابور والقوس الغربي لنهر الفرات، وبصورة خاصة منطقة منابع الخابور حيث حلوت مجموعة متحدة من الآراميين الذين وصلوا بعد مضي حكم تفلات بلاسر الأول، وحاول هؤلاء تأكيد استقلالهم ولقد احتاج حدد نيراري حوالي ست حملات سنوية لإخضاعهم، وأخيراً نجح في ذلك بعد تجويع الحاكم الأعلى في عاصمته المحصنة نصيبين.

وبعد أن زحف بمحاذاة الخابور استطاع الحصول على الخضوع النهائي الرسمي للسلطة الكاملة للمدن التي كان يسيطر عليها الآراميون، وفي أثناء ذلك استلم حدد نيراري الهدايا التي تمبر عن كامل خضوعه كتابع من قبل حاكم آرامي من منطقة بعيدة آرامية، وهي منطقة بيت عابدين وهي واقعة على منطقة تقوس الفرات.

وفي المنطقة الجنوبية الغربية عملت بابل وفي أثناء فترة ضعف آشور إلى الاستيلاء على أراضي واقعة إلى الجنوب من الزاب الأدنى، ولهذا بدأ حدد نيراري بالعمل، ولكن ومع أنه أعطى لنفسه لقب فاتح بلاد كاردونيهاش بأجمعها، إلا أن نشاطاته هناك لم تكن أكثر من مناوشة حدودية لدفع الحدود الآشورية جنوباً حتى نهر (ضهلهم) أو دبالا ولقد ختمت اتفاقية الحدود بتحالف مصاهرة وزواج.

واستمر توكلوتي - نينورتا في العمل لاستعادة سيطرته على المناطق الجبلية الشمالية والشرقية وفي الجنوب دفع الحدود مع بابل حتى موقع مكان بغداد الآن، وهكذا اكتشفت المستوطنات الآرامية بتقديم الجزية علامة على قبولهم التبعية الآشورية، إلى جانب تمردات عرضية وكانت تتطلب بعض الأعمال العسكرية، وكانت إحدى القبائل الآرامية المزعجة في ذلك الزمن وهي قبيلة (ايتوى) وكانت تمتلك بعض الصفات القتالية قد حصلت على احترام الآشوريين، وهما بعد (عندما أصبحت قضية ولائهم مؤمنة) شحكوا ما يدعى بالفصائل الصدامية التي تعمل على تطويع الشعوب المزعجة المتمردة.

وإن نوع الجزية التي كان بعض الآراميين يدفعونها تشير إلى ثروتهم وطبيعة نشاطاتهم التجارية، وفضلاً عن الذهب والفضة كانت مثل هذه الجزية تحتوي على البرونز والقصدير والمُر^(١) وهذا ما يظهر وجود علاقات تجارية مع بلاد العرب (التي كانت تتمير المصدر الأقرب للمر) وكذلك يذكر الجمل ذو السنام الواحد (مما يشير أيضاً إلى العلاقات مع الصحراء العربية) وكذلك العاج والفروشات

(١) المُر: مائع يسيل من شجرة فيحمده وهو طيب الرائحة مَر الطعم - لترجمان.

المرصعة بالعاج (من كليكيا) والمواشي والأغنام والحمير والبط والحيوب، ولكن لم يكن هناك أي ذكر للخيول التي كانت ضمن الجزية الأرمنية، إذاً من المحتمل أنهم كانوا يستعملون الحمير والأجمال وسائل للنقل في ذلك العهد، هذا وقد استلم (توكولتي نينورتا) الخيول بالألوف بشكل جزية من المناطق الشمالية وبذلك بدأ استخدام الفرسان على مقياس واسع في الجيش الآشوري.

آشور ناصر بعل الثاني

الاستراتيجي الإمبراطوري في آشور

يبدأ حكم آشور ناصر بعل الثاني (٨٨٢ - ٨٥٩) وبه نصل إلى إحدى نقاط الذروة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت مجالات متعددة، الأمر الذي يعكس منجزاته كمؤسس فعلي للإمبراطورية الآشورية الجديدة.

لقد بدأ آشور ناصر بعل في إظهار قواه إزاء ذلك القوس من الجبال الممتد من شرق أربيل حتى شمال غرب نينوى أي: شمال كردستان، وقد وصل إلى كادموخ وهو السهل الواقع إلى الغرب من نهر دجلة، وإلى شمال غرب نينوى وذلك عندما واجهته الاضطرابات في مكان آخر، فقد كانت الدولة الخاضعة اسماً لآشور وهي (بيت عابدين) الواقعة على منعطف نهر الفرات نحو كركميش، تحاول تأكيد استقلالها وكسب الدعم الأوسع، فقد أحرزت نجاحاً دبلوماسياً، والحقيقة أن المدينة الرئيسية في تلك المنطقة حيث يلتقي الخابور بالفرات، قد قامت بقتل حاكمها الموالي لآشور وكان هذا رجلاً يظهر من اسمه أنه لم يكن من أصل آشوري (لم يكن الآشوريون عنصريين).

ولقد ولّت هذه المدينة أحد أبناء بيت عابدين ملكاً عليها، هذا وقد كان رد آشور ناصر بعل على هذا الوضع قوياً، فزحف بجيشه جنوباً حتى أسفل نهر الخابور، وقد استلم في طريقه خضوع المدن الموالية الواقعة على ضفاف النهر، ثم

استولى على معقل المتمردين وسحق بكل معارضة بقوة ونشاط وأعاد المدينة مرة أخرى تحت الحكم الآشوري.

ولقد ثبت أن ثروة المدينة المتعددة كانت ثروة لا بأس بها مما جعل آشور ناصر بعل يلاحظ أن القنائم الضخمة والوافرة كانت كالكواكب في السماء لا يمكن عدّها، فقد كانت تشمل بالإضافة إلى أصناف الجزية المذكورة آنفاً: العريات الحربية والخيول، وكانت هذه أول مرة يشار بها إلى الخيول في المناطق الخاضعة للآراميين، إذ من الواضح أن الجماعات الآرامية في منطقة ما بين النهرين لم يعمدوا بنوّاء رجالاً شبه مستقرين ويشتغلون بالتجارة، بل قد وصلوا إلى طريق إنشاء ممالك متطورة مستقرة ذات ذراع عسكري منظم يتطلبه ذلك الوضع.

تعتبر كادموخ التي وصلها آشور ناصر بعل عندما اتجه إلى منطقة الخابور المفتاح الموصل إلى هضبة طور عابدين كاشياري والمناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة، وهنا بدأ الملك بوجه اهتمامه لتلك المنطقة، فقد ادعى عدد من الملوك الآشوريين الأقدمين أنهم قد استولوا على (كاشياري) ولكن التضاريس الأرضية في تلك المنطقة جعل منها منطقة صعبة المنال، ولم تكن سيطرة الآشوريين هناك إلا سيطرة مؤقتة.

وعندما تمرد أحد الحكام المواليين وهاجم الموقع العسكري الآشوري، بدأ آشور ناصر بعل عملياته مباشرة وتحرك ضد المذهب ولم يتورع عن القتل والنهب والحرق وسمل العيون والتمثيل بالضعحايا، وكان أن أعلنت الممالك الصغيرة في المنطقة ولائها وخضوعها فوراً.

وبعد إظهار جبروته ضد المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة المعروفة باسم (نياري) قام آشور ناصر بعل بترميم مدينة قديمة واقعة على نهر دجلة (توشتمان) لتكون حامية عسكرية ضد كاشياري ونياري في وقت واحد، ولكن لم تكن هذه المدينة مجرد حامية عسكرية بل كانت قاعدة رئيسية ومستودعاً للتخزين. وكان سكانها من الآشوريين الذين يحصلون على الحبوب والمزق

الأخرى من المناطق المجاورة وبحيث تستطيع في حالة تعرضها للهجوم الصمود مدة غير محدودة.

وهكذا فقد أنشأ آشور ناصر بعل خطاً دفاعياً قوياً على طول حدوده الشمالية والغربية، وبعدها عمل على تحصين هذا الخط بجعله حلقة أمنية آمنة، أما في الشرق فقد زحف إلى جنوب كردستان وهي المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من كركوك، وقد استطاع بعض الملوك الآشوريين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الاحتفاظ مؤقتاً بهذه المنطقة التي لم تكن تحت حكم آشوري حازم وكامل مدة نحو ألف عام، ولكن تمثل عمليات آشور ناصر بعل بداية العمل ضد أحد المتطرفين، ولكن ذكره بعد ذلك لأماكن لم يرها أي إنسان في حياته والتي لم يصل إليها أي ملك من أسلافه.

كل هذه التمريرات توضح أن هذه العمليات لم تكن سوى توسع عسكري سافر، فقد كانت بعض الشعوب التي واجهها غريبة عن الآشوريين، فقد قبل إن بعضهم كانوا يصنفون شعورهم كالكثاء (أو يزنون أنفسهم) ولقد زادت عمليات إخضاع هذه المنطقة وسلسلة الدفاع الآشورية على طول زاغروس ابتداءً من منابع نهر دبالا (وهي منطقة الحدود مع بابل) حتى منابع نهر الزاب الأدنى.

ولقد استخدم آشور ناصر بعل في غزواته أربيل ونيشوى قواعد لعملياته الحربية، مع أن عاصمة آشور كانت واقعة في أقصى الجنوب، وأصبحت الإمبراطورية بحاجة إلى إنشاء عاصمة شمالية، فقد أدرك آشور ناصر بعل أهمية المدن من نوع (توشتمان) (وهي واحدة من عدة مدن مثالية) في كونها حاميات عسكرية وقواعد تخزين ومراكز إدارية، حيث من الممكن للملك اتخاذاها نقاط انطلاق دون وجود تلك الوثائق التي تساعد على التورط بالمشكلات التي تسببها وجود المراكز النائية أو المدن التجارية، ولذلك فقد بنى الملك مدينة تجارية وهي (كالك) (التي يُعْطى الآن تلة بمرود) في موقع المدينة القديمة التي كان قد أسسها شلمنصر الأول بالتي، وقد تحولت إلى خرائب، وقد كان لهذا الموقع أهمية استراتيجية ليس لكونه واقفاً إلى الشمال بل لكونه واقفاً في الزاوية التي يتصل

بها نهر الزاب الأعلى بنهر دجلة، ولقد زود الملك عاصمته الجديدة بالمياه عن طريق قناة مدت من الزاب الأعلى، وبنى فيها أبنية رائعة مع أنظمة للصرف الصحي وزرع فيها الحدائق، وأسكن فيها شعباً من مختلف أرجاء الإمبراطورية وجعلها مدينة عالمية حقاً، وأخيراً دشنتها بإقامة وليمة دامت أسبوعاً كاملاً وقد سجل هذا العمل في نقش كامل ذكر فيه حتى قائمة المأكولات.

وهنا نمود إلى استراتيجية آشور ناصر بعل العسكرية فقد كان عليه الفهم بإجراءات لاحقة في الغرب، وبعد أن زحف آشور ناصر بعل إلى الغرب عبر نهر دجلة ابتداء من (كالك) حتى وصل إلى الخابور، ثم اتجه جنوباً أخيراً مستلماً الجزية حتى وصل الفرات، وهناك زحف بمحاذاة النهر حتى حدود بابل، وقد استولى على إحدى البلدات الحدودية البابلية، وهذا يمثل ما ندعوه اليوم ممراً للوصول إلى شفير الهاوية فلم ينتج عن ذلك نشوب حرب ضد بابل بل تطور إلى نتائج دعائية كان آشور ناصر بعل يمرقها تماماً، وهنا نخبرنا:

«لقد وصلت حالات الخوف من سلطتي حتى أرض (كاردونياش) (بابل) ولقد عمّ الفرع من جيشي وأسلحتي بلاد الكلدانيين (جنوب بابل)».

وبعد أن قضى على معاوية عصبان مصلح في المنطقة الحدودية بمرعة، ولم يعد أمام آشور ناصر بعل أي شيء يخشاه في تلك المنطقة فقد تم له تهييد كل معارضة بابلية محتملة.

البحر الأبيض المتوسط

بعد اكتمال الحلقة الأمنية المؤلفة من بلاد بابل وزاغروس وطوروس الشرقية (وطور عابدين) والخابور هذا السور الذي كان يحيط بأشور، فقد تقدم آشور ناصر بعل الآن لتنفيذ المرحلة الثانية من استراتيجيته.

والحقيقة أنه لم يحدث أن استطاع أي حاكم آشوري أن يسيطر على الطريق المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط منذ أيام تفلات - بلاسر الأول قبل نحو قرنين ولهذا فقد عمد (آشور ناصر بعل) إلى الاندفاع ابتداء من أعالي الفرات من زاوية

الخبير كاسحاً كل معلومة في طريقه، مع قيامه بصيد النعام والثيران البرية في طريقه، وهذه كانت ما تزال منتشرة في الصحراء السورية في ذلك الزمن، وقد انتهت هذه العمليات بالقيام ببعض الحملات ضد الدولة الآرامية في (بيت عابدين) على هوس الفرات، وتطلبت عملية تهدئة تلك المنطقة بشكل فعال القيام ببعض حملات وتأسيس مدينتين جديدتين وهما (مرقا آشور ناصر بعل) و(معيد آشور) وذلك للتحكم بمعايد الفرات فأصبحت بيت عابدين رسمياً ولاية آشورية أثناء أوائل حكم خليفته.

بعد أن أمن مؤخرته، أصبح آشور ناصر بعل مستعداً للانطلاق نحو البحر الأبيض المتوسط بعد أن عبر الفرات عن طريق الأطواف في منطقة صكرمين، ولقد أمنت له عملية سحق المعارضة خضوع جميع ملوك شمال سورية الذين تقاطروا لتقديم الولاء، وكعلامة من علامات الضمان فقد أخذ بعض الرهائن (ربما من أبناء الملوك) وحفظ هؤلاء الأبناء معه خوفاً من حالات الغدر في طريقه عبر نهر العاصي إلى جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، حيث استلم الجزية من المناطق الواقعة جنوباً حتى مدينة صور.

لقد أصبح آشور ناصر بعل الآن مُسيطرًا سيطرة تامة على جميع المنطقة ابتداءً من جنوب لبنان حتى جنوب صكرديستان، مع سلطة غير ثابتة على اتساع لا بأس به من منطقة طوروس، ولقد توجهت حملات تالية تهدف إلى توليد سلطة أكثر من كسب أراضي جديدة وذلك باستثناء استيلائه على مدينة (آمد) (ديار بكر) التي كانت وما تزال المفتاح المؤدي إلى منطقة واسعة ابتداءً من سفوح الجبال في طوروس الشرقية.

لقد تلعب ابن آشور ناصر بعل وخليفته وهو شلمناصر الثالث (558 - 524) سياسة والده ومندّها مع أنه قد عمد إلى بعض التطويرات والتحسينات الجديدة، ولحسن توارخه لمست موثوقة ولذلك فسوف نتأقن المعطيات بشكل جفراي.

مدخل على حق الألفام في نصوص العهد القديم

أولاً في الغرب: لقد تابع شلمناصر الثالث خطة والده في تأمين سيطرته على المنطقة الفينيقيّة الساحليّة، ونرى على الأبواب البونونية التي أقامها صورة جلب جزيرة صور عن طريق القوارب، ولكنه عندما حاول التقدم إلى مناطق في أقصى الجنوب من داخل سورية صادف مقلومة في حرقر (عام ٨٥٢) من قبل تحالف مؤلف من الملوك السوريين والفلسطينيين بما فيهم (حداد ايزير) الدمشقي وأهاب الإسرائيلي، وكلاهما مذكوران في التوراة، ولقد جلب أهاب قوة من الفرسان، وهنا وفجأة يدخل عالم التاريخ في النصوص التوراتية ولذا:

«وداعاً أيها العقل المسالم الهادئ».

«وداعاً أيها الفكر المطمئن».

إذ إن نزعة الموالاة والمحابة التوراتية الدينية ترفع رأسها المتوحش، وفي الحالة الحاضرة وبالنسبة للملك الإسرائيلي صاحب العلاقة هناك ميل أن تطرق السياسة الاستراتيجية الآشورية بسبل من الأسئلة المخرجة التي تتعامل هل ملك آشور أم إسرائيل هو الذي تكسب المعركة؟ وأن الشاهد الوحيد المباشر الذي نمتلكه حول المواجهة هو حسب تسجيلات شلمناصر نفسه فهو يدعي أنه قد هزم الائتلاف، ولكن وحتى لو كان شلمناصر مناهياً في أقواله وإدعاءاته النجاح وأن معركة حرقر قد سببت نكسة (وذلك كما يعتقد بعض الباحثين) للاستراتيجية الآشورية بما يخص سورية وفلسطين، فإن ذلك لم يكن سوى أمر مؤقت، إذ إنه وبعد اثني عشر عاماً قامت الإمبراطورية الآشورية بالسيطرة على فلسطين وأصبح خليفة أهاب الإسرائيلي المفتصب وهو جيحو تاباً موالياً لأشور، ونراه وهو ينحني بإجلال واحترام أمام شلمناصر وذلك على نصب تذكاري آشوري.

فيما وراء جبال أمانوس وطوروس

ومن وجهة استراتيجية فإن أهم متجزات شلمناصر كانت توسيع السيطرة الآشورية باتجاه الشمال الغربي فيما وراء أمانوس حتى كليكيّا وتجاه أواسط

الأناضول، وكانت أهمية هذا الحدث هي أن كليشيا كانت المصدر الرئيسي للعديد بالنسبة للشرق الأدنى، وكانت مهتمة أيضاً بالتجارة البحرية مع قبرص وبلاد اليونان بحيث نرى أن الروابط الآشورية الاقتصادية المهمة قد توسعت وتضخمت، وفي الجنوب كان على شلمنصر القيام بغزوة صغيرة لبابل وذلك بقصد تأمين استمرار الوضع على الحدود، ولكن المشكلة التي واجهها كانت جنوب بابل حيث كانت القبائل الكلدانية قد استقرت، وهذه دلالة على ما يحدث في المستقبل.

أما في الشمال الشرقي فقد كان هناك تطورات أخرى ذات قيمة استراتيجية على المدى الطويل، فقد تألفت شعوب طوروس الشرقية وشكلت ما سوف يصبح مملكة قوية وهي مملكة (أورارتو) على بحيرة (فان) ولقد برهنت هذه المملكة ولدة تزيد عن قرن أنها منافس قوي لآشور، فقد توسعت غرباً عبر الأناضول حتى سورية الشمالية، وتنافست مع آشور بالنسبة للسيطرة على الطرق التجارية والمناطق الرئيسية لإنتاج المعادن وتربية الخيول، وهكذا أصبحت حملات الآشوريين التي كانت موجهة ضد بعض الإمارات الصغيرة في منطقة (نياري) (ومصباحا) أصبحت هذه الحملات تلاقى وتواجه من قبل مملكة قوية من دولة أورارتو وجيشها الذي كان مستعداً إلى سلاسل من القلاع.

فيما وراء زاغروس.. الميديون والفرس

ظهرت عناصر جديدة في أقصى الشرق، فقد عبر شلمنصر زاغروس من حيث كان آشور ناصر يمل قد خيم في منطقة جنوب كردستان، وقد حدث أول مواجهة له مع الميديين والفرس على الجانب الشرقي، ولقد كانت هذه الشعوب المتحدة من القبائل الإبرانية قد هاجرت إلى إيران من الشمال في حوالي نهاية الألف الثاني، وكان الفرس الذين استقروا فيما بعد في جنوب غرب إيران لا يزالون في الشمال الغربي.

أما الميديون الذين سوف يقيمون عاصمتهم في إكباتانا (هوارث الحالية) وسوف يثبتون أنفسهم ككلاميد ناجحين في فن الحرب الآشوري بحيث إنهم سوف يقومون بعملية حصار ناجحة للمدن الآشورية العظيمة ، هؤلاء الميديون كانوا في زمن شلمناصر عبارة عن مجرد شعب عميل من البدو الرحل الذين يُشار إليهم باسم الميديين الواسعي الانتشار ، وذوي الفائدة لآشور ، والذين يتوسطون الطريق التي كانت تجلب اللآزورد إلى منطقة ما بين النهرين من أفغانستان.

الحرب الأهلية

لقد دام حكم شلمناصر الثالث ووالده معاً مدة ستين عاماً ، وكانت تتسم بسياسة رشيدة واحدة يمارسها حاكمان يملكان عقليين راجعين.

ولكن وعندما سئحت فرصة صغيرة للتعبير عن الرأي العام كان هذا الوضع سبباً لظهور المسخط وعدم الرضا ، ولا غرابة أنه على الرغم من استمرار التوسعات الإمبراطورية فقد كتب على نهاية حكم شلمناصر أن يوصم بحدوث الاضطرابات والتمردات ، إذ إنه وفي الإمبراطورية نهاية عهد شلمناصر وقبل موته بعدة سنوات حدث هناك نزاع قوي يرأسه ولدان من أولاد شلمناصر ، ويذكر الحلف الناجع لشلمناصر وهو شمسي أداد الخامس أن سبباً وعشرين مدينة قد تمردت ، وكان هذا التمرد يشمل المدن الآشورية الرئيسية وهي نينوى وأربيل وآشور وأرابخا.

وكانت مدينة (كالكخا) هي الاستثناء الوحيد إذ إن من الواضح أن (كالكخا) ظلت تحت سيطرة شلمناصر وشمسي أداد الخامس ، فقد كان بُعد النظر الذي أبداه آشور ناصر بعل وشلمناصر عند تخطيط وتنظيم عاصمتها الجديدة (كالكخ) قد أثبت الآن أن الحاكم الذي يحتفظ بهذه المدينة سوف يسيطر على الإمبراطورية بأكملها.

وبعد استعادة السلام في آشور كانت نشاطات شمسي أداد الخامس متركزة بالحدود الشمالية الشرقية وبيابل التي غزاها شمسي أداد وأزاح فيها عن العرش ملوكين متعاقبين (٨١٣ - ٨١٢ ق.م) وليس لدينا أدلة قاطعة عن هذا التطور

الأخير، وهناك تطور آخر وهو أن شمسي أداد قد استلم مساعدة بابلية لتأمين مملكته (وقد استتج هذا من الرخم الفخارية التي تشير إلى المعاهدة المعقودة بينه وبين الملك البابلي).

وإن المحاولات التالية من قبل بابل للاستمرار وإدلال آشور بالتدخل في شملونها قد أدت لقيام شمسي أداد بإجراء أعمال مضادة عنيفة، وإن الخراب الذي أحدثه شمسي أداد في مدن شمال بابل قد سبب تمزقاً ساعد على تصاعد ونمو النفوذ الكلداني.

الأم الملكية التي أصبحت أسطورة

يقدم لنا شمسي أداد حلقة تؤدي إلى أسطورة كلاسيكية، إذ إن زوجته وتدعى (شمورامات) وهي التي ذكرت في الأساطير اليونانية ابتداءً من هيرودوتس فصاعداً، ووجدت في الأساطير وحكايات المصور الوسطى باسم سميراميس، ولقد ذكر ديونوروس المؤرخ الصقلي الذي كتب عن تاريخ اليونان في القرن الأول ق.م بأنه خصص عدة صفحات من القصص الخيالية حول هذه السيدة، التي كانت تجسداً للمرأة الخارقة الفاتكة الجمال، المحبة للتصنع وذات المقدرة العسكرية والقوة الجنسية والمهارة الإدارية والطموح، وقد أدت هذه الصفة الأخيرة بها عندما أصبحت أرملة الملك أن تبني بابل وعدة مدن أخرى في منطقة ما بين النهرين وما وراءها.

بينما تقول الأساطير الأرمنية: إنها قد بنت مدينة عظيمة تُطل على بحيرة (هان) شرقي تركيا، والحقيقة أن هذه العاصمة قد بناها ملك أورارتو المعاصر لهذه الملكة.

إن ذرة من الحقيقة وراء كل هذه المعلومات تشير أن سميرامات عانت امرأة متسلطة، وأنها كانت امرأة بارزة مرموقة في عهد ابنها حدد نيراري الثاني (٨٠٩ - ٧٨٢) ويتصورها بعض الباحثين كوصية على العرش، مع أنه ليس لدينا أي دليل مقنع على هذا سواء كانت وصية على العرش أم لم تكن، ولكن عظمتها

الاستثنائية قد شهد عليها وجود نصب تذكاري حجري، فقد وجد بين اللقيات في العاصمة الآشورية القديمة صفحان من الأعمدة الحجرية منقوش عليها تذكارات أشخاص مختلفين، وفي الصف الأول ذكرت أسماء موظفين كبار، بينما في الصف الثاني كُتِبَ أسماء ملوك ما عدا ثلاثة أسماء، ومن الاستثناءات الثلاثة كان واحد باسم الملكة (سيدة القصر آشور بانيبال) وواحد باسم سيدة (من المحتمل أن تكون سيدة من سيدات القصر مع أن الاسم واللقب مفقودان) سنحاريب، والثالث باسم سميراميس، ويقول النص:

مسلة سمورامات

ملككة (حرفيا سيدة قصر) شمسي أداد

ملك الجميع - ملك آشور

كفنة شلمناصر

ملك الأقطار الأربعة

وإن وجود مسلة سمورامات (سميراميس) في الصف المخصص للملوك وأنها هي لوحدها من السيدات الثلاث الموجودة هناك كانت توصف بأنها أم ملك، هذا يوحي أنها كانت تتمتع بوضع خاص في أثناء حكم (حدد نيراري) ويمكننا أيضاً أن نلاحظ أن حاكم (كالف) عندما كُرس تمثالين إلهين أضاف نقشاً تكريماً يربط بين عبارة:

تكريماً لحياة حدد نيراري ملك أراضي آشور سيدة أضاف عبارة تكريماً لحياة شيمورامات سيدة القصر - سيدته وهذا يشير مرة ثانية إلى الوضع الاستثنائي لشمورامات.

أورارتو - الملكة المنافسة

كان لدى حدد نيراري الثالث مشكلات أخرى أكثر من وجود أم متسلطة، ولكي نفهم ما كان يجري في الإمبراطورية الآشورية في النصف الأول من القرن الثامن ق.م علينا أن ننظر لما كان يحدث في الشمال، فهنا يدعى الآن تركيا

الشرقية (سابقاً أرمينيا) وكان هناك مملكة أورارتو التي كان يحدها ثلاث بحيرات وهي بحيرة (فان) وبحيرة (أورميا) وهي (زيرية) في أذربيجان (شمال غرب إيران) وبحيرة سيفان في أرمينيا السوفيتية (سابقاً) (جنوب روسيا) ولقد تطورت هذه المملكة في القرن التاسع من اتحاد شعوب موجودة في داخل وفيما وراء طوروس، وغزاها الآشوريون خلال عدة قرون، ومع أن هناك نقشاً من اسم أورارتو موجوداً ضمن النقوش الآشورية يرجع إلى القرن الثالث عشر، إلا أنه يشك أنه كان لا يعني أكثر من جزء هامشي صغير لما أصبح يدعى فيما بعد مملكة أورارتو.

وعلى كل حال كانت أورارتو المنافس الرئيسي لآشور، هي من صنع الدولة الآشورية نفسها، فإن الغزوات الآشورية الدائمة لجبال طوروس وما وراءها والقبض على أمرائها وأخذهم كأسرى وكرهائن، وتشغيل أهاليها بالسخرة، والشباب لخدمة الجيش الآشوري، ووجود مسؤولي الإدارة الآشورية وكتبهم لمراقبة وتسجيل حمولات الخشب والمعادن والخيول القادمة إلى آشور، كل هذه عرفت شعب أورارتو على قسم كبير من ثقافة وبنية آشور التحتية، وإن هذا الرابط قد انعكس في أن أول النقوش الأورارتية الباقية كانت مكتوبة باللغة الآشورية،

ومعظمها مكتوبة بالخط المسماري المبني على اللغة الآشورية.

يمكننا أن نرجع البداية الحقيقية لأورارتو كمملكة مرموقة إلى زمن شلمناصر الثالث، فلم يصف شلمناصر غزواته لأورارتو فحسب بل لقد صورها في لوحات مجسمة من البرونز كحسب بها بوابات إحدى المدن التي بناها قريبة من كالاخ، فنحن نرى خلال تلك الصور قدام جنود المشاة من الأورارتيين فوق الجبال المنحدرة، ونرى المسؤولين الآشوريين من الخيالة والرماة الآشوريين أثناء العمل، ونرى حادثة إحراق (ارزاشكن) أول عاصمة لأورارتو، ولم تكن أرزاشكن في منطقة بحيرة (فان) ولكن على بعد منها إلى الغرب أو الشمال الغربي، ولقد بنى ملك أورارتو (ساربورزي) عاصمة جديدة له تدعى (تورشيا) وذلك طلباً للأمان من

خطر الحملات الآشورية، وكانت هذه العاصمة الجديدة في موقع عالٍ يسهل الدفاع عن كل الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحيرة فان.

لقد قدمت الاضطرابات الداخلية التي حدثت في أثناء حكم شلمناصر الثالث فرصة لأورارتو للتوسع، فقد عبر الآشوريون تحت قيادة شلمناصر جبال زاغروس واتجهوا إلى إيران، وربما كان ذلك بحثاً عن الخيول، وقد قابلوا إلى الجنوب من بحيرة أوروميا شعباً يدعى (الماني) فضلاً عن الإيرانيين (الذين لم يتخذوا مكان إقامتهم النهائية بعد في الجنوب) وقابل شعب ميدياً أيضاً.

وهنا نتوسع (أورارتو) جنوباً الآن إلى داخل الأراضي الجبلية الواقعة بين (توروشيا) وأشور، وشرقاً وجنوب شرقاً إلى داخل بلاد أذربيجان الخصبة حتى بحيرة أوروميا، وعندما حاولت أورارتو مواصلة التوسع جنوباً من بحيرة أوروميا بدأت المنافسات للاستيلاء على أرض مانيا، الأمر الذي لم يتقرر إلا بعد أن استولت آشور على جميع بلاد أذربيجان عام ٧١٤ ق.م، غير أن الاضطرابات الآشورية الداخلية زمن شلمناصر الثالث قد أخضعت سيطرة آشور على المنطقة الشمالية الغربية وبذلك مكنت أورارتو من التوسع حتى الفرات الأعلى، وكانت هذه منطقة ذات أهمية قصوى بالنسبة لآشور نظراً لأن النهر كان هو الطريق الطبيعية الموصلة إلى بلاد الأناضول من سورية ومنطقة ما بين النهرين.

وعندما هجمت أورارتو على إحدى المحميات الآشورية المهمة هناك وهي دولة (ميليد) ذبَّ القلق بين أتباع آشور الآخرين من الداخلين في قلبك آشور في شمال وجنوب سورية، وقد انعكس هذا في الامتناع عن تقديم الجزية في زمن حكم الملك شمشي أداد الخامس.

كانت أهمية سورية الاقتصادية بالنسبة لآشور متعددة الجوانب، فقد كانت سورية مصدراً للقوة العاملة الماهرة، كما أنها قدمت الخشب من جبال أمانوس ولبنان، وكانت تشرّف على الطرق الآشورية إلى البحر الأبيض المتوسط، وكانت سورية هي خط التزويد الأساسي بالمدائن والخيول من الأناضول وآسيا الصغرى، هذا وقد وصل (حدد نيراري) الثالث إلى حل بالنسبة لهذا المشكل

الاستراتيجي وذلك بالقيام بحملات في جنوب سورية التي كانت أسهل منلاً من سورية الشمالية بسبب التضاريس الطبيعية، ولكن الحقيقة أن ذلك كان بسبب أن هذه الحملات لا تشمل أورتو مباشرة.

وقد بدأ الحملة بالهجوم على (أرياد) إلى الشمال الغربي من حلب، ولكنه ركز فيما بعد على استعادة سيطرته على سورية الجنوبية، واستلام الجزية من المناطق حتى جنوبي صور وحيداً وإسرائيل (وقد ذكر اسم ملكها بالتحديد وهو يوشع) وكان هدفه الرئيسي من غزو جنوب سورية الاستيلاء على مدينة دمشق الغنية التي ادعى حدد نيراري أنه استلم نحو ثلاثين طنناً من النحاس أو البرونز، وضعف تلك الكمية من الحديد، وأما من لبنان فقد حمل نحو مئة شجرة أرز من التي احتاجها لأجل بناء قصوره ومعابده.

لقد أُلحنا إلى الدور الذي لعبته سورية كمصدر من مصادر الحصول على القوى البشرية، ولقد أدرك حدد نيراري الحاجة لتطوير أراضيه، وفي إحدى النصوص يضيف إلى مهمة غزوته لجنوب سورية بعض التفاصيل حول مشروع إعادة الاستيطان في منطقة الخابور العليا الخصبة، ومن المعلوم أن نستج أن الشعب الذي وصل إلى هذه المستوطنات الجديدة قد أتى من جنوب سورية.

وجواباً على تهديدات آشور لسورية حاول ملك دمشق تنظيم اتحاد يضم جميع الدول ابتداءً من (مليد) وكلهكيا حتى دمشق مع أنه وجدت بعض الجزر التي كانت تدعى بالولاء لآشور مثل حماة التي بقيت كذلك.

وقد كان الوضع النهائي أن وجدت دولة قوية وهي دولة (أورتو) التي كانت مسيطرة على المنطقة بأجمعها غريباً ابتداءً من جنوب بحيرة (أوروميا) حتى (مليد) مع بعض الدول ابتداءً من مليد جنوباً حتى كركميش التي كانت تخضع للتفوذ الأورارتي كلياً، وإلى أقاصي الجنوب حيث كان هناك اتحاد متضامن نسبياً تحت قيادة دمشق التي كانت غير موالية لآشور، كل هذه الأمور أثرت تأثيراً سلبياً على تزويد آشور بالأشياء الضرورية مثل الخيول والمعادن والأخشاب فضلاً عن الكماليات مثل اللازورد من أفغانستان، والذي كان يعمل

إلى آشور عن طريق يسير خلال شمال إيران، ومثل التوابل من جنوب بلاد العرب والتي كانت تصل إلى آشور من خلال فلسطين وسورية.

ولو كانت آشور تحت حكم رجل استراتيجي قادر لاستطاعت حل هذه المشكلات، ويوجد سهولها الفنية بنبات الذرة الممتدة على طول نهر دجلة العظيم، ويوجد طرق المواصلات السهلة عبر المنطقة بأكملها، فقد كانت آشور ذات موقع جغرافي يؤهلها لتكون دولة محارية أكثر من حالة أورارتو الجبلية التي كان من الصعب صوغها بشكل دولة موحدة، بينما كانت التضاريس الطبيعية لأورارتو تجعل من المستحيل هزيمة هذه الدولة ككل، ولكن عملت بعض الظروف على التأكيد أن باستطاعة آشور السيطرة على تلك المناطق الخاضعة لتفوذ (أورارتو) والتي كانت ذات أهمية استراتيجية لأشور، ولكن وفي ذلك الوقت بالذات لم تكن الظروف مناسبة في آشور، وكذلك فقد كان المشكل في سورية ليس مُستعصماً على الحل.

أما محاولات دمشق لإنشاء تحالف سوري شامل فقد كانت ناجحة إلى حد ما وبشكل مؤقت، هذا وقد ذكرت قضية مقاومة حماة، وتوضيح الثورة أن بريكام الثاني ملك إسرائيل لم يكن يرحب بالاتحاد الذي اقترحه دمشق، ولكنه استفاد من انهماك دمشق في تلك الشؤون فأصبح حليفاً لأشور عندما قامت بحملة ضد دمشق عام ٧٧٢، وكانت آشور تفضل وجود إسرائيل قوية ولكن لا تولف تهديداً لأشور في منطقة الفرات السورية، على تحالف الدول الآرامية بقيادة دمشق والذي كان يهدد مصالح آشور حقاً.

الملوك الضعفاء والولاة الممانون في القوة

ومع ذلك ولمدة حكم ثلاثة ملوك ومضي نحو أربعين عاماً بعد حدد نيراري الثالث لم تُظهر آشور أي مبادرة ظاهرة، ولا يعني هذا أن آشور قد لانت فجأة، إذ إن قوائم التواريخ السنوية تذكر حدوث حملات سنه ضد مملكة أورارتو في مدة ثماني سنوات، وأربع حملات ضد سورية فيما بين عام ٧٧٢ وعام ٧٥٤، ولكن

تدل المؤشرات أن هذه الحملات كانت إما حملات دفاعية قام بها الحكام المحليون أو غارات محدودة أو مصاعمات حدودية، إلا أنه لم تكن هناك محاولات كبيرة للتوسع الآشوري. وقد كان أحد عوامل هذه الظاهرة هو الوضع الداخلي، حيث حدث تغير في السلطة وانتقال تلك السلطة من الحكومة المركزية إلى الولاة المحليين، وهذا كان تطوراً تدريجياً بدأ بالحدوث منذ زمن شلمنصر الثالث.

هذا، وإن تأكيد ذلك الملك ووالده على وجود سيطرة آشورية حازمة على مناطق مثل منطقة الفرات الوسطى والعليا، ومناطق شمال طور عابدين كل ذلك كان يقتضي وجود إدارة محلية ذات سلطات بالغة القوة لحمالية أمن تلك المناطق الحدودية النائية.

ولقد لاقت تلك الاستراتيجية لحمالية آشور داخل حدود الفرات وشمال دجلة نجاحاً باهراً، فقد سمحت بالعمل السريع ضد أي قلاقل محلية، واستطاع الحكام في جواد قوي (أورارتو) التحرك بسرعة ضد أي حركات مهددة، ولكن يظهر أنه كان هناك وجه آخر لهذا التطور، فالحكام في هذا الوضع كانوا قادرين في غياب ملك قوي قادر على اكتساب مقياس واسع من الاستقلال، وأن تصبح هناك أسر محلية حاكمة، ولقد أظهرت هذا الأمر بعض النقوش التي كانت تخص ثلاثة حكام مختلفين من هذه الفترة كانت تسجل مفاخرهم التي تشمل بعض أوجه النجاح العسكري وتأسيس بعض المدن، وكانت هذه الشؤون منحصرة بالنقوش الملكية.

وفي إحدى الحالات نجد أحد الحكام الذي كان يحكم منطقة بمعاذاة الفرات الأوسط، كان هذا الحاكم يورخ أعماله بعدد سنوات حكمه ووجوده في السلطة دون ذكر وجود أي ملك، وهذا يدل أنه كان حاكماً مستقلاً فعلاً، ومن الممكن أن نضيف أن هذا الحاكم فعل الكثير لخير الإنسانية أكثر من عديد من الملوك، فقد قدم تربية النحل لشميه، والتي كانت أنجازاً يفخر به وهو يكتب هنا مايلي:

أنا شاماش - ديش - يويسور حاكم سوهو وملاري (على الضرات الأوسط)
أقول: إن النحل الذي يجمع العسل الذي لم يره أحد من أجدادي ولم يجلبه إلى هذه
البلاد، لقد جلبته من جبال حبيبا (تركيا الشرقية) وبدأت استثماره في بلدة
جباري ابني (وهي إحدى المدن التي اسمها) وإن أهالي تلك البلدة يجمعون العسل
والشمع، وإنني أفهم كيف يذيقون العسل والشمع ويقههما أصحاب البساتين أيضاً
ويمكنكم سؤال أي شخص في المستقبل من الشيوخ القعاء في البلاد فهما إذا
كان صحيحاً أن شاماش - ريشن - يوشور حاكم سوهو هو الذي قدم النحل إلى
هذه البلاد.

إنه لأمر مهم أن يقول شاماش - ريشن - يوشور: إنه حصل على النحل من
الشمال، لأنه من المعلوم أن الحثيين سكنوا يريون النحل في خلايا في الألف الثاني
ق. م.

وبوجود حكومة مركزية ضعيفة مع وجود مشاكل اقتصادية ناتجة عن
التدخلات في تأمين البضائع التي كانت آشور معتادة على الحصول عليها من
سورية ومن الشمال، بوجود هذه المشكلات بدأت التوترات تشتد، وفي أثناء
حكم آخر ملك في هذه الفترة وهو آشور نيراري (٧٥٣ - ٧٤٥) حصلت أورارتو على
مكاسب سياسية وربما عسكرية في شمال سورية، وقد ادعى معاصره الأورارهي
(ساردوري) الأول أنه قد استولى على أرض (آشور نيراري) ملك آشور، ولم يذكر
أي تفاصيل سوى أنه ذكر اسم مكان يوهي بأنه من أراض آشورية قرب
كركميش، ولم يكن آشور نيراري في مركز يسمح له أن يقوم بجواب
عسكري.

وتسجل قائمة حوادث السنين الخمسة من القرنين الثمانية التي حكمها بأنه
لم تحدث أي حملة عسكرية، ويظهر أنه قد صمم على حماية مركز آشور في
سورية الشمالية بشكل دبلوماسي، ولدينا نص من نصوص معاهدة مفادها إشراك
دولة سورية شمالية لدعم آشور ضد أورارتو، وكانت لهذه المبادرة تأثيرات قليلة،
وهكذا استمرت أورارتو بالتقدم في سورية الشمالية.

وفي النهاية: انفجرت التوفرات خلال آشور عبر تمرد داخل العاصمة (كالك) ونُصب حاكم كالك ملكاً وكان مُنصبياً، ولكنه كان يحمل دعاء ملكية، وكان اسمه (بول) كما هو مسجل في كل من التوراة ويمض النقوش المسمارية، ولكنه اتخذ اسم (تفلات بلاسر) لقباً ملكياً كما أنه كان دلالة على نوع الميامنة التوسعية التي كان ينوي اتخاذها والسير بموجبها وذلك اقتضاء لخطى صاحب الأول لهذا اللقب.

الفصل السابع

عنوان الإمبراطورية

الإصلاح الإداري

لقد قدّم حكم تغلات بلاسر الثالث (٧٢٥ - ٧٢٧) قرناً من التوسعات العظمى في آشور الإمبراطورية ، ولقد تبع ذلك التغير الدرامي في الأوضاع الدولية التنظيم الإداري الذي أعطى الملك السيطرة المباشرة والسريعة على جميع موارد الإمبراطورية.

وبالنسبة للتنظيمات الإدارية القديمة للمناطق، انتقلت بعض أنظمة الولاية التي كان يُنفذها بعض العائلات النبيلة إلى ما يشبه نظام الملكية الوراثي، وأصبح الوالي حاكماً شبه مستقل، ولكن هذه الأنظمة قد تحطمت وظهر بدلاً منها بُنية من الموظفين الذين كان يُعينهم الملك وأصبحوا مسؤولين أمامه في العاصمة، ولقد نظمت في الإمبراطورية أنظمة للمواصلات السريعة وشبكة من مراحل البريد التي اقتبسها الفرس فيما بعد وادعوا أنهم هم الذين اخترعوا هذا النظام الذي انتشر عبر الإمبراطورية.

وقد طُلب من موظفي الولايات إرسال تقارير بالنظام إلى العاصمة وبالسريعة الملوية ، وكان للملك بعض المفتشين المتقلين وذلك لفحص أعمال موظفي الولاية حتى أعلى المراتب وبالنسبة للدول الخاضعة لآشور والتي تقع فيما وراء الولايات المحكومة بشكل مباشر فقد عين تغلات بلاسر ممثلين عنه لضمان المصالح الآشورية في البلاط ولإسهما في الشؤون التجارية والمهاسة الأجنبية.

أما العائلات الحاكمة المحلية ، فما داموا يدفعون الجزية المفروضة عليهم ، وما داموا يقبلون تعليمات الممثل الإمبراطوري بالنسبة للشؤون العامة ، فقد تركوا أحراراً ومستقلين ولديهم الثقة بدعم القوى الإمبراطورية لهم ضد أي ثورة داخلية أو هجوم خارجي، وليس من الصعب أن نجد أمثلة على أوضاع من هذا النوع، إذ إن

لدينا نقشاً آرامياً يمثل أحد الأتباع المخلصين وهو ملك (سامال) التي تقع على بعد حوالي سبعين ميلاً إلى الشمال من طبر، ويذكر هذا الملك كيف أعاد ثقلات بلاسر والد هذا الملك إلى الحكم بعد أن حصل تمرد ضده، وكيف أن الملك الآشوري قد قضى على المعارضة، وفي التوراة نرى كيف أن (أحاز) ملك يهوذا وعندما هدده ائتلاف معام، التجأ (أحاز) هذا إلى ملك آشور ثقلات بلاسر.

ولقد أنشئ نظام للتجسس في آشور، ومن هذا الزمن نسمع عن جواسيس من (أوراريتا) كان الآشوريون يخفون لهم رواتبهم، ولقد سمعنا عن تقاريرهم في بعض الحالات، ومن المقول أن نفترض أن هذا الإجراء لم يكن معصوماً بأورارتو، وفي أثناء هجوم سنحاريب على أورشليم عام ٧٠١ ق م كان الموظفون الآشوريون يعرفون بالطبع (إذا جاز لنا أن نصلق القصص التوراتية) كميات وافرة من المعلومات عن التطورات الداخلية في مملكة يهوذا.

لقد بدا من الواضح معرفة أعمال ثقلات بلاسر بصفة عامة، إذ من الصعب الوصول إلى ما فعله بصورة خاصة، وذلك لأن حولياته قد حفظت بشكل سيء، وإن إعادة ترتيب مفصلة لتاريخ وجغرافية حملاته ما تزال تقدم عدة ساعات سميدة من الأبحاث بالنسبة لدارسي الخط المسماري، أما نقوش ثقلات بلاسر فقد تعرضت إلى الأذى من عدة نواح، فقد كتب حولياته بالخط النافر على جدران قصره، وقد عمد أحد خلفائه إلى نزع تلك الألواح المجسمة واستعملها لتزيين قصره الجديد الذي كان يبنيه، وقد أساء ترتيبها وأتلفها عند القيام بهذا العمل..

وبعد ذلك وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حاول أحد الحفارين الوصول إلى الألواح فتسبب في زيادة الإساءة، وذلك لأنه قص بعض الأجزاء المنقوشة للتخفيف من وزنها وتسهيل نقلها.

«آء أيها الفن، حكم من الجرائم تقترف باسمك». وقد حاول عضو بعثة الحفريات هذا أن يتجنب ضياع المعلومات وذلك بنسخ النص على أوراق، ولكن الأوراق تعرضت للفرق واختفى قسم منها بين دهااليز المتحف البريطاني، وفوق ذلك فإن الذين توصلوا إلى القصص الأصلية وقطع الورق نشروها بشكل سيئ، وإن

أحد العوامل الكامنة وراء هذا الخلل التهاثي هو أن تغلات بلاسر كان واقعاً ضد غالبية التواريخ التوراتية كما يظهر في كتاب الملوك، وهكذا فقد أصبح الاهتمام الرئيسي لبعض الباحثين لا ينتمي إلى تاريخ الشرق الأدنى في مظاهره العريضة بل كان مهمهم تثبيت وتأكيد الأهلوال التوراتية حول التاريخ الإسرائيلي.

السياسة تجاه الدول التابعة

لقد وسع تغلات بلاسر الإمبراطورية الآشورية، وقد اعتبر آشور ناصر بعل وشلمانسر الثالث منطقة نهر الفرات حداً من حدود آشور العظمى تعبيراً عن حكم المناطق بشكل مباشر، وإلى القرب كان هناك دويلات خاضعة وموالية مرتبطة بأشور بالماهدات أو بالتهديدات العسكرية.

ولكنها كانت بالحقيقة مستقلة رسمياً، ولكن تغلات بلاسر بدل كل هذه المفاهيم، ففي أثناء حكمه أصبحت بعض الولايات التابعة سابقاً فيما وراء الفرات ولايات محكومة بشكل مباشر، وقد تابع خلفاء هذا الملك توسيع هذا الوضع.

فهل كان هذا العمل نتيجة لاتباع سياسة واستراتيجية جديدة أم لم يكن سوى نتيجة اتباع سياسة سابقة؟

ولكن الشواهد تشير إلى تصويب الرأي الأخير، فقد قدمت التوراة تفاصيل حول ضم مملكة إسرائيل إلى الحكم الآشوري، ومن الواضح أن تغلات بلاسر حاول جهده لحكمب تعاون إسرائيل كدولة تابعة، ولكن وبعد أن فشلت هذه المحاولات عمل أحد خلفاء هذا الملك إلى غزو إسرائيل واحتلالها. وكذلك في مملكة يهوذا نرى أن أحاز ملكها قد استجبد بتغلات بلاسر طالباً العون، ولم يكن ليفعل هذا لو كان يدري أن هذا سوف يؤدي إلى ضم مملكته لأشور (وهذا لم يتم بالنتيجة) وهنا نرى أحد حكام الولايات في شمال سورية التابعين لأشور يعدد بوضوح الملاقات الوثيقة ما بين أبيه وبينه من جهة وبين تغلات بلاسر الثالث من جهة أخرى.

لقد أمسك أبي بحاشية سيده ملك آشور العظيم وعندئذ عاش هو وعاشت (عدي) (اسم الملكة) لقد سار أبي إلى جانب دواليب عرية سيده تغلات ملك آشور ورافقه في حملات امتدت من الشرق إلى الغرب، ولقد مات والدي تحت قدمي سيده تغلات بلاسر ملك آشور، وقد بككت عليه جميع معسكرات سيده، وقد أقام له سيده تمثالاً على حافة الطريق، وحُمل أبي قداماً من دمشق، ونظراً لولائي وولاء والدي فقد عيَّني سيدي تغلات بلاسر ملكاً).

ومن الواضح أنه لم يكن لهذا الملك أي سبب يدعوهُ أن يفكر أنه ما دام تابعاً وموالياً لأشور فإن مملكته سوف تضم إلى آشور.

لقد كانت مشكلة آشور العظمى عند تولي تغلات بلاسر الحكم هي (أورارتو) وقد كانت السيطرة على الطرق التجارية السورية ضرورية لتأمين ورود الأخشاب والمعادن والخيول، ولقد كانت مملكة أورارتو مصممة على السيطرة على سورية الشمالية، وبوجود هاتين القوتين في الميدان (مع وجود قوة ثالثة وهي مصر التي كانت أقل قوة ولكنها استمدت بعض قواها في هذا الوقت بحيث لا يجوز إغفالها) ولهذا فقد ثبت أن معظم الدول التابعة غير جديرة بالثقة في الأوقات الحرجة، وذلك من وجهة النظر الآشورية، ولهذا فقد اضطرت آشور وحفظاً لأمن الطرق التي كانت تعتمد عليها أن تقدم وتتخذ حكماً مباشراً للولايات، وأن تضعف المجال المحلي للتمردات عليها وذلك عن طريق تهجير الفئات المتفردة.

وهنا وبغض النظر عن ميادئ تغلات بلاسر التوسعية، وبسبب حالة سجلاته السيئة، فإننا نلاحظ أن التفاصيل قد بقيت موضوعاً للبحث بالنسبة لعدة نقاط، وفي الاستعراض التالي سوف نذكر التفاصيل التي اقترحها الباحث الإسرائيلي حاييم تدمور.

التوسع خلال حكم تغلات بلاسر الثالث

ذكرنا سابقاً موضوع الخصومات الحدودية المستوطنة التي وقعت بين آشور وبابل، والتي طال ذكرها، ولم نقصد كسر التقاليد أشاء حكم تغلات بلاسر

عندما نبدأ بتأكيد الحقوق الآشورية بالحدود المتنازع عليها مع بابل في الجهة الجنوبية الشرقية، وبهذه المناسبة استطاع تغلات بلاسر نظراً لضعف بابل المسبب عن الاضطرابات الداخلية أن يُثبت الحدود في أقصى الخطوط الجنوبية على طول نهر ديالاً من زاغروس إلى نهر دجلة، ولقد حدث أيضاً عدة اختراقات آشورية إلى الجنوب، حيث كان هناك بعض القبائل وهم الكلدانيون الذين ذكروا آنفاً والذين سوف نقابلهم كخصوم مقاومين لأشور فيما بعد، وكان هؤلاء الكلدانيون يعزقون ويوقعون الفوضى في بابل، وبعد ذلك التقت تغلات بلاسر إلى الاهتمام بمشاكلته الرئيسية وهي شمال سورية.

وهنا نجد أن مملكة أورارتو قد قامت بتقدم ذي أهمية حديثاً، فقد أخضعت عدة دول على الخط إلى الغرب من نهر الفرات وهي ميليد وكوموخ وكركميش وأصبحت هذه الدول تابعة لأورارتو، هذا وقد انضمت (أرباد) إلى الجنوب الغربي من كركميش وهي التي كانت تسيطر على مشارف المناطق في أقصى الجنوب، تلك المشارف التي كانت ذات أهمية بالنسبة للطرق الآشورية إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت ترتبط بمعاهدة اسمية مع آشور، وقد انضمت هذه المملكة إلى الائتلاف ضد آشور.

وفي عام ٧٤٢ ق.م قام تغلات بلاسر بمهاجمة (أرباد) التي كانت تحتلها الجيوش الأورارتية، وتشمل قائمة (ليمو) (وهي وثيقة تقدم قائمة تقريبية للحوادث ذات الأهمية بالنسبة للأغراض التاريخية) مايلي وذلك بالنسبة لحوادث عام ٧٢٢ ق.م:

((في (أرباد) حصل انكسار لقوات أورارتو)) ولكن استغرق حصارها مدة سنتين حتى استولى الآشوريون على تلك المدينة، وقد تسبب هذا في خضوع عدة مدن لحكم آشور عن طريق دفع الجزية، بينما كان تغلات بلاسر يقوي مواقفه في شمال سورية، وكان هذا في عام ٧٤٠ الذي أصبح يسجل عام فتح أرباد وجعلها قاعدة للعمليات الرامية إلى هزيمة الدول الخارجة عن الطاعة.

وهنا التفت بتلات بلاسر لمعالجة دولة خاضعة لأورارتو وهي بلاد (أونويو) في منطقة (دوهوك زاخو) الواقعة إلى الشمال من نينوى. والتي كانت متاخمة لأراضي آشور والتي لا يجوز تركها مُرتاحة تحت أياد أجنبية، وهي تمثل تهديدات أورارتو لأشور، وهكذا استولى تفلات بلاسر على هذه المنطقة التي كانت مزدهرة، كما ذكر أن تسعاً وعشرين مدينة قد أصبحت تحت الحكم الآشوري المباشر، وقد هاجر إليها بعض السكان المنقولين من المناطق المغلوبة، ونظن أنهم كانوا من شمال سورية، ولقد جلبت لتفلات بلاسر تلك النشاطات التي بدأها من قاعدة (أرياد) عام ٧٤٠ جلبت له الجزية التي تدل على القبول النهائي للحكم الآشوري، وذلك من عدد من الدول التي تم قهرها حتى حدود فلسطين.

وفي هذه النقطة نرى أن تسجيلات واسعة كانت متاحة بحيث كانت إعادة بناء عدة أماكن ممكنة، ولا تزال الاختلافات الأكاديمية لدرجة قطع الأعناق مستمرة حول تفاصيل تافهة، مثل الاختلاف على التاريخ المضبوط حول دفع الجزية من قبل (مناحيم) في إسرائيل، والتي سجلتها التوراة، ومع ذلك فيبدو أن بعض الدول البعيدة في جنوب سورية وفلسطين قد استسكنت عن دفع الجزية، وبهذا أظهرت أنها لم تكن موالية لأشور، ولهذا فقد قام تفلات بلاسر عام ٧٢٨ بمرض لقواء العسكرية في جنوب سورية وكان هذا سبباً في دفع مناحيم الإسرائيلي الجزية لأشور، وفي سفر الملوك يذكر أن بول (وهو تفلات بلاسر ملك آشور تقدم ضد الأراضي ولهذا فقد قدم مناحيم إلى بول ألف مثقال من الفضة، وتمهد أن يبقى معه لكي يثبت بقاء المنطقة تحت حكمه).

وإن ما ورد في التوراة عن الحوادث التي سبقت الحوادث التي ذكرناها، يذكر أن مناحيم قد استولى على العرش في إسرائيل في أواخر حكم عزريا ملك يهوذا، ومن الممتع أن نعلم أن تفلات بلاسر قد قابل شخصاً اسمه (عز ياهو) وهو شخصية بارزة في التحالف السوري وكان يحظى بدعم سوري حتى حماة، ولقد اعتبر البعض أن (عز ياهو) هو ملك يهوذا نظراً لأن عز ياهو قد التحق به أو حتى ألف تحالفاً سورياً يشمل الدول المناهضة للدول الخاضعة لأشور، ولكن ومع أن

هذا كان معتمداً بالنسبة للتواريخ التوراتية، إلا أن هذا الخبر ليس له أي صلة بإعادة إنشاء تفلّات بلاسر لاستراتيجيته الجديدة.

وابتداءً من عام ٧٢٧ حتى عام ٧٢٥ ق م كان تفلّات بلاسر مشغولاً بتنفيذ إجراءات ضد أورارتو في أقاصي المناطق الشرقية حتى أراضي الميديين الواقعة إلى الشرق من زاغروس في شمال غرب إيران.

هذا ولقد أعطى انسحاب الجيش الآشوري الرئيسي من سورية انطباعاً مضللاً عن مقدرة الآشوريين على الاحتفاظ بقوتهم ومركزهم، فلقد شكلت اتصالات ضد آشور لاسيما ما بين دمشق والديولات في فلسطين، مع أن (أحاز) كان خارج هذه التحالفات (ربما كان ذلك بناءً على نصيحة النبي اشعيا) وهكذا دعا هذا الملك راعيه وملوكه تفلّات بلاسر لتأييده، ولقد أخذ تفلّات بلاسر تلك الإضطرابات بسهولة وحول دمشق وبعض أجزاء إسرائيل إلى ولايات، مع أنه ترك الجزء الأوسط من إسرائيل تحت حكم ملك وطني وهو (هوشيا) الذي عينه بدلاً من المتمرّد (بيصكاخ) وذلك بدلاً من أن يجعل جميع المناطق المهزومة تحت حكم آشوري مباشرة، فقد كان تفلّات بلاسر حريصاً على محاولة الاحتفاظ بولاء الممالك الخاضعة كلها كان ذلك ممكناً.

الراع مع الكلدانيين

لقد ظهرت بعض المشكلات أمام تقاتلات بلاسر في منطقة جديدة، فلقد ذكرنا سابقاً عن الكلدانيين الذين كانوا يمزقون بابل وقد كان هؤلاء شعباً قبلياً ولديهم بعض أوجه الشبه بالأراميين، فقد دخلوا إلى جنوب بابل حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، وأنشأوا أول مستوطناتهم في مناطق المستنقعات في اقاصي جنوب بابل وهي المستنقعات المراقية الشهيرة، وبعد ذلك بدؤوا بالتحرك إلى أعالي نهر الفرات ومحاولة السيطرة على بعض المدن القديمة.

وفي عام (٧٢٤) قام أحد الزعماء الكلدانيين البارزين من قبيلة (أموكاني) باحتلال بابل وكان اسمه (نوكين - زير) بالاستيلاء على العرش، ولهذا فقد انقسمت بابل في ولايتها، وبالنسبة للشعب الكلداني فإن جارهم الشمالي كان يمثل النظام القديم المستقر القائم ضد الكلدانيين المخربين، وعندما استجاب تقاتلات بلاسر للوضع بإرسال القوة العسكرية فإن كثيراً من السكان المدنيين في بابل وحتى بعض السكان غير المواليين للكلدانيين مثل شعب باكودو قد رحبوا بهذا العمل، وقد ذكر باكودو في كتيب (أرميا وزكريا)، ولدينا بعض المراسلات الحقيقية التي تعود إلى تلك الحملة التي تمت بها بعض القواد إلى الملك، وتذكر إحدى هذه الرسائل قضية المحادثات التي جرت على أبواب بابل ما بين الموظفين الآشوريين والشعب في الداخل، فقد كان الآشوريون يودون التفاهم مع العامة مباشرة متجاوزين الحكام المتمردين، وذلك بنفس الطريقة التي تمت بها المقابلة بين القائد الآشوري (ريشاتي) مع اليهود أثناء حصار أورشليم عام ٧٠١ ق.م وهذه الحادثة قد ذكرت في التوراة، ولكن الموقف الكلداني كان قوياً بحيث إن غلبة الآشوريين لبابل قد تمت خلال ثلاث سنوات، ولقد كان النجاح الآشوري مدين للدبلوماسية أكثر منه للقوة العسكرية، وبين المراسلات الملكية التي تعود إلى هذه الفترة هناك عدة رسائل تظهر أن تقاتلات بلاسر كان على ارتباط مع عدد من قواد وزعماء كلدانيين مختلفين، بما فيهم المدعو (باردوك - أيل - أيدينا) من قبيلة (بيت باهين) وهو نفس (بيروراك - بالادان) المذكور كأحد المفاوضين

مع (حزقيها ملك يهوذا في فترة تالية) وإن رد الفعل الذي أظهره أشعيا إزاء تلك المفوضات يظهر أنه لم يكن يقرب بيرووداك - بالادان، إذ إن أشعيا كان له أسبابه الخاصة، فقد كان بيرووداك جاسوساً مزدوج الفزعات، إذ إن الرسائل الآشورية الموجودة الآن تظهر أنه وفي زمن المتمرّد (أوكين - زير) كان ميرووداك يقبض أموالاً بالمر من تفلّات بلاسر ليعطى رفقائه من الكلدانيين في الظهور.

ولقد عرفت تكتيكات الآشوريين في احتلال بابل بالتفصيل، فقد توجهت الهجمة من ولاية (أرابخا) (كرصوك) فقد تحرك الجيش الآشوري جنوباً أسفل الضفة الشرقية لنهر دجلة ليدخل بابل بعد عبور النهر في مكان ما قرب بغداد، وقد كانت بعض القبائل الموالية تحرس الطرق بينما كان الجيش الآشوري يتحرك غرباً ليصل إلى المدن البابلية الشمالية التي كان الكلدانيون المتمردون يحتلونها، وهكذا سقطت بابل وهرب (أوكين - زير) جنوباً ليلتقي بمأسمته القبلية في المستقعات الجنوبية، ولكن جيشاً آشورياً لحق به وتابمه إلى هناك بعد أن ضربوا أراضيه وأراضي حلفائه من القبائل، مع أن الزعماء المواليين لآشور مثل بيرووداك - بالادان نجحت أراضيهم ولم تخرب وعندما استقرت الأمور بعد ثلاث سنوات أصبحت بابل تحت الحكم الإداري الآشوري، وبالتالي فقد أمسك تفلّات بلاسر بيد الإله (مردوخ) أي أنه (أخرج معه تمثال الإله) في احتفال جرى في بابل وبذلك فقد كان مغزولاً بشكل رسمي بامتلاك بابل وتعيينه ملكاً عليها، تلك الوظيفة التي لم يحصل عليها أي ملك آشوري منذ أكثر من أربعة قرون..

وهذا اعترف الكهنة رسمياً باحتفال باهر لتفلّات بلاسر ممثلاً للآلهة والملك الشرعي لبابل وذلك بإشراكه في وجبة ووليمة سرية خاصة بالأسرار المقدسة والمقامة تكريماً للآلهة، وقد حدث هذا في عام ٧٢٩ ق.م. ولقد تويج تفلّات بلاسر بعد عامين بعد أن ترك آشور تحكم إمبراطورية ممتدة من الخليج الفارسي إلى حدود مصر وتتوسع شمالاً خلال شمال سورية إلى كلبيكيا والأناضول.

ولقد اكتسبت الحملات الآشورية تحت قيادة تفلّات بلاسر السيطرة على الساحل الفلسطيني جنوباً حتى قطاع غزة، وكان هذا يظهر تهديداً لمصر وأيضاً

لقد تدخل الآشوريون بالتجولة المصرية، فقد فرضوا حظراً على تصدير الأخشاب من لبنان إلى مصر، وكانت هذه العوامل حافزة لمصر لتنظيم حركات ضد الآشوريين في فلسطين وجنوب سورية في السنوات التالية، وقد كانت النتيجة الأكثر دراماتيكية معاصرة وسبي السامرة من قبل الآشوريين وكانت السامرة هي عاصمة ما تبقى من إسرائيل وهي التي ذكرتها النورا.

اعتلاء سرجون العرش

لقد ادعى سرجون الثاني أنه ابن ثقات بلامر وقد استولى على العرش بعد قيام اضطرابات في العاصمة القديمة آشور ضد سلطة شلمنصر الخامس الذي حكم وقتاً قصيراً من (٧٢٧ - ٧٢٢) وقد قام شلمنصر الخامس هذا بمحاولة لفرض أعمال الصخرة على المجتمع بعكس كل من سبقه. فقد كان لسلطة ملوك آشور حدوداً، واعترافاً بالدعم الذي لقيه سرجون عند استلامه السلطة فقد أعلن سرجون الإغناء من بعض الضرائب وبعض الالتزامات ليس لشعب آشور فحسب بل أيضاً لجميع معابر بلاد آشور، وهكذا فقد فرض أعباء ضخمة على الأموال الإمبراطورية.

لم يكن أمراً غير متوقع أن قيام الاضطرابات في بلاد آشور قد أيقظت كعصدي لما حدث في بعض الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية، وسرعان ما واجه سرجون بعض الإزعاجات في بابل.

ولقد قابلنا في وقت مضى عيلام الواقعة في جنوب غربي إيران، وفي أواخر القرن التاسع بدأنا نسمع عن قيام الملاميين مع الكلدانيين وشبائهم بمصادمات مع دولة آشور، وقد كان قرب أراضي عيلام من مناطق الكلدانيين في بابل الجنوبية قد وُجد اهتمام الشعبين، وفي بداية حكم سرجون أمن بيروراك - بالادان حلفاً رسمياً مع عيلام ويمسندة هذا الشعب استطاع الاستيلاء على بابل عام ٧٢١ ق.م، وقد ادعى حقه في ملك بابل بكونه متحدرًا من أحد الجدود الذي عين نفسه ملكاً في أول ذلك القرن، وكما حدث في عصيان أوكنزور فقد تحرك

الجيش الآشوري إلى الجنوب إلى بابل إلى الشرق من نهر دجلة، ولكن في هذه المرة حال دون تقدمهم حلفاء (بيروراك) - بالادان وهم يؤلفون الجيش العيلامي في (السيرا) ومع أن سرجون ادعى سحق جيش (هميانيجاش) ملك عيلام ولكن الحقيقة أن أي عمل ضد (بيروراك - بالادان) قد صد لمدة عقد من الزمان.

ولقد منع سرجون من تكريس موارد أكثر وذلك بسبب المشكلات التي ظهرت في أمكنة أخرى، ومن هذه الأماكن كانت سورية حيث حاولت عدة مرات إنشاء تحالف آخر ضد آشور وذلك بالتحالف مع أرياد والسامرة، ولكن استطاع سرجون القضاء على هذا التحالف بسهولة وسقطت حماة لتصبح تحت حكم آشور المباشر، وتلمح التوراة لبعض العمليات التي قام بها سرجون في المنطقة الساحلية في جنوب فلسطين، مع أنه ينبغي أن يقال إنه مهما كانت هذه الحركات الدرامية القادمة من العاصمة أورشليم، إلا أن هذه الحركات كانت ذات تأثير بسيط على القوة الإمبراطورية الآشورية.

المشكلة الأورارتية الحل النهائي

وكما كان الحال مع تغلات بلاسر، فقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهت سرجون في الشمال، فقد كانت أورارتو لا تزال المنافس لطرق التجارة خلال كلهيكيا والأناضول، والآن لقد مدت أورارتو نفوذها فوق المنطقة إلى الجنوب من بحيرة (أوروميا) الواقعة في شمال غرب إيران (أذربيجان) وكانت هذه المنطقة ذات أهمية لأشور لتزويدها بالخيرول والطرق القادمة من الشرق الأقصى، ولقد كانت الرسائل المرسلة من الحكام المحليين إلى الملك في هذا الزمن مطلوبة بالإشارات إلى بعض التصاميم مع (أورارتو) وعن محاولات أورارتو للاندفاع جنوباً في زاغروس، وتشير بعض هذه الرسائل إلى استخدام جواسيس من أورارتو في نظم الاستخبارات الآشوري الرائع.

ولهذا قرر سرجون القيام بغارة على (أورارتو) بصمها وكانت عملية محفوفة بالأخطار نظراً لصمودية التضاريس الطبيعية، ولقد ثوجت الاستعدادات الحدودية

مع أورارتو بنشوء حملة منظمة في صيف عام ٧١٤ والتي أصبح لدينا معلومات مفصلة عنها وذلك من تقرير كتيبه سرجون بشكل رسالة إلى إله البلاد آشور، وبعد أن ترك سرجون قاعدته (كالاخ) تقدم شرق الصور الزاب العلوي والسفلي وهكذا إلى زاغروس، وبممكننا اعتبار سرجون إما شاعراً مجيداً أو أنه كان هناك أحد الكتاب في بطاقته ممن يملكون مقبرة شمرية، وذلك لأن التقرير كان يمسك في شعره صدى حياً للرهبنة التي تجاوب بها مع النظر الجليل الرهيب:

في الجبال العالية حيث تنمو الأشجار من كل صنف متضاهرة الأغصان.

في أواسط الفوضى الجبلية حيث تظهر ممراتها حوضاً مربعاً.

حيث تمتد الظلال وكنائنها غابة من أشجار الأرز.

وحيث لا يرى من يدوس تلك الدروب أي شمع من أشعة الشمس.

ومن الممكن أن ينحني الشاعر دهشة أمام الجبال، ولكن كان سرجون متأكداً من وجود مهندسين عسكريين في جيشه قادرين على جعل الممرات قابلة للاستعمال.

لقد زودت مهندسي بمماول من نحاس وراحوا يكسرون ويحطمون صخور الجبال الوعرة كما لو أنها من حجر كلسي وذلك ساعدني على العبور.^٢
ومع أن النص يذكر النحاس إلا أنه يعني خليطه وهو البرونز.

وبعد أن عبر المنطقة إلى الشرق من زاغروس توجه سرجون نحو بلاد الماناي، وقد وصل الآن إلى جنوب بحيرة (أوروميا) وقد كان شعب الماناي المسمكين في وضع لا يحسدون عليه لأنهم أصبحوا حاجزاً عازلاً بين جارين جبارين، وقد عانوا أكثر من مرة عندما تتغير الساطة في أي منطقة من هذه المناطق لاسيما عندما يقبلون نظام الحكم في المنطقة المعنية، وهكذا فقد خضع حاكم الماناي فوراً لسرجون مع أن جاره قد وضع مصيره مع (روما) ملك أورارتو.

أما الوصول إلى أورارتو إلى القرب من بحيرة أوروميا فقد وقفت أملمه ومنعته عدة حصون تشكل خطأ واحداً ، ولذلك فقد أخذ سرجون جيشه إلى أعلى الجانب الشرقي من البحيرة وذلك لكي يلتف حول مراكز الدفاع الرئيسية المناهضة لأشور وفي الوقت الذي بدأ فيه الفلامس مع جيش أورارتو الرئيسي الذي كان يدافع عن ممر جبلي إلى الجنوب من ابريز ، فقد أصبح سرجون منفصلاً عن قادته في الوطن مسافة نحو ثلاثمائة ميل وهذا يشمل جميع منطقة الزاغروس ، وكانت هذه المسافة عبارة عن تضاريس طبيعية صعبة ، وهكذا أصبح جنود سرجون على وشك التمرد وقد قال معلقاً على ذلك :

«إن جنود آشور المتعبين الذين قد قطعوا مسافة طويلة قد أصبحوا مرهقين جداً وبطيئين في حركاتهم ، فهم قد عبروا وأعادوا عبور الجبال الشديدة الانحدار وقد لاقوا المشقة العظيمة عند الصعود والنزول ، ولقد أصبحت أرواحهم المنهوية منخفضة وتميل إلى التمرد ولا أستطيع أن أخلصهم من هذا الضجر وليس لدي الماء لأطفئ عطشهم ولا أستطيع نصب أي معسكر أو أن أقيم خلوفاً دفاعية» .

لقد أدرك سرجون في تلك اللحظة عدم قدرته على الاعتماد على انضباط جيشه ، فقد عمد إلى قيادة هجوم بالمریات الحربية وجنود الخيالة وهو يذكر رئيس الخيالة بالاسم وعندها اندحر العدو عندها قام بقية الجيش الآشوري الذين تشجعوا بانتصار الخيالة وانتصار خطة سرجون الممتازة ، قام هؤلاء بالانقضاض على التحالف الأوراري وحطموا خطوطهم الحربية وأوقفوا فيهم الذعر ، ولهذا فقد قاد القائد الأورارتي جيشه في انسحاب منظم من المعركة ولكن بقية التحالف الذي أصبح بدون قيادة منتظمة هربوا في فوضى عارمة فوق الجبال حيث هلك عدد منهم في البراري ، وكان انسحاب الجيش الأورارتي صدمة للمعوية الأورارلية ، واستطاع سرجون أن يلتف حول النهاية الجنوبية لبحيرة أوروميا غرباً إلى زاغروس مرة ثانية وبمد ذلك توغل دون مقاومة في أراضي أورارليا ، عندها هرب الملك (روسا) من عاصمته ثوروشيا (وربما كان هذا الهروب غير ضروري وكان من السهل الدفاع عن منطقته ولا يمكن سرجون مستعداً لحصار طويل

الأمد) وبعدها التجأ الملك (روسا) إلى الجبال وهناك، وطبقاً لما قاله سرجون مات (روسا) من الحزن مع أن نصاً متأخراً (وربما كان أقل موثوقية) يذكر أن سرجون قال إن الملك روسا قد انتحر.

لم يزل الخمل الذي تبعه آشور في حملته يحتوي على كثير من النقاشات، ويظن البعض أنه سار رأساً حول بحيرة (فان) ويقول آخرون إنه توجه راجعاً إلى آشور بواسطة عدة طرق ممكنة إلى الجنوب من بحيرة (فان) هذا وإن ما هو أكيد نظراً لأن سرجون يخبرنا ذلك بصراحة (أو بالحري يخبر الإله آشور) أنه وقبل مغادرتهم بادر الآشوريون إلى نهب أورارتو حيثما ذهبوا وكانوا ينهبون ويحرقون المدن والمحاصيل الزراعية ويتلفون الحدائق ويفتحون وينهبون مخازن الحبوب ويحطمون السدود بحيث أن سالت مياه الألفية هدرأ إلى المستنقعات بينما تركوا المراعي عارية، وقد قطعوا الأشجار سواءً كانت أشجار الحدائق أو الأشجار المزروعة حول القصور أم أشجار غابات عادية وأحرقوها جميعها.

وبعاً أثناء عودته إلى آشور ترك سرجون جيشه الرئيسي وقاد فصلاً مؤلفاً من حوالي ألف جندي من الخيالة فوق طرق صعبة متجهاً إلى إحدى المدن وهي (موزازير) وهي جزء من أورارتو في عمق الجبال وتقع إلى الشمال الغربي من روانديز التي قد أهملت إعلان الخضوع التام لآشور وسرجون نظراً لبعدها عن آشور، وكانت موزازير المعقل الرئيسي لإله أورارتو وهو (هالديا) حيث كان يتوج ملك أورارتو عادة، ولقد كانت قدامى موزازير وارتباطاتها الملكية قد جعلتها كنفراً وطنياً، وقد عمد سرجون إلى تعداد الفنائم التي حصل عليها من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والمفروشات المرصعة بالذهب والفضة والأواني الذهبية والفضية من جميع الأنواع والأسلحة الاحتفالية، المولفة من المعادن الثمينة والأواني البرونزية ابتداءً من الأواني الصغيرة حتى القدور الضخمة والتماثيل والزخارف، وهناك بعض التسميات التي لا نفهمها وقد وجد الكتبة الآشوريون الذين سجلوا هذه الأسماء بعض هذه الأسماء غريبة ويقولون: إنه من الصعب كتابة هذه

الأسماء، ولقد تم ضم موزاير رسمياً إلى آشور ولكن موقعها كان بعيداً جداً
فكان من الصعب الاحتفاظ بها بعد رحيل سرجون.

ولم يكن تجلوب سرجون مع مشكلة أورارتو منحصرأً بالناحية العسكرية
فحسب، بل استعمل الدبلوماسية لكسب لحلفاء، إذ إن لدينا رسالة تقدم بعض
التفاصيل عن بعض المفاوضات الودية مع مميتا ملك (موشكي) فقد كان (مميتا)
يسيطر على الطريق التجاري الفربي الذي هدم لدولته ثروة عظيمة (وقد كان
مميتا هذا هو ميداس ذو اللعنة الذهبية في الأساطير اليونانية) ولا شك أنه وحفظاً
لمصالحه التجارية فقد أقام علاقات ودية مع أورارتو وسورية الشمالية، أما في
شمال سورية فقد حاولت كركميش تأمين الدعم الفعلي لمميتا في إنجاز تحالف
ضد آشور، وهكذا فقد تفاوض سرجون مع مميتا لكي يتجنب تلك التهديدات
للمصالح الآشورية وقد اقترنت مبادراته الدبلوماسية مع استعراضات للقوة
العسكرية التي يمتلكها في شمال سورية وما ورائها.

سرجون في بلاد بابل

بعد أن حطم سرجون مقاومة أورارتو استطاع الآن أن يتجه إلى تلك المشكلة
المتأصلة وهي مشكلة (بابل)، وكانت عملياته العسكرية هناك والتي بدأت في
عام ٧١٠ ق م ودامت حتى عام ٧٠٧، ولقد قلد سرجون تكتيكات تفلث بلاسر،
الأولى وذلك بالتحرك جنوباً على الضفة الشرقية لنهر دجلة وبذلك كسب
السيطرة على طول المنطقة الممتدة حتى كركميش، وبذلك فقد دق إسفيناً ما
بين ميروداخ - بالادان وبين حلفائه المحتملين من الملاميين، وبعد ذلك توجه إلى
بابل الأصلية، وقد ادعى ميروداك - بالادان في النقوش أنه قد حمى مصالح المدن
البابلية القديمة، ولكن هناك جزءاً لا بأس به من سكان تلك المدن كانوا
يشكون في مصداقية هذه الأقوال، وقد سمعنا فيما بعد عن إطلاق سراح بعض
الأسرى من عاصمة ميروداك - بالادان لقاء إعادة بعض الأراضي المصادرة وعن
إخماد حركات النهب والسلب ضد التجار والقوافل التجارية، ولهذا فقد كان

هناك فئة قوية ضمن المدن البابلية الشمالية مستعدة لقبول التدخلات الآشورية، وقد فتحت بعض هذه المدن ومن بينها العاصمة أيوابها ورحبت بمرجون الذي اعترف به رسمياً حاكماً شرعياً لبابل وذلك بالاشتراك في الطقوس المقدسة.

وفي أثناء ذلك فقد هرب ييروداك - بالأدان من بابل وبعد أن حلول الوقوف في الجنوب هرب إلى منطقة قبائله في المستنقعات الجنوبية، وقد أصبح محاصراً في عاصمته القبلية في المستنقعات الجنوبية فقد اشترى دعم مرجون بدفعه كمية كبيرة من المال عام ٧٠٧ ق م وبذلك تركوه دون أن يُمس ليسيطر على أراضيه القبلية ولكننا سوف نقابله فيما بعد.

لقد اقتربت نهاية سرجون الآن، وربما قريباً تحطم أورارتو، ففي القرن الثامن ق م أنت موجة جديدة من الهنود الأوروبيين السريمي الحركة وهم (السيميريون) وكانت هذه الموجة مندفعة نحو الأناضول من الشمال إلى أسفل الجانب الشرقي من البحر الأسود، وحتى وقبل هجوم سرجون على أورارتو كان هؤلاء السيميريون قد أنزلوا التضرّيبات الخطيرة في ولايات أورارتو الشمالية. ولقد كان إخلاء السكان الذي حصل نتيجة لتخريب سرجون لأورارتو، ترك أورارتو عاجزة عن صد الغزاة وهكذا فقد انفجر السيميريون وانتشروا عبر هضبة الأناضول. وتشير بعض الشواهد لعلم الآثار لحدوث غارة على آشور نفسها، فلقد هدد هؤلاء بالتأكد مصالح آشور في شمال سورية ولذلك فقد وجه سرجون جيشه ضد السيميريين في تلك المنطقة وفي إحدى التقاسير لبعض الشواهد الفاضلة فقد مات سرجون في إحدى المعارك، والحقيقة أنه قد رحل من مسرح الأحداث في عام ٧٠٥ ق م وفي نفس الوقت تحرك السيميريون باتجاه القسم الداخلي من أسمر الصفرى.

بناء قلعة سرجون

كان سرجون أحد الملوك الآشوريين الذي انتقل إلى عاصمة إدارية جديدة، مع أنه لم يخبرنا لماذا فعل ذلك، ولكننا نستطيع التخمين في العالم القديم كان سكان المدن الكبيرة ولاسيما العواصم يحصلون ويمرّعون على امتيازات خاصة

لأنفسهم، وكان الملك مجبراً على الاعتماد على موظفيه في العاصمة وكان يحافظهم بإعضائهم من الضرائب وأعمال السفرة ويمنعهم بمضى الأراضي، وحسب النظام الإقطاعي كانت مثل هذه الامتيازات تستمر إلى الخلف وتصبح متوارثة، وبالإضافة إلى نقوذ كهنة المعابد التي كان لها نفوذها وأمكنتها في طقوس الدولة، لذلك فقد ظهرت مجموعة محصنة منهم، وكانت هذه المجموعة قادرة على مواجهة الملك نفسه.

ولقد ظلت (كالاخ) العاصمة الإدارية والعسكرية لمدة تقرب من قرن ونصف وهو وقت كافٍ لظهور مجموعة قادرة على مقاومة الملك نفسه، والحقيقة أن الحاكم سرجون الذي أعلن أن (تفلات بلاسر الثالث كوالده قد نزل السلطة من موقع والي (كالاخ) وقد كان سرجون نفسه يعلم من تجربته الشخصية الخطر المحدق بالسلطة الملكية من جراء المصالح التي اكتسبتها المدن القديمة، وذلك لأن اعتلاءه العرش قد حدث بعد تمرد ضد الملك الذي سبقه من قبل شعب آشور الذين كان ينفي دعمهم، فرد جميلهم بتثبيت امتيازاتهم التقليدية، وهذا هو أحد العوامل التي دعت لإنشاء عاصمة جديدة، وهي دور شاروكين (أي: قلعة سرجون) وهي واقعة على بعد حوالي ١٢ ميلاً إلى الشمال الشرقي من نينوى والتي تمثل اليوم بموقع (خورسا باد).

وأما العامل الثاني فقد كان عاملاً استراتيجياً فقد كانت سفوح جبال طوروس تبدأ على بعد حوالي ثلاثين ميلاً إلى الشمال من نينوى، وفيهم وراء تلك التلال تقع مملكة (أورارتو) وهي القوة الوحيدة التي كانت تهدد آشور الآن، وفي أي وقت كان بمقدور جيش أورارتو أن يزحف من أحد الممرات ويصل إلى سهول نينوى (وقد ظل هذا الخطر حتى أنهى سرجون هذا التهديد عام ٧١٤).

وكان الموقع الذي اختير لبناء العاصمة الجديدة (دور شاروكين) يقف كحارس ما بين نينوى وأقرب ممر يخترق الجبال. ولقد ثبتت أهمية هذا الموقع عندما استعمل كقاعدة رئيسية من قبل الجيش العراقي في زمن التمرد الكردي في نغص الجبال الشمالية حوالي عام ١٩٧٠ م.

سنحاريب

لقد اعتلى خليفة سرجون وهو ابنه سنحاريب ٧٠٤ - ٦٨١ المرش كإداري متمرس وجندي، فقد عَلم علم اليقين مشاكل الحدود الشمالية حيث إنه كان قائداً عسكرياً هناك، وإن معرفته بالوضع الجديد الذي لم تكن أورارتو فيه في وضع لا تستطیع به إيذاء المصالح الآشورية فحسب، بل كانت بحاجة إلى الحماية الآشورية في الشمال، وهذا ما أدّى بمنحاريب إلى إقامة علاقات ودية مع أورارتو.

نينوى العاصمة العالمية

لقد كان أول عمل قام به سنحاريب، وكان العمل الذي ظل قائماً، هو انتقال جديد إلى عاصمة جديدة، فقد كانت مدينة سرجون الجديدة وهي دور شاروكن قد بُنيت لحراسة المركز الشمعي وهو نينوى، وقد استمرت هذه العاصمة مستخدمة كقاعدة لهذا الغرض، ولكن، كانت نينوى نفسها هي التي شُيّدت وظهرت بشكل رائع لا مثيل له، فقد اختيرت كمعاصمة، وقد بقيت كعاصمة حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية، وقد بقيت في ذاكرة التاريخ إلى الأبد.

ولقد بنى سنحاريب سوراً ضخماً حول المدينة طوله حوالي ثمانية أميال، وقد احتوى على ١٥ بوابة رئيسية، ولقد ذكر أحد المؤلفين الكلاسيكيين وهو ديودورس الصقلي رواية حول أسوار نينوى يقول فيها:

((إن هذه الأسوار كانت عريضة جداً بحيث تتسع لثلاث عربات حربية لتسير جنباً إلى جنب فوق تلك الأسوار)).

ولكن وفي القرن التاسع عشر الميلادي أصبح الناس يسخرون من هذا الكلام، ولكن بقايا الأسوار في هذه الأيام تُظهر وجود مسافة واسعة كافية لتسير فيها سيارتان كبيرتان جنباً إلى جنب، وفي داخل تلك الأسوار شق سنحاريب شوارع جديدة، وساحات عريضة، ومدد مجاري المياه وبنى حواجز حجرية عريضة

لحمية قمره الجديد، وحول القصر أنشأ حديقة ضخمة تشبه جبل أمانوس حيث وُزعت كل أنواع النباتات وأشجار الفاكهة كالتي تنمو في أرض الكلدان.

وفيما وراء هذه الحديقة أنشئت البساتين، وفي وقت لاحق عمل سنحاريب إضافات جديدة فقد جلب جميع النباتات الموجودة في سورية وكذلك نبات المرّ التي نمت وترعرعت بشكل أفضل مما هي عليه في موطنها الأصلي، وقد زرع جميع أنواع الكروم الجبلية، وقد كانت كل هذه المشاريع بحاجة إلى كميات كبيرة من المياه لاسيما في أشهر الصيف الحارة في نينوى، ومع أن نهر دجلة كان يجوب أسفل نينوى إلا أن ضفافه كانت منخفضة جداً، فلم يكن من الممكن استخدامها للري خلال الصيف، ولكن كان هناك مصدر آخر للمياه وهو نهر خوسر، وهو يرقد نهر دجلة عند نينوى وهو أصح للري ولكن كان لنهر خوسر نقية واحدة وهي عدم انتظام جريانه الذي ينقص إلى أقصى حد في الوقت الذي تكون الحاجة ماسة إليه.

وقد عالج سنحاريب هذه النقطة عن طريق أعمال المهندسين، وذلك بتحويل عدة جداول جبلية كانت على بعد حوالي ثلاثين ميلاً، واستعمل مياهها لتزنية نهر خوسر، ومن الممكن اليوم ملاحظة بقايا بعض هذه الأعمال، فإن أحد مصادر المياه القادمة إلى نينوى في مكان يدعى (عن طريق الخطأ) (بافيان) وقد وجدت عنده نقوش ولوحات جدارية نافرة موجودة على صخرة عالية تصلح لتكون مكاناً للرحلات الممتعة، وإن وجود اللوحات الجدارية يوحي أنها كانت بقعة كان سنحاريب نفسه يتمتع بزيارتها لتجنب حرارة الصيف في نينوى، وتشمل بعض بقايا أعمال سنحاريب الهندسية وهي قناة طولها أكثر من ٢٠٠ ياردة وعشرين ياردة عرضاً، وتحتوي حوالي نصف مليون طن من الصخور، وقد بُنيت لحمل المياه إلى بعض الوديان.

هذا وقد اعتمد سنحاريب مشاريع مماثلة لتحسين الموارد المائية في أربيل وهي المدينة المهمة الثانية، وشمال آشور كما حسن موارد المياه في كالك فقد تمهدها آشور ناصر بل عند بنائه لها لأول مرة.

اللائل كلدانية جديدة

لقد احتل العمل في نينوى الجزء الأكبر من حكم سنحاريب، ولكن وفي أثناء ذلك كان هناك بعض الاضطرابات السياسية في بابل، فقد كان هناك إحدى المشكلات حول بابل فهل ينبغي أن تمنح بابل قدراً وافراً من الاستقلال مع وجود ملكها الموالي لأشور؟ أم هل ينبغي ضمها كلياً وحكمها حكماً مباشراً من قبل ملك آشور؟ إلا أنه كان هناك مستشارون يعملون إلى بابل، ومستشارون غير متعاطفين مع بابل في البلاط الآشوري وفي أحوال مختلفة أظهر ملوك آشور تعاضفاً مع هذه الفئة أو تلك، فقد كان والد سنحاريب وهو سرجون وابنه اسرحدون كلاهما متعاطفين مع الميل للتعامل برفق مع بابل مع كثير من الاعتبار بميول بابل الوطنية.

ومن الممكن أن يكون لدى سنحاريب ميلاً في البداية لاتباع سياسة والده، فقد مضت سنتان قبل أن يقوم بالاحتفالات الدينية لتتصيه ملكاً على بابل رسمياً، ولكن وفي هذا الوقت بدأت بعض العوامل تعمل على أن يقوم سنحاريب بأقصى أعمال العنف الممكنة ضد بابل، ففي عام ٧٠٢ قام العدو القديم ببيروداك - بالادان بتطعيم بعض القبائل الكلدانية مع بعض القبائل الآرامية مع اكتساب تأكيدات بالدعم من الميلايين، وهكذا فقد أوقع بابل في مصاف المصيان، لذلك فقد تبع ذلك شيء من الفوضى فقد اعتلى عرش بابل أحد الولاة الذي كان المعوية بيد سنحاريب لمدة شهر واحد عندما أطاح به ببيروداك - بالادن، ولم يكن رد سنحاريب كان سريعاً ونشطاً فقاد جيشه جنوباً وحاصر واحتل مدينة (كوناة) وهي قاعدة ببيروداك - بالادان.

وقد كان ببيروداك هذا رجلاً سياسياً أكثر من عسكرياً، فقد هرب جنوباً تاركاً سنحاريب على طريق احتلاله لبابل ودخولها، ولقد أرسلت فصيلة من الجيش الآشوري للتفتيش عن المتمردين جنوباً (ولكن بدون نتيجة) وقد طلب من تلك الفصيلة أن تزيل تحصينات كل المناطق الآرامية والكلدانية، وتخرّب هذه

المناطق التي تضم فعلاً جميع بابل الجنوبية من نيبور إلى الخليج الفارسي ، ويقول
سنحاريب مايلي:

في أثناء حملتي لقد حاصرت وهزمت وحملت الفنائم من... مجموع ٢٢ بلدة
ذات أسوار متينة ، وقابعة لقبيلة بيت داخوري ومعها ٢٥٠ قرية مجاورة وكذلك من
ثماني مدن مسورة قوية من قبيلة بيت سالي ، ومعها ١٢٠ قرية محيطة بها و ٢٩ بلدة
مسورة قوية من قبيلة بيت (راموخاني) ، مع ٢٥٠ قرية مجاورة ، وكذلك ثماني
بلدات قوية مسورة من قبيلة بيت - يافين بالإضافة إلى مئة قرية مسيطرة بها ، ويبلغ
مجموعها جميعها ٨٨ بلدة قوية مسورة ، في منطقة كلدية بالإضافة إلى ٨٢٠ قرية
مجاورة ، ولقد سمحت لمصاصكري أن يستهلكوا الحبوب والتمور في حدائق النخيل
ويأخذوا محاصيلها في السهل ، ولقد مزقت وأتلفت مدنهم وأحرقتها وحولتها إلى
روابي منسية.

وبعد أن تلقت كلديا هذا الدرس القاسي ثرست تحت حكم الموظفين
الآشوريين يساعدهم أحد النبلاء البابليين وهو بيل - ابني الذي رُبي حسب قول
سنحاريب في البلاط الآشوري وقد عُيّن حاكم العوبة على بلاد بابل.

حصار أورشليم

لقد واجه آشور الآن في عام (٧٠٤) ق م تمرداً في مكان آخر ، فقد التحق
خرقيا ملك يهوذا الذي كان يدعوه ميروداك - بالادان المذكور في التوراة بكونه
قد أرسل سفارة له ، فقد التحق خرقيا هذا بتمرد قامت به المدن الساحلية تدعمها
مصر ، وهكذا فقد دخل جيش سنحاريب إلى فلسطين وعالج المدن الساحلية
وطرد المصريين وتقلب على دولة يهوذا ، ووضع عاصمة (خرقيا) وهي أورشليم تحت
الحصار.

وتوافق نقوش سنحاريب على هذا ، وإن رواية سنحاريب حول هذه المسألة قد
نُقلت وتكررت في كتب العهد القديم وتواريخه ، ولكن نورد لمسامح أي شخص
لم يسمح بهذه الأخبار مايلي:

دويالنسبة لحزقيأ ملك يهوذا الذي لم يخضع لنير حكمي فقد حاصرت واستوليت على ٤٦ من بلداته القوية المسورة، ومعها عدد لا يُحصى من الفري المحيطة بها، وذلك باحضار السلالم لرفع المنجنقات القاسفة إلى الأسوار وكذلك عن طريق مجموعات المشاة وحفر الأنفاق، وشق الثغرات وأدوات الحصار، ولقد حاصرت الملك في اورشليم وكانه ملأ في قفصه.

وهكذا فقد دفع حزقيأ الجزية علامة على خضوعه، وفتحت أبواب اورشليم بأعجوبة فكما يقول النص التوراتي، وذلك نظراً لأن عودة الجيش الآشوري إلى منطقة ما بين النهرين قد أصبحت أمراً ملعاً ضرورياً وذلك لتتقهر الوضع بالنسبة لبابل، حيث حدث عند انسحاب الجيش الآشوري أن استأنف (بيروداك - بالادان) حياكة دسائمه، وقد ثبت أن بيل - ابني غير قادر على الاحتفاظ بحكومة فعالة، وقد عُزل هذا في عام ٧٠٠ واستبدل بأشور نادين - شم وهو أحد أبناء سنجاريب الصفار.

وهكذا قام الجيش الآشوري بحملة تاديبية في الأراضي الكلدانية وهرب (بيروداك - بالادان) إلى عيلام ولم يذكر عنه شيء بعد ذلك.

ففي أول ظهور له على مسرح الأحداث قبل أكثر من ثلاثين عاماً كان هذا الرجل زعيماً محترماً لقبيلة كبيرة، وهكذا أصبح الآن في الخمسين من العمر وزهما أكبر وهكذا فمن المحتمل أن يكون قد مات ميتة طبعية.

ولكن بقي هناك بعض التجمعات المعادية لآشور في بابل وعيلام، وقد تنظمت هذه التجمعات الآن وحاولت التوسع بدعم من عيلام.

الحرب مع عيلام

لقد أظهر الكلدانيون أنهم أحد العوامل المعطلة والمعيقة لأشور ومصالحها ومصالح مدن بابل الشمالية خلال العقود الأربعة الماضية، ويدعم ومساعدة عيلام وتقدير الملاذ من إجراءات التأديب الآشورية، لهذا فقد أصبح الكلدانيون في وضع يصعب السيطرة عليه، ولهذا فقد قرر سنحاريب معالجة المشكلة وذلك بضرب عيلام بشكل مباشر، ففي عام ٦٩٤ ق م قام بهجوم بحري عبر الخليج العربي، وكانت هذه العملية تعد عملية ضخمة في مصطلح اللوجستية وهي من نقل الجيوش وتزويدها بالموونة والسلاح، فقد كان لديه سفن بُنيت في نينوى فأبحرت إلى أسفل دجلة بقيادة بحارة فينيقيين، ونقلت الجيوش إلى البر بواسطة عجلات أوصلتهم إلى قناة تصب في نهر الفرات.

وبعد ذلك أبحر الجيش إلى الخليج، وهناك تم إنزال الجنود ونقلهم إلى شواطئ عيلام، حيث رغم المقاومة أمن الآشوريون رأس جسر ومن هناك استولوا على عدد من المدن العيلامية ونهبوها مع أنهم لم يتقدموا نحو العاصمة (سوزا).

ولقد أجابت عيلام بتكتيك أتى مفاجئاً بالنسبة لسنحاريب إذ بدلاً من الدفاع عن الجنوب قامت عيلام بغزوة عبر نهر دجلة إلى شمال بابل، وبواسطة عامل المفاجأة هذا قطع العيلاميون المواصلات الآشورية واعتقلوا الابن الذي نصبه سنحاريب ملكاً على بابل، ونصبوا ملكاً مطيعاً لهم على بابل، ويظهر حكماء لو أن نظام الاستخبارات الآشوري كان أقل فاعلية بالنسبة لعيلام وقواها مما كان عليه بالنسبة لأورارتو، ولكن لم تكن قوى العيلاميين الفازية نداً للقوة الآشورية وهكذا فقد انسحب العيلاميون بعد اشتباك بسيط مع جيش سنحاريب الراجع من القتال.

ولكني يمنع إعادة حدوث تدخل العيلاميين عمد سنحاريب في عام ٦٩٢ إلى مهاجمة عيلام خلال ولاية (الدير) التي قام العيلاميون منها بغزوة ضد بابل

الشمالية ، وهنا قام شخص آخر من المدعين بحقه في المرش البابلي بعصيان ومطلب مساعدة الميلايين والتعالف معهم.

وبالنتيجة فقد واجه سنحاريب حلفاً مؤلفاً من الميلايين والكلدانيين ومزيدهم في عام ٦٩١ قـم على نهر دجلة في مكان ما شمال بابل ، ولكن تذكر بعض التواريخ البابلية أن سنحاريب قد أجبر على التراجع مع أنه ادعى أنه انتصر ، ويذكر هذا التاريخ البابلي أن أحد الباحثين الذي ناقش هذه القضية قد وصف قصة سنحاريب عن المعركة أنها كذب ضخم وغير عادي ، وربما كان في هذا القول شيء من المبالغة ، فلم يكن المشهد الذي وقعت فيه المعركة جنوبي دبالا الذي اعترف بها بأنها أحد حدود آشور الجنوبية الشرقية ، وأن الجيش الميلامي المنته شمالاً قد واجه الجيش الآشوري هناك ، وهذا يعني أن عيلام كانت تهدد بفزوها لآشور.

وقد كان نجاح جيش سنحاريب في تلك المعركة الدامية قد بق التحالف الميلامي في الصميم وبشدة لدرجة أنه مع أنهم كانوا يقفون على الحدود إلا أنهم لم يستطعوا المرور ، ومن وجهة نظر سنحاريب ، إنه مع وجود الجيش الآشوري تحت التهديد الواضح ، فإن هذه كانت معركة انتصر بها سنحاريب حقاً ، ولكن وحدات جيشه قد عانت ومُنيت بخسائر فادحة بحيث ترك الجيش الآشوري في وضع لم يستطع أن يتحرك إلى بابل بشكل فعال ، وقد كانت ضرورة الرجوع إلى القاعدة من وجهة نظر البابليين معناها التقهقر أو الانسحاب.

فهب بابل

الحقيقة أن الجيش الآشوري لم يواجه أي نكسة فعلية نظراً لأنه وبحلول عام (٦٩٠) كان هذا الجيش قد رجع إلى بابل التي كانت في حالة يرثى لها ، وهناك وثيقة رسمية نشرت بشكل ترجمة فحسب وهي تقول:

(ساد في البلاد عدا الحصار المجاعة والجوع والحاجة وكان ثمن اثنين (كا) من الشعير بشيكل واحد من الفضة (حوالي جنيه استرليني واحد) وهو ثمن *Pint*

باينث^(١) حسب الأسعار الحديثة ، وقد كانت بوابات المدينة مغلقة ولم يستطع أي شخص الخروج وقد ملأت جثث الرجال التي لم تجد أحداً يلقنها ساحات بابل. وبعد خمسة عشر شهراً سقطت بابل على يد جيش سنحاريب وقد هرب الملك البابلي الذي كان محتفظاً بالمرش من بابل ولصقن أقي عليه القبض بسرعة وقتل.

وقد أعطى سنحاريب للقاتل ما قيمته وزن المفتص المقتول من الفضة. وبالنسبة لبابل نفسها فإن موقف سنحاريب بالنسبة لتلك المدينة المقدسة دينياً وثقافياً قد تغير في مدة عقد ونصف، وتخلص من المعارضة.

وكذلك فإن فقدان سنحاريب لولده - شكل هذا - هز المدينة بعنف فقد أعطى سنحاريب الإذن لجنوده بالنهب والسلب فقد نهبوا المعابد وحملوا معهم التماثيل الإلهية ودفعوا البيوت والمعابد وأسوار المدينة، وحفروا الأقبية حولها بقصد تهديمها حتى الأساسات.

وبالنسبة لبقية حياة سنحاريب وهي مدة ثماني سنوات أخرى لم يكن هناك من ملك رسمي لبابل مع أنه وبحكم الواقع كان سنحاريب هو الملك وهكذا سجل في قائمة ملوك بابل.

إن نهب سنحاريب لبابل كان مفهوماً ولم يكن لم يكن فكرة حسنة ، إذ إن لدينا بعض الدلائل التي تشير إلى وجود فترات مناصرة لأشور وفترات مضادة لها في بابل ، في الوقت الذي كان لدى آشور جماعات يعترفون بالثقافة البابلية باحترام، فضلاً عن وجود من يرغب في رؤيتها مهدمة ومدمرة.

ولهذا ، فإن خطوة سنحاريب قد أدت إلى استقطاب تلك المشاعر داخل آشور ، وكان هناك عصابات حتى ضمن العائلة المالكة الآشورية.

(١) باينث P184 مقياس للسوائل يسوي ٩ على ٨ غالون، والغالون = ٤.٥ لتر (الترجم).

وقد مات سنحاريب في بابل عام (٦٨١) مقتولاً حسب أقوال التوراة على يد اثنين من أبنائه ، وأحدهما يدعى: أراد-موليس الذي يتحول اسمه في النص التوراتي إلى أدراملك.

الفصل الثامن

بداية الثورة ثم السقوط والافتقار

وراثه العرش الملكي

لم يكن الابن الذي ورث سنعاريب أحد قتالي الوالد، بل كان هو أسرحئون (٦٨٠-٦٦٩) ق.م وإن الظروف التي أحاطت بارتقائه العرش تصور عدداً من مظاهر المجتمع الآشوري، فقد كان ابناً حنّداً له سنعاريب وراثته وذلك كما نخبرنا في نقوشه، وليس من الحكمة أن يكون هذا ادعاءً كاذباً.

مادام أن وارث العرش يمشي في قمر منفضل خاص بحيث كانت النوايا المعروفة حول الوراثة معروفة للجميع.

وليكن معلوماً لدى القارئ أن وراثة العرش كانت بالتسمية، فالولد البكر ليس من الضروري أن يصبح ملكاً.

ولكن وحتى الملك الحاكم لم يملك الصلاحيات المطلقة حول قضية الوراثة ما دام أن قضية تسمية ولي العهد ينبغي أن تصادق عليها الألهة (وهذا يعني في الواقع قرار الكهنة وقبولها).

وبعد أداء القسم من قبل المائتة الملكية وممثلي الشعب
وهنا يذكر لنا نقش أسرحئون شيئاً عن هذه الإجراءات المثبتة:
"سر ولا تراجع.

فنحن سائرون إلى جانبك.

وسوف نذبح أعدائك."

وهذه رسالة لتعلمين جيش أسرحدون لشرعية قضيته:

ولكن مع أنني كنت الأخ الأصغر لأخوتي الكبار ومع ذلك ويأمر الإله آشور-وسن-وشمش-وعمل-ونابو-وعشتار أرييل، حين والدي الذي أنجبني قد رقاني ورفع قيمتي بين إخوتي قائلًا:

((هذا هو ابني الذي سيرثني)) وعندما طالب الحصول على رأي الإله شمس والإله أباد (وهما من آلهة الوحي) قالوا له: نعم وبجزم. فائلين: ((إنه هو ورثك)).

ولقد أظهر والدي الاحترام اللائق لكلمتيهما المهيبتين.

ويعدّها جمع شعب آشور صغيرهم وكبيرهم، وكذلك إخوتي ذرية بيت والدي وقد جعل الجميع يتسمون بكلام مهيب أن يحموا حقي في الوراثة، وذلك أمام الإله آشور وسن وشمش ونابو وهم آلهة آشور، والآلهة الذين يسكنون في السماء والأرض.

وفي شهر سعيد وفي يوم سعيد وطبقاً لأوامرهم (أي أوامر الآلهة) دخلت القصر الذي يوحى بالرهبة حيث يوجد روح وعطر المصكية..

ولكن لم تجر الأمور كما كان ينبغي منعايب فقد اضطر أسرحدون أن يتناضل لأجل وراثة العرش.

وعندما حدث اغتيال منعايب كان قائد الجيش أسرحدون متمركزاً في مكان ما في القرب، ولربما ظن البعض أن عملية الاغتيال قد تم توقيتها في غياب ولي العهد.

ولكن أسرحدون قد أبقي جيشه في تمام الحيطة والاستعداد لخوض المعركة فقد استطاع أن يتحرك باتجاه آشور بالسرعة الفائقة دون التوقف لإجراء الترتيبات والتفتيشات والتزود بالذخيرة، وكان تأخره الوحيد هو الطلب من الآلهة أن تمنحه وحياً.

وجاء هذا الوحي في وقته كما يلي:

”سر ولا تراجع“

فنحن نسير إلى جانبك

وسوف نذبح أعدائك

وكانت هذه الرسالة لتجعل جيشه واثقاً بقضيته ولبذر الشكوك بين أفراد
عساكر مناهسيه.

ولقد واجهته عساكر قتلة الملك في منطقة الخابور الأعلى وقد حدثت
اشتباكات حادة.

كانت الروح المعنوية لدى قتلة الملك وعساكرهم الذين تورطوا في حرب أهلية
ضد شخص يعلمون علم اليقين أنه ولي العهد الذي وافقت الآلهة على تنصيبه.

كانت أرواحهم المعنوية منخفضة وفي منتصف المعركة انتشرت صيحات
تقول: هذا هو ملكنا.

وهكذا انتقل عساكر قتلة الملك إلى أسرحدون وأظهر ممثلو الشعب الطاعة
فأصبح العرش عرشه بالتأكيد:

عطف المشنة الإلهية على بابل

كان أسرحدون ينتمي إلى الجماعة المتماطقة مع بابل في داخل آشور، وقد
كُرس جهود الناس بها وموارد مالية لإزالة الأضرار التي لحقها والده بيبابل، فقد
كانت هناك المشكلة الأساسية التي مفادها: إن الآلهة وضعت مدينة بابل تحت
اللعنة لمدة سبعين عاماً.

وكان من الواجب إزالة هذه اللعنة، وهذا النوع من الأوضاع هو تفسير لتغيير
الخطط الإلهية ووضع السكان في موقف ليتغنوا فيه دورهم الحقيقي.

فقد ضل السكان الموقف بقولهم:

ومع أنه في أوقات سابقة لقد حكموا باللعنة على بابل مدة سبعين عاماً، إلا
أن الإله الرحيم مردوخ وهو رئيس الآلهة في المدينة قد عدل من شدة هذا الحكم،
وذلك بنقل الحروف المسمارية لتصبح المدة ! عى عشرة سنة.

وهكذا ، فقد انتهى الحرمان بالنسبة إلى بابل في أول سنة من حكم
أسرحدون.

ولقد حدث أن أتلقت بابل قنوات المياه بحيث أصبحت مكاناً يكثر فيه
القصب والأجمات ، ولهذا فقد عمد أسرحدون إلى تحويل المياه وقطع النباتات
البرية التي كانت تسيطر على المدينة ، وبعدها تقدم لإعادة بناء المدينة وأسوارها
ومعبد مردوخ العظيم وهو معبد الساجيلا.

ولقد وضع أسرحدون سلة فوق رأسه وكأنه أحد العمال ، ووضع قالبا من
النضار ، وقد أعاد السككان المواطنين الذين هربوا ، وأعاد لهم أراضيهم ، وأعاد
للمواطنين حقوقهم وامتيازاتهم وأعفاهم من الضرائب.

ولقد أعاد الملك عادة تقديم القرابين الدينية في معبد الساجيلا ، وأعاد
الاحترام لطبقات عديدة من خدمة المعبد مع حدوث نفس الإجراءات في المدن
الأخرى في بابل ، وأعيدت الامتيازات القديمة للمواطنين في تلك المدن ، لقد
ساعدت هذه السياسة الرامية إلى إعادة العطف على بابل.

خدمت هذه السياسة مصالح آشور ، ومع أن العكسانيين قد أظهروا بعض
الاضطرابات إلا أن أسرحدون وبعد أن قابل هذه الاضطرابات بحزم ، استطاع
استبعاد الزعماء المعادين ووضع آخرين من قبائلهم من الذين كانوا قادرين على
قبول التنمية لأشور.

سيطرة الميديين

لقد أولى أسرحدون اهتماماً متزايداً بالميديين ، وقد ساعد على دوام
استقرارهم ، وذلك بتقديم مساعدات عسكرية لزعمائهم ضد أي حركات
تحررية.

وكان الميديون لا يزالون قبليين في أنظمتهم ، مع أنه كان لديهم بعض المدن ،
وكانوا منتشرين في إيران الشمالية ، وكانوا لذلك أهوية جداً ، وقد كانوا
يمثلون حلفاء مفيدتين بالنسبة لأسرحدون ضد عيلان ، وحصناً إضافياً على طول

الحدود ضد أورارتو، وضد شعوب جديدة، تعرف شعبين منهم باسم السيميريين والاسكنديين (وكانوا متواجدين في شمال إيران فضلاً عن الأناضول) وكانوا مندفعين جنوباً خارج أروميا.

وقد انعكس اعتراف أسرجدون بالميديين وتعاطفهم السياسية في المعاهدات التي عقدت مع الأمراء الميديين الموالين لآشور، واحتوت هذه المعاهدات على تمهد هؤلاء الأمراء بدعم ترتيبات الملك بالنسبة لوراثة العرش بعد موته.

وباختصار، كانت ترتيباته تقضي أنه نصب ولدين من أولاده خلفاء له على العرش وبمباركة الآلهة أي: عرش آشور، وعرش بابل وأعلن ذلك رسمياً خلال اجتماع حدث في نينوى عام (٦٧٢ ق.م).

وأعلن أن أحد ولديه وهو آشور بانيبال أصبح ولي العهد في آشور، والثاني شماش-شم- أوكين أعلن ولياً للعهد في بابل، وقد ألزم الولاة المحليين والأمراء التابعين تحت أداء القسم أن يدعموا هذا الاتفاق الذي كانت شروطه كما يلي:

(عند موت أسرجدون ملك آشور فمسوف تصحبون ولي العهد آشور بانيبال ملكاً، ولسوف يمارس الملك المباداة عليكم وسوف تقومون بحمايته في الريف وفي المدن، ولسوف تحاربون حتى الموت من أجل حمايته، وإذا حدث ومات أسرجدون في حالة يكون ابنائه صغاراً فمسوف تساعدون آشور بانيبال على استلام ولاية العهد وعلى استلام مهام عمله كملك آشور، ولسوف تساعدون شاماش-شم- أوكين أخاه اللد له وهو ولي عهد بابل إن أصبح ملكاً لبابل).

ومن الواضح أن أسرجدون كان يأمل أن يتجنب تكرار حدوث الحرب الأهلية التي دمدت اعتلاء على العرش، ولعنتنا سوف نرى أن خطته قد فشلت على المدى البعيد.

السلام الآشوري في الغرب

في الشمال الغربي كانت آشور تدفع أماكن سيطرتها بالتدريج إلى ما وراء سورية وكيليكيا إلى داخل آسيا الصغرى، ولطكن هذا التقدم واجه تحدياً أتى من قبل السيميريين والأمسكنديين (وهم الجومر والأشكينا في التوراة).

ولم تكن كيليكيا راضية عن هذه الأحوال، فقامت صيدا وهي إحدى المدن الفينيقية المرتبطة مع كيليكيا بمصالح بحرية مشتركة، والتي أسابت فهم القوة الآشورية بالتمرد على آشور.

ولقد نهبت صيدا وأصبحت أراضيها عبارة عن ولاية آشورية.

ولكن، كانت آشور لا تزال تفضل الحكم غير المباشر، إذا كان ذلك ممكناً، لأن ملك منطقة صور المجاورة قد بقي موالياً وخاضعاً لآشور، ولذلك فقد أترك له الحكم وبعض المستوطنات البعيدة التي كانت تابعة لصيدا أو أضيفت هذه لمملكته.

وفضلاً عن صيدا فلم تظهر سورية أو فلسطين أي مقاومة أو اضطرابات لآشور.

وقد استطاع أسرحدون أن يكلف مجموعة من الملوك الخاضعين له لتقديم مواد لازمة لإعادة بناء قصره.

وتشمل قوائم أسماء الملوك هذه ملوك حور ويهوذا أو حيدوم ومواب وغزة وعسقلان وإيكرور وبيلوس وعمون وأشود، فضلاً عن أراضي منطقة تدعى (يدنانا) في منتصف البحر والتي ربما كانت قبرص التي أصبحت الآن جزءاً من الإمبراطورية الآشورية.

وسكان اسم ملك يهوذا (مفاساً) وقد ذكر في التوراة أن مفاساً قد أخذ إلى بابل على يد قواد جيش آشور، ولكن أطلق سراحه فيما بعد، ولم يؤلف كتاب أيام الأخبار المذكور في التوراة إلا بعد أن أصبحت بابل عاصمة إمبراطورية بدلاً عن نينوى، وذلك ربما حضر ذكر بابل بدلاً من نينوى.

ومن الممكن أن تكون هذه القصة أساساً لنذكر زيارة مناسا لأشور إطاعة لأمر أسرحدون وطلباً منه لإتمام عمليات بناء قصره.

والى الشرق والجنوب من الدول الواقعة في شرق الأردن (وهي عمون وموآب وصيدا ورفح) التي كانت خاضعة خضوعاً تاماً لمسيطرة الآشوريين تقع الصحراء بما فيها القبائل العربية، وكان لهذه القبائل أهميتها بالنسبة لأشور، وذلك لسببين وبصورة خاصة فقد كان العرب مهيمنين على تجارة البخور والتوابل الآتية من جنوب بلاد العرب.

وكان العرب هم وحدهم القادرين على التفاوض مع قبائل صحراء سيناء فيما بين جنوب فلسطين ومصر، وكانت آشور على اتصال مع عرب الصحراء منذ حكم تغلات - بلاسر الثالث، وكانت توسع نفوذها بالتدريج إلى داخل الصحراء. وقد تابع أسرحدون هذه السياسة، بل زاد من سيطرة آشور عن طريق التدخل فيما بين الأخصام المتنافسين للحصول على السيادة القبلية وذلك لدعم المرشح الراغب في قبول السيادة الآشورية.

غزو مصر

ويعد أن أصبحت فلسطين تحت السيطرة الآشورية، ويعد أن أصبح عرب الصحراء تحت قيادة زعماء موآبين لأشور، قام أسرحدون بتنفيذ توسيع كبير للإمبراطورية، فلقد كانت هناك علاقات تجارية بين آشور ومصر منذ عهد قديم، ومنذ حكم (تغلات بلاسر الثالث) عندما وطدت سيطرتها على السواحل الفلسطينية حتى غزة، ولقد كان هناك خطوط حدودية مع مصر مع أنها تمر ضمن حاجز عريض وهو الصحراء.

وكان أحد العوامل في هذا الصدد ربما ظهور أسرة عدوانية جديدة في مصر من أصول مصرية جنوبية، كانت هذه الأسرة تحاول زيادة نفوذها بين المدن الساحلية في فلسطين وقد تجسدت هذه السهامة بحدوث تمرد في مصر التي

كانت مواتية وتابعة أمينة (أسرحدون) لقد بدأ الهجوم على مصر عام (٦٧٥ ق م) ولقد صادف هذا الهجوم عدة صعوبات ونكسات.

وهناك نقش يروي حادثة الهجوم النهائي الناجح عام (٦٧١ ق م) ولكنه يقدم فكرة عن المشكلات، ويقول الملك: إنه قد وصل إلى راييحو وهي على جانب وادي مصر (العريش الآن) حيث لا يوجد أي نهر ولذلك فقد اضطر أن يحصل على الماء لمسالكه من بئر بواسطة الخيال والسلاسل.

وقد استخدم الجمال في مواصلاته والتي قدمها له حلفاؤه من ملوك العرب، ووجد أن المسيرة صعبة لاسيما وأنها كانت واقعة خلال الكتبان الرملية مدة خمسة عشر يوماً، ومنطقة تحتوي على أفاع ذات رؤوس مزدوجة وهي مميتة، وقد استغرق معهم السير شهراً كاملاً لقطع تلك المسافة فيما لو كانت الأرقام دقيقة. وعلق الملك بقوله: إن الإله مردوخ قد خفّ لمساعدته وحفظ حياة جنوده وهذه دلالة على مروره بآيام صعبة عندما بدأ يفكر أن جيشه لا يستطيع التقدم.

وعندما وصل إلى أرض مصر هزم جيش فرعون (نارفا) وبعدها حاصر واستولى على (ممفيس) العاصمة التي تبعد حوالي عشرين ميلاً جنوب القاهرة (اليوم) وبعد هذا النجاح تقدم أمراء مصر السفلى للاعتراف بسيادة (أسرحدون) الذي عين موظفين آشوريين في الإمارات المحلية، وأعلن (أسرحدون) نفسه ملكاً على مصر السفلى والعليا والحبشة، ولكن هذا كان إدعاءً فارغاً، إذ ما كان الجيش الآشوري يصادر أرض مصر حتى تقدم الفرعون (نارفا) وأعاد احتلال (ممفيس).

هذا وقد عاد (أسرحدون) في عام (٦٦٩ ق م) بحملة جديدة على مصر ولكنه مات وهو في الطريق إليها.

آشور بانيال

لقد نجحت خطة (أسرحدون) بالنسبة لوراثة العرش بحيث بقي آشور بانيال في نينوى (وشماش - شم - أوكين) في بابل، ولم يكن مكان لأكلا الملكتين مشكلاتهما، وقد تضافرت الثورات الناتجة فعملت على جر آشور إلى حرب أهلية.

إن معرفتنا عن حكم آشور بانيال متقطعة، فمع أنه قد ترك نقوشاً كثيرة، إلا أن الطريقة التي رُتب بها كتابه هذه النقوش بحيث كان يحدد الحملات في متقطع مبنية مع أنها كانت قد حدثت في أوقات مختلفة، كل هذا ترك الفوضى في تسلسل الحوادث، وهناك بعض الباحثين الذين يعيدون ترتيب هذه الحوادث بطرق مختلفة وبالتفصيل.

كانت مشكلة أسرحدون العاجلة هي عدم إكمالها لفتح مصر، ففي عام (٦٦٧ ق.م) استطاع إرسال جيش آشوري قوي إلى هناك واحتلت ممفيس مرة ثانية، ولقد عمد بعض الأمراء الشماليين بقيادة (نخو) أمير (سايس) على سحب اعترافهم وولائهم لآشور والانضمام إلى (نارها) ولكن استطاع الجيش الآشوري أن يقتل قائد الفتنة.

ولكن في بلاد كمصر كان الأمراء المصريون خسرورين للقيام بالإدارة الصعبة للبلاد، ولذلك فقد عمل (نخو) بشكل رحيم، فأخذوه إلى نينوى وأثقلوه بالهدايا والرعاية وبمدها - بعد أن أقسم يمين الولاء لآشور سمح له بالعودة إلى مصر، وقد أمر الإداريون الآشوريون في مصر أن يقدموا (لنخو) الدعم العسكري الضروري، وعين ولده الذي كان يحمل اسماً آشورياً في مركز إداري رفيع المقام.

استمرت العمالة المصرية الجنوبية في محاولاتها للحكم في مصر العليا، فقام خليفة (نارها) بحصار الحامية الآشورية في ممفيس عام (٦٦٤ ق.م) وقد جلب بعض سعاة البريد هذا الخبر إلى نينوى، حيث سارع أسرحدون إلى دخول مصر ثانية على رأس جيشه عام (٦٦٣ ق.م) فطرد المحاصرين من ممفيس ثم طاردهم حتى

العاصمة القديمة الجنوبية طيبة التي استولى عليها الآشوريون ونهبوها ، وحملوا
مكنوزها وأهلها إلى آشور.

وتذكر التوراة قصة مدينة طيبة مع استخدام اسمها العبري (نوا-آمدن) في
سفر ناحوم (١٠-٨٢).

وهذا يدل على مدى اتساع آشور التي وصلت إلى النوبة في الجنوب الغربي،
وقد شهدت نفس تلك الفترة القصيرة توسع آشور في الشمال الغربي في آسيا
الصغرى، حيث حصلت غزوة سيمييرية وأجبرت بعض الحكام الوطنيين على
الالتجاء إلى حمّية آشور، وكان من بين هؤلاء الحكام (جايجس) حاكم ليديا
في جنوب آسيا الصغرى والذي يخبرنا آشور بانيبال أن إله هذا الحاكم وجهه في
أحد أحلامه أن يطلب مساعدة عسكرية من آشور بانيبال ضد السيمييريين.

وتدل الحوادث أن طلبه قد بُني نظراً لأن (جايجس) تمكن من إلحاق هزيمة
في صفوف السيمييريين، وبعد ذلك أرسل بعض الفنائم التي احتوت على حاكمين
من الولاة إلى نينوى عام (٦٦٢) ق.م.

ولكنه كان شهر عمل قصير الأمد ، فقد واجهت آشور اضطرابات ضارية
في مصر، إذ إنه وقبل نصف قرن من الزمان عمد أحد القواد الآشوريين إلى تحنير
حكومة أورشليم بقوله:

((لا تثق بأي شخص مصري)).

إذ إن تعبيره كان أكثر دراماتيكية كقوله:

((الآن أنا أثبتت على عجلتك من قصب محكسور -أي: على مصر- والتي إذا
توكل رجل عليها فإنها سوف تدخل في كفة وتثبها ، وهكذا فرعون ملك مصر
بالنسبة إلى جميع من يتقون به)).

لكن الآشوريين أهملوا هذا الإنذار ، وبعد موت (نخو) الأمير الأعلى لمصر
الشمالية في عام (٦٦٢) ق.م فقد عينوا بدلاً عنه ابنه (بسمي نيكوس) الذي كان

المسؤول الآشوري الأعلى والذي كان شديد الولاء للآشوريين حتى كان يحمل اسماً آشورياً.

ولكن في بداية عام (٦٥٠ ق.م) بدأ (بسامي تيكوس) في تأكيد استقلاله المحلي، وذلك بطرد الحامية الآشورية التي تركت في مدن مصر، وكان لهذا العمل أصداء كثيرة، إذ يخبرنا (هيرودوتس) وهو المؤرخ اليوناني في القرن الخامس ق.م والذي ولد في غرب آسيا الصغرى:

إنه وفي زمن (بسامي تيكوس) كان القراصنة من آسيا الصغرى واليونان ينزلون إلى مصر، ولكن (بسامي تيكوس) هذا قد استطاع أن يستميلهم لخدمته، وإن هؤلاء القراصنة المزعومين ربما كانوا أتباع (جايجم) حاكم ليديا، ولقد كان لمصر وأسية الصغرى الجنوبية مصالح تجارية مشتركة.

وأخيراً أصبح كل من (بسامي تيكوس) و(جايجم) أتباعاً مخلصين لآشور، ولكن حالما سارع (بسامي تيكوس) بتخليص مصر من النفوذ الآشوري، فقد كان (جايجم) مجبراً أن يختار ما بين مصر وآشور، فقد اختار أن يساعد مصر. ولذلك فقد لعنه (آشور بانيبال) بصفتة ناكراً للجميل، وأعلن أن دعم آشور له لن يستمر، وبذلك فقد أفسح المجال أمام السيميريين للقيام بهجوم جديد نحو عام (٦٥٢ ق.م) عندما حصلت غزوة ضد مملكة جايجم مما سبب هزيمة مملكة جايجم وقتل ملكها.

وفي عام (٦٥١ ق.م) استطاع (بسامي تيكوس) إجلاء الآشوريين من مصر، وهكذا وينشوء الاضطرابات في أمكنة أخرى لم تعد آشور قادرة على إبقاء الإمدادات الضرورية لجيشها للبقاء في مصر مع وجود خط طويل صعب من المواصلات إلى هناك.

إهانة عيلام

كانت المشكلات الرئيسية في الشرق حيث كان المركز الرئيسي للاضطرابات هو عيلام.

وهي المملكة التي عُمِّرت نحو ألف سنة في جنوب غرب إيران، في هذه المنطقة كان هناك في هذه الفترة عاملان هامين سببا الاضطرابات وعدم الاستقرار: أولهما: وجود عدد من أفراد العائلة الملكية الطامعين المتنافسين على السلطة.

وللثبنا: تعرض الملوك العيلاميين إلى الموت المفاجئ (وهذا يدل على وجود مرض وراثي في الأسرة الحاكمة، وربما لأن ملوك عيلام كانوا يتزوجون من أخواتهم) والحقيقة إن عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي يؤدي العلاقات التجارية، ومن الممكن أن ينتشر عبر الحدود.

ففي بداية حكم (أشور بانيبال) عمل الملك على نشر الاستقرار في عيلام، فقد ذكرت الإجراءات التي اتخذها لمساعدة ملك عيلام في أيام الشدة ويقول:

"عندما حَدَثَتِ المجاعة في عيلام وازداد القصف وقلَّ الطعام أَصْرَتِ بارسال الذرة إليه للإبقاء على حياة شعبه، وقد أمسكت بيده (لدمه) وقد أعدت له جميع الأشخاص الذين هربوا من بلادهم أثناء المجاعة والتجؤوا إلى آشور مدة حتى هطلت الأمطار في بلاده، ونتج عن ذلك زيادة المحاصيل الزراعية، وهؤلاء الأشخاص الذين التجؤوا إلى آشور قد أعدتهم إليه."

ومع ذلك وعلى الرغم من مساعدات آشور بانيبال الكريمة عمد ملك عيلام (أورتاكس) إلى التجلوب مع بعض مبادرات الزعماء القبايليين في بلاد بابل واستفاد من انشغال آشور في الحرب مع مصر فشنَّ هجوماً على بابل عام (٦٦٥ ق.م).

ولذلك فقد اضطر آشور بانيبال أن يرسل جيشاً إلى الجنوب ليصد (أورتاكس).

وهنا مما ساهم في إساءة العلاقات ما بين آشور بانيبال وأخيه، إذ اتضح للأخ (شلمانش - شم - أوكين) أنه على الرغم من توليه مملكة بابل فقد كانت أمور الدفاع عن تلك البلاد منوطة (بآشور بانيبال).

وأما (أورتاكس) فقد كان شأنه شأن الملوك الميلايين الآخرين، فقد مات ميتة فجائية غير منتظرة، ولهذا فقد استولى على العرش أحد أبناء عمه الملكيين وهو: (تيومآن) الذي عمل على تأمين مركزه وذلك بمحاولة قتل ابني الملكين السابقين، وقد عمد هؤلاء الأمراء الخمسة والثلاثون الآخرون من أفراد العائلة المالكة بصحبة بعض النبلاء إلى الفرار طلباً لحماية آشور بانيبال، الذي وفر لهم الحماية والملاجئ وذلك على الرغم من طلب (تيومآن) القضاء عليهم.

وهنا نرى دلالات طريفة متزايدة لأهمية البروتوكولات، إذ إن آشور بانيبال شعر بضرورة صياغة سبب لرفض طلب (تيومآن) بالقضاء على أولئك الأمراء.

والآن نستطعم بمشكلة إعادة الترتيب التاريخي لنقوش آشور بانيبال التي لم تكن مرتبة ترتيباً تاريخياً كما لاحظنا، والتي توحي أن الحملة التي قُتل فيها (تيومآن) حدثت بعد الفترة التي كان ينبغي فيها القضاء على منافسيه على عرش ميلام.

ولكن السجلات الميلامية تدل على أن حكم (تيومآن) قد دام حوالي عقد من الزمن مع سعيه للتوسع الدائم في إيران.

والحقيقة، إن السجلات الميلامية هي أكثر مصداقية وذلك يظهر من الشعور بالمرارة التي تسيطر على (آشور بانيبال) عندما يتكلم عن (تيومآن) وهو الملك الميلامي الذي كان آشور بانيبال يكرهه كراهية مطلقة.

إن رد الفعل الذي أظهره آشور بانيبال ينبغي أن يكون قد حدث خلال فترة زمنية لا يأس بها، وليست عبارة عن أشهر قليلة من الاحتكاك مع (تيومآن).

وأخيراً وفي أواخر صيف عام (٦٥٢ ق.م) تلقى آشور بانيبال، وكان مقيماً في أربيل، أخبار تبثت جيش (تيومآن) ضد

وهكذا عمد آشور بانيبال إلى الاستغلة بالآلهة عشتار في أربيل وهي آلهة الحرب، وقد تقلعت جيوشه إلى داخل عيلام عن طريق يمتد خلال الدير، بينما تقهر (تيومآن) والتجأ إلى عاصمته (سوزا) ثم حاول الحرب ولكنه كان سيئ الحظ، وهنا ينسحر آشور بانيبال ما حدث:

لقد هرب (تيومآن) ملك عيلام حفاظاً على حياته واختبأ في إحدى الغابات، ولقد أنكمسر عمود العربية -عريته الملكية- وانقلبت العربية عليه، وقد قال (تيومآن) لولده وهو في غاية اليأس:

((ارفع القوس)) ويُظن أنه يعني أحد أجزاء العربية المكسورة التي كان الملك محصوراً تحتها.

وقد حاول ابن (تيومآن) مساعدته ولكنه أمسك به وضربت عنقه. وقد أخذ رأس (تيومآن) إلى آشور بانيبال الذي نفث كراهيته بضرب الوجه الميت والبصق عليه.

ثم إنه احتفل بنصره بإقامة وجبة احتفالية رائعة مع زوجته، وهذه الوجبة تظهر في اللوحة الفافرة حيث يظهر وجه (تيومآن) متدلياً من شجرة.

لقد بقيت عدة زُمر وعصابات قبلية مناوئة في بابل، وخلال طيلة هذه المدة كانت هناك دسائس دائمة بين هؤلاء الناس والعيلاميين والتي كانت تسبب عدم الاستقرار والرفض للإدارة الآشورية في بابل تحت إمرة (شاماس- شم- اوكين).

وإن وجود الممساكر التي كانت تحت قيادة آشور بانيبال والمخصصة للعمل في بابل كانت سبباً في تعمير العلاقات الودية بين الأخوين.

ومع ذلك فقد بقيت العلاقات الودية بين الأخوين مستمرة حتى عام (٦٥٤ ق.م) وذلك لأنه طبقاً لأحد التواريخ عام (٦٥٥ ق.م) يقال: إن فرائش يعمل قد عاد من آشور إلى بابل.

وأيضاً في السنة التالية أعيدت عربة عمل وجميع الأشياء اللازمة وقسم من الفنائم المأخوذة قبل خمسة وثلاثين عاماً عندما نهب سنحاريب بابل.

ولكن وتحت سلطة ملهكين ضعيفين كالكعي كان آشور بانيبال قد نصبهما بالتوالي ملك ونائب الملك في عيلام، زادت المؤامرات والتسلّات بين مختلف الفئات المتناحرة في عيلام وبابل.

وهكذا وفي عام (٦٥٢ ق.م) نشبت الحرب الأهلية، وعندما هاجم (شاماش، شم، أوكين) الذي كان يدعمه الجيش الميلاي الحامية الآشورية في (كوثاء).

وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها (شاماش، شم، أوكين) لثيّر اضطرابات ضد آشور في بابل إلا أن بعض المواطنين في المدن الكبيرة قد استمروا في دعم آشور.

هذا وقد هزم الآشوريون جيش عيلام وأخرجوا القوى الكلدانية التي كانت موجودة في جنوب بابل والتي كانت تدعم (شاماش- شم- أوكين)، وبعد ذلك استلموا زمام المبادرة وذلك بوضع (بورشيبا) وبابل التي يحكمها (شاماش- شم- أوكين) تحت الحصار.

ولم يصل أي دعم (لشاماش- شم- أوكين) من عيلام حيث نشبت الحرب الأهلية بين مطالبين متنافسين على العرش.

وقد كان (شاماش- شم- أوكين) محصوراً في بابل ولكنه دافع عن تلك المدينة حتى أجبرته المجاعة على الاستسلام عام (٦٤٨ ق.م).

ولقد ساءت أحوال المدينة أخيراً بحيث إن المواطنين أكلوا لحوم أولادهم وبناتهم الموتى نظراً لشدة جوعهم.

ولقد مات (شاماش- شم- أوكين) بعد حدوث حريق في قصره، وربما مات منتحراً مع أن ذلك لم يثبت رسمياً.

وقد كان آشور بانيبال حريصاً أن تجري حفلة دفن مناسبة لأخيه وزوجته في قبر بعد أداء الطقوس المناسبة، ولكن وفي هذه الأثناء أممك بعدد من المتمردين الآخرين حيث قتلوا وقطعت أجسادهم لتككون طعاماً للكلاب والخنازير والنخاب، والطيور الجارحة وطيور السماء وأسماك البحر العميق.

وبعد إنشاء حكم آشور بانيبال العلويل الأمد فقد حدثت اضطرابات قبلية من الجنوب في بابل التي كان يحكمها ملك ضعيف يدعى (كاندالاتو) ولم يكن هذا أكثر من واجهة تمثل الحكم المباشر لآشور هناك.

وأما في عيلام فقد أصاب تيومان بعض النجاح في إحلال الاستقرار، ولكن بعد تحديه الأخرق لآشور وموته بعد ذلك حصل نزاع أهلي بين مدعين متنافسين على السلطة ووراثة العرش، الأمر الذي أنتج الفوضى في البلاد.

ولقد قام (آشور بانيبال) بمدة تدخلات بالنسبة لوراثة العرش بين المدعين العيلاميين الذين كانوا يطلبون حمايته لصالحهم، ولقد كانت الأمور معقدة بسبب الفروق الاجتماعية ما بين آشور وعيلام.

فبينما كان الحال في آشور أن ينتقل الحكم الملكي من الأب إلى الابن، إلا أنه بالنسبة لعيلام كانت الوراثة تتم من حيث الأم بحيث كان أحوال الملك باستماعتهم المطالبة بوراثة العرش دون ابنائه.

وهكذا فإن أي وريث شرعي للعرش طبقاً للمبادئ العيلامية من الممكن عدّه مفقوداً للسلطة عند الآشوريين.

بهذا كان الرجل هو الوريث الواضح والمنظور من وجهة نظر (آشور بانيبال) ربما كان له أحوال لهم الحق بالادعاء بالوراثة من وجهة النظر العيلامية.

هذا ولم تحدث أي حركات لإعاقبة الاستقرار الكامل حتى زمن آشور بانيبال، ولم يكن من المحتمل أن يحدث ذلك نظراً لأن مملكة عيلام الهرمة لم تكن تعاني من انقساماتها الداخلية فعصب، بل أيضاً من التوترات الناتجة عن اندفاع شعوب جديدة من الشمال كانت تحاول الاستيطان وهم الفرس.

وكان الوضع في عيلام يتمثل بتهديدات مستمرة لبابل، ولم تكن الفوضى في عيلام سبباً في تعطيل التجارة مع المناطق في الشرق فعصب، بل أيضاً عملت حالة الفوضى في عيلام لجعلها قاعدة مرموقة بعيدة عن السيطرة الآشورية للقبائل الكلدانية التي كانت تفيي الاستقلال في بابل.

لقد أجبرت هذه الحالة عيلام آشور باتييال على اتخاذ خطوة خطيرة تؤدي إلى تخريب البلاد بكاملها ، وهذا استغرق القيام بحملتين ، والمحتمل أن يكون تاريخ الأولى قبل منتصف عام (٦٤٠ ق.م) ، فقد زحف الجيش الآشوري خلال عيلام مغزياً مدنها الرئيسية واستولى على العاصمة ونهبها وهي (سوزا) ولم يظهر جنود آشور باتييال أي احترام للمعابد التي بُنيت ولا للآلهة أو أموات العبادة التي أخرجت من أمكنتها ونقلت إلى آشور ، وحتى الفيور الملكية قد دُست وذلك لكي يمانى الملوك العيلاميون الموتى بعد موتهم من الانتقام الآشوري الذي نجوا منه وهم أحياء . وقد كان آشور باتييال واضحاً وصريحاً بالنميمة لتواياه فقد قال : لقد هدمت واتلفت قبور ملوكهم القدامى والحديثين الذين لم يحترموا إله آشور أو عشتار أسهادي ..

ولقد عرضتهم للشمس ونقلت عظامهم إلى آشور ولقد أوقعت القلق في أشباحهم وحرمتهم من تقديم المأكولات وجريان المياه من أمامهم .
ولقد أخذ عدد كبير من الموظفين الكبار وعائلاتهم أسرى إلى آشور وضمت الوحدات العسكرية العيلامية إلى الجيش الآشوري
وتخبرنا التوراة أن بعض الأشخاص المبعدين من عيلام ومن (سوزا) نقلوا إلى شمال فلسطين.

ولهذا فإن دماء عيلامية تجري في عروق الشجرة وهم أهالي السامرة في شمال فلسطين.

ولقد أصبح كثير من المناطق ، بعد أن أخذ سكانها وحيواناتها كضائماً إلى آشور ، خراباً ياباً : لقد جعلت حقولهم خالية من أصوات البشر ومن خطوات الماشية والأغنام ، ومن الأصوات السعيدة في مساكن الحصادين ، وبدلاً منها جعلت حُمر الوحش والقرلان وجميع أنواع الحيوانات البرية .

ولكن ظهر أن (آشور باتييال) قد انحرف كثيراً عن المياسة التي اتبعها في بداية حكمه وهي محاولته لتهدئة عيلام عن طريق المساعدات الاقتصادية ، فقد

كان تخريبه لعملاق أسوأ من الأعمال الوحشية، فقد كان من أسوأ التدابير في الحكم.

إذ لم تكن الحيوانات البرية التي نكسرها آشور بانيبال والتي أصبحت تترصد الدخول إلى تلك القفار التي تركها وراءه، إلا أن القبائل الفارسية التي كانت تضغط للدخول إلى المناطق المحيطة بأراضي مملكة عيلام المهيبة، وكان من عوامل فخرها أن تكمل احتلال تلك المنطقة.

وفي ذلك الوقت كان الفرس لا يزالون أتباعاً للميديين وبناءً على الضغط الآشوري أصبحوا مملكة رئيسية في شمال إيران.

وبعد قرن من الزمان أصبحوا يحكمون ابتداءً من القاعدة التي نجحوا في اقتطاعها من حكم عيلام حتى كامل المنطقة وأكثر من ذلك المناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية الآشورية.

نقد أصبحت نقوش آشور بانيبال التاريخية قليلة وذلك بعد قيامه بحل المشكلة العيلامية وإن ندرة النقوش الملكية، عندما لا تكون بسبب خلل في الاكتشافات الأثرية (بل بالعكس حدث هناك حفريات واهرة في الأبنية المرافقة لعهد آشور بانيبال) إنما هو عادة يدل على اضطرابات في عهد الحاكم المذكور أيضاً.

ولدينا نقوشه في اللوحة النقشية البارزة التي تظهر أي نوع من الحكام كان هذا الرجل وأي نوع من الرجال كان.

إلا أنه وبالحكم عليه من هذه الأعمال من الممكن عدّه أنه قد أصبح طاغية لا يحركه إلا الظمأ إلى الانتقام الشخصي دون النظر إلى الاعتبارات السياسية الرصينة.

هذا وإن إحدى الحوادث الأخيرة التي سجلها كانت معاملته لملك عربي، فقد كان العرب قد ساعدوا أخاه (شاماش-شم-اوكين) عند تمردّه في بابل، وقد

نصب آشور بانيبال أحد الأمراء الذين بقوا على قيد الحياة من الذين أظهروا خضوعهم ملكاً على العرب.

وفي النهاية: انضم هذا الملك إلى الأنباط وهم العرب الذين كانوا يسيطرون على الطرق التجارية الواقعة غرب بلاد العرب، وكان انضمامه إليهم مضاداً لرغبات آشور بانيبال.

ولهذا فقد انطلق آشور بانيبال مخترباً الصحراء جاعلاً دمشق قاعدة له، وانقض على القبائل التي واجهها ونهبها ودمر آبارهم حتى اضطر العرب إلى خلع ملكهم، وأمسك به آشور بانيبال ونقله معه إلى نينوى حيث أذله بأن ربطه من عنقه إلى حجر الكلاب وجعله كلب حراسة عند بوابة المدينة.

لقد كان الملوك الآشوريون الأوائل قساة -نعم- وبلا رحمة، إذ عندما وجد أي عسيان كانوا يقيمونه. وحيث توجد معارضة كانوا يحبطونها، ولكن آشور بانيبال فقط وحده قد وضع التبرير لأعماله في نقوشه الظاهرة.

فهو من جلد وجوه أعداء مهتين، وهو الذي نبش هبور الذين لم يستطع معاقتهم وهم أحياء.

وهو الذي أبقى على حياة الملوك الأسرى لكي يذلهم وهم أحياء، وليس من حق المورخ أن يقوم باللوم، لكنه ينبغي أن يسجل الأحداث.

ولكن وجود الأذى كقوة دافعة وراء آشور بانيبال ما هو إلا أحد الحقائق التاريخية، وأن سلوكه كان نوعاً من السلوك الذي يعطي للحرب اسماً بشعاً.

لقد كان من عيوب آشور بانيبال أنه لم يكن رجلاً استراتيجياً عظيماً ولا سياسياً ولا جندياً، فقد كان فجاً خالياً من الاستبصار السياسي بقدر ما كان حقوداً في مجال النعمة.

ولسوء حظه أنه استدعي لاستلام مهام الملك في الوقت الذي كان لديه ميول للدراسة، ومع ذلك فتحن مديون له بشيء فقد حنن الملوك الآشوريون الأوائل يجمعون بعض النصوص القديمة بقصد إنشاء مكتبة، ولكن بالنسبة لآشور

بانيبال قد أصبحت هذه الرغبة غراماً وهو يعطينا الانطباع بأنه كان نوعاً من الرجال الذين يلذ لهم معالجة لوح طيني جيد.

وربما كانت دوافعه ما هي إلا تقدير أسطوري للحكمة القديمة أكثر من حبه للأدب إكراماً للأدب.

إذا إنه حينما كان يسمع بوجود نص قديم كان يطلب إرسال النصوص، أو يحصل على نسخ منها وذلك لأجل مكتبته في نينوى، وهذه النصوص التي بقيت مخبأة في الأرض حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي والتي بقيت منذ اكتشفها مخبأة في المتحف البريطاني، المصدر الرئيسي الوحيد لمعرفتنا الثقافية البابلية والآشورية القديمة.

لقد كان استعمال كلمة مدرسية (أكثر من كلمة (بحثية) متممداً، إلا لم يكن هناك أي دليل أن (آشور بانيبال) كان مهتماً بالبحوث.

إذ إن ما كان مهتماً به بالنسبة للنصوص القديمة كان علاقة هذه النصوص باللاهوت والدين والأدعية والصلوات والطقوس ومعاني الضال الحمن، والتعاوين اللازمة لطراد الأرواح الشريرة وتجنبها.

هذه هي الأمور التي كانت تشغل بال (آشور بانيبال) وكانت المؤسسة الدينية بما لها من المصالح في هذه المنطقة كانت تشجعه لأنه كان يعتمد دوماً على نوع الوحي الذي يريده في أي من المواقف الحرجة، وذلك حسبما كان كثير من نقوشه تروي بالتفصيل.

إن جميع ما علينا الإشارة إليه بالنسبة لما كان يحدث في العقد الأخير من حكمه ما هي إلا بعض الوثائق الاقتصادية التي ليس فيها معلومات كثيرة، فهناك بالحقيقة بعض المعلومات الدينية المتعلقة بآشور بانيبال، وما يذكره عن كونه معاملاً بالمعابد والتي يمكن أن نفهمها فإنها تعكس تدهوراً في شؤون آشور بانيبال الشخصية.

ولكن ليس من الضروري أن تكون تلك الترميم على نهائية حكمه ،
لكنها تُعد مرفقات رسمية تدعو إلى نوع من الأدب يدعى (أنشيد التوبة) أكثر
منها تعابير عن تنبؤ آشور بانيبال شخصياً بمصيره التالي ، إذ لم يكن آشور
بانيبال رجل سياسة عظيم ، وليس من المحتمل أن يكون قد تنبأ بالجلطة والزوال
الذي سوف يصيب إمبراطوريته بعد حين.

سقوط الامبراطورية الآشورية

خلال أربعين عاماً من الفطائع التي قام بها جيش آشور بانيبال في عيلام انتهت
الامبراطورية الآشورية.

والحقيقة أنه ليس هناك حقائق ملموسة وتتبع مفصل للحوادث التي انتجت
هذا الحدث ، وكل ما لدينا ما هو إلا بضعة مؤشرات مبعثرة ، مثلاً ذكريات
سيدة عجوز ، أو أسماء الملوك أو تاريخ بعض الوثائق الاقتصادية أو بعض نصوص
متناثرة لنح ملكية الأراضي ، وبعض التلميحات لبعض التواريخ ، أو بضع قطع من
الفضار منقوشة ، أو قطع من النقوش وبعض الأبنية أو بعض التقاليد المحفوظة
ضمن السجلات اليونانية بعد بضعة قرون.

وهو أن السيدة المجوز المشار إليها هي والددة نابونيداس وهو أحد ملوك الأسرة
البابلية (الكلدانية الجديدة) التي حكمت منطقة ما بين النهرين والغرب بعد
سقوط آشور ، إذ هناك نصب تذكاري نصب عند موتها يجعلها تقول على لسانها:
إنها قد عاشت ابتداءً من السنة العشرين لحكم آشور بانيبال ملك آشور (كان
تاريخ مولدها عام ٦٤٩ ق.م) حتى السنة الثانية والأربعين من حكم آشور بانيبال ،
والسنة الثالثة والأربعين لحكم آشور-ايتلو-إيلي ابنه ، والسنة الحادية والعشرين
لحكم نابوبلاسر ، والسنة الثالثة والأربعين لحكم نبوشاويرير ، والسنة الثانية
لحكم أميل-مردوف ، والسنة الرابعة لحكم هيري جلنيسار طوال خمسة وتسعين
عاماً.

وحتى استلم ابنها العرش عام (٥٥٥) ق.م إن هذا يثبت تاريخ وفاة آشور بانيبال
في عام (٦٢٧) ق.م وهو واحدة من الحقائق الأكيدة للتاريخ النهائي للإمبراطورية
الآشورية، والحقائق الأخرى المتعلقة بهذه الفترة من الممكن إيجازها بما يلي:

١- بعد وفاة شامس - شم - أوكين أصبحت بابل تحت حكم رئيس صوري
يعرف باسم كاند لاتو.

٢- لقد خلف آشور بانيبال ابنه آشور - ايتيلي - ايلي الذي بدأ حكمه قبل
عدة سنوات من وفاة آشور بانيبال

٣- لقد حدثت اضطرابات واسمة خلال الإمبراطورية، ففي فلسطين كانت
هناك الأنشطة الإصلاحية التي قام بها الملك يوشع ملك يهوذا عام (٦٢٩) ق.م
وكانت تشمل بند رموز العبادة المرافقة للآشوريين وربما اشتملت عناصر من
الشمور المناهض لآشور، بينما كان هجومه على الأراضي المجاورة دون التدخل
الآشوري تعكس وجود الصعوبات التي واجهت آشور بالنسبة للنظام وذلك الوقت
الذي يعود تاريخه ربما إلى عام (٦٣١ ق.م) وما كان يعرف عن حركات الشعوب
الغبلية الشمالية والتي كانت تهديداً لفلسطين، وقد حدثت تمردات أخرى بما
فيها تمرد قائد عسكري يدعى سن - شم - ليشير الذي كان يعمل على اعتلاء
العرش.

٤- تم قبول ولد آخر من أبناء آشور بانيبال وهو شن - شا - ايشكون ملكاً
لآشور خلال معظم الفترة التي تلت وفاة والده حتى عام (٦١٢ ق.م).

٥- أعلن أحد الأمراء الكلدانيين وهو نابويولاستر ملكاً على بابل عام (٦٢٦)
ق.م ولكنه لم ينجح بشكل كامل وبسرعة للسيطرة على كل بابل.

٦- لقد سقطت نينوى عام (٦١٢ ق.م) تزودنا هذه المعلومات بمادة تاريخية تشبه
أحجية الصور المجزأة والتي -ونظراً لكثرة عدد القطع المفقودة- يمكن جمعها
مما بطرق مختلفة، وإن إعادة ترتيب المحاولات لتتاسب المعطيات الأكيدة، دون
القيام بافتراضات، ليس لدينا براهين إيجابية لها.

ولقد حدثت اضطرابات (كما حدث في يهوذا) في أواخر نهاية حياة آشور بانيبال، ولقد باشر آشور - ايتلو- ايلي الحكم إما كفي يريخ والده الممن والمنهك القوى أو نظراً لظموحه الشخصي، وذلك حوالي عام (٦٢٠ ق.م).

وعند وفاة آشور بانيبال عام (٦٢٧ ق.م) اندلعت التمردات الحقيقية، فقد كان هناك نزاع للحصول على السلطة المركزية أولاً: في بابل أزعج بنتهجة (كاند لانو) ملك بابل عن العرش (إذ كان الأناضول الثانية لأشور بانيبال) وقد كان آشور -ايتلو- ايلي يحاول الاستيلاء على بابل من خلال مساعدة أحد القواد المواليين له. وبعد ذلك عين سن شم ليشير ملكاً موالياً.

وفي نفس العام (٦٢٧ ق.م) حصل ابن آخر من أبناء آشور بانيبال وهو سن - شار - ايشكين، ومن الممكن أن يكون نوام آشور -ايتلو- ايلي، قد حصل على دعم إحدى الحاميات الآشورية في بابل، وقام بانقلاب نجح مؤقتاً، إذ استولى بعده على بابل وأدعى حقه بالملك.

ولذلك فقد تحرك أحد الأمراء الكلدانيين وهو نابو بولاسر خليفة بيروداك - بالادان في ظموحه أو ربما بنسبته (مع أنه ليس لدينا إثبات على ذلك) وكان هذا قد أعلن نفسه ملكاً على أراضي المستعمرات الجنوبية التابعة للقبائل، وتحرك شمالاً لطرده سن - شار- ايشكين ولكي يؤكد ادعاءه بحقه في ملك بابل، ولكن كان لا يزال هناك قوى آشورية منتشرة في بابل، واستمر سن - شار- ايشكين بالسيطرة على بعض المدن البابلية والاسيما (نيبور) وإيديمن حتى (٦٢٠ ق.م) وحتى بعد ذلك.

ليس لدينا أي معرفة لما كان يجري لأشور -ايتلو- ايلي أو حتى عن موته، ولكن نعلم أنه لم تكن له أي سيطرة فعلية على بابل حتى عام (٦٢٧ ق.م) ومن الواضح أنه وفي عام (٦٢٢ ق.م) وبالتأكيد ومن الممكن أن يكون ذلك في أوائل (٦٢٦ ق.م) فقد أعلن سن - شار- ايشكين نفسه ملكاً على آشور بدلاً من أخيه، وفي أثناء ذلك عمد نابوبولاسر رغم الانتكاسات - إلى مد سلطته على جميع بابل، وكان أيضاً قد اتخذ الإجراءات لاكتساب بعض الحلفاء في الخلق، وبعد

اعتلائه عرش بابل، أعاد إلى (سوشه) الآلهة الفيلامية التي نهبها الآشوريون سابقاً، وكانت هذه وسيلة لشراء النية الحسنة.

وفي عام (٦١٦) قم أصبح نابو بولاسر في وضع ساعده على اتخاذ موقف الهجوم ضد آشور، مع أن تحركاته ومبادراته لم تكن أكثر من بعض المحاولات لتعديل الحدود التي كانت مجال خلاف بين بابل وأشور وذلك لمصلحة بابل، وتذكر بعض المصادر أنه قد حدثت بعض الصدامات التي تدل أن آشور كانت تحصل على دعم كل من مصر والمانيين في شمال غرب إيران.

وفي السنة التالية تحرك نابو بولاسر شمالاً نحو نهر دجلة ووصل العاصمة القديمة آشور، ولكن تقدمه كان قبل الأوان وقد أجبر على الانسحاب إلى تكريب، حيث وضع هو نفسه تحت الحصار، وهكذا برهن الآشوريون أنهم لا يزالون قادرين على اتخاذ موقف الهجوم، ولكنهم أجبروا على التراجع الذي يظن أنه كان نتيجة لسماعهم خبر هجوم سريع من قبل الميديين، والذي حدث فيما بعد في نفس السنة في جنوب شرق آشور، ومن هناك وفي عام (٦١٢) قم تحرك الميديون ووصلوا إلى قلب آشور واحتلوا كلا تاربي (وهي شريف خان الحديثة) وهي قلعة على بعد نحو خمسة أميال إلى شمال شرقي نينوى التي سيطرت على مواصلات العاصمة مع الشمال والغرب.

وكذلك كان الحال مع العاصمة القديمة آشور وتذكر إحدى التواريخ أن جيش نابو بولاسر وصل بعد سقوط آشور، ولكنه لم يشترك في هذا السقوط.

ومن الممكن أن يكون ذلك صحيحاً، ولكن من المحتمل أن يكون هذا قد ذكر لتبرئة نابو بولاسر من اللوم والاستهجان الديني لتهب تلك المدينة التي كانت مركزاً دينياً محترماً.

ولقد عقد نابو بولاسر والميديون الذين كانوا يعملون بشكل مستقل معاهدة تحالف رسمية عند اجتماعهم في آشور.

وكانت آشور لا تزال تملك بعض الحلفاء، وفي عام (٦١٣) قم قامت الشعوب القبلية الساكنة على طول الفرات الذين طالما قاموا باضطرابات في الماضي ضد

آشور ، نرى الآن تلك الشعوب تتمرد ضد نابوبولاسر ، ولقد كان هذا التصرد القبلي طبقاً للتحالف مع آشور ، وذلك لأنه وبينما كان نابوبولاسر يحاصر إحدى المدن المتمردة وصل جيش آشوري وأجبره على رفع الحصار والانسحاب إلى بابل.

وهنا تبرز أمامنا بعض المشكلات: إذ كيف استطاع الآشوريون جمع جيش على الفرات ذي قوة كافية لإجبار نابوبولاسر على التقهقر عندما كان الآشوريون في السنة السابقة في ضيق عظيم بحيث استطاع الميديون الاستيلاء على مدن في طريق الدولة.

فربما كان هناك شيء يعمل على كبح جماح الميديين (وهذا افتراض تخميني دون وجود أي شهادة تثبته) أو أن الميديين كانوا مجبرين على الانسحاب لمواجهة تهديد آخر ، ومن المحتمل أن يكون هذا التهديد آتياً من (الأسكنديين) الذين أتوا من الأناضول ومن شمال غربي إيران خلف الميميريين ، وكانت لهم علاقات ودية مع الآشوريين منذ عهد اسرجدون ، وهناك روايات تفيد أن الميديين قد تفرقوا تحت ضغط الأسكنديين بشكل كبير ، وربما كان هذا التهديد سبباً في الانسحاب المؤقت للميديين من آشور عام (٦١٢ ق م).

ولا تذكر السجلات البابلية في تلك الفترة شيئاً عن الأسكنديين ولكنها تذكر شعباً يدعى (الأومان ماندا).

ربما كان هذا الاسم يدل على بعض التجمعات القبلية التي كان الأسكنديون جزءاً منها وتسمكن في الشمال.

وتذكر الروايات اليونانية أن الأسكنديين قد تحالفوا مع الميديين ، ومن الممكن أن يكون نابوبولاسر عضواً في هذا التحالف نظراً لأنه وفي عام (٦١٢) التقى (بالأمان ماندا) والميديين وشاركهم في حصار نينوى. ولقد سقطت المدينة خلال ثلاثة أشهر. وهذا أمر مستغرب ، إذ إن هذه الفترة قصيرة ، نظراً لأن مدينة بابل قاومت الجيش الآشوري الماهر في فنون الحصار لمدة تزيد عن سنة ، وتتفق الروايات اليونانية مع التوراة في وصف حالة السرور والغبطة عندما سقطت نينوى مع ما كان فيها من وسائل الدفاع الضخمة.

ولكن هذا السقوط أصبح حتمياً بعد حدوث الطوفان، ولم يكن هذا الطوفان ناتجاً عن نهر دجلة بل عن رافد له يدعى (خوسر) فقد كان طوفان خوسر الذي كان يجري في وسط المدينة سبباً في إتلاف قسم كبير من وسائلها الدفاعية، مما ساعد دخول المحاصرين وقد نهبت المدينة وسلبت ومات سن-شار-أيسكين أثناء ذلك الدمار.

لم ينته أمر الآشوريين بعد، فقد هرب الناجون من الموت إلى حرّان حيث أعلن آشور-أباليت ملكاً، وكان هذا من العائلة المالكة.

وفي أثناء ذلك كان الميديون والأومان مانديون قد انمحبوا، ولقد سارع نابوويلاسر الذي أصبح يتنافس مع حلفائه السابقين لنيل وراثة الإمبراطورية الآشورية المتداعية، سارع إلى تقوية مركزه في آشور فاحتل المنطقة الغربية حتى نقيتين، وخصى على جيوش المقاومة داخل آشور نقمها.

وهذا وقر مدة سنتين لآشور أباليت لكي يمهّد تنظيم قواته في حرّان التي طلب وهو فيها المساعدة من مصر.

ففي عام (٦١٠) قم عاد شعب (الأومان ماندا) إلى منطقة ما بين النهرين، وذلك لضمان المصالح البابلية هناك، عندها انسحب أباليت ليلتقي بالحلفاء المصريين القادمين.

وبعد محاولة لاستعادة حرّان أقامت قوى التحالف الآشوري المصري قاعدة لها في كركميش.

وفي هذه الأثناء حدث هناك بعض التغيرات بالنسبة للملك مصر، فقد قرر الفرعون الجديد نخو الثاني (٦١٠-٥٩٥) قم تقديم الدعم المتزايد لآشور أباليت، وقاد الجيش المصري إلى سورية.

ويبدو أن الدبلوماسية السكندانية قد فعلت فعلها بنجاح في فلسطين فلم يكن نخو الثاني يجبر على إخلاء انتفاضة في غزة فعصب (أرميا ١٠-٤٧) بل إن حوشيا ملك يهوذا قام بمحاولة مميّنة بالنسبة له لضرب القوى المصرية بحدود عام ٦٠٨

قم)ملوك ٢٢ : ٢٩) على الرغم من هذه المعوقات فقد أوصل نخو جيشه إلى القاعدة الآشورية المصرية الرئيسية في كركميش.

ولكن حدث الآن كارثة لمصر، إذا إنه وحتى هذا الوقت لم تكن أي الجيوش الكلدانية تبدي براعة عسكرية، وكانت نجاحاتها تتوقف على الحرب الأهلية الآشورية، ويعد ذلك كانت تتوقف على الدعم الذي كان يأتيها من الميديين ومن (الأومان ماندا) ولكن حدث الآن أن استمدوا من خدمات أحد القواد ذوي المقدرة المرموقة وهو (نهبوشا درميزر) وهو ابن نابويلاستر.

ففي عام (٦٠٥) قم سلم نابويلاستر صلاحياته في حكم بابل لانه نهبوشا درميزر الذي قاد جيشه إلى أعالي الفرات للقيام بهجوم مباشر على الجيش المصري القوي في كركميش.

وقد سجل (أرميا) الحادث كما يلي:

إن إله الجنود يود تقديم ضحية.

في البلاد الشمالية إلى جانب نهر الفرات.

أه أيها البنت المصرية العذراء.

لقد سمعت الأمم بما لحق بك من عار.

ولقد امتلأت السماء بصراخك.

وذلك لأن المحارب قد اصطدم بمحارب.

وقد سقطا معاً.

ومع أن الأبيات الأخيرة تشير أن كلا الطرفين قد لاقيا مذبة ثقيلة الوطأة،

إلا أن الجيش المصري هو الذي واجه انكساراً مهنياً.

وهنا يصور أرميا الرعب والهلع أثناء هروب الناجين من الموت ورجوعهم إلى مصر.

لقد هزم محاربوهم

وهربوا بسرعة

ولم ينظروا إلى الوراء

لأن الرعب كان يحيط بهم من كل جانب (٤٦:٥٠)

ولم نسمع شيئاً بعد ذلك عن آشور أباليت أو عن أي واحد من الناجين من جيشه، وبعد اندحار الجيش المصري من آشور الأخير، انتهت الإمبراطورية الآشورية.

وبعد اندحار المصريين سقطت سورية وفلسطين بيد نبوذا درميزر.

وبل نفس السنة ورث عن والده العرش فظهر ملك جديد في إمبراطورية جديدة، وأصبحت العاصمة العالمية هي بابل بدلاً من آشور.

الفصل التاسع

المجتمع الآشوري والعادات الآشورية

الآشوريون أمة وليس عرقاً

إن أي مجموعة بشرية ولكي تتميز كمجتمع مترابط عليها أن تمتلك سمات محددة تربط بين أفرادها بعضهم إلى بعض، وتميزهم عن جيرانهم.

وإن ما نفيه هو أن نكتشف ما الذي كان يميز الآشوريين ويفرزهم كشعب مختلف عن غيره في العالم القديم.

نحتاج إلى العناية عند إطلاق المصطلحات نظراً لأن لدينا صوراً عقلية لمجموعة تدعى الآشوريين.

وليس معنى هذا أن أحد أفراد هذه المجموعة سوف ينظر إلى الأشياء بنفس الطريقة، وسوف يعين هويته الشخصية باتخاذ اسم الآشوريين، والحقيقة أننا نعلم أنه وفي أحد الأوقات لم يكن هذا هو الحال بالضبط، وذلك نظراً لأن لاسم آشورايو الذي يترجم بكلمة آشوري كان يعني شيئاً أكثر تحديداً مما نفهمه من كلمة آشوري.

ففي القوانين التي كانت سائدة في العصر الآشوري الأوسط كان لهذا الاسم معنى طبقي يطلق فقط على الشعب من الطبقة الدنيا.

لقد أطلق بعض شعوب الشرق الأدنى القديمة تمييزاً واضحاً لما كانوا يُعدونه أساساً لوحدتهم مما يميزهم عن جيرانهم.

ويمكن أن نتبنى وجهات النظر حول مثل هذه الأمور دون أن تتوافق مع الحقائق التاريخية، إذ إن الإسرائيليين التوراتيين هم خير مثال عن وجود شعب ذي معتقدات ذات أسس تاريخية مشكوك في أمرها، وكانت تقاليدهم الراسخة تؤكد أن هناك عاملين قد وحدهم وميزهم عن الآخرين.

فقد كانت قبائلهم حسب قولهم تتعدى جميعها من أب واحد (وهذا بالطبع غير صحيح) وقد دخلت هذه القبائل في ميثاق وعهد استثنائي مع إله محدد وهو (يهوه) (وهذا أمر مشكوك فيه) فقد شعر الإسرائيليون بوحي قومي مؤسس على مفهوم الأصل المشترك من رجل واحد مع الانفصال عن السلالات والأصناف الأخرى غير الموجودة وتقاليدهم وعن أمتهم، وحماية قوانينهم ولكن الآشوريين تحرروا من هذا النوع من العنصرية.

فلم يعلن أي إله آشوري أبداً ككون سلالة أي شخص معين ما هي إلا ذريته الخاصة فحسب، ولم يعد أي مشروع آشوري أبداً إلى من تشريع ضد الشعوب الأجنبية الأخرى كما فعل الإسرائيليون، فنقول التوراة: (لا ينبغي أن يتبادلوا الزواج مع الأجانب، ولا تزوجوا أبناءكم لأبنائهم ولا تسمعوهم أن يتزوج بناتهم من أولادكم).

لقد كانت معتقدات الإسرائيليون مرتبطة بالطبقة القبلية لإسرائيل، وقد سمعت آشور كما نعرفهم في الأزمنة التاريخية، كي لا يكونوا قبليين أصلاً.

ولم تلعب قضية الانحدار من أب واحد أي دور في قضية توحيد الآشوريين.

ولم يكن هنالك حسب علمنا أي تقليد لوجود أي عهد أو معاهدة بين الآشوريين وآلهتهم مع أن الإله آشور قد لعب دوراً بالنسبة للوعي الذاتي للآشوريين لدرجة تسمح أن نسميه إلهاً قومياً، ولم يفكر الآشوريون أبداً بأنهم شعب مكتنف بذاته أو استثنائي.

إذاً إنهم ومنذ البداية عدوا التجارة مع الشعوب الأخرى عنصراً أساسياً في الحياة، ولم يروا أي عواقب وخيمة ناتجة عن الاختلاط مع الشعوب الأخرى، كما فعل الإسرائيليون، وقد كانت سياستهم الأخيرة والتي اتبعوها بالنسبة إلى التهجير مرتبطة بهذه النقطة، وغالباً ما كنا نسميهم يقولون: إن الشعوب المهجرة كانت تستوطن وتعامل كالأشوريين بالضبط.

لقد خلقت سيامة التهجير التي ابتدعها الملوك الآشوريون شكلاً جديداً وفريداً من أشكال المجتمع، بل إن مزيج المجموعات الوطنية كانت الفروق العرقية فيه غير ذات بال.

فلقد تقلت مختلف الشعوب في الشرق الأدنى إلى آشور وبدؤوا بالعمل كعمال زراعيين أو حرفيين أو تجار أو جنود، وبمرور الزمن أصبحوا متوحدين في تلك الخلطة الكبيرة التي هي آشور، ولم تكن هذه الخلطة مجرد مصادفة أو منفعة. فقد كانت هناك أمس نظرية لها قد عُبر عنها باصطلاحات لاهوتية دينية. فقد كرم الآشوريون آلهتهم بأن حولهم سلطان الحكيم فوق جميع أرجاء العالم المعروف.

فقد دعا الملك توكلولي نينورتا الأول نفسه بأنه الشخص الذي نادى باسمه الإله آشور والآلهة العظمى بإخلاص وثقة، وأنه الشخص الذي سلمته الآلهة زمام أركان الأرض ليعصمها، وأنه الشخص الذي وثقت به الآلهة وأتمنته على أملاكها.

وهكذا فإن الآلهة قد خصصت جميع البلدان الأجنبية لملوك آشور. والآن دعونا نمود إلى الأسباب التي وحدت الآشوريين أنفسهم، إذ نحن نلاحظ أن اللغة هي من العوامل الموحدة الرئيسية.

وقد كان الآشوريون يعتقدون أن الشعوب القاطنة في الجبال حولهم كانوا يتكلمون بشكل مضطرب، وهكذا كانت النقوش الملصقة تطلق على اللغات التي كانت تتكلم بها الشعوب الأخرى، وكانت تذكر أن بعض الفنائم لها أسماء من الصعب كتابتها.

ولكن لم تكن هذه القضية علامة كافية للاختلاف نظراً لأن الجيران الجنوبيين في بابل كانوا يتكلمون لهجة مختلفة ولكن بنفس اللغة.

وكان الدين هو القوة الموحدة الأعظم فعالية، فقد كانت جميع شعوب الشرق الأدنى تدعى لعدد من كبار الآلهة، مع أنه كان هناك بعض المناطق أو السهاقات الاجتماعية كان لإله معين أو مجموعة من الآلهة مركزاً فريداً فيها. وكان منها الإله آشور الذي كان من المعتقد أن يمتلك السيادة في بلاد معينة أصبحت تدعى فيما بعد بلاد آشور.

ومن هنا أتى الاسم آشور، وقد نشأ الاعتقاد أن سلطة آشور امتدت فوق العالم المتحضر، وسكان من وظائف وواجبات الملك تأكيد وصيانة سيادة الإله آشور. وللوهلة الأولى، ربما يبدو هذا وكأنه نوع من النزعة القومية والإمبريالية ذو شكل معين، وفيه الفكرة التجريدية للقومية الممثلة بالإله ولكن ليس الأمر بهذا الوضوح والصراحة.

فقد كانت تلك الفكرة مؤسسة على فكرة لاهوتية ودينية لأشور، وهي أن الإله كان لديه خطة بالنسبة للبلاد، وأنه قد انفصل عن أرضه وشعبه، فالقومية ليس لها أهمية دون وجود مجموعة بشرية، ولكن بالنسبة للتفكير في الشرق الأدنى يستطيع الإله أن يتواجد بشكل مستقل عن شعبه وحتى عن وطنه، وباستطاعته حتى هجر ومعاقبة شعبه، الأمر الذي ليس باستطاعة القومية المجردة عمله.

وقد كانت آشور تؤلف سلسلة من الوحدات الثانوية، فقد كان الفلاح المادي مرتبطاً بقطعة من الأرض إما بوضع اليد أو بالحق في حرثها وزراعتها، وكانت هذه القطعة من الأرض تخص قرية معينة وكانت القرية بدورها مرتبطة إما مباشرة أو عن طريق إحدى البلدات بإحدى المدن الرئيسية، مثلاً مدينة آشور أو نينوى أو أربيل أو أرابخا، وقد كان ارتباطها بالمدينة متمثلاً بالضرائب التي تدفعها، والأعياد الدورية الدينية التي لها الحق والواجب بالمساهمة فيها.

وبإمكان الاستئناف للسلطات في المدينة في حالة حدوث خصومات قضائية أو إدارية وفوق الجميع متمثلة بالحقيقة التي مفادها: إن المدينة هي الوجهة الزاخرة

بالأحداث التي تقبّح إليها جميع المنتوجات في البلاد ، ومراكز الإنتاج والتوزيع الذي يجري للبضائع المستوردة والمصنعة التي لا يمكن إنتاجها في القرية.

وقد كانت المدن الكبرى نفسها مرتبطة بعضها مع بعض من جهة العمل تحت إدارات مدنية متشابهة ، ومن جهة أخرى بكونها جميعها خاضعة بشكل أو بآخر من أشكال التوجيه من قبل مركز مشترك للإدارة تحت إشراف الملك.

وهنا تنتهي الدورة في هذه النقطة ونجد عندها أن الملك هو المركز المشترك لجميع الآشوريين . وفوق ذلك فإن الملك يقدم الارتباط مع العالم الآخر لكونه الممثل البشري للإله آشور.

ومن جهة سياسية فقد كانت دولة آشور مستقرة مدة عدة قرون ، فقد كان هناك عدد من الدساتير والمبادئ من حين لآخر في أعلى مستويات المجتمع لاستبدال الملك الموجود بشخص آخر من فروع العائلة المالكة ، ولكن لم تحدث أي حوادث من التمرد الشعبي أو المحاولات لتغيير المؤسسات الاجتماعية ، وكان الاستقرار السياسي انعكاساً ونتيجة للاستقرار والطبيعة التي يتميز بها المجتمع الآشوري غير المجزأ.

كان الآشوريون شعباً هجيناً وهم يعرفون ذلك ، وكان النقاء العرقي ليس بهذا قيمة بالنسبة إليهم ، ومنذ أقدم الأزمنة كان لديهم تاريخ عنصري خليط ، ومع أن أجدادهم لم يثأروا بهذه الأمور منذ أواخر الألف الثاني والألف الأول ، إلا أنهم كانوا جميعاً على تمام الوعي ، وهذا مذكور مراراً في النقوش الملكية ، أن شعباً من خارج آشور كانوا يتوافدون ويضافون إلى الأعداد الأصلية من البلاد ويمتزجون بها ، إلا أنهم كانوا ياملون كاهل البلاد الأصلية.

وفي الفترة المعروفة بالفترة الآشورية الوسطى (وهي النصف الثاني من الألف الثاني ق م) كان هناك بضعة من الآشوريين بينها بعض الموظفين الكبار يحملون أسماء حورية ، وكان الاختيار في الإمبراطورية الآشورية في القرن الأول لا ينحصر في خط النسب الذي أتى منه الشخص ، بل في سلوك هذا الإنسان تجاه المجتمع الأكبر وولائه للإمبراطورية العالمية التي يحكمها الإله آشور.

وكان هناك إمكان وصول أحد الملوك المهورين في بابل إلى أعلى درجات الإدارة في آشور ، ونظهر لنا أسماء بعض الحكام الآشوريين في المناطق أنهم كانوا من أصل آرامي أو فينيقي أو يهودي.

ولم يكن الإيمان في آشور مجبراً أن يعبد الإله القومي آشور ، وذلك لأن مجموعة الآلهة المتواجدة حول آشور كانت مجموعة مرتبة تقبل الآلهة من أصول غير آشورية ، وهذا لا ينطبق على الإسرائيليين المتزمتين الذين لا يقبلون سوى الإله (يهوه) فقد كانت ثقة الإله آشور بنفسه وسيطرته لا تجيز أن يكون إلهاً غيوراً.

لقد رأينا الخطوط المختلفة في بنية آشور ما قبل التاريخ ، والأشهر فيها تلك المجموعات الثقافية التي وجدت في حسونة وخلف (ويشكل هامشي) في السامرة ، ولقد أتت فيما بعد بعض التأثيرات من الجنوب وهم شعب أيبدي في فترة ما قبل التاريخ ، والسومريون عند فجر التاريخ وكلاهما يتحدران من أصول عرقية تلك المساهمات البارزة في المظاهر الثقافية ، وهناك آثار لتلك المظاهر (تختلف عن السومرية) تبقى في أسماء الأمكنة ، وبعضها لا يمكن تفسيرها بأنها إما سومرية أو سامية ، فهي أوائل الفترة السومرية (وربما قبلها) بدأت الهجرات الجماعية للشعوب التي تكلمت اللغات السامية الآتين من الجنوب الشرقي والتي ظلت تشاهد الإمدادات التي تأتي لنجدتها حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية.

وفي الألف الثاني أتى إلى المنطقة تدفق قوي من الحوريين الذي ترك أثراً دائماً في الثقافة الآشورية ولكن لم تكن أهل تؤكد في البنية العرقية أو الإثنية ، وهذا هو ما شكل الإطار.

ولقد تدفق إلى هذا الإطار أو البنية عدة عناصر عرقية دون انقطاع عن طريق ثلاث أقدية رئيسية من الهجرة ، وهي: السبي ، والزيجات المختلطة من قبل بعض الناس كالتجار الذين يقضون وقتاً طويلاً في الخارج ، وكانت هذه القناة هي التي لا نعرف عنها الكثير وكانت أقلها أهمية.

بمستطاعة الهجرة أحداث تغييرات كبيرة في بنية المجتمع ، فنحن نعلم أنه في منتصف الألف الثاني انقضى المهاجرون الحوريون على السكان القدماء في بعض

أجزاء دولة آشور ، بينما أحدث الآراميون الساميون الآتون من وراء نهر الفرات عدة تغييرات رئيسية في نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ، وإن المستوطنين من هذا النوع ربما ظلوا متقوِّمين عدة أجيال ولكن ويمرور الزمن دخلوا هم أيضاً في عالم آشور المختلط ، إذا إن المنطقة التي وجدت الإمبراطورية الآشورية فيها دعمها الأخير حيث وقعت للنهية كانت ما بين حرَّان وكركميش ، تلك المنطقة التي كانت في زمن ما حوريه وبعد ذلك أصبحت آرامية بشكل سائد ومهيمن.

وكانت هناك طبقات أخرى من المهاجرين تشتمل على شعوب تفرقت بسبب الاضطرابات في آسيا الصغرى نحو سنة (١٢٠٠ ق.م).

وكان هناك شعب من هؤلاء يدعى شُنب الحوشكاوي القريب من الفرنجيين الذين أتوا فيما بعد والذين سمح لهم بالقيام بعدة مصادمات مع دولة آشور بالاستقرار وقد عدُّوا وكانهم آشوريين.

وعلى مقياس أقل ولكن لا يمكن إهماله لفترة طويلة كانت الهجرات التي وصلت إلى دولة آشور وسهولها والمزلفة من عائلات منفردة آتية من الجبال.

ونظراً لضالة أهميتها الفردية فليس من المحتمل أن نسمع عن حوادث فعلية بالنسبة لهذا الاستيطان المستعمل لدى شعوب كوردستان وهم بين السكان في وثائق وجدت قرب كرككوك في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ولكن وفي النهاية نجد أن اكبر المساهمين في تغيير حالات السكان وامتزاجهم كانت سياسة التهجير ، وبالنسبة للعالم الحديث نجد أن هذه الكلمة تعني شؤونا عاطفية ، ومن السهل أن تصبح الحقائق الأساسية حقائق ضئيلة الأهمية في مواضع تحبط أحاسيس الرحمة والشفقة.

ولقد نوقشت هذه القضية برمتها على يد **boded** في كتابه الهجرات الجماعية والمهاجرون في الإمبراطورية الآشورية الجديدة (١٩٧٨).

لقد مارس الملوك الآشوريون تهجير الشعوب المهزومة في القرن الثالث عشر ق م
ولم يكن لها بقية ظاهرة رئيسية لسياسة الدولة ابتداء من القرن التاسع ق م حيث
كان عدد المهجرين يصل إلى ربع أو نصف مليون نسمة بالنسبة إلى عدد من الملوك.
ولقد ساعد هذا على إنشاء مجتمع داخل الإمبراطورية الآشورية وداخل آسيا
نفسها ، وكان هذا المجتمع خليطاً في عرقته ولغته ، فلم يكن للملوك الآشوريين
أي خلفية عرقية بالنسبة إلى مفامراتهم العسكرية وثوسعاتهم وتهجيراتهم ،
وأشركوا الدول المهزومة والخاضعة في الجيش الآشوري ، وقد أسكن آشور ناصر
بعل الشعوب من الأراضي المهزومة في عاصمته الجديدة (كالاخ) وكان صريحاً في
هذه المسألة فقد كتب يقول:

((كالا... لقد بنيتها من جديد ، وأسكنت فيها شعباً قد هزمتها بيدي من
البلاد التي حكمتها ، من سوهو ولاقي وسوقا عند نقاط عبور الفرات ، وزاموا
وبيت عديني وحالي وقد أسكنتهم هناك)).

ولما لم تكن هذه الشعوب من أصول عرقية واحدة ولم يكن لها كانت تمثل
انتشاراً عريضاً من الجنسيات ، ولقد أسهمت مثل هذه الهجرات في حدوث خلفية
جديدة كلياً للمدن الآشورية التي كانت هدفاً لهدوم أكثري المهاجرين المعروفين.
وأصبحت المدن الآشورية عالمية ومتعددة اللغات ، حيث أصبح الشعب الآشوري
الحقيقي عبارة عن أقلية.

ونظراً لأن المهاجرين كانوا يتحركون بشكل مجموعات والوقت الذي نقل
فيه الآشوريون الشعوب الأجنبية عمداً بشكل مجموعات احتفظت بمصيبتها
العرقية ، فإن هذه المجموعات لم تتمثل بمرعة السكان الذين وضموا فيما بين
ظهوراتهم ، ولقد عرف الملوك الآشوريون أن هناك عدداً من اللغات كانت مستعملة
داخل بعض منهم.

وبينما بذلت جميع المحاولات لإشاع المستوطنين الجدد بقبولهم كأفراد في
الإمبراطورية ، إلا أنه ليس هناك من سبب يدعونا لافتراض أن هذا الضغط
لاستعمال لغة معينة أو خدمة إله معين قد نجح في مبتعاد

وهكذا نرى الملك سرجون الثاني ينظم عن معاملته لمزيج من الشعوب
المستوطنين بجانيه في عاصمته الجديدة دور شاروكين بما يلي:

(هناك شعوب من جهات الدنيا الأربع، ذوو لغات غريبة وكلام مختلف
يسكنون في الجبال والسهول، لقد استوليت عليهم كقنائم طبق كلمات آشور
سيدي لقد جعلتهم ذوي غرض واحد، ونية واحدة وجعلتهم يسكنون في داخل
المدينة (أي: داخل دور شاروكين) وجعلت مواطني آشور الماهرين في عمل كل
الأعمال مراقبين ومشرفين لكي يعلموهم العادات وأن يخدموا الألهة والملوك).

لم تكن ثقافة الإمبراطورية الآشورية الجديدة ثقافة آشورية محضة، ولم
تكن حتى آشورية بابلية بل كانت ثقافة هجينة نضلة.

وقد كان أحد العوامل الرئيسية التي دخلت أثناء الألف الأول قبل الميلاد،
مسببة عن دخول الآراميين، وهم بنو رحل أتوا من الصحراء السورية، فقد كان
للفتهم الآرامية تأثير على اللغة الآشورية التي أخذت كثيراً من الكلمات
والمصطلحات من اللغة الآرامية.

أما نظام الكتابة الآرامية الأبسط الذي كان يجري على قطع من الخزف أو
الجلد والبايروس، هذا النظام بدأ استعماله جنباً إلى جنب مع النظام المسماري
على الخزف، وقد كان مقدرًا لهذا النظام أن يتفوق (ولكن لم يحدث ذلك، إلا
بعد سقوط الإمبراطورية الآشورية) وأصبحت الآرامية بالحقيقة لغة رسمية في آشور
أثناء حكم تغلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧) لأننا نشاهد على أحد أنصابه كتاباً
يكتب بمواد مناسبة للخط الآرامي إلى جانب كتاب آخر يكتب بالخط المسماري
وكان كلاهما يسجلان نمطاً متشابهة عن غنائم الحرب.

لم يكن الآراميون الشعب الوحيد الذي أثر على الثقافة الآشورية في الفترة
الآشورية الجديدة، أو أننا نجد بين الكتيبة أشخاصاً مصريين مذكورين إلى
جانب الآشوريين والآراميين بشكل أنلس يستلمون الإعاشة، وبهذا أصبحوا على
صلة رسمية بالبلاط، وإن فوائم الإعانة هذه تذكر أشخاصاً غريباء آخرين لم
تذكر منهم ولا أعمالهم بل كان من المحتمل أن يكونوا ضباطاً عسكريين أو

تجاراً أو مبعوثين أجانب، أو ربما رهائن من الأمراء احتفظ بهم في البلاط الآشوري كضيافات أو كمفالات للسلوك الحسن للدولة التي أتوا منها.

وكان بين أولئك المجموعات من الموظفين الأجانب أشخاص إسرائيليون وفينيقيون وميديون وعامونيون (من شمال غرب إيران) وأناس من شمال سورية وآسيا الصغرى والأناضول.

لقد كان عدد كبير من اللغات يتمثل في البلاط الآشوري، فقد جلب الأمراء الملوكيون من الدول التابعة إلى البلاط الآشوري بقصد تثقيفهم وتعلمهم ولحكي يقولوا بقالب الحكام الموالين في المستقبل، وليخدموا كرهائن لتأمين السلوك الحسن للدول الحاكمة والموالية لآشور.

وكان هناك أيضاً إداريون ذوو خبرة أجنبية ومعرفه باللغات الأجنبية فضلاً عن كونهم مترجمين وكتبة، ولدينا أمثلة من هذا النوع وجدت في نص يخبرنا كيفية وصول أحد السفراء إلى آشور من بلد بعيد يفترض أنه ليديا (مع أن ذلك لم يثبت نهائياً) في آسيا الصغرى.

ويتمثل الملك آشور بانتيبال أنه هو المتكلم:

لقد وصل حدود بلادتي

وعندما رآه شعب بلادتي قالوا له:

من أنت أيها الغريب

ومن أي بلد لم تطأها

أي قدم على الطريق (إلى هنا)

ولقد جلبوه أمامي - إلى نينوى عاصمتي

وهي التي تحتوي لغات من الشرق والغرب

والتي نصبني الإله آشور متسلطاً عليها

ولكن لم يكن عندنا من أحد يتقن لغته

فقد كانت لغته غريبة

ولم يستطيعوا فهم خطابه

ولقد جلب معه من حدود بلادهم.

ولم يفهم ما قد جلبه معه، ولكن من المظنون أنه كانت رسالة مكتوبة
باللغة الأكادية وذلك لتغلب على الحواجز اللغوية.

الطبقات الاجتماعية

إن معرفتنا عن التركيب الاجتماعي الآشوري هي معرفة متقطعة وغير سوية،
إذ إنه وفي بعض الفترات، لدينا معلومات تتصل بشكل مباشر بمظاهر الحياة
الاجتماعية.

بينما وبالنسبة للمظاهر الأخرى فإننا مجبرون أن نستنتج ما نستطيع فهمه من
الإيماءات الواردة من نصوص ربما كان فحواها مختلفاً عن الاهتمامات التي نحن
بصددتها، بحيث إن التلميحات التي يملطونها غامضة ومحيرة.

وكما هو الحال بالنسبة للتقاطعات الأخرى فلقد مررت المجتمعات الآشورية
بتغيرات بمرور الزمن، وإن ما هو حقيقة بالنسبة لها في إحدى الفترات من الممكن
أن لا يكون هكذا في فترة أخرى، وإن أحد الأزمنة التي لدينا أخبار صادقة عنها
(على الرغم من وجود عدة فجوات في التفاصيل) هو العصر الآشوري الأوسط حتى
نهاية الألف الثانية ق م، وكان هذا الأمر نتيجة لمصادفة سميعة أي: عند اكتشاف
الألواح المسمارية في آشور، والتي تحمل نصوص القوانين الآشورية المتوسطة وهي
ذات ارتباط خاص ببعض نواحي المجتمع.

ويصورة خاصة هناك لوح متطاوول يضم (٥٩) فقرة حسب التقسيم الحديث،
وهو يهتم اهتماماً بالفاً بالمسائل التي لها علاقة بالنساء.

تذكر لنا القوانين أن المجتمع الآشوري كان مؤلفاً من فئتين متميزتين
اجتماعيتين وهما: فئة الأحرار، وفئة غير الأحرار.

وكان الكلدانيون يطلقون على هاتين الفئتين اسمي عابلو (اميلو) للفئة الأولى، وأوردو (أردو) للفئة الثانية، وترجم عادة بالتوالي: الرجل الحر، والعبد، ولقد ظهرت تعقيدات في هذا المقام عند تقديم نوع ثالث وهو (الآشوريابو) والآشوري. ومن الواضح أن الآشوريابو كان رجلاً حراً، ونظراً لأن نصوص القوانين تحدد فرقاً ما بين معاملة الآشوريو والمابلو فإنه من الواجب أن يكون هناك نوع خاص من الرجل الحر.

وتدل القوانين أن الآشورية كانوا أقل شأنًا من المابلو أي: إنه كان هناك تدرج في الأوضاع ما بين الرجال الأحرار.

وعندما تحصل رغبة للإشارة إلى رجال أحرار من درجة منخفضة عندها تستخدم كلمة آشوريو، ولكن بعض الباحثين قد فسروا هذا بشكل مختلف أي: بوجود تقسيم ثلاثي للطبقات الاجتماعية باعتبار أن (عابلو) تعني: الرجل الشريف النبيل.

ولكن نظراً لأن عابلو تبدو بأنها تستعمل للدلالة على مرتبة أعلى من الآشوريو، فإن ذلك يبدو قضية من الصعب الدفاع عنها.

وقد أصبح الوضع مختلفاً بحلول زمن الإمبراطورية الآشورية الجديدة في الألف الأول ق.م، وكان الوضع الأهم بالنسبة للرجال الأحرار يخص الموظفين الملكيين الذين كانوا يدينون بمراكزهم وسلطانهم للعطف الملكي وليس للوراثة، مع أنه كان يحدث أحياناً أن يُعين شخص في وظيفة كان والده يشغلها سابقاً.

وأما في أسفل السلم الاجتماعي فإن التمييز ما بين الرجل الحر والعبد تلاشى، وذلك بسبب اختزال جميع مجتمعات الفلاحين والحفاظ بالمعبودية بمد أن خسر الفلاحون حقوقهم القديمة بالنسبة للأراضي.

الأساس الزراعي للحياة الآشورية

كانت آشور أصلاً بلداً مولفاً من قرى زراعية، وبلدات ريفية، مع وجود عدد قليل من المدن الرئيسية وهي: آشور، ونيوى، وأربيل، وريما أرانجا، وهؤلاء فقط اعتبروا المدن الحقيقية.

وأما المدينة الخامسة وهي: كالنج فعلى الرغم من الثروة التي وصلتها والمنفكسة في الأطلال الضخمة في نمرود، إلا أنها لم تكن ذات أهمية قومية سوى خلال قرنين من الزمن في الألف الثالث قبل الميلاد.

وكان هناك بين المدن المهمة التي كانت كثيراً ما تذكر والتي كانت ذات أهمية محلية هي: كاليزي وكوريمل (لم نجد موقعها بعد) وشيبانينا.

وهناك عدد لما يمكن أن ندعوها بلدات ريفية نجدها في هذه الأيام بشكل رسكيات وروابي كبيرة، وبعضها تحدد موقعه، وبعضها لم يتحدد.

ولكن ليس هناك ما يشبه خليط المدن التي تواجدت اعتباراً من زمن السومريين فصاعداً في بابل جنوباً، وبمعاداة نهر الفرات وديالا، وكانت الفروقى مرتبطة بالمناخ.

أما في بابل فقد كانت الأعمال الزراعية مستحيلة دون وجود الري، وهذا مع وجود مجاري المياه ومصادرها الضخمة يقتضي وجود تجمعات كبيرة من الناس داخل بنية اجتماعية موحدة، لكن هذا العامل كان أقل أهمية بالنسبة لآشور، حيث تتوفر الزراعة المدعومة بماء المطر في كل مكان تقريباً.

وهذا لا يعني أن الري لم يكن موجوداً في آشور بل لقد كان فعالاً موجوداً ولا يزال، ولكن كان مساعداً مفيداً أكثر منه ضرورة لا يستغنى عنها للزراعة هناك.

سوف نبحث في موضوع الحياة والبلدات والمدن في مكان آخر من هذا الكتاب.

أما في الوقت الحاضر فسوف نعالج قضية الأرض، وإن مسألة امتلاك الأرض في آشور هي قضية معقدة ولا تزال عصية على الفهم، لاسيما وأنه في حالة وجود مفهوم لا بأس به حول الوضع، لكن ليس من الممكن عمل أي استنتاجات تصلح لكل المناطق وكل الأزمنة، إذ إن المصدر الرئيسي لاستنتاجاتنا هو كتاب القوانين الذي يعود إلى أواخر الألف الثاني، وهذا يعالج بالإضافة إلى قضايا أخرى مسألة امتلاك الأرض.

وقد عرف من عدة وثائق ذات علاقة بمسألة بيع الأراضي، ويبدو أنه أصلاً وفي بلاد آشور وقبل أن تتطور الدولة لتصبح كينونة قومية كانت الأرض ملكاً لعائلات كبيرة، إذ إنه لا يزال هناك آثار لهذا النظام في الفترة الآشورية الوسطى، مع أنه وفي ذلك الوقت كانت العائلات الكبيرة قد تجمعت بعضها مع بعض لتصبح مجتمعاً قروياً أوسع، ولكن هذا التطور قد حدد حرية العمل لأية عائلة كبيرة إلى حد ما، فلقد قسمت أراضٍ كثيرة كانت يسيطر عليها المجتمع الفردي إلى أقسام تدعى: (الحصص) وهناك ما يدل على أن تلك الحصص قد أعيد توزيعها دورياً فيما بين العائلات الكبيرة وأصبح لبعض الأفراد حقوق مكتسبة عن طريق الشراء...

ولكن كيف استطاع بعض الأفراد من الخارج اكتساب مثل هذه الحقوق؟ إنها قضية معقدة، إذ نحن نعلم أنه بالنسبة لمنطقة كركوك في آشور وحوالي عام (٤٥٠ ق.م) (هذا هو تاريخ ما يعرف بوثائق (توزي)) لم تكن الأراضي ممكنة التحويل قانونياً من ملكية شخص إلى آخر خارج نطاق العائلة، ومع ذلك فقد كان هناك وسائل للالتفاف حول هذا الموضوع، وهذه المشكلة في القانون ذي العلاقة بالمعرف والعادات وليس بالقانون.

ومع أن نقل ملكية الأرض كان ممكناً ضمن إطار العائلة، إلا أن البيع لشخص آخر خارج نطاق العائلة من الممكن ترتيبه عن طريق تخيل تبني البائع للمشتري وإعطاء هذا الأخير قطعة من الأرض بشكل حصّة مورثة أي: عن طريق الإرث، وعلى كل حال فإن لدينا هنا بعض الأعمال التي لم تكن آشورية في

الأصل، نظراً لأن العامل العرقي الثقافي السائد حول مركزكوك نحو عام (١٤٥٠ ق.م) كان ذا أصل حوري يرجع إلى المهاجرين الذين تعود هجرتهم إلى قرنين أو ثلاثة قرون سابقة.

وأما في آشور وفي منتصف الفترة الآشورية الوسطى فكان من الممكن للأفراد شراء بعض الحقوق في الأرض دون القيام بعمل أي حيلة أو ذريعة، وإن عملية بيع أراضي الأبحار هذه قد امتدت إلى الفترة الآشورية الجديدة في الألف الأول ق.م. ومن المحتمل ونظراً لأن معظم عمليات نقل الأرض حدثت في الأزمنة القديمة، فإن مالك الأرض عن طريق الوراثة لم يكن لديه أي نية لبيع هذه الأرض، ولكن حقوق الملكية هذه كان من الممكن رهنها كضمان للديون، والأغلب أن مثل هذه الإجراءات سوف تكون مقدّمة لفقدان المالك الأصلي لحقوقه.

هذا ومن الممكن وجود الحاجة إلى إجراء قرض وذلك للتغلب على الصعوبات المادية للعائلة ابتداء من وقت البذار حتى وقت الحصاد، وإذا حدث حصاد سيئ في الموسم فإن ذلك سوف يجعل المدين غير قادر على الدفع، مما يؤدي إلى جبهه.

وهكذا فقد كان يحدث في الفترة الآشورية الوسطى أن يكون مقروض الأموال الذين كانوا قد حصلوا على الثروة عن طريق التجارة هم المشترون البارزون لحقوق الملكية، وكان يوسع الشخص الذي اشترى الأرض من حيث المبدأ أن يختار قطعة الأرض شريطة ألا يؤدي ذلك إلى المساس بحقوق المجتمع ككل، أو حقوق العائلات الكبيرة.

وفي الأصل كان شراء قطعة من الأرض ينتج عنه أن يصبح المشتري عضواً في المجتمع القروي، وإن لا يلتزم بالامتيازات التابعة لحق الملكية فحسب، بل أيضاً أن يلتزم بواجبات المجتمع التي توجبها مثل هذه الحقوق، وفي مثل هذه الحالة فإن الأرض سوف لا تضيع بالنسبة للمجتمع بل بالعكس تبقى الأرض جزءاً من أرض المجتمع.

وهكذا فإن المجتمع قد يربح عضواً جديداً، ولكن وبالتدريج يعمد بعض الأشخاص الأغنياء مادياً وبعض العائلات التي نجحت في بناء ضيع متكاملة بعد

بيع قطع الأرض التي كانت أراضي للمجتمع وهذه الضيع لم تكن خاضعة لإعادة التوزيع.

وفي النتيجة أصبح الفرد أو العائلة الصغيرة لا يتمتع الآن بحقوق ملكية الأرض بل أصبح بالفعل المالك الحقيقي لها.

ولكن ماذا حدث لتلك العائلات التي خسرت حقوق ملكيتها للأرض بسبب الديون أو حبس الرهن، وما دامت الحقوق في المجتمع مرتبطة بحق ملكية الأرض فإن هؤلاء الناس يفقدون مكانتهم وأوضاعهم، فقد كان المدين لا يقوم برهن أرضه وبيته فحسب بل أيضاً أولاده وبناته وفاء للرهن، وإن عجز عن الدفع فلا يخسر أملاكه فحسب بل إن أفراد عائلته الذين كفلوه يصبحون عبيداً، من الممكن بينهم.

وكان هناك إمكانيات أخرى فإن عضوية الفرد في المجتمع لم تجلب له الحق بأراضي المجتمع فحسب، بل تجلب له بعض الالتزامات لخدمة المجتمع، مثلاً رصف وفتح الطرق وأعمال الري أو الخدمة العسكرية، ولكن أصبحت الحقوق والواجبات الآن منفصلة بعضها عن بعض فالحقوق والامتيازات قد استولى عليها الأغنياء، في حين فرضت الواجبات على الفقراء، وحالما زادت الفروق بين معاملة مالكي الأراضي والفقراء الذين يملكون أرضاً أصبح مالكو الأراضي يعاملون الفقراء معاملة لا تشبه معاملة العبيد تماماً، بل كعنايين ملتزمين بتأدية بعض الخدمات للمجتمع التي كانت أصلاً مسؤولية أصحاب الأرض، وقد استطاع هؤلاء التابيون أن يستمروا في الأرض التي كانوا هم بأنفسهم أو أجدادهم يملكون الحق فيها.

وفي منتصف الفترة الآشورية الوسطى كان مقرضو الأموال هم ذوي العلاقة بالنسبة لشراء الأراضي التي كان يملكها الفلاحون، وفي أثناء الفترة الآشورية المتوسطة كان من أشهر الناس في هذا المجال هم الموظفون في الإدارة الملكية، ومع أنه في هذا الوقت كانت معظم الأراضي قد ضاعت من ملكيتها من الفلاحين الأصليين، إلا أن العملية لم تكتمل بعد، ففي أوائل القرن الثامن كان

لا يزال هناك بعض الأراضي التي لا يزال عليها أصحاب الأراضي الصغار نظراً لأن هذه الأراضي قد بيعت إلى موظفين كبار كانوا يبنون بعض الضيع.

ولقد حصلت انتقادات على مثل هذه الأوضاع في يهوذا، وقد قاد هذه الانتقادات النبي أشعيا (٨-٥) الذي قال:

((ويل لأولئك الذين يصلون بيتاً ببيت، أو يضيفون حقلاً إلى حقلاً)).

فقد قيل: إنه وفي بعض الحالات كان الموظفون العاملون في شراء الأراضي يعملون في الوقت نفسه بمصالحات رسمية في إنشاء ضيع ملكية، ولكن من الصعب إثبات هذه الأقوال..

الفلاحون الفقراء - الأثنيان والعبد

وفي القرن الثامن لم يمد المواطنون الذين اشتغلوا حقلاً في الأرض من المواطنين الأحرار بل كانوا يعدّون جزءاً من الأرض التي يشتغلون فيها، وكان من الممكن أن يباعوا مع الأرض وينقلوا مع انتقال ملكية الأرض.

وهكذا نرى أنه وفي مرسوم ملكي نموذجي يُعطى أحد الموظفين المرضي عنهم إعفاءً من الضرائب بالنسبة للبساتين والحقول والأشخاص الذين قد حصل عليهم وجعلهم أملاكاً خاصة به شأنهم شأن الأرض.

ولكن هل يجوز لنا أن نعد هؤلاء الفلاحين عبيداً؟

علينا أن نفهم معنى العبودية، وما هو الدور الذي لعبته في حياة الآشوريين، فقد وجدت العبودية ولكن العبودية كمؤسسة لم تكن ذات أهمية اقتصادية مرموقة، ومن الممكن مناقشة هذه الملاحظة، ولهذا أصبح من الواجب أن نوضح ما نعنيه بكلمة العبودية في السياق الحالي.

وتعود هذه الملاحظات للعبيد كأفراد وليس لأسرى الحرب ولا لتلك المجموعات القومية التي هُجرت بشكل جماعي، ولا لتلك المجموعات الزراعية التي كانت تطالب بالاستقلال عن مالك الأرض، فالعبد بمفرده كان شخصاً ليس له أي حقوق يملكها شخص آخر، ومن الممكن بيعه وشراؤه.

أما أسرى الحرب والمهجرون من جهة أخرى والذين من الممكن نقلهم من موطنهم الأصلي للقيام بعمل بعض الواجبات للدولة، فإنهم ظلوا أحراراً، وتظهر هذه المسألة بما لا يدعو مجالاً للشك، وتسميقات المفاوضات فيما بين الموظفين الآشوريين والشموب الواقعة تحت الحصار (كما هو الحال في بابل وآشور) وهناك كان المحاصرون يخبرون بصراحة أنه من الممكن تهجيرهم، ولكن لم يذكر أي شيء عن استعبادهم، وكان من الممكن أن يصبح أحفاد الأشخاص المهجرين مستدمجين بحيث لا يمكن تمييزهم سوى بالنسبة لأسمائهم عن السكان الآشوريين الأصليين.

وقد كان الجزء الأكبر من الأعمال الزراعية يُنجز عن طريق الرجال الأحرار وليس عن طريق العبيد، وهؤلاء كانوا آشوريين أحراراً أو من المجتمعات المهجرة من الأحرار.

أما الفلاحون الآشوريون المساكين فقد كانوا في نفس الوضع كالجماجم من الأحرار المهجرين الأجانب، مع أنه كان من الممكن بيعهم مع الأرض ولا يمكن بيعهم كأفراد بعيداً عن الأرض، وبهذا الاعتبار لم يكونوا عبيداً مع أنهم أحياناً كان اسم العبيد يطلق عليهم.

إن اسم العبيد أو كما يترجم بكلمة (أردو أو أورادو) لم يكن وصمة عار، بل كان يعني: حالة متدنية لشخص تابع لشخص آخر ذي سلطة معترف بها، وكان الموظفون الكبار عندما يكتبون إلى الملك يشيرون إلى أنفسهم بكلمة (أوردو) ولكن هنا لم يكن أكثر من مجاملات تعني خدامكم المطيع، وبالتالي لم تكن تعني حالة حقيقية من العبودية كما تفهمها، وحتى الملك كان يدعو نفسه بالمبد بالنسبة لعلاقته مع الآلهة.

ومع ذلك كانت هذه اصطلاحات خاصة ليس لها علاقة بالعبودية الحقيقية التي فيها تصبح جميع الحقوق لأحد الأشخاص ملحقاً لشخص آخر، وقد وجد أن هذا الوضع قد شهدت عليه الوثائق القانونية حيث يوصف أحد الأشخاص بصفة عبد لشخص آخر، ولكن هناك مفارقات، إذ حتى في مثل هذه الأحوال هناك

كان الأشخاص الذين يوصفون كمبيد بملكون الأراضي التي يمكن لأحاديهم أن يروثوها.

تثير العبودية شعوراً عميقاً في الأزمنة الحديثة لدرجة أنه من الصعب أن لا ننظر إليها إلا بشكل مختلف عما هي في مفهوم العالم القديم ، ولكن في منطقة الشرق الأوسط القديم كانت حقيقة حيادية من حقائق الحياة ، وهي بذلك تشبه الوظائف في الأوضاع الاقتصادية الفرية في الوقت الحاضر ، وهي التي تُملّي علينا موجبات انشغلتنا وتحدد استعمال الناس لأوقاتها طيلة حياتهم ، وهكذا وكما أن الضغط الاقتصادي يجبر الشخص المحترم في هذه الأيام على العمل في وظيفة يكرهها أو تجبره على البطالة ، وهكذا في الأزمنة القديمة كان هناك عدة عوامل تتحدد لتوصل شخصاً ما إلى حالة العبودية بسبب الديون.

وإن العبد الآشوري لا شك أنه يكره بعض النتائج التي تجلبها له حالة العبودية تماماً ، كما يكره رجل حر بعض النتائج (مثلاً الضرائب في بعض الأحوال والأشياء المتنوعة في أحوال أخرى) والتي قد جلبتها له حالته.

وليس هناك من سبب أن نقترح أن أي شخص سواء كان عبداً أو غير ذلك سوف يتحدى العبودية كمفهوم اجتماعي ، وذلك كما يتحدى معظم الناس في العالم الفري الوظائف باعتبارها أحد المفاهيم حتى ولو اعتبروا أن الوظيفة التي يمارسونها تحديداً (أو عدم وجودها) هو أمر مثير للإزعاج.

لم يكن أسرى الحرب عبيداً بمعنى الكلمة ، وقد يتحدث أحد الملوك أحياناً فيهم بقوله :

(لقد جعلتهم مثل شعب آشور).

فقد كانت أحوالهم عندما استقروا على الأرض تشبه أحوال الآشوريين الفقراء المساكين . بمعنى أنهم إذا بيعت الأرض فإنهم سوف يباعون معها ، ولكنهم لا يمكن بيعهم بصفة منفصلة عن الأرض.

ونحن نرى حالات مشابهة بالنسبة للجنود وذي الأصول الأجنبية.

ويذكر الملوك الآشوريون أحياناً أنهم قد أخذوا هدايا من الشباب من الشعوب المقيمة، وضمواهم إلى القوة العسكرية ولكن لم تستعمل كلمة عبيد للدلالة على مثل هؤلاء، بل على العكس من الواضح أن مثل هذه الوحدات العسكرية داخل القوى العسكرية الآشورية لم يكونوا أقل مرتبة من مرتبة الآشوريين أنفسهم.

كان العبيد بكل معنى الكلمة أناساً قد بيعوا وهاء الدين أو كانوا من نسل هؤلاء، وبطبيعة أوضاعهم فإنهم لا يجوز لهم تملك الأرض مع أنه يبدو أنه كان من الممكن أن يحوّزوا هذه الأرض بعد زمن نظراً لأنه - وكما لاحظنا - لدينا نصوص تذكر أملاك أولئك الأشخاص الذين وصفتوا في الوثائق الرسمية أنهم عبيد، وهو ذلك فليس هؤلاء الأشخاص أي حق بالحماية ضد المعاملة السيئة أو ضد البيع كعبيد في الخارج، فقد كان كتاب القانون في الفترة الآشورية الوسطى يوضح ذلك بإسهاب.

إذاً كان هناك أي رجل آشوري أو امرأة آشورية ممن يعيشون في بيت شخص آخر رهن لدين فإن كان هؤلاء قد استعوزوا تمويضاً عن كامل هذا الدين، فإن باستطاعة الدائن أن يضربهم ويقتل شعورهم ويشد أذانهم ويثقبها.

ويقول أيضاً: (إن الرجل الآشوري (أو المرأة الآشورية)) الذي لم يستلم ممداد القيمة الكاملة للدين الذي بذمته يمكن أن يُباع ويدخل إلى بلد أجنبي).

وهكذا نهي نهاية السلم الطبقي الأعلى هناك مواطنون حائزون على حقوق كاملة.

وفي النهاية الأخرى لهذا السلم هناك طبقات محرومة وهم عبيد بكل معنى الكلمة، من المحرومين من الحقوق، والمحرومين من امتلاك الأملاك والأراضي، ومن الممكن بهم عند رغبة سيدهم.

وبين هاتين الطبقتين المتطرفتين كان هناك أناس حافظون لسلطة الأسيد مع احتفاظهم ببعض الحقوق.

وهذه المجموعة المتوسطة تشمل الفلاحين الفقراء من أبناء الوطن أيضاً
الفلاحين الذين استوطنوا في بعض الأراضي في آشور وكانت أحوالهم مشابهة
لوضع المبيد بكونهم لا يستطيعون ترك العقار الذي استوطنوا فيه.

ومن جهة أخرى كان لهم بعض الحقوق الباقية نظراً لأنه لم يكن ممكناً
تجزئة المجتمعات والعائلات طبقاً لمزاج صاحب الأرض وهم يستطيعون الاحتفاظ
وتوريث أملاكهم بشكل منتظم.

لقد كان عدد الآشوريين الذين كانوا يباعون كعاقبات يباعون مع بيع الأرض
قليلاً جداً، وفي إحدى الحالات ما يبلغ معدله أقل من واحد لكل عشرة فدادين،
ويقدر أنه -وفي هذه الأيام وفي العراق- يستطيع شخص واحد أن يقوم بزراعة حوالي
سبعة أو ثمانية فدادين أو أكثر عن طريق الزراعة الشاملة الانتشار وأن تكون
تلك المساحة خاصة به، وهي طريقة تعتمد استغلال مساحات واسعة من الأرض
بأقل جهد ممكن، أكثر منها عن طريق الزراعة التكتيفية التي تهدف إلى زيادة
إنتاجية الأرض عن طريق زيادة رأس المال والهد الماملة المخصصين لها، وتكون
الطريقة الأولى بدون مشكلة أي: استعمال الآليات (انظر كتاب الأراضي فيما وراء
بغداد (عام ١٩٤٥)).

وهكذا ليس هناك من حاجة أن نقترح وجود قوة زراعية عاملة غير
الأشخاص المذكورين ضمن مبيعات الأراضي بأنهم ملتصقون بالأراضي المباعة.
ونحن على تمام العلم أن بعض أصحاب العقارات كانوا يمتلكون عدداً لا
بأس به من المبيد، ولكن معظم هؤلاء من المحتمل أن يكونوا قد خدموا في
الأشغال المنزلية.

ومن الممكن أن تكون هناك قوة عمل زراعية متوفرة في بعض المقارات،
ويكون هؤلاء بشكل أسرى الحرب الذين استولي عليهم بأعداد كبيرة وورعوا
في الأراضي الملكية وأراضي المأبد والحرف الكبيرة وعند الموظفين الملكيين.
ولقد ذكرنا سابقاً شيئاً عن الموظفين الذين كانوا يبتون لأنفسهم خيماً إذا
كان يحق للموظفين الملكيين امتلاك بعض الأراضي عن طريق الوراثة أو الشراء.

وكان هؤلاء يستطيعون استلام منح من الأراضي من الملك، وهذه ساعدت في حياتهم دخلياً اعترافاً بما أدوه من خدمات.

وفي حالة أي موظف كبير المنزلة فإن الأراضي التي يهبها الملك له من الممكن أن تبلغ عدة آلاف من الفدادين؛ ومن الممكن أن يمتلكوا أراضي كبيرة بصفة شخصية.

إذ نحن نعرف أن بعض الموظفين المالكين الكبار، ولبسوا من أعلى مرتبة، وكان الواحد منهم يمتلك ما قيمته ألف فدان.

العائلات الفلاحية

لقد خالفنا الحظ إذ نملك بعض الشواهد المفصلة حول تركيب العائلات الآشورية الفلاحية المسجوبة ببعض الوثائق العائدة إلى الألف الأول، وتدعى (ولكن ليس هذا بشكل دقيق ومضبوط) قائمة الإحصاء الآشوري، وتعطينا هذه الوثائق بعض التفاصيل عن المزارعين المرتبطين ببعض الضيع في مقاطعة حران، وهي تسمى الأشخاص ذوي العلاقة مع نيذة عن عائلاتهم وهنا نورد نموذجاً عن هذه الوثيقة:

آدار-دوري، فلاح

نشوح ديليني ابنه في سن المراهقة

امرأة واحدة- مجموع العائلة ثلاثة

ثلاثون وحدة من الأرض 10 منها محروثة

حد سمقية واحدة

بقرة واحدة

وهذا مجمل العقار الزراعي بلريزوا

في المقاطعة الإدارية حران.

وإن الفرض العقيق من هذه الوثائق يبقى مفتوحاً للمناقشة.

ولكن في حالة واحدة كانت هذه الوثائق عبارة عن نوع من التسجيلات التي كان من المحتمل استعمالها في وسائل جمع الضرائب.

أما بالنسبة لأغراضنا الخاصة فإن اهتمامنا كان بالتفاصيل التي تعطينا فكرة عن بُنية السكان، وهذه تظهر أن القروي الآشوري كان يتزوج امرأة واحدة (ولكن ليس بدون استثناءات) وتعطينا الإحصاءات ممداً وسطيّاً لوجود ٤، ١، ٢ من الأطفال لكل عائلة.

وحكما هو الحال فإن هذا يعني أن العائلات كانت صغيرة جداً لا تكفي للحفاظ على عدد السكان.

وعلى كل حال فإن المعدل الوسطي الحقيقي للأطفال ربما كان أكبر من المتوقع.

وهناك بعض الحالات تترك فيه البنت المتزوجة بيتها لتميش مع زوجها.

وهناك بعض الأبناء المتزوجين الذين تركوا بيوتهم ليصبحوا بيوتاً جديدة خاصة بهم، هناك بعض الأبناء البالغين الذين تركوا بيوتهم للعاق بالخدمة العسكرية أو خدمات في الدولة.

وبعض الأبناء الذين يبقون في بيوتهم يدعون بالأبناء المراهقين والبناات باللواتي وصلن إلى سن الزواج.

ومع أن هذا لا يتطلب من الأشخاص ذوي العلاقة أن لا يكونوا في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة إنه من المعقول أن نفترض أن السن الوسطي الذي كانت البنات يتزوجن به أو السن الذي يترك به الشباب بيوتهم كان حوالي السادسة عشرة.

ويمكننا الافتراض أيضاً أن المرأة الآشورية كانت قابلة لإنجاب الأطفال حتى عمر يزيد عن اثنتين وأربعين عاماً (أي: من سن ستة عشر حتى الأربعين) فإذا كان إنجاب الأطفال يتم بشكل منتظم خلال تلك الفترة فإنه في الوقت الذي تبلغ به

الأربعين من العمر فإن نكث أولادها سوف يصيحبون في السادسة عشرة أو فوق ذلك مع إمكان أن يكونوا قد غادروا منازلهم، فإذا طال بها العمر حتى أصبحت في السادسة والخمسين من العمر فإن معظم أولادها سيكونون قد تركوا المنزل.

هذا وإن المعدل الوسطي (٤، ٣، ١) طفل لكل عائلة كما هو مذكور أعلاه ليس من الضروري أن يمثل أكثر من نصف المعدل الوسطي للأطفال الباقيين على قيد الحياة، وهكذا فإن الأطفال الأحياء سوف يكون عددهم من طفلين إلى ثلاثة أطفال في كل عائلة، وهذا يكفي للحفاظ على عدد مناسب للسكان.

ولادة الأطفال وولياهم

علينا أن نتذكر أن الأطفال الذين ظلوا على قيد الحياة وحتى سن المراهقة ربما كانوا يؤلفون نسبة صغيرة من المواليد، فقد كانت وفيات الأطفال سوطاً مسلطاً على أهالي أرض ما بين النهرين القديمة، وذلك من معرفتنا من النصوص السحرية التي يقصد منها الحماية ضد الشياطين الذين كانوا يهاجمون بني البشر بشراسة وهم على عتبة الحياة.

وتذكر النصوص عن طفل صغير مات قبل الأوان أو عن ابنة أنو (وهي شيطانة مؤنثة) التي كانت تمضب الأطفال، أو عن اعتقاد يسبب حدوث القشعريرة لدى السامع وهو أن ابنة أنو تظل سائرة خلف النساء اللواتي هن على وشك الولادة. وقد كانت العائلة المالكة فضلاً عن عامة الشعب تشمر بتلك الأيدي الباردة للموت التي ترحف على الأطفال وتسبب موتهم، وأن اسم أحد ملوك آشور المروفيين وهو سنحاريب (أوسن-هي-أبدنيا) يعني: إن الإله من قد عوض عن الأخوة. وهذا الكلام يشهد أن بعض الأمراء الصغار قد ماتوا وذهبوا إلى القبر. وكانت العناية بالمرأة قبل الولادة قضية يتدخل فيها السحر، بما فيه الحجب والعقوس والتعاويذ.

ونجد مثلاً ذكر بعض الحجارة التي تلبس حول الخصر لامرأة لا تلد بسهولة. ولدينا أيضاً نص يعالج المرأة التي تمرض أثناء الحمل:

أولاً: كان يتم خلط عدد من العقاقير من مصدر نباتي فوق نار، وبمدها تمزج هذه بالزيت والبيرة، وكانت تتقع بعض الأنسجة الصوفية وتوضع في فرج المرأة لتسد عنق الرحم، وكان من الواجب عمل هذا مرتين يومياً، وقد ذكر عن عملية الدهن بالزيت والتضميد بشكل إجراءات مكتملة.

وفي حالة عدم فائدة هذا العلاج كانت خدمات المعبرة تستدعى، حيث تزور المرأة دار الموتى.

ويقدم النص تعاويذ لمساعدة المرأة سيئة الحظ، وبعض هذه التعاويذ كما يلي:

"المرأة التي ولادتها صعبة، واقعة في كرب عظيم، فالطفل قد علق وهي التي خلقت هذا الطفل يحيط بها غبار الموت، فقد خَبِتَ عنها فهي لا تستطيع الرؤية، وشفتاها مطبقتان ولا تستطيع فتح شفتيها، وهي لا تضع أي حجاب، وهي لا تحجل."

لوهنا تتكلم المرأة:

((قف بجانبني يا مردوخ الرحيم، والآن هل أنا معاناة بالكرب العظيم، تقدم إلي، وأنزل ذلك المخلوق المستعصي، خليفة الآلهة، يأتي كمخلوق بشري، دعه ينزل، دعه يرى النور)).

وبعد ذلك تأتي تلاوة أقوال حول: ((خادمة الإله القمر، وهي زوجة الإله القمر تتمثل بشكل بقرة، ولادتها صعبة وعسيرة وظلت في كرب عظيم حتى نزلت من السماء ابنتا الإله (أنو) ليدهنوها بالزيت وماء آلام الولادة)).
وتنتهي التعميدة بالشكل التالي:

((وكما تيسرت ولادة خادمة الإله القمر، لذلك فلتيسر ولادة كل السيدات اللواتي هن على وشك الوضع)).

ولقد استعملت بعض العقاقير للمساعدة على الولادة، مثلاً لحاء بعض الأشجار التي كان على المرأة أن تلعقه.

وكانت المرأة تدلّك المنطقة فوق المدة بمرهم مؤلف من عدة مواد، أو التدليك بواسطة وتد متحرك مصنوع من خشب سعري فيمرّر فوق جسمها.

وكانت القابلات يَحْضُرْنَ الولادة، وكانت تلك القابلات تقدمن بعض الموانع العملية والمشورات الصّاعدة عن حكمة وتجربة، من خلال الحدود التي ترضها طبيعة الشّعب السعري.

وكان الموت أثناء الولادة من الأخطار الحاضرة المتوقعة دوماً، وهناك إشارات كثيرة لهذا الأمر، وكان الخطر الذي تُشَكِّكُهُ (لاماتشو الرهيبة) تسمية أخرى لابنة (آمو) على الأم جالساً بالنسبة للأم والطفل في عبارة يذكر فيها وهي: ((إنها تلامس أحشاء المرأة التي سوف تلد)).

وهناك اسم آخر يطلق على (لاماتشو) وهو: ((الواحدة التي تشمل النيران)).
وتلك إشارة إلى رفع حرارة المرأة الذي يحدث في حالات مميتة حقيقية بسبب حمى النفاس.

وحتى عندما يصل الطفل سالماً إلى هذا العالم ربما يظل هذا الطفل معرضاً للخطر إذا فشلت الأم في إرضاعه.

وكان الأغنياء من الرجال يعرضون عن ذلك بالالتجاء إلى مرضعة، ولكن بالنسبة للطفل من عائلة فقيرة فليس هناك إلا الموت.

وهناك نص يتكلم بدون رحمة عن جفاف حليب الأم مما يسبب وفاة الطفل.
وقبل وجود النفايات النووية المسؤولة عن الولادات المشوهة كان الأطفال يولدون وفيهم شذوذاً مختلفة، ونحن نعلم هذا بصورة خاصة نظراً لأن مثل هذه الولادات كانت تعتبر نذير شوم، وكانت تدوّن حالاً.

ونجد مثلاً ذكر طفل ولد بقدم واحدة أو توائم سيامية وحالات الخُثّ وفي حالات ولادية طبيعية ولكنها استثنائية نجد ولادة أربعة توائم.

ويوضع الطفل الحديث الولادة في سلة تستخدم كمهد وحالما ينمو تتركبي أمه أو الممرضة مقلعاً خاصاً بالطفل لتحمله حولها، ويمكن أن نخيف أنه وبالنسبة

لأشور كما هو الحال في الشرق الأدنى قديماً وحديثاً وكانت ولادة الولد الذكر علامة خير وبركة ، وكانت عادة نبذ المولود وتركه ليموت هي المادة التي ذكرناها سابقاً وكانت هذه النعمة من نصيب الإناث أكثر من الذكور.

الزواج

كان الرجل الآشوري يتزوج امرأة واحدة فقط، مع أن هذا كان يحدث لفترات مختلفة وبالنسبة لفئات اجتماعية مختلفة.

وفوق ذلك بقدر اهتماماتنا بالموضوع ولاسيما الرجال لم يكن زواج الواحدة يعني رقابة العلاقة الجنسية إذ إن هذا له علاقة بالوضع القانوني أكثر منه التحديد الجنسي.

ولم يكن هناك ما يمنع الرجل من الاقتران بزوجة ثانية أو خلية بالإضافة إلى السيدة التي اختارها كزوجة شرعية سوى حالته الصحية ومقدرته الجنسية.

ولكن كان هناك استثناءات حتى في هذه المسألة وذلك لأنها وابتداء من الفترة الآشورية القديمة (التي تبدأ من الألف الثاني) مقابل عقود الزواج فيها الرجل من الاقتران بزوجة ثانية مع أن له الحق باستخدام الماهرات.

وفي بعض الأحيان كان عقد الزواج يقضي أنه في حالة عدم إنجاب الأم لأي طفل عندها يمكن للزوج أن يقترن بأمة بقصد ذلك الفرض ويعتبر الأطفال في هذه الحالة أبناء الزوجة.

كانت العائلة أبوية بالنسبة لكل المظاهر القانونية والاجتماعية، وكانت حالات النسب والوراثة مختصة بالأب، وكان الابن الذكر في العائلة هو صاحب السلطة، وكان مدى السلطة الأبوية واسماً لدرجة أن الزوج يستطيع في بعض الظروف إعدام زوجته بينما يستطيع أبو الزوج (العمو) الزواج من كنفته الأرملة، وكان هذا طبقاً للمبدأ الذي يقول: إن المرأة تظل تحت سلطة الذكر رئيس العائلة.

وبالنسبة للزواج فهي تخضع لسلطة حماتها (أي: والد زوجها) بدلاً من سلطة والدها.

كان للزواج بصفته عملاً شرعياً بعض المتطلبات، فبالنسبة للزواج العادي الطبيعي ينبغي كتابة وثائق خاصة، إما عند رفع الخيلة إلى مرتبة الزوجة وإما أنه يتطلب منها أن تلبس الحجاب رسمياً، ولا يمكن الاعتراف بالزواج من أرملة إلا بعد انقضاء سنتين على مهشمتها معاً.

إن العلاقة ما بين الزوج وزوجته كانت مختلفة كما هو الحال في العالم الحاضر.

ففي إحدى الحالات نسمع عن الحب والعشق لا من الشبيخوخة، ومن جهة أخرى نسمع عن الخصام بين الزوج وزوجته الذي يؤدي في حالة تفاقمه إلى خروج الزوجة من المنزل.

وكما ذكرنا سابقاً، يمكن للرجل أن يرفع مقام خليلته إلى مقام الزوجة. وتذكر هواتين الفترة الآشورية الوسطى كيف كان يجري ذلك بالتفصيل. فإذا لبس الرجل الحجاب لخليلته فإنه يكلف خمسة أو ستة من جيرانه بالقدوم ولبسها الحجاب أمامهم، ويعلن أن هذه زوجتي وتصبح عند ذلك زوجته. إن الإشارة إلى الحجاب يظهر في ميثاق القانون الذي سبق هذا القانون الذي يحدد بالتفصيل أي النساء ينبغي أن يتحجبن والتي لا يجب أن يعلن ذلك.

كان الحجاب من أشرف الأوضاع، فمن جهة ينبغي أن تلبسه المرأة المتزوجة علناً أمام الجمهور، بينما كانت الماهرات ممنوعات تماماً من الحجاب، فإذا اكتشفت أن إحدى الماهرات كانت تسير وهي محتجبة فإنها تمرض لمقويات شديدة بما فيه خمسين جلدة بالعصا وصب القطران على رأسها.

كان الشكل الرسمي للزواج هو أن تترك المرأة المائلة التي ولدت ضمنها وتدخل بيت الزوج.

ومع ذلك يظن بعض الباحثين أنه وفي أثناء الفترة الآشورية الوسطى كان هناك إمكانيات أخرى نظراً لأن القوانين الآشورية تقدم شروطاً لبقاء الزوجة في بيت أبيها.

فالقانون السائد ينص أنه إن كانت المرأة تعيش في بيت والدها مع تردد الزوج لزيارتها من حين لآخر.

وبعدها يتم ذكر التشريع بالنسبة للعقوق في الأملاك التي وهبها الرجل لزوجته.

ومن الواضح وطبقاً لقوانين أخرى أنه إذا بقيت الزوجة في بيت والدها فإن ذلك يكون بشكلى مؤقت، وأن السلطة النهائية على المرأة نفسها وعلى الأموال والأموال التي أتت معها تكون بالتعديد في العائلة التي تزوجت منها وليس في عائلة أبيها.

لقد ظن بعض الناس أن الوضع هنا حين تبقى الزوجة في منزل والدها إنما هو حالة زواج البنات الصغار القاصرات، وقد كان هذا موجوداً بلا شك نظراً لأن القوانين الآشورية قد نصت على زواج الصبيان اعتباراً من سن العاشرة.

ويمكن للإنسان الاغتراض أنه وبالنسبة لزواج القاصرات كانت الزوجة القاصرة تستمر بالعيش مع والدها حتى تصبح في سن تكتمل فيه قدرتها على تحمل الوضع الزوجي، وعندها تنهب إلى بيت زوجها.

ولكن حتى ولو حدث هذا أحياناً فلم يلدنا ما يشير أن الزواج من القاصرات كان الحالة الوحيدة التي تطرق إليها القانون.

وإن أبسط تفسير هو: إن القانون كان مؤسساً على التمييز ما بين مرحلتين مختلفتين في عملية الزواج.

ففي آشور كما هو الحال في المجتمعات الأخرى كانت الرسميات القانونية للزواج (وهو عمل عقد الزواج) يمكن أن تفصل خلال فترة زمنية عن فترة المقارنة القانونية.

إذ إن القانون الذي يميز للزوج زيارة زوجته في منزل والدها إنما يشير إلى وضع يجعل المرأة تتأخر في العودة إلى منزل زوجها مع أن عقد الزواج قد تم في منزل والدها، وهكذا فإن زواج القاصر ربما دلّ على حالة منفردة خاصة. ولا شبه في هذا الوضع يمنع الزوجة في أي وقت مكان العودة إلى منزل زوجها بطريقة عادية.

كان هناك عدة هدايا ومدفوعات مختلفة متصلة بالزواج، ففي وقت الزواج كان الزوج يقدم المجوهرات للعروس، مع أن هذه الهدايا لا تصبح في ملكيتها الخاصة وإنما تبقى ملكاً لزوجها، وفي حالة وفاته فإنها تنتقل للورثة، وإذا لم يكن له ورثة فإن الزوجة تحتفظ بها.

وما دام هناك أولاد فإن الزوجة لا تعتبر وريثة للزوج، ومن الممكن أن يخصص شيئاً من أملاكه لتنفقها الزوجة في حالة وفاة الزوج وصيرورتها أرملة، مع أن هذه الأملاك جزء من أملاكه مادام على قيد الحياة.

ويُقدّم مبلغ آخر لوالد العروس ولكنه ينهي إرجاع هذا المبلغ في حالة وفاة الزوجة دون مولود ذكر.

وينبج بعض الحقوقيين والمختصين بالعلوم الإنمائية على اعتبار هذا المبلغ مهراً، ولكن بالحقيقة أنه ليس كذلك، ومن الممكن أن تجلب الزوجة بعض المتاحكات مساهمة في عملية الزواج كنوع من المهر.

ونحن نجد أحد عقود الزواج في القرن السابع يحدّد المهر الذي خصصته إحدى الموظفات الكبيرات في القصر لابنتها.

فقد كان هذا المهر يشتمل على مجوهرات وملابس وأسرة وكراسي وعدة أوانٍ ومقاليات وأدوات منزلية، ولقد بقي هذا المهر ملكاً للزوجة، وبعد ذلك تحول إلى الأطفال وليس لورثة الزوج الذين من الممكن أن يحكموا إخوته.

ولكن مع أن الملكية بقيت مغولة للزوجة إلا أنه يبدو أنه لم يكن لها الحق بالتصرف به مادام زوجها على قيد الحياة.

من الواضح أن العائلة الآشورية كانت ذكورية في توجيهها ، فلقد كانت النساء تحت سلطة الرجال ، وطبقاً لقوانين المهد الآشوري المتوسط فقد كان للزوج الحق في إيقاع العقوبات البدنية على زوجته حتى التشويه الجسماني.

ولكن وصف مثل هذه الأعمال البربرية في القوانين إنما لا يتمثل معياراً دارجاً بل يشير إلى الحدود التي لا ينبغي للزوج تجاوزها ، فقد كان على الأقل ممنوعاً من قتل زوجته ما عدا في حالة الزنا الثابت ، وهناك حق من حقوق الزوج على زوجته وهو أنه يستطيع بيع الزوجة مع أنه هنا لم يكن شائعاً ، إذ ليس لدينا إلا وثيقة واحدة تذكر مثل هذا الموضوع.

يبدو أنه كان هناك بعض المراسيم التقليدية التي كانت تحدث ما بين زمن عقد الزواج وبين ليلة الزفاف.

وهناك قانونان يشيران إلى حسب الزوج الزيت على رأس عروسه ، ومع عدم وجود تفاصيل حول هذا الموضوع فإن هذه المادة إنما تنتمي إلى ممارسات المسح بالزيت التي كانت كثيرة الشيوع في الشرق الأدنى القديم ، ولطالما ذكرت في التوراة.

ولما كان القانونان المذكوران يتطرقان لذكر جلب الصريس أملاً من الطعام للوليمة ، فمن الواضح أنه كان هناك حفلة لعرس الزواج.

كانت القوانين الخاصة بالجنس صارمة بالنسبة للزوجات ، إذا يستطيع الرجل المتزوج أن يزل عقوبة الموت بزوجه الزانية ما لم تنجح في إقناع زوجها أنها اغتصبت.

وكان للأرامل حرية أوسع ، وقد صور لنا أحد القوانين إحدى الأرامل التي تعيش مع رجل دون وجود عقد زواج ، وإذا استمر هذا الوضع مدة سنتين فإن الأرملة تصبح زوجة رسمية يحميها القانون على الرغم من عدم وجود عقد زواج.

ويمكن للرجل أن يطلق زوجته ، وفي بعض الأماكن وبعض الأوقات كان الطلاق يتم بأن يمزق الزوج حاشية ثوب المرأة أمام شهود رسميين.

وإن بابل ينكرون وجوب دفع أموال لقاء الطلاق، ولكن في آشور لم يكن يطلب من الرجل أن يقدم لزوجته السابقة أي تعويض مع أنها تحتفظ بالهدايا التي قدمها الزوج في زمن الزواج، وليس للزوجة أي حق بطلب الطلاق بناء على رغبتها، والحقيقة أنه وفي بعض الأماكن وبعض الأزمنة في منطقة ما بين النهرين إذا حدث وتجرات على التعبير عن مثل هذه الرغبة فإنها تلزم على الخروج من بيت زوجها عارية ومفلسة.

لكن لم تكن المسائل دوماً وفي كل مكان إلى هذا الحد ضد الزوجة. وفي منطقة نوزي في آشور (وهي قرب كركوك) وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد نجد امرأة قد تم تبنيها ككاهنة ثم تزوجها إلى أحد المبيد وكانت تقول: خالصوني من منوبيا (وهو زوجها) وقد منوني لأرتيا كزوجة.

وعلى العموم وفي آشور إذا حدث وأن غادر الزوج المنزل دون إعطاء الزوجة أي نفقة ودون وجود أولاد يملونها فإنه وبعد خمس سنوات يجوز لها أن تتزوج زوجاً آخر.

وفي الحالات العادية لا يستطيع الزوج الأول المطالبة بالزوجة إذا حدث وعاد. ولقد كان هنالك بعض الاستثناءات، وإذا لو كان غياب الزوج على الرغم من إرادته مثلاً وقوعه في الأسر، عندها يستطيع استعادة زوجته حتى بعد مضي خمس سنوات على غيابه شريطة أن يقدم للزوج الثاني زوجة بدلاً عن زوجته. ولكن إذا كان سبب غيابه خدمة الملك لا يجوز للزوجة أن تتزوج رجلاً غيره حتى ولو بعد مرور خمس سنوات.

ربما يجب المرء كيف تستطيع المرأة دون وجود معيل مدة خمس سنوات أن تُدبر نفسها.

أو من الممكن أن تعود لبيت أبيها أو لبيت أحد أخوة زوجها مع أن القانون لا ينكر شيئاً عن مثل هذه الأحوال.

ولكن ما يقوله القانون واضح جداً إذا يقول:

((إذا صادف أن ذهبت المرأة وعاشت مع رجل آخر قبل انقضاء خمس سنوات على غياب زوجها وأنجبت أطفالاً فإن لزوجها الحق لدى رجوعه ونظراً لأنها لم تنتظره طبقاً لمقد الزواج بل تزوجت فإن لزوجها الأول الحق أن يستعيدهما ويأخذ الأولاد.))

وبهذا يعطي القانون انطباعاً وهو أنه: مع أن الزوجة قد تمسكت بصرفها غير مناسب فإن الوضع سوف يكون مقبولاً دون إنزال أي عقوبة عليها. وهذا اعتراف أنه وبلا بعض الظروف تضطر المرأة إما أن تتخذ زوجاً آخر أو أن تموت جوعاً.

ومن الممتع أن الأطفال الذين ولدوا من خلال المرأة غير الشرعية، ومع أنهم أولاد غير شرعيين إلا أنهم يعتبرون ملكية ذات قيمة ويمكن للزوج الأول أن يطالب بهم.

ومن الممتع أيضاً أن الآشوريين لم يقيموا أي اعتبار للمنزلة بينما زاد اليهود والإسلام والمسيحيون من اعتبارها بشكل كبير.

الحياة الجنسية

نعلم القليل عن الجانب الجنسي في الحياة في أرض ما بين النهرين القديمة مع أن جزءاً قليلاً من شواهدنا إنما هي متصلة بصورة خاصة بأشور أكثر منها بابل. يوصف الاتصال الجنسي في عدد من الأختام الأسطوانية والألواح الفخارية التي تظهر أن العملية الجنسية كانت تمارس بأوضاع مختلفة، فضلاً عن أن مواجهة الوجه للوجه يُعد الوضع الطبيعي في المجتمع الفريسي الحديث (مع أن ذلك غير معتبر في أجزاء أخرى من العالم) وهناك بعض الصور التي يظهر فيه الرجل وهو يجامع المرأة من الخلف.

ويُفسّر بعض الباحثين في تاريخ آشور أن هذه الممارسة كانت من الشرع، ويضمرونها بأنها نوع من اللواط، ولكن وعلى الأقل فإن الشخص المستلم هو امرأة، ويشبه هذا الوضع ممارسة الاتصال بالفرج من الخلف.

ومن جهة أخرى فإننا نعلم بالتأكيد أن بعض الرجال من منطقة ما بين
النهرين كانوا يمارسون الاتصال الشرجي مع المرأة من الخلف، ونحن نعلم ذلك
من مجموعة من الرقعات تشير واحدة منها إلى وضع يستمر الرجل فيه القول
لزوجته: ((اهلبي إلى الخلف)).

ولا نعلم فيما إذا كان هذا العمل ما بين الرجل والمرأة هو شكل من أشكال
منع الحمل، أم هو مجرد عمل نوع من التمييز وهذا ما علينا أن نحزرم
ولكن هناك إشارة واضحة إلى كاهنة ذات مرتبة عالية كانت تمارس
الاتصال الجنسي من الشرج وذلك نمناً للعمل.

وهناك وضع آخر مذكور يصور الرجل مستلقياً على ظهره بينما المرأة فوقه
من الأعلى، وعدا عن كون هذا تبادلاً للأبوار فإنه ربما كان تلميحاً لإحدى
النصوص التي تذكر:

إن رجلاً عمورياً كان يقول لزوجته:

((أنت ستكونين الرجل ولذلك دعيني أمتل دور المرأة)).

ومع ذلك فقد كان تبادل الأدوار مبروهاً في بابل وربما في آشور.

وفي بعض الأحيان كان بعض الناس يمارسون الجنس وهم وهم، وهناك
إشارات إلى اللعب بالجنس يشجع الرجل فيه زوجته أن تداعب قضيبه حينما تطلب
المرأة من الرجل أن يداعب فرجها.

وإن تقبيل ومداخلة الشدين مذكور في النصوص، وقد صور هذا الوضع
الأخير.

وهكذا نجد ذكراً لبعض النساء وهن يمارسن المادة السرية وهن يتبادلن
النظرات مع الرجل.

وكان كل من الرجل والمرأة على السواء يلجؤون إلى دهن أعضائهم الجنسية
بقصد تسهيل الجماع والإدخال.

وهكذا منع الحمل ساري المفعول أيضاً أحياناً ، لأننا نجد خصوصاً تشير مثلاً إلى (التناديتو) وهن جماعة من خادمت الممابد ، يحافظن بطرق بارعة على عدم دخول المواد الغوية إلى أرحامهن.

ولكن لا نعرف ما هي تلك الطرق البارعة في مثل هذه الحالة ، وفي حالات أخرى نجد بعض المعلومات الخاصة حول وجود سدادات توضع داخل الفرج لهذا الغرض ، وكانت الرقي والأعشاب تستخدم للغرض ذاته.

وعندما كانت نساء التناديتو وغيرهن من خادمت الممابد يمارسن الجنس بشكل فوضوي كانت محاولتهن لمنع الحمل تبوء بالفشل ، لأن هناك ذكر لولادة أطفال لهن فإذا ولد أطفال غير مرغوب بهم (ليس فقط بالنسبة لنساء الممابد) فإن هؤلاء الأطفال كانوا يلقون في الشارع ليموتوا أو لتأكلهم الكلاب.

ولكن كانت مثل هذه القصة تحدث ضمن النوايا الحسنة ، وقد ذكر عن شخص يختطف طفلاً من فم أحد الكلاب في الشارع.

وأما الشذوذ الجنسي واللواط بين الرجال فقد ذكر عن وجوده في منطقة ما بين النهرين ابتداءً من الألف الثالث قساعداً ، مع أن بعض اللوحات والأختام التي فسرت بأنها تصف القيام بهذا العمل إنما هي صور حالات من الاتصال الجنسي (وهو من الفرج وليس الشرج) مع امرأة من الخلف.

وهناك خصوصاً تشير إلى علاقات لواطية بما فيها اللواط بين رجل ورجل ، أو بين رجل وصبي.

وأما في بابل فيظهر أنه لم يكن هناك أي إدانة لهذا العمل.

وأما في آشور وفي الفترة الآشورية الوسطى كانت مثل هذه الأعمال وفي بعض الظروف تعامل بقسوة بالغة.

ومن الممكن أنه وفي هذا السياق كانت هناك فروق بين بابل وآشور في المواقف.

ففي آشور: كانت القوانين تنص أنه إذا وجد شخص يمارس اللواط مع شخص آخر فإنه أولاً: تمارس اللواط على هذا الشخص، ثم يتمرض هذا الشخص للإخصاء.

وليس من الواضح فيما إذا كان هذا القانون يعالج اللواط بالنسبة لجميع الحالات المكتشفة أم أن الإشارة كانت بالنسبة إلى الاغتصاب الجنسي اللواطى. وبالنظر إلى المبدأ القديم الذي يجعل العقوبة مناسبة للجُرم وأن الجاني كان يتمرض بنفسه إلى الاغتصاب الجنسي فإن الوضع الأخير كان هو السائد.

كان الخصي ظاهرة مألوفة، ولكن وجود الرجل الذي تعرض للإخصاء كمعقوبة كان قهلاً الوقوع، إذ العمل الشائع كان إخصاء المبيّان، إذ إن عمل الخصيان الفعلي هو الخدمة في البلاط الملكي.

وقد أصبح كثير من الخصيان موظفين مهمولين كبار، وقد استمر هذا الوضع في الإمبراطورية التركمية والفارسية حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

ولكن لم يكن جميع رجال البلاط الآشوري خصياناً، وكانت هذه الحالة تؤكد تسمية بعض رجال البلاط بـ (شاحزقني) بمعنى (أبو لحية) وهذا يكون غير مخصص.

وتسمية أخرى باسم: (شاحزقش) وهو المخصص.

وكان هناك في آشور شأن البلدان الأخرى قسم صغير من الذكور الذين لم تتطور وظائفهم الجنسية، وأصبحوا خصياناً طبيعيين وكان هذا سبباً لوجود شكل من الدعارة الذكورية.

ولقد اعترف أهالي منطقة ما بين النهرين أن للجنس عنصره من الدين، فقد كان هناك دعاوة دينية (ذكورية، وأنثوية، وخنثوية) مرتبطة ببعض المآيد التي كان يجري فيها بعض الممارسات الجنسية، وكانت تشمل اللواط في بابل.

وكانت الإشارة إلى النشاطات الجنسية في المعابد في آشور أقل منها في بابل، ولكن هناك شواهد كافية عن وجودها في آشور، مع أن الداعرين الذكور كانوا من الخصيان، إلا أن هذا لم يكن هو الواقع دائماً.

فقد كانت (الداعرات) من النساء موجودات في منطقة ما بين النهرين بشكل طبيعي عادي، وذلك لوجود عادة المسطق (ذُكر عنها في حالة واحدة فحسب) وهذا يتعارض مع كثير من الإشارات إلى بعض الزوجات اللواتي يُغذّن المشاق، وهذا قد كان ينتج الشر لجميع الأطراف إلا أنه كان ذا جاذبية خاصة.

إذا استطاع الزوج أن يقبض على العاشقين بالجرم المشهود فإن له الحق (بعد الاتهامات الواجبة والبراهين) أن يقتل الزوجة وعشيقتها، أو أن يقطع أنف زوجته ويخصي العاشق، وكان ينبغي معاملة كلا الطرفين معاملة متماثلة، إذ إن ترك الزوجة دون عقاب كان يعني إطلاق سراح العاشق أيضاً.

ويعتبر الزوج في خطر إذا اتخذت زوجته عاشقاً لأننا قد وجدنا إشارة إلى امرأة قد شجعت عاشقها على قتل زوجها، وذلك لكي تستطيع الزواج من حبيبها.

ويذكر الاعتداء الجنسي على الأقارب، ويذكر السفاح، مثلاً اتصال الرجل بأخته جنسياً، أو بابنة أخيه، أو ابنته، أو كئنته، أو والدته وذلك بعد وفاة والده.

وربما لم يكن من العدل أن نعزو هذه الصفة الأخيرة للأشوريين لأن شواهدنا على هذه البشاعة قد أتت من بلاد بابل وذلك من قوانين حمورابي في أوائل الألف الثاني، ولقد اعترف بهذا العمل جريمة نكراء وكانت عقوبتها حرق الأم وابنها.

وكما كان الحال في المصور والأماكن الأخرى كان بعض الناس يقومون في الحب وكانت قلوبهم تتأكل إذا رفضوا.

ولدينا أمثلة على وفور الكتابة الشديدة من هذه الأسباب، وفي بعض الأحيان كان الرجل والمرأة يصلبان للآلهة أو يلجآن إلى رهي مسخرة للحصول على حب المحبوب.

كانت بعض الطقوس السحرية مضمونة، مثلاً أن بعضها يدعي أن الرجل إذا قام بإتمامها فإن المرأة سوف تنكح معه عند مقابلته لها، وسوف تصبح شاقدة الإرادة فلا تستطيع المقاومة، ومن الحكمة للرجل أن يمارس الجنس معها.

هنا حدثت الخصومات بين العاشقين كانت المرأة المحرومة تلجأ إلى رقى وتعاويذ، ولهذا كنا نجد بعض الوصفات بالنعمة للسيدة التي تصادف مثل هذه الأحوال، وتقول الوصفة:

((إنه ولوجود هذا السحر فإن المرأة سوف لا تقام وحيدة، بل إنها سوف تكون محبوبة)).

ولكن كان للرجال مشكلات أخرى في هذا السياق وبينها ظهور الشيب، والمعجز الجنسي، والقذف السريع، وقد كان شيب الشعر يعالج بالسائل المستعمل للصباغ والتماويذ.

وكان هناك سلسلة من الطقوس ومستحضرات طبية مختلفة بما فيها المراهم والمنشطات كانت متوفرة لمعالجة المعجز الجنسي، ولكن وبينما هناك إشارات إلى القذف المبكر إلا أنه لم تتوفر أي علاجات لهذه القضية، ومن المعتقد أنه قد تم قبول هذا الوضع بصفته شيئاً سوف يعالجه الزمن والممارسة.

التعليم

إن معرفتنا عن التعليم في بلاد ما بين النهرين القديمة متقطعة، فلقد علمنا عن تعليم الكتبة وذلك لسبب واضح وهو: إن الكتبة هم الذين كانوا يؤلفون النصوص، وكان هذا هو النوع من التعليم الذي يهتم.

وحتى في هذا الصدد فإن جميع شواهدنا المفصلة تأتي من بابل في أوائل الألف الثاني إذ إن الوضع في آشور في فترة متأخرة كان مختلفاً.

تمود المعلومات المفصلة بالنسبة للتعليم في الألف الأول إلى الأسرة الملكية، ويروي آشور باتيبال في القرن السابع كيف أنه درس حكمة نابو وأتقن فن النسخ تماماً، معرفة جميع الخبراء وتعلم فن الرمي بالقموس وركوب الخيل والمربيات

والإسماك بزملم الخيول وفي مكان آخر يفصل لنا كيف تعلم القراءة والكتابة بقوله:

((لقد قرأت نصوصاً معقدة، كانت النسخ السومرية غامضة والفسخ الأكادية من الصعب فهمها، ولقد بحثت في الكتابة المسمارية على الحجارة من فترة ما قبل الطوفان.)) ولكن لم يكن هذا أمراً شائعاً، فلقد كان تعلم القراءة والكتابة باللغة المسمارية محصوراً بالكتبة فحسب، وكذلك الإداريين.

مع أنه اعتباراً من أواخر القرن الثامن كانت اللغة الآرامية تسير بخطوات سريعة في آشور مع وجود الكتابة بالحروف الأبجدية المرتبطة بها، وكانت هذه الأبجدية أسهل من المسمارية، وأصبحت واسعة الاستعمال.

وأما بالنسبة لتدريب الكتبة فقد كان هناك مدارس، إذ نجد مثلاً مجموعة تدعى (كتبة كاليزي) (وهي بلدة في شرق آشور) وهنا يشير إلى طلابهم الذين كانوا يتعلمون مهنة النسخ، ولكن ليس لدينا أي شواهد لوجود مدارس لتعليم مجالات أخرى من المعرفة.

وكان نظام الوراثة سائداً في المجتمع الآشوري وكان الابن يتعلم مهنة الأب أو تجارته وذلك بمراقبته ومساعدته حالما يستطيع المشي، وكان يتقن هذه المهن بمرور الزمن وإن من الممكن التلمذ لدى أحد المهنيين وكان من الممكن العثور على عقود التلمذة بحيث تكون الواجبات ملقاة على الطرفين.

الملك والبلاد

أما الدولة كانت هذه الكلمة وبكل معنى الكلمة من الممكن أن توضع ضمن أفعال أي ملك آشوري جديد. فقد كانت كل مظاهر الحياة الدولية والسياسية والعسكرية والدينية مرتبطة بالملك وكانت سلطة الملك مطلقة نظرياً مع أنها وبصورة عملية كانت هذه السلطة محاطة خلال حدود صارمة بعمليات المحرمات (التابو) التي كانت تحيط بمركز الملك الرفيع المقام.

وإذا قارنا الأوضاع بوضع الملك الآشوري فإننا نجد أن ملوك إسرائيل ويهوذا المنحدرين من نسل داود إنما كانوا قدامين جداً ومفتصبين للسلطة، فقد كانت هناك سلسلة طويلة من الملوك تحتوي على ما يزيد عن تسعين ملكاً حفظت أسماؤهم لنا بشكل سلسلة مستمرة غير متقطعة.

وقد حكم هؤلاء في آشور قبل أكثر من ألف عام من الزمن الذي أسس فيه داود أسرته.

وكما ذكرنا سابقاً فمع أننا شائنا شأن الآشوريين أنفسهم، نعتبر الحكام الآشوريين ملوكاً، وحتى القرن الرابع عشر كان الحاكم الآشوري يلبس تاجاً شمسي أداد الأول الذي لم يطلق على نفسه ذلك اللقب الذي نترجمه باسم الملك وبدلاً من ذلك كان يطلق على نفسه اسماً معناه (وكيل الإله آشور) مما يعكس مركزه كتمثيل للإله على الأرض.

ولكن الحاكم الآشوري لم يكن إلهاً بالمعنى الكامل بل كان هو ظل الإله، وقد وجدنا كتابة رسمية موجهة للملك تذكر هذا في كلمات متعددة مثلاً: ((إنه والد الملك سيدي كان صورة للإله بعل، وإن الملك سيدي هو صورة لبعل أيضاً)).

وكان الملوك أيضاً يسمون ((شمس الشعب الإلهية)).

ومن الممكن أن ندعو هؤلاء الحكام ملوكاً كهنه نظراً لأنهم وفي داخل مدينة آشور اعتبروا وارثي السلطتين الدينية والمدنية، وعندما بنت دولة آشور المدنية سلطانها لتصبح ما ندعوه دولة آشور المدنية عندها امتدت سلطة حاكم آشور معها فوق المدن الأخرى القديمة مثل (أرابخا وأرييل ونيوى) وأراضهم.

ولكن وإلى النهاية وحتى بعد أن انتقلت العاصمة إلى مكان آخر حافظ ملوك آشور على علاقة وصلبة دينية خاصة بمدينة آشور.

ولقد عاش الملك في بناء يدعى أكاديان (أيكالو) وهو يعني حرقياً (البيت الكبير) ولما كان هذا البناء هو مكان إقامة الملك فإن هذا الاسم يدعى

بالقصر ، ولكن تستعمل نفس الكلمة للدلالة على الأبنية الإدارية وهي بعيدة عن العاصمة ، وقد كان يمثل أيضاً مقر الحكومة والدولة فقد كان القصر الملكي أكبر من مقر الملك بل كان هو مركز الحكومة والدولة الرئيسي.

وبهذه الصفة فقد كان لا ينسج للمقر السكني للملك فحسب بل وما يتبعه من أماكن وضع المون لامتصاص ضيوف الدولة من الطباقين والخيازين وصانعي البيرة ، وكذلك هيئة كبيرة من موظفي الدولة والإداريين المدنيين وضباط الجيش فضلاً عن السفراء الأجانب والأمراء القادمين من الدول الموالية والمحكومة الذين حفظوا في البلاد كرهائن ولكي يتعلموا في أشور المادات الآشورية.

وهناك أشخاص آخرون يعيشون ضمن القصر الملكي وهم الكتبة الذين يتقنون عدة لغات وفنون الكتابة ، وكذلك موظفو جمع الضرائب والمترجمون والأطباء والموسيقيون ورجال الدين والمسرة وكذلك طبقات عديدة من الكهنة ورجال الدين.

وكان هناك أيضاً الخزانة الملكية بما فيها من الموظفين وكانت إعالة جميع هذه الفئات واجباً ثقيلاً تتم تلبية من الإمدادات التي يرسلها المسؤولون في المناطق ، وبعض الفترات كان هناك أسود ملحقه بالبلاط تطعم بوجبات منتظمة من الأغنام.

وفي داخل البلاط الملكي كان هناك عدة بلاطات ثانوية مثلاً بلاط والدة الملكة ، أو ولي المهد مع ما يتبعها من الموظفين مع أنه في إحدى الأزمنة كان لولي المهد قصر مختص به يدعى: (دار ولاية المهد)).

وربما كان للحاكم المحلي قصر في العاصمة منفصل عن القصر الملكي. ولم تكن مقابلة الملك متوفرة لجميع الشعب في البلاط ، وذلك لأن هذا الشخص شبه الإله معرض لعدد كبير من المنوعات (تابو) ولم يكن مسموحاً بمقابلاته إلا لموظف واحد فقط ، وهو ناظر القصر الذي يحق له وحده الاتصال بالملك.

ولا يصح لولي العهد الاتصال بالملك إلا عندما تسمح المؤثرات الفلكية بذلك وتكون هذه المؤثرات الفلكية مناسبة.

ومع ذلك فقد كان هناك مناسبات يستطيع بها رجال البلاط الآخرون الاتصال بالملك مثلاً عندما يوصل أحد المراسلين للملك خبراً مفاده أن أحد رجال البلاط قد قبل هدية من شخص طالباً منه أن يحكم الملك بالنيابة عنه.

وقد كان هناك أي شخص يأتي من الخارج ويسمح له بمقابلة الملك يفعل ذلك وهو معصوب العينين، وهذا وإن إمكان الاقتراب من الملك ومقابلته عندما تكون الظروف مواتية وأن يبقى الملك منزلاً عندما تكون الظروف غير مواتية، هذا الوضع سبب زيادة نفوذ الخبراء الذين يفسرون الظروف الفلكية.

وقد كانت هناك مناسبات يظهر فيها جميع الموظفين الكبار أمام الملك لتأدية فروض الطاعة، وكان ذلك أمراً مكلفاً بالنسبة إلى الأشخاص المعنيين بالأمر لأنه كان من المنتظر أن يقدم هؤلاء هدايا ذات قيمة، وتتضح قيمة سلم هذه الهدايا من الموظفين الكبار إلى صاحب الجلالة وذلك من قيمة الذهب التي أرسلها أحد الحكام إلى ولي العهد بما قيمته رطل من الذهب، بما يعادل حسب أسعار أوائل الثمانينات من هذا القرن (١٩٨٠م) مقدار (٢٠٠٠) جنيه إسترليني.

ولقد ذكرت المنوعات التي كان يخضع لها الملك وذلك إما لتلبية متطلبات الطقوس الدينية أو كحماية للملك من أي حوادث تحدث في يوم من الأيام من حوادث سوء الطالع.

وكان بعضها يشمل الإهانات أو الإزعاجات وهكذا وفي مناسبات عديدة نجد أن على الملك الآشوري أن يقوم بالصيام مدة عدة أيام حتى ظهور القمر من جديد، أو أن يمتنع عن تناول الطعام الملبوخ أو أن يلبس ملابس إحدى المربيات، أو أن يبقى محبوساً في داخل القصر أو أن يلبس ثوباً أبيض لمدة عدة أيام، أو أن يجلس لمدة أسبوع في كوخ من القصب ويعامل كما أنه لو كان مريضاً.

وكانت العلائم الفلكية تستطيع توقيف جميع أعمال الدولة، مثلاً المعاهدات التي ينبغي تصديقها عن طريق أداء القسم أمام الآلهة يمكن لهذه الإجراءات أن

تتم ضمن أيام معينة، وذلك لأن أداء القسم في أيام غير مواتية ربما يسبب نتائج وخيمة.

وإن أغرب تلك المنوعات وأطرفها ذلك الذي كان يأمر في حالات تظهر فيها علائم خطيرة أن يتنازل الملك عن السلطة مؤقتاً ويسلم العرش إلى شخص بديل، وأن يتزوج هذا البديل عروساً ويحكم مدة مائة يوم ويستعد لجميع الشرور التي كانت تهدد الملك، وهكذا ينفذ الملك الدولة من إحدى الحكايات.

وفي نهاية الأيام المائة يعدم الملك البديل وعروسه ويدفنان باحتفال كبير ويمود الملك إلى عرشه بأمان.

وكان أحد الملوك الجدد ولاسيما (اسرحدون) كانت تتأبه الكوابيس والخرافات حول سوء الطالع، وكان الخبراء في قضايها سوء الطالع يتلاعبون بالأطفال بالملك، إذ نجد الملك مثلاً - قلقاً لأن حيواناً يدعى النمى قد جرى تحت عريته إذ إنه كان يعرف سوء الطالع الذي حدث عندما مد النمى يده بين رجله، وهل هذا ينطبق على الوضع إذا كان هذا الرجل راحياً عريته؟ والحقيقة هذا ينطبق.

وفي حالة أخرى نرى الملك (اسرحدون) خائفاً جِزَعاً وذلك عند حدوث هزة أرضية ولم يكن خائفاً من الحادث نفسه بل من الشرور التي كان يتبها بها الحادث.

فقد كان أحد الكهنة يقول له:

((إن الذي صنع الهزة الأرضية قد صنع أيضاً الطقوس المضادة للحيلولة دون وقوع الشر الذي تقدر به الهزة.))

وهذا كان اسرحدون يعبر عن قلقه ومخاوفه مما جعل من الضروري مواساته ولاسيما حول الخصوف والكسوف.

وإلا حالة أخرى حاول أن يكتشف من بعض الكتب ما كانت بعض نذر الشر من ولادة معينة تنذر. بينما يحاول أحد الكهنة أن لا يشجعه على اتباع فوضى الأشخاص الهواء المتدخلين في شؤون الغير.

وقد قال الحكام: ((إن ذلك الكتاب كان صعب الفهم جداً، ولا يستطيع أي إنسان لم يدرس هذا الكتاب دراسة مفصلة أن يفهمه، وإن هذا الحكام سوف يفتر للملك شخصياً عند مقابله.))

(وهذا شاهد عن سهولة وصول الكهنة إلى الملك).

كان مسكن الملك مفصلاً عن القسم المخصص لشؤون إدارة الدولة، وكانت مشكلة الملك الرئيسية هي إبقاء نسائه في ظروف النظام، وإن لدينا سلسلة من المراسم تدعو إلى ذلك، وهي تعود إلى ما بين القرن الرابع عشر والحادي عشر.

ولقد كان إخلاد النساء إلى النظام عملاً مزعجاً ومعرجاً، وذلك نظراً لأنه بالإضافة إلى الزوجات والمخلصات اللواتي اتخذهن الملك بناءً على اختياره الشخصي فإن لديه عدداً كبيراً من السيدات الأخريات القادمات إلى القصر وهنّ إما كن مرسلات من بعض الأمراء الذين كانوا يطلبون التحالف معه بسبب المصاهرات، أو إنهنّ قد جلبن كجزء من الجزية والقتنائم من المدن المغلوبة على أمرها.

فالحياة سوف تكون مزعجة وتسبب شدة الأعصاب عند وجود عصابة من النساء محصورات كلهنّ معاً، وهنّ يتنافسن على رضا رجل واحد.

وتشير المراسم إلى زوجات الملك والنساء الأخريات اللواتي كنّ يتقاتلن ويتلاعنّ بعضهن مع البعض الآخر.

ولذلك تشير المراسم الخاصة بنساء البلاط إلى أن النساء كن كالمهاترات، وقد كانت مشاجراتهن مصدر تسمية لرجال القصر، ولكن إذا سمع أي شخص من هؤلاء النساء وهن يتشاجرن أو يقفن الأمر الذي كان يشبه ما يحدث في

الشرق الأدنى في هذه الأيام، فإن هذا الشخص الذي سمع معرض للضرب الشديد، أو قطع إحدى أذنيه.

وبالنسبة للنساء أنفسهن فكان من الصعب إحلال النظام بينهن، وكانت نساء القصر يملكن حق الأمر بضرب خادماتهن ثلاثين ضربة بالمصا إذا قمن باقتراك أي ذنب ولأول مرة.

وكانت هذه العقوبات تجري بشكل وحشي، يصل إلى حد قتل الفتاة ضرباً، ولكن في حال حدوث ذلك فإن السيدة نفسها تصبح عرضة للعقاب.

هناك قواعد صارمة بخصوص التقاء رجال البلاط بنساء القصر، فإذا حدث ودعت إحدى سيدات القصر أحد رجال البلاط وكانت عارية من الثياب، وإذا نظر إليها أثناء المحادثة فإن هذا الرجل كان يُضرب ضرباً مُبرحاً.

وهذا يدل أن بعض نساء القصر يصلن إلى حالة من الضجر إلى درجة تسليط أنفسهن بتفذيب رجال البلاط.

ولم يكن مسموحاً ولا بأي حال من الأحوال أن يقترب أحد رجال البلاط أكثر من مسافة سبع خطوات من أي امرأة ليتكلم معها.

أما اللقاءات غير الشرعية إذا حدثت واكتشفت فإن ذلك يعني الموت لكلا الطرفين.

وإذا اضطر أحد الموظفين للدخول إلى داخل القصر كان على جميع النمرة الخروج من المنطقة إلى خارج أماكن إقامة الحريم.

وكان هناك حالة المتع الشرقي المادي بالنسبة للمرأة التي تمر بفثرة العادة الشهرية، وتقتصر بعض المراسيم على ما يلي:

((عندما يحل وقت تقديم الأضاحي (وهو أحد المناسبات الدينية) فإن أي امرأة من التي لا يجوز الاقتراب منها، (وهذا يعني حالة المرأة في حالة العادة الشهرية) إنه لا يجوز لمثل هذه المرأة أن تدخل إلى حضرة الملك.))

والطريف أن يمنع دخول المرأة في تلك المناسبة مما يعني أن ذلك مكان ممنوحاً
في الأيام العادية.

الفصل العاشر

الحياة المثالية

تكشف الأشياء التي يُحيط الناس بها أنفسهم مكنون مواقفهم وكأنها عبارة عن دراسة لمؤسساتهم الاجتماعية ، وهكذا فإن فحوص الملابس والأثاث لدى الآشوريين ربما يساعدنا على فهم أي نوع من الناس كان هؤلاء الآشوريون.

الملابس

إن هدفنا هنا أن نركز بقدر الإمكان على الشواهد التي تطبق بصورة خاصة على آشور وبصورة خاصة في الفترة المتأخرة (أي: الألف الأول).

وهناك نوعان رئيسيان من الشواهد :

أولاً: هناك نصوص تقدم لنا عدة كلمات حول اللباس بما فيها قائمة مفضلة ذات تركيب لغوي وهو نوع مؤسس على موسوعة روحية ، ولسوء الحظ فإن هذا لا يوصلنا إلى الهدف الذي نبيّنه ، وفي عدة حالات لم يكن لدينا أي فكرة عن المواد التي تعنيها هذه الكلمات أو كيف تظهر الثياب ، وهذا ما نحتاج المساعدة لمعرفة من مصدر الشواهد.

الثاني: وهو يمثل الثياب الحقيقية التي يمكن أن توجد على عدة مشاهد فنية مثل المنحوتات واللوحات المجسّمة والألواح والعاج المنقوش والأختام الأسطوانية.

هل كل إنسان يلبس ثياباً؟ إذ حسب معرفتنا اعتباراً من الألف الثالث فصاعداً فإن الناس الوحيدين الذين يسبّرون أحياناً عراً كانوا بعض الكهنة في أثناء بعض الطقوس الدينية التي تتطلب التمرّي.

وأحياناً كان أسرى الحرب يسبّرون وهم عراة عند تقديم واجبات الخضوع والطاعة ، وهناك لوح مجسّم يظهر بعض الناس وهم عراة يجرّون قارباً ثقبلاً

محتملاً ولكن وفي هذه الحالة من الممكن أن يكونوا قد تمرّوا بسبب اضطرابهم للخوض داخل الماء.

إن إمكان التعرّي لجميع السكان تلمسه من فقرة قالها الملك أسرجدون: بأنه سوف يمد المرأة بالملابس، ولكن هذا كان في بابل عندما حاول الملك أسرجدون أن يراب الصدع الذي أحدثه والده سنعاريب، وهكذا كان الحال بالنسبة لعدد كبير من السكان الفلبيين ومن اللاجئين، وكان ضمناً استثنائياً.

ومن الجائز أن أسرجدون كان يبالغ في مدى البؤس الحاصل للتأكيد على كرمه، وتذكر إحدى النصوص إمكان حصول العوز والفاقة عند بعض الناس، لدرجة أنهم يرتدون الثياب المصنوعة من ورق البردي وهو الورق الذي صنع منه الورق المستعمل للكتابة قديماً.

سوف نبحث أولاً: في الملابس النموذجية للمرأة وكان العنصر الرئيسي هو رداء يحيط بالوركين ليفطي عورتها، ونعلم أن هذا الثوب ينبغي أن يمد بين الساقين وبمدها يربط، وذلك يعرف من أحد النصوص الذي يذكر إحدى العاهرات قد حكّت رباطها ليسهل الوصول إليها، ويظهر أن هذه القلعة كانت تشبه النوع القديم من حفاضات الأطفال في الوقت الحاضر، لكنها تربط بواسطة رباط بدلاً من الديوس، وهناك تلميحات بوجوب ارتداء المرأة كساء حول ثدييها ولكن ليس لدينا معلومات حول هذا الموضوع، إذ نحن نقابل بعض الصور حيث تبدو بعض الخاديمات وأثداهن عارية، ولكن ربما كان هذا بدعة فنية ولا يبرهن بالضرورة على انتشار عري الصدر بين الإماء.

معهما كان الوضع بين القتهات الإماء فإن السيدة الآشورية لم تكن تظهر أمام الجمهور دون ارتداء الملابس الكاملة، مع أنها كانت في حالة السرية في بيتها خفيفة الملابس، وكان هذا هو الوضع بالنسبة لسيدات القصر في الألف الثاني المتأخر، نظراً لأن المراسيم بالنسبة للحريم الملكي في تلك الفترة تنص أن سيدة القصر ينبغي أن تحصل على إذن للحصول على ملابس تلبسها عند خروجها، ومن المحتمل أن تكون الملابس الموصوفة والتي تتم لبس السيدة كما يجب إنما

هي الملابس التي تصوّر بها السيدات في مجال الفن بحيث إن اللباس المثالي كان أبسط من تلك، وإن الصور تظهر أن السيدة التي ترى في المجتمع عادة كانت تلبس رداءً فضفاضاً ابتداءً من الكتف حتى الكامل مع وجود نصف حكم وهو مثبت بحزام.

وفي أسفل الرداء هناك تبعد ثلاثة أو أربعة خلاخيل على كل ساق، وإن شعرها الطويل (الذي يدعمه أحياناً شعر مستعار كما تكشف النصوص) كان مجدولاً بمدة ضفائر.

وتذكر المراسيم المختصة بالحريم الملكية أن السيدة ينبغي أن تخرج من القصر وهي مرتدية حذاء للخروج مما يدل أن السيدات داخل القصر كن يمشين حافيات الأقدام.

وكانت الماهرات يرتدين ملابس خاصة من أجل جذب الانتباه، وقد سمعنا أنهن كنّ يرتدين نوعاً خاصاً من المعاطف الجلدية، وكانت إحدى ماهرات المعبد متميزة بالشعر الأجعد، ولم تشجع الماهرات على ارتداء ملابس محتشمة.

وقد كانت الماهرات ممنوعات من قبل القانون من ارتداء حجاب الأمر الذي كان مفروضاً على السيدات المتزوجات عندما يخرجن من بيوتهن.

كان الشكل الأمامي للملابس الرجل التي كانت تغطي الرجل من رقبته حتى الركبتين مع أحكام قصيرة وحزام في الخصر لكن كان هناك صيغ مختلفة لهذا اللباس، فمن الطريقة التي تُطَقُّ بها الثياب كان للرجل ثياب خصوصية عند الخروج مؤلفة من ثوب منفرد، ونوع من ملابس الخروج.

وفي بعض الحالات فإن الجزء تحت الحزام فيه نوع من الشرائط بالطول الكامل، وهي تظهر أنها كانت تُلف حول الجسم وتوحي أنها كانت جزءاً منفصلاً من الثوب تشبه ثوب الخروج، وكان من الممكن تعديل هذا النوع من اللباس بطرق مختلفة، ففي بعض الحالات هناك شرائط ممتدة بلنيل من كل كتف وتصلب عند الصدر.

وفي حالات أخرى فقد تطورت إلى نوع من اللوح المزلف من زرد كان يستعمله الرماة.

كان الجندي المادي والرجل المادي يرتدي رداءً يمتد حتى الركبة، ولكن الأشخاص ذوي الرتب المالية كالموظفين الكبار والضباط المسكرين كانوا يضيفون عباءة فوقه، وكانت هذه مسألة هيبة وذلك لأن مراسيم الحريم ذكرت أنه إذا اتهم أحد رجال البلاط بإهمال واجبه فإنه يعاقب بتجريدته من عبايته.

وكانت العباءة مصنوعة من الصوف وأحياناً من الكتان ضمن سلسلة من الألوان التي تتدرج من الأزرق والأحمر والأرجواني والأبيض.

وعداً عن العباءة كان هناك رداء يلبس فوق الملابس وهو بدون أكمام، وكان يلبس فوق الرقبة وكان يشبه الكوتش (وهو المعطف الواقى من المطر) والرداء الكهنوتي.

أما ملابس الملك وأيضاً ملابس الموظفين الكبار فقد كانت معقدة بحيث إنه من الصعب تحديد ما يلبسه الملك حين نشاهد صورته في لوحة مجسمة، وعندما نرى الملك مرتدياً ملابس تلبس في المناسبات الاحتفالية فإنه يلبس عدة طبقات من الثياب مع أنه من غير الثابت إذا كان الرداء معنوياً ثوباً واحداً أم أكثر.

وإن الجزء المرئي بالنسبة لنا يمكن أن يكون شريطاً واحداً من القماش ملفوفاً حول الملك مثل الساري الهندي، وكان هذا الرداء مزيناً بأزهار مجوهرية وأحياناً مطرزاً برسومات دينية.

وفي الحالات التي تلزم بها سرعة الحركات فكما هو الحال في حالات الحرب أو الصيد فإن الملك كان يلبس شكلاً أبسط من الملابس مؤسساً على قميص الجندي المادي، ولكن مع إضافة شيء من الوفاق بجعله ممتداً حتى الكاحل وهو بالتالي يشبه القميص الليلي أو ما يدعونه في المراق اليوم بالدشداشة.

كانت المادة الأكثر استعمالاً في صنع الثياب هي الصوف، مع أن الكتان كان معروفاً من قترات مبكرة، وقد استعمل في صناعة أردية من أصناف من

النوعية الأرقى، أما القطن فلم يصبح متوفراً إلى أن استقدمه ستعاريب وأدخله إلى بلاد آشور حوالي عام (٧٠٠ ق.م) وهو تاريخ بدء استخدام القطن في صناعة الألبسة.

وقد استعملت مواد أخرى أحياناً في صناعة الألبسة، وهذه تشمل الجلود وأوراق البردي.

لباس القدم - الحذاء -

وإذا حكمنا على أساس اللوحات المجمعة، فقد كان الآشوريون يمشون حفاة الأقدام حتى في أثناء الحروب، وكان أكثر الأنواع شيوعاً هو الصندل المكون من كعب ذي إسفين يُثبت بواسطة أشرطة تمتد فوق أعلى القدم وحول الإصبع الكبير أي: الإبهام ولكن هناك أحذية أكثر تعقيداً.

وهناك شكل من هذه الأحذية كان حذاءً يغطي كامل القدم وكان الجزء الذي يغطي قوس القدم مصنوعاً من مادة مختلفة عن بقية الحذاء. ويظهر مكانه مصنوع من القماش المدروز في الجلد.

وقد ظهرت الجزمات غالباً ولاسيما التي كان يلبسها الصيادون أو الرجال الذين يشتركون في إحدى الحملات العسكرية، وكانت هذه مزلفة عادة بطول الركبة أو بطة الرجل ويلبس فوق جوارب طويلة.

وهناك أيضاً مادتان مختلفتان مضممتان فقد كانت مقدمة رجل الجزمة مصنوعة من القماش مع أن البقية كانت مصنوعة من الجلد.

وكان هناك إضافة لتقوية الحذاء عند الكعب وقد كان بعض الأجانب يلبسون نوعاً من الأحذية له خانات للأصابع ملتقة إلى الأعلى يشبه نوعاً من الأخفاف موجودة الآن في تركيا، ومن المنطقة حول كركوك وحوالي عام (١٤٠٠ ق.م) سمع عن طماقات مصنوعة من نوع من القماش، مع أنه ليس من الواضح إن كانت هذه جزءاً من الجزمات أم أنها عبارة عن قطع منفصلة بذاتها.

أما المعلومات حول أحدىة النسوة فكانت أقل وفرة مع أننا نجد مراجع تشير إلى أنواع خاصة من الأحدىة تلبسها السيدات، ونحن نحلل صورة لملكة آشور بانيبال وهي تلبس نوعاً من الخف الذي كان يغطي النصف الأمامي من القدم من النوع المتداول المعروف الآن باسم (الخف).

المجوهرات

لقد كان الرجال والنساء، يلبسون المجوهرات، ومع أنها لم تكن من نوع واحد، فقد سبق أن ذكرنا عن لبس النساء الخلاخيل، وهذه العادة لا تزال مستمرة بين الفلاحات في العراق حتى الوقت الحاضر.

وفي بعض الفترات وفي منطقة ما بين النهرين كانت النسوة من أعلى الطبقات يلبسن زينة للمصدر مكونة من معادن ثمينة، ولكن لا يبدو أن هناك شواهد على هذا في الفترة المتأخرة من عصر دولة آشور.

وكانت بعض المجوهرات الخاصة بالنساء الآشوريات تتألف من قلائد من العقيق الأبيض معلقة في سلسلة ذهبية، وقد وجدت هذه في بعض القبور.

وكان الرجال يلبسون أيضاً مثل هذه القلائد وذلك حسبما نعلم من عقيق كُتب عليه نقش مفاده أنه:

حجر الرهبة خاصة توكولتي - نينوترا.

وكان هذا هو الملك الثاني الذي كان يحمل هذا الاسم، وقد حكم هذا من عام (٨٩٠-٨٨٤ ق.م) وكان سلفه الأكبر توكولتي - نينوترا (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) قد رُسم في لوحة ناهرة وهو يلبس اقراطاً في أذنيه.

وكان الرجل يلبس حجر تعويذة يتدلى من عنقه، وكانت هذه التعويذة يشكّل رأس شيطان، وهي مستعملة لدرء الشر، وأحياناً كانت حجراً نقشت عليه تعويذة.

وأما الأختام الأسطوانية المؤلفة عادة من أحجار شبه كريمة ، وكانت هذه تلبس بنفس الطريقة.

وكان من المعتاد بالنسبة للرجال الآشوريين ذوي المراتب العالية وأحياناً النساء أيضاً أن يلبسوا الأساور على المعاصم ، وكانت الإسمارة تحمل زهوراً مستديرة بحيث تظهر بشكل ماسة اليد في العصر الحاضر. وكانت الأقراط عنصراً مشتركاً بين الرجال والنساء ، وكانت تحمل الهلال ، وكانت مصنوعة من الذهب أو الفضة ، مع وجود قلائد من أشكال مختلفة ملحومة بالقرط.

والقارئ الذي يرغب في الحصول على تفاصيل وافية عن هذه سوف يجدها موصوفة في كتاب Hyslop .

تأليف: K.R. Maxwell .

واسم الكتاب: المجوهرات الآشورية القريبة منذ (٣٠٠٠-٦١٢ ق.م) عام (١٩٧١م) من الصفحات (٢٢٥-٢٤٦).

الشعر وأغطية الرأس

يطلق الرجال الآشوريون الذين يرتدون لحاهم بشكل كثيف ، وكذلك شواربهم الضخمة.

وأما الرجال الذين تشاهد صورهم بدون لحى فقد كانوا إما شباباً صغاراً ، أو خصياناً.

وكان شعر اللحية طويلاً ولكن كان يمتنى به كثيراً مع ترك الأذنين مكشوفتين ، ونجد اللحي وشعر الرأس متموجاً وأجعد بنهايته ، وليس من المحتمل أن تكون شعور الآشوريين جميعهم مموجة ، إذ معنى ذلك أن الرجال كانوا يلجؤون إلى الحلاقين لتمويج شعورهم.

وهناك بعض الموظفين الذين كانوا يعملون في الخدمات الدينية والذين من الممكن أن تتجاوز وتدعوهم كهنة ، كان هؤلاء يحلقون بقمة من رؤوسهم كعلامة على طيبة وظائفهم ، وكذلك كان الأطباء.

لدينا كثير من الصور يُرى فيها الآشوريون لابسين غطاء الرأس، ولكن قسماً كبيراً من هذه الصور تمثل الآلهة، والمائلة المالككة والجنود أو الهيئات الدينية الذين كانوا يلبسون في بعض المناسبات أغطية رأس قديمة مهجورة، ربما كانت مرتبطة بمراتبهم أو أحوالهم الدينية.

ولمست هذه ممثلة لطراز أغطية الرأس في ذلك الزمن مما تمثل أغطية الرأس في الوقت الحاضر، والتي يلبسها الشرطي أو لباس الرأس للحكام الكاثوليك، أو لباس الرأس للدون الإسباني.

وقد كانت الأشكال الوحيدة لأغطية الرأس الآشورية التي تُمثل لنا لكي نستنتج أنها غطاء رأس نموذجي هي عصاية الرأس.

وقد كان هناك عدة أشكال من هذه العصاية يحفظها الخبراء الفنيون تمييزاً وإطلاق أسماء خاصة عليها.

ولكن بالنسبة للأغراض العملية فلم يكن هناك سوى عصاية الرأس التي من الممكن أن تكون مزينة أو بسيطة، أو تكون لها ترويسة أو لا تكون.

وكان الرجال والنساء يلبسون مثل هذه العصاية لكي تظل شعورهم مرتبة. أو ربما تُثبت فوق عمامة وكانت من طراز معقد ومهيب بالنسبة للملوك والموظفين الكبار.

المفروشات المنزلية

ليس من خطأ الكتابة في بلاد ما بين النهرين كون معارفنا عن التجهيزات المنزلية قليلة ومتقطعة.

فقد كانت طبقة المثقفين مولعة بإدخال الأنظمة والموديلات الجديدة إلى عالمهم.

ولذلك ودعماً لهذه الفكرة كانوا يدونون قوائم طويلة تشمل جميع الأشياء، ابتداءً من أسماء الآلهة إلى المصطلحات الخاصة بالأغنام، ولم تكن محتويات

البيوت محرومة من هذه الاعتبارات إذ إن النصوص السملوية تقدم لنا كاتالوجات وأهية تصف فيها المفروشات المنزلية.

ولسوء الحظ فقد بقيت هذه المصطلحات مجرد أسماء بالنسبة لنا ، وفي بعض الأحيان كانت تحذف تفاصيل إضافية للنصوص ، أو اكتشافات مواد من الحفريات وهذه تسمح لنا أن نخصص اسماً لبقعة من بنود الأثاث المنزلي.

ولكن وحتى بالنسبة للأشياء المعروفة في بلاد ما بين النهرين القديمة فلا نستطيع الافتراض أن هذه الأشياء مستعملة في بلاد آشور.

وهيما يلي سوف نهتم بما يمكن إثباته فقط ، أو ما يمكن استنتاجه بشكل معقد بالنسبة للبيوت الآشورية والقصور في الألف الثاني والأول قبل الميلاد.

إن اختلاف أصناف المفروشات التي تستعملها البشرية متعددة بالحاجة إليها ، إذ إن معظم الناس هم بحاجة إلى أشياء تحميهم من الرطوبة أو البرد أو حرارة الأرض أثناء النوم ، وهم بحاجة إلى بعض المسطوح التي يستطيعون أن يأكلوا منها طعامهم.

وإن أول المتطلبات تقتضي ضرورة استعمال الحصير والحرايات والتي تطورت فأصبحت فراشاً وكانت هذه الفراش تشمل إما فراشاً تمد على الأرض مباشرة أو طبلبات مرتكزة على قوائم والتي نعرفها باسم الطاولة.

وبوجود استعمال الطبلبات كان الأكثرون يجلسون على الأرض وربما يضمون بعض الوسائد تحتهم طلباً للراحة.

ولكن وجود الطاولات التي كان يفضلها سكان ما بين النهرين القدماء يستلزم إضافة كراسي للأظھر أو مصطبات أو كراسي عادية وقد وجدت في بلاد آشور جميع قطع الأثاث الرئيسية مثلاً: الكراسي بلا ظهر والقاعدة والكراسي والطاولات والأسرة.

ولكن لا يعني هذا أن كل إنسان في آشور القديمة كان يستعمل هذه الأدوات إذ إن قطع المفروشات الشديدة التمتد كانت محدودة بالأغنياء ، أما

الرجل العادي فكان يعيش في هذه الحياة دون وجود أي مقروشات عدا بعض الحصر من القصب التي كانت تخدم شؤون الجلوس والأكل والنوم وشؤون الدفن.

الكراسي بلا ظهر - الطاولات والكراسي العادية -.

كانت الكراسي بلا ظهر مصنوعة من القصب وإطار خشبي، مع أننا نسمع عن وجود كراسي من هذا النوع أكثر تعقيداً وكانت تصنع من الخشب القاسي الممتاز، وتزين بنقوش من العاج أو الذهب وكانت هذه الكراسي تستعمل كمقاعد أو كرسى كائز يضع عليها الإنسان قدميه.

كانت المصنوعات مصنوعة بصورة شائعة من الفضار (اللبن) أو الفضار المشوي، مع أنها كانت تصنع أحياناً من الخشب.

وكانت تثبت عادة على طول الجدران وتظهر الشواهد الأثرية عنها وكانت تعود إلى فترات مبكرة قديمة في المعابد وبيوت السحرة.

ولكن يبدو أن الشواهد عليها في بلاد آشور شحيحة وقليلة وقد وجدت كلمة في بعض النصوص الآشورية الجديدة يمتثلها بعض الباحثين أنها تعني مقعداً للنوم ربما دلت على شيء مختلف تماماً.

وهناك شواهد أثرية واهرة حول الكراسي التي كانت ذات هيكل مصنوعة من مختلف أنواع الخشب، وأحياناً كانت تزين بنقوش من النحاس أو البرونز أو الفضة أو العاج المزخرف.

وكانت المقاعد تغطي بالجلد أو سمف النخل وأوراق البردي ومن الممكن أن تكون مبطنة بالبلاد، وكانت الكراسي تزود أحياناً بأغطية فضفاضة من الصوف، وكان من الممكن إحداث تحسينات مختلفة على الكرسي البسيط مثلاً يمكن تطويره ليصبح كرسياً ذا ذراع، ومن الممكن في حالات خاصة أن يصبح عرشاً للملك.

إذ نحن نرى ستعاريب جالماً على كرسي من هذا النوع عند حصاره
لأخيبتين.

ومن الممكن إضافة بعض الأعمدة للكراسي يجري استخدامها كمحطات
متقلة، وهذا التطوير يقلل عن الكرسي صفته كعنصر من عناصر الأثاث
المنزلي، وقد شاهدنا أن ستعاريب كان يستعمل مثل هذا الكرسي.

ليس هناك صعوبة من إيجاد أمثلة عن وجود الطاولات في بلاد آشور، فقد
وجدت الطاولات ونماذج منها ضمن الحفريات هناك، ونرى هذه الطاولات متمثلة
بالألواح الناضرة وكانت تصنع من الخشب بشكل عام مع أنه كان من الممكن
إضافة زينات من المعادن، وكانت بعض الطاولات تصب بشكل مياكل من
البرونز.

وأما في آشور فقد كان النوع السائد هو طاولة صغيرة مربعة قائمة على أربع
قوائم مزخرفة.

وهناك شواهد على استعمال غطاء الطاولة ثاني من مقاطع يدكر واحد منها
(قماش من الكتان موضوع على الطاولة المذهبة الخاصة بالإله شمش).

ومع أن هذا المثال قد أتى من بابل وليس من آشور، وقد استعملت حتى الفوط
على الطاولة مع أنها لم تكن بالشكل الذي نعرفه فقد كان أحد الخدم يحمل
الفوط ويقدمها إلى الشخص الذي يتناول العشاء ليمسح يديه عندما يفصلها بعد
انتهاء الطعام.

وهناك أثر لهذا الاستعمال في الشرق الأدنى يوجد من الطريقة التي تقدم بها
خادمة الكنيسة الإنجيلية العليا في بريطانيا فوطاً للمكاهن لكي يمسح أصابعه
بها بعد الفصل من خلال القربان.

الأسرة

لم يمتلك الإنسان مبريراً فقد كان الفقراء ينامون على حصير من القش أو القصب وحيث كان هناك أسرة، وكانت هذه مؤلفة من إطار يدعم قاعدة مصنوعة عادة من الخشب مع أنه كان هناك إمكانيات أخرى، وكانت هناك مواد بديلة تشمل الحبال أو قطع القصب.

وكانت بعض الأسرة (وليس جميعها) مزودة بجوانب خشبية تجميل السرير بشكل صندوق خشبي قليل العمق.

وكانت تدعمها قوائم مصنوعة من أشكال من الزينة وعادة تتألف من قدم منعوتة بشكل مطلب أو حاض ثور كما هو الحال بالنسبة للكراسي والطلولات، فقد كانت أسرة الملوك والآلهة مزينة بالذهب والفضة والعاج المحفور.

وكان السرير دعماً للفراش، وكانت الفرشة محشوة بالصوف أو شعر الماعز أو سمف النخل، وكانت أغطية السرير مصنوعة من الكتان أو الصوف.

ومن الممكن أن نجد الومائد مذكورة في الكلمات الأكادية المشكوك في أمرها، وكانت الحصير تستعمل بالتأكيد بجانب السرير.

إن ذكر الحصير المستعمل بجانب السرير يذكرنا بالمسألة المهمة وهي موضوع أغطية أرض الغرفة، ونحن نعلم أنه لا بد من وجود السجاد في القصور نظراً لأن هناك في الألواح المصنوعة من الحجر الكلسي منقوشة لتمثل السجاد التي يبدو أنها كانت متممة لامتداد السجاد فعلاً في المساحات ذات التمرض الأقل للاحتكاك الشديد.

الإضاءة الاصطناعية

إن إحدى وسائل الراحة التي نعدّها ضرورية لوجودنا الحضاري هي تأمين شكل من أشكال الإضاءة الاصطناعية التي تدير ساعات الظلام، والحقيقة أن الإضاءة الاصطناعية هذه كانت متوفرة بالنسبة لسكان المدن التي أصبحت بلاد آشور في أزمنة ما قبل التاريخ.

وكانت المصابيح عبارة عن أوعية تحتوي على زيت بنور الكتان مع وجود قليل مصنوع من قصب أو نبات آخر أو حتى الصوف، وكانت الأهداف مستعملة في الأزمنة القديمة كأوعية وبعد ذلك تم تقليدها بصنع أوعية من الفخار أو المعدن. وكانت القصور تزود بالمشاعل المتهوجة عند حدوث حفلات، وكانت هذه المشاعل مصنوعة من حُرْم من القصب المفطسة بالزيت ويحملها الخدم عالياً.

أدوات التجميل والتواليت

استعمل الآشوريون مرايا من الذهب أو الفضة أو البرونز الذي كان يلْمَع حتى يتحول إلى سطح عاكس.

وكان هذا يتم عن طريقه صقل المعدن بواسطة نوع من الجلد يشبه الشامواه، وذلك لأن بعض النصوص تذكر اسم الجلد الدوسو لأجل المرأة.

يجري تمثيل الآشوريين بشعر طويل، ولكنّه مذنب، وليس عجيب أن نجد أنهم كانوا يمتلكون الأمشاط التي كانت تصنع من الخشب أو العاج وبمهارة.

وقد ذكرت الشفرات ولكن ليس لدينا تفاصيل عنها مع أننا إذا حكمنا بوجود ذلك المظهر النظيف والمرتب للشوارب واللحي المتمتلة بالأعمال الفنية فإن هذه الشفرات كانت عظمة الفعالية.

استعملت النساء أدوات التجميل، للعينين والبشرة ولا شك أنه وعلى الأقل في بداية الألف الثاني كانت عملية تكحيل العين تعتبر ذات جلدية جنسية وهذا واضح أنه من إحدى الأساطير.

إذ يقال: إن الإلهة السومرية أنلانا (كانت عشتار آلهة الحب فيما بعد) لاستعداداتها أن وضعت على عينيها مرهماً يدعى:

(أرجو أن يأتي، أرجو أن يأتي) وهكذا فهل كانت العلاقة ما بين ميكياج العين والإثارة الجنسية لا تزال مغتروفاً بها في آشور في الألف الأول ق.م؟

الحقيقة أننا لا نعرف ذلك فقد كان ميكياج العينين المصنوع من معجون مادة الأنتمون ويوضع على الجفن بواسطة دباب من منحوت من العاج، وأن الشواهد على استعمال أحمر الشفاه طفيفة ولكنها أكيدة.

وقد قدمت لنا هذه المعلومات قائمة فسّرت فيها المصطلحات السومرية التي تمنى حرفياً: (المعجون الذهبي) والذي يفسر باللغة الأكادية بأنه الصباغ الأحمر للوجه.

أدوات المائدة

لقد احتوت الأدوات المنزلية على الملاعق والسكاكين وكانت الملاعق مصنوعة من الخشب أو المعدن، وأحياناً من العاج مع أن بعض أقدم الملاعق المعروفة في منطقة ما بين النهرين القديمة كانت مصنوعة من الفار، وهذا يعطي شعوراً بالاحترام للزمن القديم لاستعمالهم الأعواد البلاستيكية لتأمين الأدوات المنزلية.

وكان للسكاكين شفرات من البرونز أو الحديد أو من الصوان وهذا (من مخلفات العهد النيوليتي وهو العصر الحجري الحديث) وكانت أدوات القلع المدنية تُسن على أداة جلع مسطحة (بطول الإصبع تقريباً).

وقد وجد كتاب هذه السطور بعض هذه المجالغ في تل الرماح غرب الموصل ووجد أن هذه كانت من أفضل الوسائل الفعالة التي وجدها والتي تصلح لمن سكين الجيب.

وسائل التخزين

لقد كان البيت الآشوري شأته شأن أي بيت بحاجة إلى حاويات لحفظ أواني المطبخ والمؤن، وتخرج هذه اعتباراً من حاويات الخشب أو الجلد لحفظ المرايا والأدوات والخناجر والأحذية وتخرج هذه حتى الصناديق الخشبية الكبيرة. لقد استعمل نوعان من الحاويات الخشبية التي تشبه الأقفاص والصناديق لحفظ الفواكه.

وسكانت هناك مادة أخرى للتخزين وهي القصب الذي إذا جُمِلَ عازلاً للماء بواسطة الفار من الممكن أن يصبح بشكل حاوية لحفظ الملابس الكتانية في حالة جفافه أو أن تكون بشكل أوعية لحفظ الموائل.

وهناك مادة متوفرة وهي العاج ولكنه نظراً لفلاء ثمنه، فقد كان استعماله مقصوراً على الأغذية المنحوتة الخاصة بصناديق الزينة.

وسكانت الحاويات الخاصة بالأطعمة والموائل تشمل الطاسات الخاصة أو الخشبية أو أباريق الشرب الفخارية أو المدنية، وقد وجد في أحد القصور في نمرود (كالاخ القديمة) بعض الكاسات الفخارية الجذابة وهي مصنوعة من الفخار دقيق الصنع تعود إلى القرن السابع ق.م، وقد استعمل الزجاج أيضاً ولأشياء بصنع الفوارير وكان القنبيذ يخزن في جوار خاصة تتسع لعدة غالونات، وقد وجد عدد من هذه التي كانت كل واحدة قد كتبت عليها حجمها وسعتها وجدت في نمرود.

تجهيزات المياه

إن توفر المياه ضروري لبناء المستوطنات فلقد كانت آشور مملوءة بالمياه فكان فيها النهر العظيم وهو نهر دجلة مع تابعيه الزاب الأعلى والزاب الأدنى، بالإضافة إلى عدد كبير من الجدول الصغرى التي تغذي هذين الراهدين.

وهناك أيضاً عدد من الوديان والجدول الصغيرة التي كان بعضها دائم الجريان طول السنة وهذه تشبه أحد النيلين الرئيسية التي تغذي البرك طوال

السنة، تشبه أحد الينابيع المتواجدة في قرية تدعى (تل أبو سرياح) في الجزيرة إلى الغرب من الموصل.

ولقد أضاف بعض الملوك الآشوريين إلى الإمدادات المائية المتواجدة حول عواصمهم عن طريق إنشاء مشاريع هندسية لجلب المياه القادمة من الجبال. وحيث لا يوجد إمدادات من المياه السطحية المتوافرة كان الماء يجلب من طريق حفر الآبار.

ولقد وجدت عدة آبار آشورية ونُظِّت في منطقة نمرود وقد مارس سكان هذه السطور تجربة النزول إلى أحد هذه الآبار حتى عمق تسعين قدماً أو ما يقارب ذلك لفحص مقدرة الآشوريين في بناء المشاريع التي استعمل فيها الحجر.

وكان في كل مدماك ثالث من الحجر في مخطوطات ملكية تشهد على حفر باني البئر الملكي الذي قاوم عمله هذا ضغط التراب مدة تقارب ثلاثة آلاف عام.

ومن هذا البئر كان الماء ينهض بواسطة قنور متهنئة سمة الواحد نحو نصف جالون وهي مشدودة من أعناقها بحبل يشكل سلسلة طويلة ويدبره جشش على قمة البئر بحيث تظل القنور في حركة دائمة وهي تغطس في البئر.

وبالنسبة لنقل الماء من مصدره كانت تستعمل دلاء، وكانت هذه مصنوعة من الخشب أحياناً، ومن النحاس أو البرونز في أحيان أخرى، وكانت العادات القديمة في الشرق الأدنى تقضي أن هذا العمل كان من واجب النساء مع أنه لا يبدو أن هناك شاهداً أو برهاناً على ذلك.

الأوزان والمقاييس

إن بيع وشراء بعض البضائع يتطلب وجود بعض وسائل الوزن، وهذا كان ضرورياً لقياس الكميات الصحيحة اللازمة لبعض المعاملات التقنية الخاصة التي كانت تشمل الطبخ مثلاً.

ولهذا استعملت الموازين مثل هذه الأغراض، وكان بعض هذه الموازين صغيراً لدرجة أن استطاعته وزن نصف شاقل (وهذه قيمته غراماً أو أكثر بقليل).

والأخرى كبيرة بشكل مكافئ لتزن رجلاً، ونحن نعلم هذه المعلومة من بعض التقارير التي مفادها أن أحد ملوك آشور قد وضع أحد أعدائه الأسرى على ميزان وذلك لكي يقدر وزنه بالفضة التي ينبغي دفعها للشخص الذي أسره.

وكانت الأوزان المستعملة مصنوعة من الحجارة أو البرونز التي كانت منحوتة أو مسكوكة بشكل جميل جذاب يمثل بطة أو أسد.

وأما قياس الحجم فقد كان أكبر مقياس هو الإيمار ويعني حرفياً: حمل الحمار، وهذا يقسم إلى عشرة (سوتو) وذلك بدوره يقسم إلى عشرة (مكو) وكان حجم الكو يماثل ثلاثة باينت^(١) أو أقل من ليترين، وهذا يجعل قيمة الإيمار مساوية بالضبط لخمسة (بوشل) هذا وإتينا على علم بقيمة مقاييس الحجم الآشورية بشكل دقيق وذلك نظراً لأن بعض جرار التخزين فيها علامات تدل على سميتها.

(١) البانت مقياس للسوائل يساوي ١ على ٨ غالون والغالون ٤.٥٠ لتر.

الفصل الحادي عشر

الزراعة وتربية الحيوان والتجارة

كانت أساليب الحياة لدى الآشوريين من أول نشأتهم حتى نهايتهم مرتكزة على نوعين من الأنشطة:

وهي النشاط الزراعي (وتربية الحيوانات) ثم التجارة.

الزراعة

لقد اعترف ملوك آشور حتى أولئك الذين حازوا على شهرة حربية هائلة بأهمية الزراعة في حياة الآشوريين، ويذكر أكثر من واحد منهم عن تطوير الموارد الزراعية والحيوانية قام بها أثناء حكمه وهكذا يقول تفلان بلاسر الأول (١١٥-١٠٧٧):

(لقد أتيت بالمحارث لتعمل خلال جميع أراضي آشور، وهكذا تجمعت لدينا أكوام من الحبوب أكثر من عهد أي جد من أجدادي.

ولقد ربيت قطعاناً من الخيل، والمواشي والحمير وذلك من الغنائم التي كسبتها وبمعاودة سهدي الإله آشور من البلدان التي استوليت عليها).

وبعد أربعة قرون تقريباً مدح سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥) قم نفسه أو ربما مدحه الآخرون لأنه:

((قد قرر أن يستثمر الأرض المراحة، وأن يزرع البساتين وقد قرر أن يجني المحاصيل الزراعية من منعدرات الجبال الصخرية التي لم تنتج أبداً أي محصولات زراعية، وقد قرر أن يحفر أنفاقاً وأخاديد في الأراضي القاحلة التي لم تعرف وجود المحارث طيلة حكم من سبقني بحيث تجعل الناس ينشدون أناشيد الفرح)).

لقد تبينت نتائج سياسة سرجون الاجتماعية والاقتصادية، فلقد كانت هذه السياسة تفي بإنقاذ البشرية من الجوع والحاجة بحيث لا يصبح الزيت وهو

الضروري لترخية المضلات غالي الثمن داخل البلد ، وبحيث تصبح بذور الكتان رخيصة الأمان في الأسواق كالثعير.

ولقد أشرنا سابقاً أن مشاريع الري لم يكن من الممكن الاستئناء عنها في الزراعة في آشور ولعكن الري حيث يكون متوقفاً كان ذا فوائد معتبرة.

وقد هُندس عدة ملوك بناء أنظمة لمشي الأراضي حول عواصمهم ومن بينهم آشور ناصر بل في (كالح) وسرجون في (دور شار كين) وسنحاريب في (نينوى) ، وحول المواسم استطاع الملوك بناءً على وفرة المياه ، القيام بتنفيذ مشاريع طموحة بشكل استثنائي.

ولقد استثمر سنحاريب بصورة خاصة بعض مياه الري المتاحة لتنفيذ مشاريع زراعة واسعة حول نينوى ، حيث استبنت أشجاراً غريبة ونباتات كالقطن الذي جاء به من الخارج ، ولعكن مثل هذه المشاريع كانت استثنائية ، وعلى الرغم من الأهمية التي أظهرها سنحاريب في نقوشه للحدائق إلا أن معظم الأراضي حول نينوى كما هو الحال خلال بلاد آشور ، كانت تلك الأراضي مكرسة لزراعة المحاصيل الزراعية الغذائية ونباتات العلف.

كان المحصول الرئيسي في آشور هو الشعير مع القمح وهو النُد الثاني ، وكانت الحبوب المشتملة هي القمح الفاخر والدخن وهناك إمكان وصول الرز إلى آشور من خلال بلاد فارس وذلك في الألف الأول ق.م.

وكانت الأداة الزراعية الرئيسية هي المحراث في أشكاله العديدة المختلفة.

وكان أحد أشكال المحراث هو الذي يشق التربة ، والشكل الآخر كان لزراع البذور الذي كان في عملية واحدة يقطع الأتلام ويسقط البذور.

وكان كلا هذين النوعين يُجران إما بواسطة الثيران التي كان عددها يصل إلى الثمانية أو بشكل أقل بواسطة الحمير أو نادراً بواسطة الخيول.

كان موسم الزراعة في بلاد آشور (كما هو الحال اليوم) يبدأ بالحراثة وبذر البذور في أواخر شهر تشرين الأول وتشرين الثاني اعتماداً لهطول الأمطار ، وفي

السنوات الجيدة تبدأ أول زخات المطر في شهر تشرين الثاني مع أن المطر الغزير إنما يحدث حوالي شهر نيسان، ولكن لا تهطل الأمطار دوماً في شهر تشرين الثاني وإذا تأخرت الأمطار طويلاً نتج عن ذلك سوء الموسم حتماً، وقد كان هذا يحدث حتماً ولقد صادفه في عام ١٨٤٧ ميلادي السيد هـ لا يارد.

يحدث دائماً أن يمر الموسم دون سقوط أمطار، وهكذا كان الحال في هذا العام ففي خلال الشتاء والربيع لم تهطل الأمطار، وبدأ السكان وهم في حالة يأس وقتنوط بسبب السماء الخالية من الغيوم وقد راقبت الأعشاب الصغيرة النامية وهي تحاول التضرال للعروج من خلال الأرض الصلبة اليابسة ولكن هذه الأعشاب تحترق قبل ولادتها.

وفي بعض الأحيان قد تدنو غيمة فوق التلال المستوحشة في أبريل، وإذا ارتفعت الغيوم في السماء فلامدة من الصحراء في اقاصي الغرب فإن ذلك يؤدي إلى بداية الأمل، وإذا هطلت بضمة قطرات من المطر فإن ذلك يؤدي إلى ظهور الفرح والعبور، ولكن كان يتلو ذلك خيبة الأمل، فقد مرت الغيوم وظهرت فوقها السماء الزرقاء الصافية.

وبالنسبة لأشور القديمة (كما هو الحال بالنسبة لنفس المنطقة طيلة القرن الماضي) كان انقطاع المطر يؤدي إلى كوارثة ويهدد بالمجاعة، ونتيجة لذلك كانت أحوال مصير الحصاد قضية ذات أهمية خاصة لجميع الناس في خلال البلاد.

مما يجعل من الأهمية بمكان أن يبادر المسؤولون الإداريون لرفع التقارير إلى الملك ويخبرونه بالوضع الحاضر بالنسبة للأمطار والمحاصيل.

وقد لقيت الخرافات دورها بحيث ترسل إلى الملك تقارير ملكية حول الوضع الراهن بواسطة الخبراء الدينبيين، وكان هناك قدر من الاطمئنان ضد سوء المحاصيل الشامل وذلك لوجود موسمين لزراعة الشعير موسم متقدم وموسم متأخر، وذلك في أرض تختلف نوعياً، وهكذا، إذا هطلت الأمطار باكراً عند أحد المزارعين وهطلت بشكل خاطئ عند مزارع آخر فإنه يصبح عندهما من المؤكد أن الموسم سوف يصبح جيداً عند أحدهما.

وهناك تهديد ثانٍ رئيسي للمحاصيل الزراعية وهو أمشاط الجراد ، وقد كانت أخبار هذه المصيبة تصل إلى الملك في رسائل يرسلها الولاة المحليون أو يتبأ بها الفلطيون في تقاريرهم ، ولكن وجود الجراد بأعداد ضخمة لم يكن كارثة عامة لا يمكن تجنبها ، فقد كانوا يصطكون بالجراد ويأكلونها كطعام يدل على البذخ ربما كان مثل القريديس (برغوت البحر).

إن ما نعرفه عن المحاصيل الزراعية الآشورية من النصوص القديمة يمكننا الآن إتباعه نتيجة لأعمال الباحثين النباتيين المتعاونين مع علماء الآثار وذلك لفحص بقايا النباتات المتبقية.

ويخبرنا المرحوم الأستاذ هانس هيل وهو واحد من الرواد في هذا المجال: إنه وبعد الحكم عن طريق بذور الأعشاب النامية بين بقايا الذرة فقد حملت حقول الشمير كميات من الأعشاب مثل: الشوفان والشيلم والكروسة والحمضة.

وهو لا يذكر (بسبب عدم وجود بقايا من البذور) أن النباتات البصلية وبصورة خاصة نباتات الثوليب الذي كان حتى الستينات من القرن العشرين لا يزال بكميات وافرة في حقول الذرة في بعض أجزاء شمال العراق حيث لم تكن عملية الحرثة العميقة التي تكلف هذه البذور قد وصلت إلى المنطقة.

إذا لم تسقط محاصيل الحبوب ضحية للجفاف أو الجراد فإنها كانت تجنى ابتداء من نهاية شهر نيسان حتى أواخر حزيران وذلك باستعمال المناجل التي كانت تصنع من الأكف الثالث ق م من النحاس أو البرونز ، وقد استعمل الحديد فيما بعد.

وقد كانت الذرة تقطع وتجمع بشكل حزم وترفع بواسطة المذراة وتقل إلى أرض البيدر ، وكانت هذه عادة مستوية ناعماً من الصغر في مكان غير ممرض لهبوب الرياح وذلك من أجل عملية التذرية ، وكانت عملية دراسة المحصول تتم بمساعدة الثيران التي كانت تجر نوباً وهو لوح خشبي غرز فيه قطع من الأحجار المنيبة من الصوان ويدور هذا اللوح فوق الذرة المنتشرة.

وبعد فصل حبوب الذرة عن السنابل وكانت تجري عملية التذرية وذلك برمي الذرة في الهواء بواسطة رفوش خشبية وتحمل الرياح التبن الخفيف أما الحبوب الأثقل فتسقط على البدر وأخيراً توضع الحبوب النظيفة في مخزن، وهذا يخص شخصاً معيناً أو يرسل إلى المعبد أو إلى مغازن الدولة، وحتى في تلك المرحلة هناك مشكلات واجبة الحل نظراً لأنه إذا وجدت الثيران والطيور طريقاً إلى المخازن فإنها سوف تواقع الهلاك في مغازن الحبوب.

ومن الممكن أن تخصص الحبوب للاستهلاك السريع من قبل الآلهة أو البشر أو الحيوانات، وفي حالة الحيوانات فإن الحبوب تستعمل إما كاملة أو مطحونة كعلف للمواشي أو الخيول، أو تستعمل بشكل كرات من العجين لتسمين البط والإوز، أما إذا كانت تستعمل كطعام للبشر فإن الحبوب كانت إما أن تسحق للاستعمال بشكل برغل أو تطحن لعمل الطحين وتنعم للخبز وكان الشعير يستعمل لصنع البيرة.

هناك نوع من المحاصيل الزراعية التي حدد هويتها الأستاذ هيليك من بقاياها الكريونية وهو على نحو يقبل الجدل وهي بذور الكتان وهي مصدر الزيت الذي يدعى زيت الكتان وخبوط الكتان.

ولا شك أن هذا النبات كان ينمو في منطقة ما بين النهرين القديمة قبل الألف الأول ق.م، وأن النقطة المثيرة للجدل التي تظهر أنه كان هناك أيضاً نبات منتج للزيت وهو يدعى باللغة الأكادية شما شامو (والتي معناها أحلا نبات الزيت) وعندما يعلم الإنسان أن الشين الأكادية يصبح شيئاً بالمربية فمن الواضح عندها أن هذه الكلمة هي أصل اسم سمسم بالمربية، ولكن هل كان السمسم نباتاً حقيقة ؟

وقد أجاب الأستاذ هيليك على هذا السؤال بكلمة: كلا، فهو يظن أن هذه الكلمة تعني: نبات الزيت، وهو بذور الكتان الذي وجد منه كميات هائلة وليست السمسم الذي لم توجد منه أي كمية بالقيّة.

وطبقاً لرأيه فإن السمسم لم يصل إلى منطقة ما بين النهرين من الهند إلا في الألف الأول قـم عندما حل محل بذر الكتان واتخذ اسمه السابق.

ولكن الرأي حول التاريخ المتأخر لوصول السمسم لا مجال للشك فيه ويستمر بعض الباحثين بالقول إنه كان مستعملاً في بلاد ما بين النهرين القديمة بما فيه آشور.

وهناك بين النباتات الغذائية التي وجدت المدس والحمص والخيار ، وقد ذكرت البساتين في النصوص وأحياناً ظهرت مرسومة في الألواح الناقرة ومن بين الفواكه المعروفة من مثل هذه المصادر والمتميزة بشكل نباتي من بقاياها وهي: العنب والتين والزيتون والرمان وكان التمر طعاماً شائعاً في آشور مع أن أشجار النخيل لا تتجعد هناك ، وكان مصدر تصديرها ووجودها أتت من بابل.

لدينا مصادر أخرى من المعلومات حول الأشياء التي كانت تزرع في بلاد آشور ، مثلاً هناك قائمة بالمأكولات التي استهلكت في المأدبة التي أقيمت عند تدشين العاصمة التي بناها آشور ناصر بل الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) قـم وهي كالآخ ، وفيها تعد أعداد كبيرة من الطعام والتي كان الكثير منها من أصل نباتي ، وليسوء الحظ فإن تحديد هوية الأكثرية من هذه المواد هو عمل حتمي ، ولكننا نستطيع وثقة أن نعرف على البصل والثوم والكرات واللفت والبهارات.

وقد أنشأ بعض الملوك الآشوريين عمداً بعض الحدائق التي زرع فيها نباتات وأشجار منقولة من بلاد أخرى ولكن عرف كثير من الحالات كانت النباتات الجديدة قد أحدثت تأثيرات على الزراعة في آشور بصورة علمة.

وهناك مثل قد تطرقنا إليه سابقاً كان تقديمه ذا أهمية اقتصادية وهو الفطن وينزره وكان مريحاً بذكره كواحد من النباتات التي زرعها في حديقته حول نينوى وقد سماه الأشجار التي تحمل الصوف ، وكان قد صرح بوضوح بالنسبة لاستعمال هذا النبات بقوله :

لقد هلقوا الأشجار التي تحمل الصوف وغزلوها ونسجوها لتشكيل بعض الألبسة.

تربية الحيوانات

كان هنالك عنصر مسلو في أهميته للمحاصيل الزراعية وهو تربية الحيوانات، وكانت أهمية تربية الحيوانات القومية قد اعترف بها لتتكون موضوع بشير الفأل الحمين التي كانت ترسل إلى الملك، وهكذا نجد تهبوات من النوع الثاني ((عندما تحيط حالة بالقمر - ونجم القمر يقف ضمنها فإن الماشية في البلاد سوف تفتح إنتاجاً حسناً)).

أما الآخرون من الكهنة فيذكرون معاني عكسية إذ يقولون:

((عندما يقترب الكوكب زحل من مجموعة نجوم هايادس (ومعناها الحر في ذلك الثور) فإن هذا يعني: إما أن الظروف المناسبة المواتية في البلاد سوف تختفي أو أن منتوجات المواشي والأغنام سوف تصبح في حالة عسيرة من عدم الازدهار)).

وكان للمواشي أهمية مزدوجة فلم تكن هذه ذات قيمة بالنسبة لكونها مصدراً من مصادر الطعام فحسب بل لكونها أيضاً تستعمل كحيوانات للنقل والجر.

فالتيران كانت تستعمل لجر المحارث والعربات فضلاً عن عملية دراسة العيوب ولما كانت الثيران غير لازمة الآن للتربية فإنها كانت تخص عادة مع أن بعضها كانت تترك حرة لأن بعض الطقوس الدينية تتطلب تضحية ثور غير خصي، وكان لحم المجل من العناصر المقبولة على مائدة الطعام مع أنه ليس شائماً سوى على موائد الأغنياء.

وقد تضمنت مائدة الملك آشور ناصر بعل مئة ثور مملح (من المحتمل أن تكون بشكل قطع كبيرة لأنه من المستحيل تمليح الثور كاملاً لحفظه من الفساد).

وهناك إحدى المظاهر المهمة بالنسبة للبقرة وهو إنتاجها للحليب ولدينا صورة مشهد حلب البقرة من فترة مبكرة (مع أنها ليست من آشور) وبالإضافة إلى استعمالها بشكلها الأصلي فإن حليب البقر يستعمل بشكل يدعى الحليب الحلو، وقد تكون هي اللبن، الباغورت وكذلك تحضير الجبنه مع أن الجبنه الوحيدة

من أهل معروف مذکور في النصوص الآشورية إنما هي من حليب الفتم، وكانت المواشي تحفظ بشكل قطعان في الحظائر وتقيم في سقيفات.

ولكن يجب أن يكون قد حدث شيء من تجمعين التمثل ضمن المواشي المنزلية لأن النصوص تشير إلى إدخال ثيران برية إلى الحظائر وكانت هذه الثيران ترضع مع البقرات، إذ لم تكن هذه الثيران قد أحضرت لأجل الرعي فحسب.

كانت الأغنام شائعة جداً بشكل أجناس مختلفة ونحن نعلم أسماء بعض الأجناس من النقوش، ولكننا لا نملك أي وسيلة لمعرفة خصائص هذه الأجناس مع أن أحد هذه الأجناس يحمل اسم ذات الصوف الذي يشبه الأسلاك وهذا الاسم يفسر نفسه، وهناك اسم لا يقدم لنا أي مشكلة بالنسبة للتمييز في هويته وهو الفتم ذو الذنب السمين، وهو لا يزال شائعاً في العراق في هذه الأيام وقد عرفت بعض أجناس محلية مثلاً: العموري والأصكادي وغنم حانا.

والأخير سمي باسم مكان واقع في منطقة الفرات الوسطى مع أننا لسنا متأكدين فيما إذا كانت هذه الأجناس موجودة في آشور، ولكن نعلم بالتأكيد أن هناك جنساً مرموقاً في آشور باسم (حابي) وهو اسم مأخوذ من مكان تواجد في الجبال الشمالية، ولقد كان هذا سبباً في تشويش جرى على بعض الباحثين في دراستهم الجغرافية القديمة عندما افترضوا أن أي مكان ذكر فيه اسم أغنام (صباح) لا بد أن يكون من منطقة تدعى صباحا.

لقد كانت أهمية الأغنام تكمن في لحومها وحليبها (وهو المستعمل في جميع الأشكال المذكورة بالنسبة لحليب البقر وكان يشار إليه بشكل مستمر) وكذلك لأجل أصوافها.

وحتى عام (١٤٠٠ ق.م) كانت الأغنام في بعض أجزاء آشور على الأقل تتعرض للنتف وليس للجزأى: إن الصوف كان يجري اقتلاعه أو نزعاً بالتعطيط عند فترة تبديل الحيوانات لصوفها، ولكن جز الصوف المعروف الآن بأنه كان مستعملاً في وقت أبكر أصبح العمل العادي المعروف فيما بعد.

ومن الممكن إن كان ذلك مصحوباً ببعض التغييرات الجينية في الأغنام التي جمعت الصوف سهل الجز ، وقد كان موسم الجز في زمن قدوم الصيف وبالتحديد في شهر أيار.

وكانت جميع الأجناس المدجنة تستعمل لتقديم القرابين للآلهة ، ولكن الأغنام لعبت دوراً إضافياً في مجال السحر والدين ، وكانت إحدى الطرق الأكثر شيوعاً للحصول على فال حسن أن تقدم سؤالا أو رغبة للإله ويعدّها تذبيح شاء لم تفحص كبد الشاة ، إذ إن أي شذوذ في كبد الشاة كان يفسرها منجم خبير بأنها هي إجابة الإله على سؤالك واستفسارك.

ولقد أصبحت هذه الأشياء أقل أهمية في آشور عند ازدياد أهمية التجميم لنفس الفرض ، كانت الماعز غالباً ما ترمى مع الأغنام ، إلا أنها كانت أقل عدداً من الأغنام وكانت تقص شعور الماعز في الوقت نفسه الذي تجز فيه أصواف الغنم. وفي هذه الأيام أصبح شعر الماعز ذا أهمية لكونه يشكل البهاق مهمة لصنع الخيام والسجاد ، ونظن أنه كان يستعمل هكذا في الأزمنة القديمة مع أن الشواهد المحددة غير متوفرة ولكننا نعلم علم اليقين أن شعر الماعز يستعمل لحشو الفرش.

وكان حليب الماعز يستعمل في نفس الأغراض التي كان يستعمل فيها حليب الغنم ، وكان لحم الماعز صالحاً للأكل كما هو الحال اليوم في العراق.

أما جلد الماعز فهو مفيد في صنع حاويات مائية لحفظ الماء (قرب) وكانت تستخدم عندما تريض بإحكام وتنفع في صنع الأطواف العائمة وكانت الأطواف العائمة من هذا النوع مفيدة للمباحين وقد ظهر هذا العمل في أحد الألواح الجدارية النافرة في آشور.

وما تزال تستعمل من قبل الصيبيان العراقيين على نهر دجلة في الموصل في السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٠) وكانت مجموعات من جلود الماعز المنفوخة تستخدم للعموم في القوارب التي تسمى ككيليك المستعملة لتقل فوق مياه نهر الفرات والدجلة منذ أيام الآشوريين حتى الخمسينات من القرن العشرين (١٩٥٠ ب.م).

كانت قطعان الأغنام والماعز تحت إشراف الرعاة الذين كانت واجباتهم حماية الأغنام والماعز وهي ترعى حول القرية أو في مسافات أبعد في الريف الفسيح، وكان يساعد الرعاة كلب الحراسة المتوحش، وكانت هذه الكلاب مجبرة على معالجة الهجمات التي كانت الأسود والثئاب تشنها على القطيع، ولقد بنى هؤلاء الرعاة أكواخاً لحمايتهم وتأمين راحتهم، وكانت القطعان ربما تخص أشخاصاً معينين أو تخص المعابد أو تخص الملك وكان بعضها كثير العدد.

وفي بابل كانت المعابد تمتلك قطعاناً ضخمة بحيث إن الموظفين الذين كانت حقوقهم بالرعي تتأثر بهذا الوضع، كانوا يتذمرون وهكذا نجد تقريراً أرسل إلى الملك في الوقت الذي كان الملك آشور يحكم بابل، مفاده:

((إن أهالي مدينة بورشينا (وهي مدينة قرب بابل وفيها معبد للإله نابو) كانوا يشتكون بقولهم: إن مواشي وأغنام الإله نابو تقطي وجه الأرض)) وكانت المعابد الآشورية تحت رقابة شديدة من جهة الملك ولم يكن من المنتظر منهم أن يسبلوا لحقوق المواطنين.

بينما كان هناك عدد كبير من الأغنام في آشور وبشكل قطعان، إلا أن بعض الأفراد الفقراء لا يملك الواحد منهم أكثر من غنمة واحدة أو غنمتين للحصول على الحليب لصنع الجبن وغيرها.

وهناك ذكر الأغنام على سطح المنزل وهذا ربما يشير أن صاحب المنزل يمكنه اقتناء بعض الأغنام ووضعها على سطح منزله.

وكانت قطعان الغنم والمواشي متعرضة للتناقص بسرعة تزيد عن معدل زيادتها الطبيعية وذلك لأننا نسمع عن أمراض معدية وجوائح في الحيوانات كانت تسبب نسبة كبيرة من الموت للحيوانات، وهناك أيضاً اليرقات الطفيلية التي تسببها بعض أنواع الذباب التي كانت تهاجم الأغنام والمواشي والخيول.

كان التخزين حيواناً مروضاً في منطقة ما بين النهرين القديمة، وكان يخدم كمعامل لجمع القمامة والتخلص منها في المدن، وفي الأزمنة المبكرة كان هناك قطعان من الخنازير وكانت لحومها ودهونها مواد مقبولة للأكل، ولكن هناك

منعاً دينهاً وتحريماً للحم الخنزير بقي قائماً حتى اليوم في الديانة اليهودية والإسلامية.

ولكن هذا المنع في طريق التطور والزوال تدريجياً ، إذ إنه وفي الفترة المتأخرة وصف الخنزير بأنه محرم من قبل جميع الآلهة ولكن لم يحدث هذا إلا بعد عام (١٤٠٠ ق م) وهو الزمن الذي نجد فيه أن بعض أجزاء آشور كانت تستعمل لحم الخنزير.

الحمير والحمل والبال

كان الحمار (وهو نوع يختلف في تصنيفه عن حمار الوحش الذي كان من الحيوانات المعروفة في منطقة ما بين النهرين) كان حيواناً آخر ذا أهمية اقتصادية كحيوان يصلح للحمل ، وكانت قوافل الحمير في آشور في بداية الألف الثاني متوفرة للقيام بالأعمال ونقل البضائع إلى أواسط الأناضول ، ولقد سميت مقاييس الحجوم باسم الحمار ففي اللغة الأكادية يدعى أكبر مقياس للحجوم إيمار أو إمار وفي العبرية كلمة حور المشابهة لها تعني حمل الحمار ، وهي مشتقة من اسم هذا الحيوان وكذلك أطلق اسم الحمار على وحدة المساحة وهي نفس الكلمة التي تعني: مساحة الأرض التي من الممكن بذار كمية من الحبوب تساوي حمل حمار.

وفي الأزمنة القديمة كان الحمار حيواناً مخصصاً للركوب مع أنه قد بدأ الاستعاضة عنه بالحصان في الألف الثاني ق م.

إلا أن ركوب الحمير كان سائداً في نظام المواصلات الملوكي في الألف الأول ق م في آشور .

فالحمير أكثر أمناً عند الركوب من الخيول ولاسيما في الأراضي الصخرية حيث إن حدوث أي زلة تعني الكارثة ، وحسب معرفتنا لم يستعمل لحم الحمار للأكل ولكن لحم الحمار الميت من الممكن استعماله طعاماً للكلاب .

ولقد عرف الحصان وما يزال حيواناً ذا هيبة وكبرياء مع أنه وباعتبارات تختص بالتزاوجات الجنسية المحافظة لقد عد الحمار أو البغل أكثر ملاءمة منه للأغراض الدينية الاحتفالية.

ولقد أصبح الحصان ذا أهمية بالغة في بلاد آشور في الألف الأول قـم لاسيما للأغراض العسكرية بالنسبة للعربات والخيالة.

ولقد استوردت قطعان الخيول بشكل دائم من الشمال والشمال الشرقي وذلك على شكل جزية أو بشكل غنائم حرب، وهناك مناطق شهيرة بتربية الخيول إلى الجنوب من بحيرة أورميا مباشرة في شمال غرب إيران، ولقد تناقشت آشور مع جارتها مملكة أورارتو للمساعدة على تلك المنطقة، وبهذه المناسبة يقول الملك سرجون الثاني باعتزاز :

”وبالنسبة للناس الذين يمشون في تلك المنطقة في أراضي أورارتو فإنهم ليس لديهم أي مهارة في قيادة خيول الفرسان، فالمهزوم الذي يريونها لخدمة القطع العسكرية الملكية تمسك سنيوياً وتؤخذ إلى بلاد سوبي (للتدريب) حيث يرون مذبذبتها فليس من المسموح أن يعتلي أحد ظهورها، وهي لا تتلم من الهجوم أو جر العربات أو من التهور أو التدريب على الحرب“.

ويشار إلى سلالتين من الخيول وهما: سلالة الكومسي وسلالة المهي وهما تنزهران من أجزاء مختلفة من الأراضي الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق.

وقد ذكرت عدة ألوان من الخيول أيضاً، فالخيول البيضاء مخصصة من الواضح أنها تُعد حيوانات حية صالحة للأغراض الاحتفالية أكثر منها كضحايا لتقديم القرابين لبعض الآلهة، ووعلى الرغم من الإشارات المتعددة إلى استيراد الخيول إلا أنه من المؤكد أن الخيول كانت تربي في بلاد آشور لأنه قد ذكرت الأفراس والمهور ولم يستعمل الآشوريون خيولاً للأغراض العسكرية سوى الفحول من الخيول.

ونرى أحد الملوك الآشوريين يذكر باحتقار عن ملك من ملوك الأعداء المهزومين قد هرب راحكياً هرساً.

كان تأمين الخيول للأغراض العسكرية أمراً ذا أهمية خاصة، ويشير الملك سرجون إلى إحراق مخازن التبن التي كان أحد الملوك الأعداء في شمال آشور قد أعدها لأجل خيوله. وعندما مار الملك ستمحاريب زاحفاً إلى الخليج العربي لإتمام هجوم بحري على عيلام (إلى الجنوب الغربي من إيران) فقد حمل العيوب والتبن بواسطة السفن وذلك لاستعمال خيوله التي سارت عن طريق البر حتى وصلت الخليج ومن ثم نقلت بحراً عبر الخليج.

وكما ذكرنا توأ فقد عرف الحصان لأول مرة من مناطق في الأقطار الشمالية وقد حصل الآشوريون على خيولهم من الشمال أو الشرق، لذلك لا عجب أن يكون الآشوريون قد اكتسبوا خبرتهم بالخيول من شعوب قطنت في تلك المناطق، ولقد رأينا سابقاً واجبات الاحترام والتقدير التي قدمها سرجون لبعض الشعوب في شمال غرب إيران بهذا الخصوص.

وهناك برهان ثابت أن المنطقة الشمالية كانت مركز تربية الخيول يظهر من أحد النصوص التي ترجع إلى الألف الثاني وهي تذكر شيئاً عن تدريب خيول جر العربات، ولا شك أن هذا كان معروفاً في آشور لأن لدينا نصاً (ولكن لحق به ضرر كبير) فيه إرشادات بالنسبة لهذا الموضوع وهو لا شك مدين بما فيه من المواد إلى المصادر الحثية، ونجد فيه أن الخيول كانت تعامل بعناية عظيمة كما تعامل في هذه الأيام.

وهنا نذكر جزءاً من هذه التعليمات:

”يجب أن تنزع السروج عن الخيول... دعها تتدحرج حول نفسها... وقدم لها العلف... وحافظ على نظنها... وافركها جيداً“.

وكان من الممكن أن تنهار الخيول ضحية للأمراض السارية كما يحدث للماشية والأغنام إذ نحن نجد ما يذكرنا بهذه الأمور.

أما البقل: فهو ينتج كعجين عقيم عن تلقيح الحمير والخيول وهو حيوان معروف أيضاً من منطقة ما بين النهرين القديمة بما فيها آشور، وهناك مثل بابلي

مضحك يمحس الحقيقة التي مفادها: إن البغل يمكنه أن يرث صفات الحمار أو الحصان ويقول المثل:

((عندما يركب الحصان المتعب ظهر حمارة، يمحس في أذن الحمارة: دعي المهر الذي سوف تحملين به أن يكون عداء مثلي ولا تجعليه حيوان جر وحمل مثل الحمير)).

وعلى الرغم من طموحات الحصان الفحل الأب فإن البغال في آشور كانت تستعمل للجبر والحمير كانت تستخدم للركوب، البغل هو ابن الحمار من الفرس.

الطيور

كانت أسراب البط البري وكذلك الإوز تصطاد بواسطة شباك، وقد ربيت بعض الأصناف المهجنة من سلالات مختلفة لتكون مصدراً من مصادر الحصول على اللحوم وكانت تسمن بعد أكل الشعير الذي كان يقدم لها بشكل عجينة.

وكان شعب الإوز يستعمل كدواء في الطب، ففي بابل وفي الألف الأول كان هناك ساحات خاصة لتربية البط وكانت تلحق أحياناً بالمعبد ومن المحتمل أن ذلك كان سائداً في آشور أيضاً.

كان الحمام (الذي كان يمتاز بالنظرة الشاعرية إليه في الأدب الآشوري) يربي في بلاد آشور وبشكل وتشير قصة الطوفان البابلية التي نقلت في التوراة باسم طوفان نوح تشير هذه القصة إلى أن الحمامة قد رجعت إلى الفلك بعد أن أطلق سراحها، وهكذا فقد كان سكان ما بين النهرين القدماء عالمين بفرائب الحمام المتعلقة بحب الوطن، ولحسن هناك أي ذكر لاستخدام الحمام الذي ينقل الرسائل.

التجارة

كان العامل الثاني الذي سبب ازدهار آشور هو التجارة بشكليها الداخلي والعالمي.

التجارة الداخلية:

إنه وفي علومنا الاقتصادية نأخذ بالحسبان وجود نظام مميز مؤسّس على المال وهو يخدم ككمقياس للقيمة وأيضاً كوسيلة من وسائل التبادل وبذلك يساعد الفرد ويسهولة على التصرف بما ينتجه وعلى الحصول على ما يحتاجه، وهناك بعض المرونة التي تتحقق عن طريق نظام القروض الذي تقوم به البنوك.

لم يكن الاقتصاد القائم على المال متوفرّاً في آشور القديمة، وعلى الرغم من الإشارة المهمة التي تمّوه بها الملك سنحاريب عام (٦٩٤) ق م حول حب التماثيل البرونزية التي قال عنها إنها نشبه: "صك قطع الشيكّل".

(وربما أنه كان يعني أن الحرفيين في بلاده يستلمون للتصرف بكميات كبيرة من البرونز بشكل ماهر كما لو أنهم يصنعون قطعة نصف شيكّل).

إلا أن النقود المعدنية لم تلعب أي دور في نظام التوزيع الآشوري فقد استعملت عملة النقود المعدنية أولاً في آسيا الصغرى في وقت لا يقل عن الوقت الذي سقطت فيه الإمبراطورية الآشورية، ومن جهة أخرى كان هناك في آشور سلف بدائي لاقتصاد المال، فقد كانت المعادن تستعمل بصورة مستمرة كوسيلة للتبادل ولم تكن هناك عملة معدنية مختومة، بل كانت المعادن تستعمل كقطع تعرف قيمتها بوزنها، وفي الأوقات الصعبة كان الذهب والفضة والقصدير والنحاس كلها تستخدم لهذا الغرض مع أن الأكثر شيوعاً من هذه المعادن في الفترة الآشورية الجديدة كان الفضة.

ولقد تجاوزت الأعمال الآشورية استعمال الفضة كوسيلة للتبادل، بل وصلت إلى مفهوم استعمال الفضة ككمقياس للقيمة، وهكذا نشأت حالات حين كانت

تحدد الديون بكمية من الفضة ولكن هذه الديون كانت تنفع بطرق أخرى مثلاً
بكمية من الشعير.

وبالاختصار فإننا لا نود إنشاء نظرية اقتصادية جديدة عندما نقول: إن هذه
العملية وهذا الاقتصاد هو (اقتصاد شبه نقدي).

لم يكن الاقتصاد الذي تمتثل فيه المادون كواسطة للتبادل، ولا بشكل
من أشكال النظام المتبع بالتوزيع المتوفر في دولة آشور في الألف الأول ق م فقد
كان هناك مساحات واسعة من الأراضي تمتلكها الدولة المتمثلة بشخصية الملك،
وكان هناك كثير من الناس ابتداء من الموظفين الكبار حتى الأتقان والعبيد
وكان هؤلاء، جميعاً يعتمدون على الدولة من أجل تأمين معيشتهم، وهذا كان
يسمح بإحداث نظام مباشر للتوزيع، فقد كانت منتوجات أراضي الدولة تصل إما
إلى العاصمة أو إلى المخازن في المدن الرئيسية المحلية، أما المنتوجات التي كانت
تصل إلى العاصمة فقد كانت تستعمل لتلبية حاجة البلاط والمعابد وبعضها كان
يخصص كإعاشة لمختلف الموظفين والعمال.

وكان القمح المخزن في المدن المحلية يوزع جزء منه حسب المقتضيات، وبعضه
الأخر كان يشكل احتياطي استراتيجي لاستعمال الجيش عند القيام بحملات في
المنطقة أو خارجها.

وكان هذا هو نظام التوزيع المباشر وهو يقع خارج الاقتصاد شبه النقدي،
وكانت إمدادات الحبوب التابعة للدولة بشكل كلي خارج الاقتصاد شبه المالي
وهي تدخل ضمن التجارة الخارجية المالية، فنحن نسمع مثلاً عن معونات ضد
المجاعة قد أرسلت من آشور إلى عيلام في أوقات الطوارئ.

أما منتوجات الأرض وهي غير المنتوجات التي تملكها الدولة بشكل مباشر
معرضة لتكوين نظام توزيع مختلط، فقد كان كثير من الموظفين لديهم حصص
من الأراضي وقد استلموها من الدولة، وكانت مثل هذه الضيع تدفع جزءاً من
محاصيلها للدولة كضرائب، مع أن أراضي بعض الموظفين المُرُضى عنهم كانوا
يتمتعون بإعفاءات من الضرائب وكان قسم من محاصيل الضيعة ينقل عن طريق

التوزيع المباشر إلى العائلات المتصلة بالأرض، وكان هذا يتم بالطريقة التي كان المعتمدون بشكل مباشر على الملك يحصلون بها على دخلهم، وأما الباقي، ويمد خصم بعض الالتزامات، فهو يصبح تحت تصرف مالك الضيقة، ويصدق هذا على أي فائض يخص أولئك الفلاحين من مالكي الأراضي الذين كان عددهم في تراجع وتقص مستمر.

وهذا الفائض سوف يكون متوفرًا للدخول في الاقتصاد شبه المالي، ويحدث أحياناً تماس مباشر ما بين الظاهرتين المتوازيتين من الاقتصاد، وهكذا نجد عقداً يعطي الحق لشخصين لشراء الحبوب بواسطة الفضة التي حصلوا عليها، ولكن الحبوب ينبغي أن تشتري في إحدى الولايات وتسلم عن طريق النقل المالي في النهر في ولاية أخرى.

ولكن يبدو أنه باستعمال الاقتصاد شبه المالي فقد أصبح من الممكن استعمال الفائض من القمح في إحدى الولايات للتفويض من نقصه في ولاية أخرى، وعن طريق المبادلات التجارية لهذا النوع من البضائع أصبح من الممكن التحرك من اقتصاد التوزيع المباشر إلى الاقتصاد شبه النقدي.

ومع وجود مجتمع معقد لا يسمح بإمكان التبادل بالمقايضة الحرة على مقياس واسع وفي مجتمع غير مؤهل بشكل كاف لوجود اقتصاد معتمد على توزيع الحصص المباشر وجملة مناسباً كلياً كان من الضروري وجود نظام شبه نقدي.

فقد كان هناك في المدن أعداد متوفرة من الناس الذين لم يكونوا من طبقة الموظفين الذين يحق لهم استلام الإعاشة من الدولة، ولا هم من العمال العاملين بشكل مباشر في إنتاج وسائل التغذية، وربما بظن المرء أن هؤلاء الناس كانوا عبارة عن جماعة من صائمي الفخار والنساجين أو صناع المعادن أو ناقشي الاختام ولكن وجود بعض هؤلاء في خدمة الملك لا يؤثر على وضعهم كطبقات مستقلة.

وكان هناك أيضاً رجال أحرار فقراء لم يمتلكوا أي أرض ولكنهم لم يكونوا ملتصقين بأي أرض أو ضيقة الأمر الذي يعطيهم الحق ليمسكوا في جني المحاصيل.

وقد كان مثل هؤلاء الناس يميخون كعمال في مختلف المجالات، مثلاً المساعدة في جني المحاصيل أو القيام بمهام البناء وهلم جرا، وبينما كان هؤلاء العمال يستلمون ما يدفع لهم بشكل حصص أسبوعية من الطعام والشراب ولحكن حاجياتهم الأخرى من الممكن أن تُلبى بشكل دفعات من الممكن اعتبارها وسيلة تبادل.

ومما يدل أن هذا كان يجري فعلاً ما تثبته مذكرة تشير إلى دفع الفضة أو النحاس للعمال، وفيما يلي مثال حول عقد لإتمام بعض أعمال البناء، اشتغل فيه جماعة من الرجال في مشروع يتوقع أن يستغرق شهراً وقد دفع لهؤلاء وجبات يومية (إعاشة) وكمية من النحاس في آن واحد.

وفيما يلي مثال عن عقد جرى لإتمام بعض أعمال البناء، عمل به مجموعة من العمال ويُنتظر إتمام العمل في مدة شهر واحد، وقد دفعت لهم كملاً الإعاشة ووزنة من الفضة.

لهذا توجد قائمة من الأسماء الشخصية

المجموع: ستة عمال.

وزنتان من النحاس.

٦، ٣ وهومر (وهو مكبال عربي قديم) من الخبز والبيرة.

ولسوف ينجزون العمل في مدة شهر.

لهذا سطر معناه غير مفهوم

وهم سوف يتمون الدعائم

ولسوف يركبون السقف

وسوف يضعون الصندوق في مكانه

وإذا صادف ولم يتموا هذا العمل

فإنهم سوف يستمرون في العمل حتى النهاية

أي حتى ينهوا عملهم بعد شهر.

وإن الصندوق المذكور ربما كان الفطاء الخشبي لبرج التهوية على السطح.

وأما كميات الطعام الموجودة فهي كميات الطعام اللازمة لكل عامل في كل يوم، بواقع نحو ستة بلونديات من الخبز وستة بلينات من البيرة في حالة وجود ٦، ٢ هومر من كل واحد من هذه الأصناف أو نصف هذه الكميات إذا كان هناك ٦، ٢ هومر وهي مجموع كميات الخبز والبيرة.

ومن الواضح أن الرجال كانوا يستلمون وجبات أساسية كاملة وكذلك كميات النحاس المذكورة كالأجور التي كانوا سوف يستلمونها كمصروف للجيب لأجل تلبية حاجاتهم الأخرى.

وبالنسبة لأسعار النحاس الحالية فإن الوزنتين من النحاس المذكورتين يعادل ثمنها عشرين جنهماً استرلينياً لكل رجل لمدة شهر واحد، ونظراً لوجود فروق شاسعة ما بين تكاليف المعيشة في منطقة ما بين النهرين القديمة وتكاليف المعيشة في المجتمع الغربي الحديث، فإن هذه التقديرات لا تمثل أرقاماً ذات معنى حقيقي لتقدير الأجور القديمة بالنسبة للقوة الشرائية.

لا نعلم بالتفصيل كيف يستطيع العامل استعمال الكمية الضئيلة من النحاس أو الفضة للحصول على بضائع وأشياء أخرى، ومع ذلك فقد كان هناك عدد كبير من التجار وبينما نرى بعضهم مهتماً بالتجارة على مقياس واسع، مثلاً الصفقات المذكورة آنفاً لجلب الحبوب من مقاطعة أخرى، لذلك نجد أن هناك دلالات عن وجود بعض من هؤلاء من الذين يعملون في تجارة على مقياس ضيق يشبه عمل أصحاب الحوانيت والمطارين، فقد كان هناك أناس بالتأكيد كانوا يبيعون المواد الصغيرة للأفراد على مقياس ضيق حيث إننا نجد ذكراً للحقبة الجلدية التي توضع فيها الأوزان.

وهناك أيضاً نص يذكر إمكان حدوث أعمال الغش من قبل تجار المُرُق ويتكلم عن نوع من الأشخاص يملك بالميزان ويزداد في أعمال الغش بأن يعدل الأوزان.

وأما بالنسبة إلى وجود العطارين نجد أن رجل أعواد الثياب ورجل الملح
مذكورين (مع أن هؤلاء كانوا موجودين في بابل وليس في آشور) وكلاهما يدل
على صفار التجار الذين لا ينتقلون من منزل إلى منزل.

ولقد عرفت آشور إجراءات منح القروض وذلك لتسهيل الأعمال التجارية
وكانت المبادىء والشخصيات المادية تقدم الفضة بقصد أغراض العمل.

وكانت النقود المستقرضة تملأ في الوقت المحدد بشكل بضائع وينتظر
مُقرض الفضة أن يستقده بالحصول على سعر مناسب في لحظة تسديد الديون، أو
بأن يدفع له الفوائد أو كلا الأمرين.

وكان من الشائع أن تكون البضائع ذات العلاقة من الحبوب ولكن فيما يلي
وصف صيغة تجارية بخصوص توفير الخمر:

٢٠٥ هومر (حوالي ١٠٠ غالون) من الخمر.

وهي تخص عانو - سكي - نينوى.

هي من الالتزامات التي على بارتاما،

فهو سوف يسلم الخمر في نينوى،

في شهر أيار،

وإذا لم يسلم هذه الخمر في هذا الوقت،

فسوف يدفع الفضة طبقاً للأسعار في نينوى.

اليوم الخامس والمشرون من شهر كانون الثاني.

وقد كانت الخمر تنتج في المناطق الجبلية في الشمال والشمال الغربي، وإن
تسليم مئة غالون منها في نينوى في أوائل الصيف كان من الواضح أنه عملية
تجارية بحتة.

وإن الرجل الذي قُدم له كميته من الفضة يأمل أن يحصل على فوائد عن
طريق الشراء بسعر رخيص في الشتاء في منطقة إنتاج الخمر، وكان المُقرض
محمياً في حالة تأخر التسليم وذلك بأن يكون له الحق بالتعويض عن المئة غالون

من الخمر بالسعر السائد في نينوى في شهر أيار، أي في بداية شهر الحر، عندما يرتفع سعر الخمر والمشروبات الأخرى ولا سيما إذا ظهرت ظروف معاكسة في الشمال وهي التي ستجعل المون نادرة الوجود.

وفي بعض الأوقات وبعض الأمكنة في منطقة ما بين النهرين القديمة بُدلت محاولات لضبط الأسعار عن طريق مراسيم حكومية، ولكن لم يكن الحال هكذا في الإمبراطورية الآشورية، وإذا إن العقود التجارية كانت تؤكد دوماً، كما سوف نلاحظ من العقد التالي، أن الدفقات تكون طبقاً للأسعار في مكان ما وفي زمن ما.

وهذا يظهر أن هناك اعترافاً واضحاً بالحقيقة التي مفادها أن الأسعار في آشور كان يقررها أحوال وقوى اقتصادية خاصة، وليس بالمراسيم الرسمية.

ونحن نجد أيضاً بعض الرسائل التي تذكر أن أسعار البضائع المختلفة في مناطق مختلفة كان يجري إخبار الملك عنها ولم يقررها الملك، ومن الواضح أنها أسعار يتلاعب بها السوق وليست أسعاراً تنظمها الدولة.

وهناك نقوش تظهر أن الملوك أنفسهم كانوا يعلقون على الأسعار وعلى تأثير القوى الاقتصادية المختلفة على الأسعار، وقد تكلم الملك سرجون الثاني عن سياسته الرامية إلى تحسين الزراعة في أراضيه، وكان يعلق على نتيجة هذا تخفيض الأسعار بالنسبة للزيت وبذر الكتان وقد اهتمنا هذا المقطع، وقد علق فيه الملك على زيادة الفنائم الحربية وتأثير ذلك على الأسعار في آشور، وبعد أن عدد الأدوات المعدنية التي جلبها بعد القيام بحملاته يقول:

((إن الأملاك المنقولة التي حصلت عليها لا تُعد ولا تُحصى من التي لم يحصل عليها أجدادي أبداً، لقد كثرت في عاصمتي قلعة سرجون.))

وفي بلاد آشور يستطيع الناس دفع ألمان الأشياء بالفضة كما لو كانت نحاساً.

ويعد أن استولى آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧) ق.م على أعداد من الجمال بشكل غنائم ويعد أن وزع هذه الجمال بصورة واسعة على تأثير هذه الحكميات الزائدة على الأسعار وهو يقول:

(في بلادتي تباع الجمال في الأسواق بسعر شيكل واحد أو نصف شيكل من الفضة لمن الجمل الواحد).

وطبقاً لأسعار الفضة في الثمانينات من القرن العشرين ب.م يصبح قيمة هذا المبلغ جنيتين استرلينيين وهذا سعر رخيص بالنسبة لجمل مستعمل، ويمكننا أن نضيف أن أهمية التجارة بالنسبة للدولة كانت عاملاً معروفاً.

وذلك أن التجارة كانت مرافقة للمحاصيل الزراعية في أهميتها. أما نذر الفال الفلكية والتي كانت منحصرة بالمسائل ذات الأهمية بالنسبة للدولة وفيما يلي مقتطفات نموذجية من مثل هذه التنجيمات الفلكية:

((عندما يظهر القمر في وقت ليس هو موعده فإن نشاطات الأعمال التجارية سوف تنقص، وعندما يظهر الكوكب مع ظهور الشمس في شهر أيلول (سبتمبر) فإن نشاطات العمل سوف تزداد وترتفع وسوف تزيد حكميات الحبوب.))

وهناك أحد التنجيمات الفلكية من نفس الموضوع مع أنها في الحقيقة متعلقة بعلم الأرصاد الجوية أكثر منها بعلم التنجيم:

((وعندما تظهر ويزداد الضباب في البلاد فإن المحاصيل الزراعية سوف تزداد وسوف تصبح التجارة مستقرة.))

إن هذا حول زيادة أو نقصان أنشطة العمل تظهر اعترافاً جزئياً بدائياً بوجود الدراسات التجارية (نشاط- ركود- نشاط) وإن ربط هذه الحركات بالظواهر الفلكية يدل على أن الناس قد شعروا أن هذه الحركات ليست ذات أسس عقلانية.

التجارة الخارجية

تعود قضية التجارة العالمية أو الخارجية في جنودها إلى أزمنة ما قبل التاريخ. ونظراً لموقعها على طول نهر دجلة معترضة الطرق الممتدة من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى زاغروس ومن جبال طوروس إلى بابل فإن المنطقة المعروفة باسم بلاد آشور كانت مهمة دائماً.

ونظراً لوضعها الجغرافي فإن شعب آشور قد أصبح في وضع يحوله أن يكون شعباً تجارياً وسيطاً.

ولكن هناك عاملاً آخر قد شجع التجارة الخارجية أو العالمية، على الأقل التجارة الداخلية في منطقة الشرق الأدنى القديمة، وهو: عدم الاستقرار في التكوين الفدائي ومن الواضح أنه إذا كانت الأمة في حالة من الاكتفاء الذاتي اقتصادياً دون اشتراكها في أي صلات تجارية مع جيرانها فإنها سوف تحصد الفشل حتماً.. وهناك في الحقيقة مناطق قليلة جداً لا تشكو ولا تفكر في سوء المحاصيل الزراعية.

وحيث تعتمد محاصيل الحبوب على الري فإن زيادة منسوب المياه في النهر أو حدوث طوفان هائل ربما أدت إلى مجاعة كما يحدث عند قدوم سنة جافة في مناطق تعتمد على هطول المطر.

ومن الممكن تدمير أي محصول زراعي وأعد عن طريق الجراد والأفات الزراعية.

وإن الوقاية الوحيدة ضد مثل هذه النكبات هي الاحتياط بتخزين كمية وافرة من المحاصيل التي جنت في المواسم المباركة أو عن طريق الحصول على الحبوب من المجتمعات التي صادفتها ظروف مواتية وبذلك يحصل عندها فائض من المحاصيل.

هذا وإن نقل الحبوب من الميسورين الذين غنهم حبوب إلى الفقراء الذين لا يملكون حبوباً يكون إما عن طريق الحرب أو عن طريق التجارة.

هذا وإن المجتمع الذي صادفه الحظ بجتي محاصيل وافرة سوف يكون متأثراً بجيرانه الجباج، فليس لديه في المحصلة إلا أن يلجأ لأحد أمرين إما الحرب أو التجارة، كما أن المجتمع الجائع ليس لديه سوى أن يقتل أو يتاجر أو يموت. كانت التجارة والحرب أمرين مترابطين في دولة آشور من البداية إلى النهاية، ولقد عانى المزارعون الأوائل القاطنون بسهولة آشور من الفترات على محاصيلهم الزراعية ومخزوناتهم من قبل شعوب قادمة من التلال المجاورة أو من الصحراء. وعندما أصبح هؤلاء دولة منتظمة فقد استعملوا هم بأنفسهم التجارة أحياناً والحروب أحياناً أخرى للحصول على البضائع التي كانوا يرغبونها من أجزاء أخرى واقعة في الشرق الأدنى.

وكانت أقدم مظاهر التجارة الخارجية الآشورية المعروفة بتفاصيلها هي التجارة ما بين مدينة آشور وكاروكيا (الجزء الشرقي الأوسط من تركيا) وذلك في بداية الألف الثاني قـم ولقد ناقشنا هذه القضية في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

ولقد عرفنا شيئاً عن دور آشور في التجارة الخارجية في الألف الثاني قـم ولقد ناقشنا أعلاه المفاوضات التي جرت بين الملك آشور أباليت (١٢٦٥-١٢٣٠) قـم ونظيره المصري لإنشاء علاقات تجارية بشكل تبادل الهدايا، ولقد تمت التجارة لمسافات طويلة عن طريق القوافل.

وهنا كانت أهم المشكلات هي الأمن وهي عامل أسهم في إيجاد الصلات بين التجارة الخارجية والأنشطة العسكرية.

وفي المراسلات التي جرت ما بين آشور أباليت والملك المصري، نجد شكوا الأخير من تأخر رسله، ولقد أخبر آشور أباليت الملك المصري أن هذا التأخير نتج عن القبائل الرحل المتواجدين في منطقة منتصف الفرات، وأنه قد اتخذ الخطوات لمعالجة أمور هذه العشائيات.

وفي نفس الفترة اشتكى أحد ملوك بابل إلى نظيره المصري عن عدم توفر الأمن في فلسطين، وكانت تلك المنطقة ضمن السيطرة المصرية الاسمية. وقد جاء في الرسالة:

(إن كنعان بلد خاضع لك وملوكها خدك وتكني ثوبت في أرضك. ألق القبض على الأشخاص ذوي العلاقة وإلا إنهم سوف يعودون ويقضون على قواقلي وحتى على رسلك).

وفي أمكنة أخرى كنا نسمع باستمرار أخبار قتل أو خطف التجار مؤكداً الحاجة لتدخل الدولة لتأكيد الأمن بالنسبة لازدهار التجارة.

وعلى العموم فقد كانت سيطرة الدولة على التجارة الخارجية شديدة وصارمة في أواخر الألف الثالث ق.م.

وهكذا تقدم لنا أحد النصوص المائدة لأحد الملوك الحثيين والتي يعود تاريخها إلى ما بعد عام (١٢٠٠ ق.م) الشروط التي يسمح بموجبها للتجار من الأناضول بالاتجار داخل أوغاريت، وكانت هذه المدينة خاضعة تقع في شمال سورية، وكانت هناك شكوى واضحة محلية تشير إلى أن التجار كانوا يحاولون اكتساب حقوق منافية لمنفعة أهل البلاد والأهلين، ولذلك فقد أصدر الماهل المحلي مرسوماً يلزم فيه التجار بالنشاط داخل أوغاريت أثناء الصيف فحسب، وليس أثناء الشتاء.

وأنه لا يجوز السماح لهم لكسب حقوق الإقامة أو شراء البهوت والأراضي. هناك وفي أواخر نفس القرن نجد أن القصد من استئود من الأناضول عن طريق تاجر خاص، ولكن ليس لدينا أي معلومات حول الشروط التي بموجبها كان هذا التاجر وعملاؤه يتحركون في الخارج.

عندما تلقى نظرة على التجارة الآشورية في الألف الأول ق.م تصادف صعوبة من الصعوبات وهي: هل كان هناك أي شيء في المجال الدولي يمكن أن ينطبق عليه مصطلح التجارة بالشكل الصحيح.

ولا مجال للشك أن كميات لا بأس بها من البضائع قد وصلت إلى آشور من الخارج ولكن النسبة الطاغية لما نريد أن نسأل عنها أتت من الغنائم الحربية أو الجزية.

ومن الممكن أن نذكر أن هذه كانت شحلاً من أشكال التجارة تدفع تكاليفها بعض الصادرات بشكل موافقات جيدة وأمن في الطريق، والتحرر من الهجمات الخارجية، ومع أن هذا النوع من التصاريحات من التحمل لفيض أعداء الإمبراطورية إلا أن هذه هي الطريقة التي يفكر بها المحكمات الخاضعون حول هذا الموضوع.

ولدينا مثال واضح حول هذا الأمر في التوراة عند ذكر العلاقات ما بين (أحاز) ملك يهوذا وغلالات بلامر الثالث ولقد هدد أحاز ملك يهوذا التحالف ما بين إسرائيل وسورية، وهكذا التجأ إلى غلالات بلامر بقوله:

تمال وأنقذني من سطوة ملك سورية أو من سطوة ملك إسرائيل اللذين يهاجماني (٢ ملوك ١٦: ٧) ولقد فصل غلالات بيلامر هذا فأرسل أحاز هدية إلى ملك آشور ومن الواضح وبالنسبة لهذه القضية الجزئية التي دفعها أحاز وكانت «قابل الخدمات التي استلمها».

وهناك ملك آخر في أقاصي شمال سورية ترك نقشاً يذكر فيه حكم قدم هو ووالده من ولاتهم للملك غلالات بلامر الثالث، ذلك الولاء الذي اشتمل على وضع الجزية، وبعد ذلك يذكر الفوائد الاقتصادية لبلاده من هذا الولاء.

وسواء كان علينا أن نعتبر أداء الجزية جزءاً من التجارة الخارجية أم لا نعتبره، إلا أنه كان نوعاً من التجارة الخارجية ليس فيه مجال للجدل، واستمر في الإمبراطورية الآشورية، ولقد عثرنا على رسالة تثبت هذا من أحد الموظفين في صور، فلقد كان الناس هناك يمارسون عادة قطع الأشجار في غابات لبنان ويجلبون الخشب إلى المدينة حيث كان الآشوريون يتقاضون ضريبة عالية، وبعد نشوء بعض الاضطرابات حول الضريبة قام المسؤول الآشوري بفرض حظر على بيع الخشب إلى مصر بقصد أن يبيع أهالي صور الخشب إلى آشور.

ومعكنا فقد انضغ الرابط التجاري نظراً لأن الموظف الآشوري قد هدد بأن لا يسمح لأهالي صور بقطع الأشجار إذا أحدثت اضطرابات أخرى حول الضريبة.

وقد كان هذا التهديد مخيفاً لو كان الآشوريون قد استلموا الخشب كجزية دون أن يدهموا الثمن، ومع أنه وفي تلك الظروف فقد منعت السلطات الآشورية أهالي صور من المفاجرة بالخشب مع مصر، إلا أن سرجون الثاني صرح بأنه يشجع التجارة ما بين المصريين والآشوريين.

وفي مكان آخر نجد سجلاً يذكر شيئاً عن تسليم الرصاص الذي كان يجلب من منطقة تسمى الآن: كردستان، وليس هناك من دلالة تشير بأن هذا مكان جزية.

وهناك وثيقة تشير إلى نقل نحو (٧٢٠) حصاناً قد جلبها التجار.

وهذه شهادة على وجود تجارة خارجية حقيقية نظراً لأن الأهمية الرئيسية للخيل في آشور كانت لأغراض عسكرية، وأن الخيول وبهذا العدد إنما قد أرسلت للاستعمال الحكومي.

وكان التجار يملكون وكلاء للدولة ولكن كون التجار مشمولين بهذا الأمر إنما يدل أن هذه كانت تجارة حقيقية وليست تسليم الجزية.

إن ذكر بعض البضائع التي كان أصلها من خارج المنطقة الخاضعة لآشور ما هو إلا شهادة دامغة لإثبات وجود التجارة الخارجية حتى ولو وصلت إلى آشور بشكل جزية.

وبهذا تكون قد تركت البلاد التي أنتجت فيها عن طريق آلية التبادل التجاري، وإن إحدى هذه البضائع هي ناب القيل الماجي الذي تجده قادماً إلى بلاد آشور من نهاية القرن الثامن ق م وذلك بعد أن انقرضت القيلة من سورية، وهبل أن سيطرت آشور على مصر وهي البلد الوحيد الذي كان من الممكن أن يكون هذا الماح قد أتى منه.

وكذلك كان الوضع بالتمسبة للآزورد الذي كان يستعمل لتزيين المعابد والقصور وقد كان مصدر الآزورد أفغانستان إلى الشرق من إيران التي لم تصل إليها السيطرة الآشورية.

وفي نهاية القرن الثامن قـم بدأ الآشوريون بلعب دور رئيسي شرقي زاغروس ومن ذلك الوقت بدؤوا بالحصول عليه عن طريق الجزية من القبائل في غرب إيران الذين حصلوا عليه عن طريق التجارة مع أقاصي الشرق.

والحقيقة أننا نجد ذكراً لبعض الآزورد الذي أتى كجزية من القبائل الإيرانية ولكن ليس بذلك الانتظام الذي يجعله المصدر الرئيسي للآزورد الذاهب إلى آشور، أو أن البقية كان من الممكن أن تصل إلى آشور عن طريق التجارة غير الموثقة.

بالتبع كانت القوافل التجارية لا تزال في حركة دائمة عالمياً خلال الإمبراطورية الآشورية الجديدة وأيام عزها مع موافقة الملك الآشوري، وذلك لأن الملك سرجون كان يشهد دوماً إلى الأعمال التي عليه أن ينجزها ضد رجال القبائل الآرامية الذين استمروا في الإغارة على القوافل التي كانت تخمس مواطنين بابلين. ومع ذلك فإن المؤشرات التي ذكرناها قبل قليل ووجود بعض المؤشرات الأخرى المماثلة حول التجارة الخارجية بالنسبة للإمبراطورية الآشورية الجديدة يظل تؤتيق هذه المؤشرات صعباً ونادراً.

وهناك طريقتان يمكن تفسير هذا الأمر بواسطتهما:

الأولى: هي أن آشور لم تمتلك سوى تجارة خارجية ضئيلة وهي التي كانت بشكل استلام الجزية فيما لو اعتبرناها شكلاً من أشكال التجارة، ولكن من الممكن أيضاً أن تكون التجارة الخارجية بالحقيقة واسعة ولكن كانت تعمل بآلية ثم لم تترك أي سجلات.

ونحن نعلم أن اللغة الآرامية بشكلها الأبجدي المكتوب كانت أبسط بكثير من اللغة المسمارية الأكادية، وكانت اللغة الآرامية قد ازداد استعمالها في آخر

قرن وربع من حكم الإمبراطورية الآشورية وكانت هذه اللغة تكتب ولكن ليس مثل المسمارية التي كانت تكتب في ألواح من الشميد وغير قابلة للتلف، إلا أن الأرامية كانت تكتب بالحبر وعلى قطع من الخزف أو أوراق البردي أو الدفوف. إن قطع الخزف تمتلك القدرة على البقاء، ولقد وجدت بضعة أمثلة من الوثائق الأرامية (ولكن ليس لهذه علاقة بالتجارة الداخلية أو الخارجية أو العالمية). ولكن بالنسبة للمناخ فمن الصعب بقاء أوراق البردي المكتوبة عبر آلاف السنين بحيث إن أي تجارة خارجية مسجلة على هذه المواد لا يمكن أن تترك أي أثر.

الفصل الثاني عشر

السيطرة على البيئة

الآشوريون والموارد الطبيعية

لقد كان العنوان المقرر لهذا الفصل هو: العلم والتكنولوجيا، لكننا أقمنا هذا العنوان لكونه مضللاً.

إذ إنه مع أن الآشوريين قد عرضوا بعض الحقائق التي من الممكن أن تدرج تحت عنوان عام وهو: المعرفة العلمية، وقد استعملوا عمليات ربما نعتبرها ضمن حقل التكنولوجيا.

إلا أنهم افتقروا إلى تنظيم معرفتهم، ذلك التجهيم الذي ربما برز استعمال كلمة علوم، ومع أن الاصطلاح المعروف باسم التكنولوجيا من الممكن تبرير استعماله حينذاك، إلا أنه يبدو وكأن فيه شيئاً من المبالغة عندما يطبق على مهارة كصناعة القرميد.

ومن الممكن أن نتلاعب بالكلمات ونقول: إنه ما دام أن العلم من حيث الاشتقاق اللغوي يعني: المعرفة، وما دام أن الآشوريين كان لديهم معرفة، لذلك فنستطيع القول: إنه كان لديهم علوم.

ولكن كما هو معروف فيان كلمة العلوم لا تعني المعرفة فحسب، بل تعني مجموعة منتظمة من المعارف تتوسع دائماً عن طريق البحوث التجريبية التي ربما تؤكد، وربما ترفض الفرضيات.

ولهذا نعتبر ضمن هذا المفهوم أنه لم يكن هناك أي علوم في آشور أو في أي مكان في منطقة ما بين النهرين القديمة، ما عدا الزمن الذي حدث فيه تحول من الألف الرابع إلى الثالث قبل الميلاد.

ففي تلك الفترة المبكرة عندما كان العقل السومري المتوقد يتحضر الأسس المادية والمعنوية بالنسبة لجميع المجتمع القديم في منطقة ما بين النهرين.

فقد حدثت هناك تغييرات سريعة كانت تدل على ذلك الاستعداد للدخول في حقل التجارب مع المواد والأفكار التي تمد أسساً للعلوم.

ولكن منجزات السومريين الأولى كانت طاغية واكتسبت شهرة مهيبة عظيمة بحيث أصبحت المعرفة السومرية وبسرعة كشيء ثابت ونهائي.

وبعد الألف الثالث ومع وجود بعض الاستثناءات أصبح كل ما يجري عمله في أي مظهر من مظاهر الحياة محترماً إذا شعر الناس أنه متناغم ومتوافق مع ما أنجز في الماضي.

ولكن البهتة لمحت ثابتة، مثلاً من الممكن أن تتلاشى بعض الغابات التي كانت مصدر الحصول على الخشب، أو من الممكن أن تهجر إحدى المستوطنات نظراً للموجة التربة هناك خلال إنجاز عمليات الري خلال مدة طويلة.

وقد أصبح هذا النهج من التطور في بعض درجات التغير حتمياً بمرور الزمن.

ولكن وبالنسبة إلى منطقة ما بين النهرين القديمة فإنه عندما حدثت مثل هذه التغييرات كانت تعاط بالتعليمات التي توجب أن يظل الجديد متناغماً مع القديم.

هذا وإنه من وجهة النظر النموذجية لمنطقة ما بين النهرين القديمة فإن المعرفة كانت شيئاً مستقراً ونهائياً، وذلك لأن الآلهة هي التي قدمت في الهداية.

فلم تكن المعرفة شيئاً نامياً بشكل عفوي من الممكن تطويره وتحسينه عن طريق روح التساؤل.

لقد صرح بوجهة النظر هذه (بيروسوس) وهذا أحد الكهنة البابليين في القرن الثالث ق م والذي وصل إلينا بعض كتاباته باللغة اليونانية:

(وقد قصد بهذه الكتابات تصوير طرق الحياة عند البابليين لمعاصرة (اليونانيين) ويصف بيروسوس كيف أن (أوانيس) وهو مخلوق إلهي يظهر بشكل رجل يشبه السمكة وقد ظهر من البحر في الأزمنة الغابرة وقدم لشعب منطقة ما

بين النهرين جميع المعارف، فقد قدم لهم بعض أحوال نفاذ البصيرة والحروف وفي جميع فروع العلوم والفنون من جميع الأنواع، وقد علمهم كيف يبنون المدن ويؤسسون المعابد ويبتدعون القوانين ويقيمون الأرض.

ومن ذلك الوقت لم يستطع أحد أن يضيف شيئاً ذا قيمة لتحسين تعليماته.

وفي الألف الثاني قم بذل المكتبة البابليون محاولات ضخمة لتنظيم معارفهم (ولكن ليس لتوسيعها) فقد جمعوا وقصصوا جميع النصوص التي تعود إلى جميع المواضيع المتوفرة، ووضعوا نسخاً متقناً عليها لبعض النصوص، مثلاً الأساطير والنماذج والأناشيد والصلوات والتنبؤات الفلكية والوصفات الطبية والملاحظات الفلكية والمواد اللغوية، وكانت المواد اللغوية تشير إلى شيء مثل الموجودات من الأثاث المنزلي والمكتالوكات تخص قوائم الغنائم وقوائم بأسماء الآلهة والنباتات والمعادن والأشجار والمهن والأشكال المختصة بقواعد اللغة والتجزم.

إن إنجاز الأشياء المتفق عليها كما يقول المهتمون بالدراسات الآشورية والأشكال القانونية لسلسلة النصوص كانت تعتبر كافية في حد ذاتها ولم يستطع المكتبة أن يتجاوزوا قوائم النباتات الحيوانية أو المعادن ليصلوا إلى دراسات منظمة لبدائيات علوم النبات والحيوان والجيولوجيا (علم طبقات الأرض) وقد كانت كميات النصوص التي نشأت في بابل في الألف الثاني قم وكانت من جذور سورية ناهية للألف الثالث قم.

ولقد وجدت بعض هذه النصوص في آشور والكمية الموجودة الآن في نينوى في مكتبات مختلف الملوك الآشوريين وخصوصاً آشور بانيبال قد جمعوها، ولذلك فإن أي شيء يمكن قوله عن العلوم الآشورية المؤسسة على مثل هذه النصوص الأدبية إنما تعود لما كانت آشور قد نقلته واستعارته مباشرة وبشكل مقصود من بابل، ومع ذلك هناك بعض العوامل التي تظهر الثقافة الآشورية التي عرفناها إما من اللقيات أو التصاريح التي وجدت في النقوش ذات الأصول الآشورية ليس البابلية والتي من الممكن أن نعزوها لآشور نفسها.

ولكن علينا القول ومع أننا لا نفترض أن نسمع للأشوريين بنيل قصب السبق في معرفة العلوم المنظمة عندما يكون علينا الحذر عند استعمال الاصطلاح (تكنولوجيا) نقول:

إنه كان هناك حالة عظيمة في آشور عندما عرفوا أنه من الممكن التوسع في المعرفة، ومن الممكن تحسين عملياتها وإيداعها التي قبلت على علاقتها ولم تلبس لباس المحكمة الإلهية القديمة.

تمتاز شعوب المنطقة الجنوبية من أراضي ما بين النهرين بوجود إحدى المفارقات وهي: إنهم استمروا بالقيام بجميع منجزاتهم العظيمة في بيئة كانت فقيرة في كل شيء من الموارد الطبيعية كالخشب الجيد، والمعادن الخام، فالأشوريون في شمال منطقة ما بين النهرين قد حالفهم الحظ في موقعهم فقد كانت الأحجار بمتناول أيديهم، وكانت أمامهم التلال الحجرية (وهذه تحتوي الحجارة المسكوبة أو الرخام) التي كانت على مرأى النظر بالنسبة لكل من عواصمهم المتعاقبة.

ولقد حصلوا على الحجارة عن طريق المقاتل المفتوحة، إذ تركت إحدى هذه المقاتل في عملياتها نوعاً واضحاً في وجوه الصخور قرب (الممكن-موسل) إلى الشمال الغربي من نينوى وكانت الأحجار مادة خام لا تصلح لبناء المعابد والقصور فحسب، بل أيضاً لبناء أبنية أخرى أيضاً.

وهكذا كانت الأحجار تملأ بشكل قطع عظيمة بمساحة خمسة أقدام طولاً بعرض قدمين ونصف وذلك في أوائل القرن التاسع ق.م، وقد استعملت هذه الأحجار في بناء سور لأحد المراكز.

وهناك قطع كبيرة يصل وزن الواحدة منها إلى عشرين طناً وكانت تحتل لتمل سوراً أو سداً هائلاً.

وإن الإمدادات من الحجارة هي إحدى النقاط التي يعرف منها معالم التجديد الواسعة نظراً لأنه وفي أثناء حكم سنحاريب (704-681 ق.م) أرسلت عدة فرق منها المساحين للفتيش عن مصانع جديدة لأشجار وأجل أنواع الحجارة.

أما الخشب الجيد وهو مادة ثباتية أخرى مهمة بالنسبة إلى منطقة ما بين
النهرين القديمة، وقد كان من السهل الحصول عليه لدى الآشوريين، ففي الأزمنة
القديمة التي كانت التلال القريبة من المواسم تحمل أشجاراً عظيمة (وقد بقي
منها البعض التي حمتها بعض الظروف المواتية) وحالما نفذت تلك الأشجار كانت
السيطرة الآشورية قد امتدت بحيث أصبحت الغابات فوق جبال زاغروس وطوروس
متوفرة وفي متناول اليد.

وكانت الشعوب المهزومة معتادة على قطع تلك الأشجار وتصديرها إلى آشور،
وهنا نجد أيضاً أن سنجاريب قد قام بتجديد آخر، فقد أرسل هذا الملك المساجين
إلى الجبال بقصد التفتيش الدقيق عن مصادر جديدة للأخشاب الكبيرة الضخمة.
ولكن وعلى الرغم من استعمال الأحجار والخشب بقيت المادة المشاعة في
البناء هي اللبن والطين، وقد كان اللبن يستعمل بشكل قرميد مجفف بالشمس،
ولكن كان القرميد يتعرض للشوي أو الطلي بألوان متعددة بالنسبة لأعمال الزينة
والقصور أو المعابد وكانت هذه الألوان تتراوح ما بين الأسود والأحمر والأزرق أو
الفضي.

وفي بعض أنهاء المعابد والقصور استعملت مواد عازلة للرطوبة وكذلك
البيتومين وقد وجد أن قطع الحجارة الكلسية التي شكلت غرضاً في كالأخ في
القرن التاسع ق م قد ثبتت بالبيتون، ويشير سنجاريب بعد حوالي قرنين إلى نفس
الممارسات.

وقد استعملت هذه المادة أيضاً عند سد الشقوق في القوارب وكان البيتومين
متوفرًا من حفر خاصة موجودة في آشور نغمها وهناك مثلاً حفرة من هذا النوع
(والحقيقة أنها عبارة عن تسرب من حافة حقل نفطي) على بعد قليل من وسط
نمرود.

وكانت هذه المادة تستعمل بشكلين إما كبيتومين خام قد أخرج توأ من
الحفرة، أو بيتومين جاف وهو مادة لزجة ناتجة عن مزج القار مع الحجر الكلسي
المطحون وهذا الشكل يستعمل بنجاح في بناء الأرصفة.

وكان هناك إحدى المواد الخام غير موجودة في جميع منطقة ما بين النهرين وآشور وحتى بابل وهي الخامات المعدنية ، ويجانب الذهب والفضة (وهذان كانا لبنين فلا يستعملان إلا في أغراض الزينة وهما أيضاً نادران فلا يستخدمان بشكل واسع) فللمعادن المعروفة في العالم القديم كانت الرصاص وكان هذا لبناً أيضاً فلا يستعمل في معظم الأغراض مع أنه مفيد في صنع الحليوات للماء أو الأنابيب.

وكذلك الحديد والنحاس والقصدير وكان المعدنان الآخران يخلطان لتكوين البرونز، لقد استعمل النحاس وخليطه البرونز في الشرق الأدنى ابتداء من الألف الرابع قـم مع أن الحديد عرف في أواخر الألف الثاني قـم.

وتوجد خامات النحاس والحديد التي كانت معروفة لدى الأقدمين في جبال طوروس وزاغروس وفي جبال الأناضول وفي هذه المناطق وحواليها بدأ إنتاج المعادن وتطور.

ولازلنا نجهل كيف أصبح منتج المعادن في طوروس والأناضول قادرين على العمل في إنتاج البرونز الذي يتطلب إيجاد خليطة من القصدير.

وحتى الألف الثاني قـم لم يصرّف صانعو البرونز في الأناضول عن وجود القصدير وخاماته في منطقة طوروس والأناضول وكان عليهم لذلك استيراده من بلاد آشور والأناضول ولذلك استوردوا القصدير من إيران التي كانت تعرف كمصدر من مصادر القصدير منذ الأزمنة القديمة.

وفي هذا الوضع كان الآشوريون ابتداء من بداية الألف الثاني قـم (وحتى قبل ذلك) قد اشتغلوا في تجارة المعدن ولكن هذا العمل لم يؤهلهم ليصبحوا رواداً في علم تقنية المعادن والتي ظلوا فيها إلى النهاية أهل شأناً بالنسبة للشعوب الجبلية إلى الشمال منهم. وقد كان الآشوريون مضطرين لاستيراد معادنهم من الخارج وكلما كان لديهم أي إمكانيات كانوا يستوردون المعادن بشكل تقني مصفى أكثر منه بشكل خامات تفقر إلى الصهر.

ولكن كان للآشوريين الخامات والاسيما خارج أراضي آشور بالذات، حيث لا توجد خامات ومنذ أيام اسرجدون (٦٨٠ - ٦٦٩) قـم الذي صرح

أن مصدر الذهب الذي استعمله هو العالم السفلي فقد كانت خامات المعادن تعاد معاملتها لهذا الغرض.

وخلال الألف الثاني كان النحاس والبرونز، وبشكل عملي، هما المعدنان الوحيدان المتوفران في آشور، وكانا يستخدمان في جميع المجالات ابتداء من الأسلحة والأدوات حتى أحنية الخيول، ولقد كان الحديد الناتج من أصول زيركية معروفاً في منطقة ما بين النهرين ابتداء من الألف الثالث ق م ولم يستعمل حتى القرن الثاني ق م وذلك بصهره من خاماته.

وكان مركز هذه التطورات آسيا الصغرى، وحتى هناك فقد بقي الحديد منتجاً نادر الوجود حتى أواخر الألف الثاني ق م، وكان استعمال الحديد الرئيسي صنع الأسلحة، وهناك إمكانية محاولة ملك الحديد أن يمارس سيطرته على تصديره، وإن وجهة النظر هذه مؤسمة على رسالة أرسلت من قبل حاكمه حتى يعود زمنه إلى منتصف القرن الحادي عشر.

وقد أرسلت هذه الرسالة إلى ملك آخر من الممكن أن يكون شلمنصر الأول ملك آشور وقد اعتذر الحاكم الحثي بسبب تأخره في تقديم الحديد الذي طلبه الملك الآشوري، وكان عذره من الأعذار المألوفة في دوائر التصدير وهو صمويات الإنتاج ولكن هل كان عذره صادقاً أم كان يخفي معاملة فرض الحظر التجاري؟

ولقد وجدت قديماً محاولات لفرض السيطرة الاستراتيجية والتي أشهرها القصة التوراتية التي تذكر كيف أن الفلسطينيين في القرن الحادي عشر ق م رفضوا أن يتمولوا مع الإسرائيليين في الصناعة التقنية للمعادن وذلك لئلا يصنع الإسرائيليون لأنفسهم سيوفاً ورمحاً.

ولكن سواء كان التأخير في انتشار إنتاج الحديد راجعاً لمحاولة العيشين الاحتفاظ بالاحتكار بالنسبة لهذا المعدن، أو إلى صمويات إنتاجية فعلاً، إلا إن هذا المعدن قد بدأ متوفراً لدى الملوك الآشوريين ونمكن بكميات صغيرة في القرن الثالث عشر ق م عندما نسمع عن ذكر خنجر حديدي .

وفي القرن الثاني عشر ق م يرد ذكر حداد في البلاط الملكي قد منح خازنين بناء على أمر أحد الملوك وهذا يدل على أنه ليس الحديد فحسب بل أيضاً معرفة العمل بالحديد قد انتقل من آسيا الصغرى إلى آشور.

ومن الممكن أن يكون ذلك الحداد وابنه هو الذي صنع رؤوس النبال التي استعملها تفلات بيلامير الأول (١١٥-١٠٧) ق م بعد جيل من الزمان وتباهى باستعمالها ضد النيران الوحشية ، ولكن لم يكن حتى أوائل القرن التاسع أن أصبح الحديد متوفر الوجود بشكل كاف لتزويد عدد كبير من المساركر بالخناجر الكافية.

وبتداء من نفس القرن فصاعداً استعمل الحديد لصنع الدروع المصفحة (التي لم يكن الجنود يلبسونها فحسب بل كانت الخيول الحربية أيضاً) وكذلك الخوذ والفؤوس لتنظيف الطرق أمام الجيش.

ولا ينبغي لنا أن نظن أنه حالما أصبح الحديد متوفراً فقد حل محل النحاس والبرونز بصورة أوتوماتيكية في جميع الاستعمالات حين يمكن دخوله ، ولكن لم يكن الأمر كذلك ، إذ إن هناك عاملاً آخر هو أنه ليس من السهل التحكم بنوعية الحديد ، فالحديد الرديء قد يكون أقل فعالية من البرونز الجيد والنحاس الجيد.

وهكذا ومع أن الفؤوس الحديدية كانت تستعمل في شق الطرق في عهد آشور ناصر يمل (٨٨٣-٨٥٨) ق م إلا أن ابنه شلمناسر الثالث في نفس القرن وسرجون الثاني في أواخر القرن الثامن كلاهما يشيران إلى استعمال البرونز والنحاس في شق الطرق أثناء الحملات العسكرية.

ولكن بحلول القرن الثامن أصبح الحديد متوفراً لصنع أصناف متعددة من الأدوات وأواني المطبخ ، وفي قوائم الغنائم تذكر موافد التدفئة في الشتاء والمصابيح المصنوعة من الحديد بينما هناك أصناف حثيئة قد وجدت مثل السلاسل والمعاول والأزاميل والمنشير والمسكاكين وشفرات الحارث والمطارق كلها كانت مصنوعة من الحديد.

وقد وجد في الحفريات مخزن واسع يحتوي على أدوات من الحديد والقناظم التي جلبها سرجون الثاني ويبلغ وزنها حوالي (١٦٠ طن) من الحديد، وقد وجدت في خورسباد وهي موقع عاصمة سرجون (دور شاروكين) ولقد حصل تحليل لبعض الأشياء التي وجدت في خورسباد ولم تكن النتائج متسقة.

فقد وجد أن معولاً وقدمواً مصنوعان من الحديد اللين، بينما كان هناك قضيب حديدي وعلى الرغم من أنه لم يكن متجانساً في تركيبه إلا أنه قد احتوى في بعض أجزائه ما يكفي من الكربون لجملة قاسياً كالفلوذا، ولم يظهر أن الخبير الذي قام بهذه التحاليل كان متأثراً بالمهارة التقنية للحداين القدماء (الذين ربما لم يكونوا آشوريين نظراً لأن الأشياء كانت من الفناثم) فلم يكن الخبير متأثراً في مجال التحكم بنوعية المعدن أثناء تدرجه من الحديد اللين حتى الفلواذا القاسي الذي يحتوي كميات كبيرة من الكربون.

ويبدو أن حداثي البرونز الذين كانت لديهم تقاليد طويلة الأمد ومشكلات أقل هؤلاء كان يبدو أنهم كانوا أفضل في أعمالهم.

واعتباراً من بدء الحفريات في آشور في منتصف القرن التاسع عشر بهم فقد لوحظ أن الآشوريين أو أولئك الذين صنعوا لهم البرونز قد تمرهوا على الخصائص المختلفة للبرونز وخلطه وتركيبها.

وبينما كانت الطليسات والصحن والأفرط مصنوعة من نوع من البرونز المؤلف من جزء واحد من القصدير بنسبة واحد إلى ستة، فلقد كان الآشوريون ماهرين في صنع البرونز فلقد استطاعوا صنع أنابيب ذات أقطار صغيرة جداً تصلح أن تدخل في قضيب الرجل أثناء إجراء المعالجة الطبية له.

ولكن هناك بعض ماصري الآشوريين الذين كانوا أشد مهارة منهم في صنع البرونز ففي شمال آشور وفي الجبال التي أصبحت أرمينيا فيما بعد كانت هناك مملكة (أورارتو) ولقد كشفت الحفريات على كثير من أعمال البرونز هناك، ووجد أن كلاً من الصفات الفنية والتقنية عندهم أفضل من الأعمال الآشورية ولا بد أن الآشوريين كانوا موافقين على هذا الحكم، وذلك لأنه عندما صنعت

الفرصة كلما كان الحال عندما استولى الملك سرجون الثاني على أورارتو في حملة عام (٧١٤ ق.م) عندها أخذ الجيش الآشوري كميات هائلة من البرونز الأورارتي ككنائهم، ولم يكن البرونز بشكل معدن بل بشكل أشياء مصنعة.

وقد أحصى سرجون الأشياء المأخوذة من الحديد والفضة فضلاً عن البرونز وكانت أعدادها تصل إلى مئات الألوف التي كان منها الخناجر البرونزية التي كان مقدارها (٢٠٥٠٠٠) ولكن لم نستطع ترجمة أسماء كثير من الأشياء المأخوذة.

وكان سرجون يساهم في الشعور بهذه العقوبة عندما اشتمل في قائمته (١٢٠) مادة برونزية من صنع بلدهم ولم يكن من السهل كتابة أسماء هذه المواد.

التكنولوجيا الكيميائية

لا يعرف إلا القليل عن التكنولوجيا في المنطقة ما بين النهرين القديمة وتتمحور معلوماتها بما نستطيع استنتاجه من بقايا التجهيزات التي وجدت في الحفريات، ومن سيفة نصوص تماذج مثل هذه الأمر وتلميحات متناثرة في أمكنة أخرى.

ولمنا بحاجة إلى الإشارة أن تحضير الطعام في منطقة ما بين النهرين كما هو الحال والأماكن الأخرى كان يشمل بعض المظاهر المأخوذة من التقنيات الكيميائية باستعمال مواد كيميائية إضافية (كما هو الحال عند حفظ اللحم بواسطة التخليل) (عمل المخلات).

وبعض العمليات الميكروسكوبية مثل: استعمال الأنزيمات والبكتيريا والفلور في صناعة البيرة والتبيض واللبن الرائب والجبنه.

وعدا عن تحضير الطعام فإن العمليات الكيميائية الرئيسية المعروفة في منطقة ما بين النهرين القديمة بما فيها آشور كانت صنع الزجاج والفلور والصبغ ودباغة الجلود وتحضير القلويات والصابون، وعمليات التمدين التي تشمل الصهر في الأفران، وربما التقطير.

والحقيقة أنه ليس لدينا نصوص واضحة مرتبطة مباشرة بتأشور سوى صناعة الزجاج وتحضير الملون.

إن الافتراض أن شعب منطقة ما بين النهرين كانوا قادرين على استخدام التقطير مؤسسة على الاستنتاج من وجود بعض الفخار والأواني الفخارية ذات حافة غريبة مزدوجة وكانت شتيها الداخلية مثقوبة وأحياناً لا تكون مثقوبة، وعند رؤية غطاء في الأعلى ونار مشتعلة في الأسفل مع وجود شكل وعاء دون وجود ثقوب للتصريف في الأعلى من الممكن أن تستخدم كجهاز للتقطير.

بينما نجد أن الشكل المجهز بثقوب للتصريف في الشفة العليا من الممكن أن يكون جهازاً للتكثيف يشبه جهاز راووق القهوة.

مع أن هذا التفسير يبدو ممكناً إلا أنه ليس لدينا أي شهادة إيجابية أن أوانٍ من هذا النوع قد استعملت فعلاً كأدوات للتقطير أو أدوات للتكثيف.

هذا وإن الحصول على النار هو مظهر من مظاهر التقنية العكمماوية القديمة التي لا تزال نجلها، ومنذ الألف الأول هناك إشارات عديدة قبل على استعمال الكبريت وإنتاج اللهب هناك مثلاً تعليمات في عدد من الطقوس تقول: ((إنك سوف تضفي مشعلاً من نار تتنج من الكبريت)).

ولكن ليس هناك من دلالة على كيفية إشعال الكبريت.

وفي الألف الثاني وجد في آشور عذسات معدنية الجانبين مصنوعة من بلورات منقرعة ومن الممكن استعمال هذه لتركيز أشعة الشمس بحيث تمتج احتراق ما تحتها، ومع ذلك فليس هناك من شواهد أبداً أن هذه العذسات قد استعملت بهذا الشكل.

إن أوسع مجموعة معروفة من النصوص المعمارية المختزمة بالتقنيات الكيمائية تتكون من بضعة دزينات من النصوص تشرح صنع الزجاج الملون، ومعظم هذه النصوص مأخوذة من مكتبة آشور بانيبال في نينوى.

وينبغي أن نشير إلى أن هذه النصوص تمتلك تاريخاً أدبياً طويلاً خلفها وفي الشكل النهائي الذي تتخذة ربما تعكس إجراءات حدثت قبل بضعة قرون في بابل وليس في آشور.

ومع ذلك فإن صنع الزجاج كان يتم بالتأكيد في آشور في الألف الأول، الأمر الذي نعلمه من وجود أوان زجاجية حقيقية وأشياء أخرى مثل بعض الخز من الزجاج كلها وجدت في المواقع الآشورية.

لقد وضعت التعليمات التقنية في إطار سعري ديني مع وجود الخشوع الفيني المتباد وكان على التقني أن يكشف (ربما عن طريق التنبؤات الفلكية وجود شهر مناسب أو يوم مناسب) وعندئذ يوسعه أن يبيّن اتزاناً له ويمدها كان عليه أن ينصب بعض التماثيل التي تدعى سكلو وتعني هذه الكلمة ((الطفل المولود ميتاً)).

وهكذا فإن هذه التماثيل تشير إلى أرواح الأطفال الذين ولدوا ميتين، وكان من الواجب تقديم طقوس الإراقة وهي سحب سائل على الأرض تكريماً للإله.

وكذلك ينبغي أن تقدم الضحايا لهذه التماثيل ويضع اقتراب أي شخص غير ملأهر طقوساً من هذه المشاهد، ومن الواضح أن هذه التمهضيرات السعرية كانت تمكس شعور صانعي الزجاج بأن إلماهم التقني بمعلم غير كاف لضمان النجاح. وبمدها تتبع التعليمات التقنية وكانت هذه تشمل وزن العناصر المكونة وطقونها ثم مزجها، وبعد ذلك وضعها في أتون تحت شروط خاصة حتى تذوب الكتلة ويصبح منتجاً مع تكرار العمليات عند الضرورة.

وبعد ذلك كان الناتج يبرد ويطحن ويمزج مع المواد الأخرى (لبلوغ اللون المطلوب) ثم يعاد تسخينه.

هذا وإن أحد تلك النصوص يقول:

((إنه في المرحلة الأخيرة ينبغي أن يترك باب الأتون مفتوحاً حتى يتوهج الزجاج المنصهر ويصبح لونه أحمر وعندئذ يفضّل باب الأتون)) ومن الواضح أن تقنيي

منطقة ما بين النهرين كانوا يعلمون أن هناك نتائج مختلفة وقد تولدت عن طريق الأكسدة والاختزال.

نقد أشرنا إلى نصوص تتعلق بصناعة العطور وأن جميع هذه النصوص عدا نص واحد قد أنت من مدينة آشور في القرن الثاني عشر، وكانت العملية التي يصفونها بالتخمير والنقع والقلي برقق للنباتات العطرية في الماء لعدة أيام وبعد ذلك يضاف الزيت لامتصاص المادة العطرية وثم تستخلص العطور من طبقة الزيت الرقيقة جداً.

هذا وقد جرت محاولات لتفسير بعض المصطلحات التقنية المشكوك في أمرها في النصوص وذلك بالإشارة إلى عملية التقطير ولكن هذا أصبح أمراً مشكوكاً فيه أيضاً.

تخطيط المدن

كانت المحاولات المقصودة للسيطرة على البيئة التي تمتعت ببناء المدن ما هي إلا مظهر آخر من مظاهر تحكم الإنسان المتزايد في الطبيعة. ولكن وفي الوقت نفسه فإن شكل المدن القديمة من الممكن أن يعكس تشكيل الطبيعة للإنسان.

وذلك لأن أصولها نابعة من الجغرافية، هذا وإن مواقع المدن القديمة وإلى حد كبير مخططات مساحة الأرض والمواد المستعملة إنما تقررت عن طريق مظاهر طبيعية، أي: عند وجود نهر أو تلة أو أرض خصبة، أو مواد قريبة من العبارة، أو الأخشاب المستعملة في البناء.

وضمن هذه المقاييس تمت المدن الأصلية كمجموعات متشابكة من الجيران، مثلاً منطقة المعبد أو سوق النحاسين، أو سوق بائعي الفخار، أو بيوت المسكن التي تبنى دون تخطيط معقول.

ولكن فيما بعد عندما وجدت السلطات المحلية التي تستطيع تجاوز الاعتبارات الجزئية طبقاً لمصالح الدولة ككل، عندما أصبح من الممكن إيجاد

شبه من تخطيط المدن التي أصبحت ضرورية من الضروريات، إذا اقتضت المصالح الوطنية إعادة بناء مدينة.

ومع ذلك وحتى في مثل هذه الحالات هناك تغييرات لما يمكن عمله، وقد كان أوضح هذه التقييدات المظاهر الدينية المحافظة التي كانت تطلب أنه حيث كان هناك معبد عندها يجب بناء معبد شبيه له بالضبط على ذلك الموقع. ولتكن ضمن هذه القيود تم بناء عدد من المساكن وتم إحداث تخطيط جديد وذلك في الألف الأول قبل الميلاد في عواصم منطقة ما بين النهرين القديمة وبابل ونينوى.

وقد كان مجال الترميم التام واضحاً في بابل نظراً لأن هذه المدينة قد نهبت وهدمت إلى الأرض من قبل منحاريب ولكن تفصيل ذلك الترميم إنما يعود للتاريخ البابلي وليس للأشوري. هذا وتهمنا جداً نينوى وهي آخر عاصمة آشورية وسعها ورممها إلى حد لا بأس به منحاريب.

كانت إحدى أبحاث بعض المؤرخين القدماء هي ما يخص الأوتل، وعلى هذا الأساس يمكن أن ندعو منحاريب أول مخطط للمدن. وكان منحاريب مخططاً نموذجياً وقد أوضح الخصائص المهمة جيداً وما هو سين فيها.

وكان لديه رغبة صادقة لعمل ما هو الأفضل لدولته ومدينته وشميه، وكان معتقداً بأنه يعلم ما هو الخير بالنسبة لهؤلاء، ولم يكن يتورع عن إبداء الحقائق بشكل تبدو فيه مناسبة لأغراضه.

تظهر هذه الحقيقة وبداية سرد منحاريب للأعمال التي قام بها في نينوى، ومع أنها كانت مدينة ذات أهمية متزايدة منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

وقد كشفت العاصمة القديمة آشور بالنسبة لأهميتها الاقتصادية والتجارية قبل ظهور منحاريب إذ أنها لم تصبح عاصمة لآشور المتوحدة قبل منحاريب.

ورغم ذلك فإن سنعاريب يصف نينوى بأنها المكان (حيث منذ الأزمنة القديمة مارس الملوك الذين أتوا قبلي من أجدادي شؤون الملك قبلي، ووجهوا رعايا الإله انليل).

والحقيقة أنه ليس من كذاب في هذه التعميمات فقد حكم أسلاف سنعاريب نينوى كما يقول التصريح، ولكنهم لم يحكموا نينوى كما تفيد العبارة التي ذكرها وهي أنهم وجهوا رعايا الإله انليل.

وربما كان هناك بعض الصراعات السياسية التي وقعت وراء هذا الادعاء وهو مسألة نقل العاصمة، إذ إنه مع وجود إمبراطورية متحدة شمالاً وشرقاً وغرباً كانت مدينة آشور في أقصى الجنوب، وهذا موقع غير مناسب بصفة استراتيجية كموقع مدينة الشمال.

ولكن كان هناك عامل ثانٍ إذ إنه نظراً لأن آشور كانت مدينة ومركزاً معترفاً دينياً فقد اكتسب مسكنها واحتفظوا بامتيازات، مثلاً الإعفاء من الضرائب والسفرة (وهي واجبات الخدمة الإجبارية).

وقد شعر عدة ملوك بالقيود الناتجة عن ذلك، فقد بنى توكونلي نينوترا الأول لنفسه مدينة عبر نهر دجلة.

وانشأ آشور- ناصر- بعل عاصمة جديدة كلياً في (كالك) وقد بنى هذه المدينة فوق مدينة سابقة صغيرة.

وخسر شلمناسر الخامس عرشه بسبب خصوماته مع مدينة آشور، في حين أن سرجون الثاني وهو والد سنعاريب قد اضطر للتنازل عن جميع مطالبه من شعب آشور لكي يحصل على تأييدهم في مطالبته بالعرش، مع أنه ولكي ينجو من هزمتهم بنى لنفسه قاعدة ملكية جديدة إلى الشمال الشرقي من نينوى في المرتفع الذي أطلق عليه اسم دور شارووكين (وهي مرتفع خورسباد اليوم).

لقد زاد سنحاريب من قيمة نفسه عندما سكتب تصريحاته في سبيل إعادة بناء نينوى، ولكن لم يكن هناك من شيء غريب عندما يصف أحد الملوك الآشوريين عمليات بناء عاصمته الجديدة.

فقد تخلصت النقوش الآشورية الملكية من ذكر أحوال البناء وأصبحت تذكر الملك نفسه وألقابه، وأضافت ملاحظات مختصرة عن بعض الحوادث الجارية في الدولة وذلك لكي يتم تثبيت التاريخ، وبعد ذلك كان بعض أعماله التي تدل على التفوق عند بناء ما بنى.

وقد قدم الملوك الآشوريون نقوشهم الملكية بتوسيع أخبار أي حادث جديد في الدولة، وجعله قصة مفصلة تصف الحملات الملكية.

ولكن أخبار البناء كانت دائماً في القسم الأخير من النص، ولو كان هذا النص غالباً ما يشير إلى إصلاحات صغرى في معبد أو أي بناء عام.

وهذا يعني أن شكلاً تقليدياً كان بمقتول اليد عندما يريد سنحاريب أن يصف ما صنعه نينوى، وقد حصل على كل الفائدة من هذا العمل.

والرواية الآتية التي تبين ما كان يدعيه وما فعله، وهي تجدد عدداً من الروايات المختلفة عن عمله في المدينة وهي تمثل الروايات جميعها حول منجزات سنحاريب في هذا العهد، ولهمت روايات متسلسلة متكررة حول النظام الذي قال عنه: إنه أتى به ذلك العمل.

وينبغي أن نذكر أولاً أن هناك كثيراً من الأشياء التي لم يخبرنا عنها سنحاريب التي نُسَرنا أن نعرفها، إذ إننا نود أن نعرف كيف يعين الناس العاديين، وكيف بنيت بيوتهم وكيف تجمعت وكيف يتصرفون في أمور السوق والطماع والمعابد ولكننا نستطيع أن نكتشف ذلك من الحفريات، فقد كان كل اهتمام سنحاريب في مثل هذه الأمور هو أن قرر بأن لا يجوز أن تكون البيوت الخاصة معيطة بالطريق الملكي.

وكان اهتمام سنحاريب الرئيسي منعصراً في بيته وهو القصر الملكي، وقد كان هناك قصر ملكي في نينوى دوماً ولكن الآن وبعد أن أصبحت نينوى العاصمة الإمبراطورية أصبح ذلك القصر صغيراً، ولم يكن يغطي نصف هذان أو ما يقارب ذلك، ولذلك قرر سنحاريب أن يبني قصراً مناسباً وأن يبني عاصمة مناسبة أيضاً.

ولم يكن هناك نقص في الموارد وقد قدمت حروبه عدداً من المبيد للمل، فأرسل عدداً من الخبراء الجيولوجيين إلى الجبال للتحقيق عن أحجار شبه كريمة وأحجار تصلح للبناء، وقد أمن سنحاريب ووضع تحت تصرفه كميات من الخشب الجيد المجلوب من الجبال الممتدة من جبال لبنان وأمانوس في القرب حتى جبال زاغروس شرقاً.

وكان هناك مادة ثمينة للبناء وهي أشجار القصب الهائلة (التي يبلغ طول الواحدة منها ٢٥ قدماً) من المستنقعات الواسعة في جنوب المراق والتي يقال عنها: إنه قد سحبها وأوصلها إلى آشور ولم يفسد ككيف جرت هذه الأشجار ولكن تصريحه من الممكن أن يعني أنها قد ربطت ونقلت عبر النهر في قوارب.

كانت الأيدي العاملة تأتي من جميع أنحاء الإمبراطورية: من مستنقعات في جنوب بابل ومن شمال غرب إيران ومن أسية الصغرى من سواحل فلسطين، وقد أسهمت هذه المجموعات المختلفة من جماعات عرقية وثقافية مختلفة، في توحيد مناطق الشرق الأدنى تدريجياً ولم تذكر الأعداد التي كانت تستخدم للعمل في نينوى، ولكن كان هناك مئات الألوف من العمال تحت تصرف سنحاريب.

وتقع نينوى حيث يتصل أحد الروافد المدعو خوسر بنهر دجلة، وكان يجري إلى جانب القصر القديم فرع من خوسر يعرف باسم تيلتو وفي أوقات الفيضان، لم يسبب تآكل الأرضية التي وقف عليها القصر فعصب، بل وصل النهر إلى داخل المدينة وأتلف مدينة ذات قديمة تدعى الجيجونو.

ونبشت القبور القديمة التي احتوت عليها تلك المدينة، وقد عالج سنعاريب المشكلة بأن حوّل مجرى ذلك النهر، وملاً مجراه القديم بقطع كبيرة من الحجر الكلسي المجلوبة من الجبال، وشتها بالكهتومين، وفوق هذه وجدت كميات من القصب فكانت مترجكة تهدد البيوت بالخطر، ولقد أمنت الحماية ضد الطوفان، وذلك ببناء سور مدعوم بقطع من الحجر الكلسي.

وفوق كل ذلك بنيت شرفة علوها (١٧٠) متماكاً من القرميد (وقد ذكر سنعاريب في مكان آخر أن عدد المهداميك (١٨٠ أو ١٩٠) فوق القاعدة، وكان القصر الجديد في هذا المكان.

وفي عدة نواح كان القصر الجديد بناءً نموذجياً في نوعه ويتألف من عدة غرف متوضعة حول سلسلة من الباحات، وكانت بعض الغرف عبارة عن أماسكن مخصصة للسكن أو مكاتب إدارية وهناك غرف طويلة تولف المقر الحكومي، ونحن لا نمرف هذه الأمور من أي أوصاف ذكرها سنعاريب بل من الحفريات الحديثة، وكان هناك تجديدات معمارية ذكر سنعاريب أنها تمتحق الذكر، وكانت هذه تتحصر في وضع رواق ذي أعمدة على واجهة القصر وهو نسخة عن أسلوب البناء الموزي وهذه كانت تدل على رغبة سنعاريب في تبني الأفكار الجديدة.

وكان المظهر الآخر من مظاهر القصر الذي اعتبره سنعاريب شيئاً يستحق التسجيل بالتفصيل وهو حجم القصر فقد كان حجم القصر يزيد على فدانين ونصف من الأرض وكذلك زينة القصر.

وكانت المادة الرئيسية التي تضي المظلة على البناء هي أخشاب الزينة المعطرة، ويقول الملك: إن الآلهة قد أظهرت له الأمكنة التي كانت أشجار الأرض الضخمة تنمو في الجبال وأنه قد أمر بجلب أشجار الأرض وأشجار أخرى من الفايات الضخمة في جبال زاغروس وأملوس.

واستعملت هذه الأشجار في تحضير المارخلت والأعمدة والأبواب ومن الفرابية
بممكن أن سنحاريب قد خسر جمال الفابات بسبب معيه للزخرفة، وقد أخبرنا
أنه وضع أبواباً مزدوجة من الأخشاب المطرة ويمدها كسلاها بالفضة والنحاس.

³ وكان هذا يعني أنه إما قد دهنها بألوان فاتحة أو أنه طلائها بمعبدن لامع
ويعتبر التفسير الأخير أنه الجواب الأكثر احتمالاً، نظراً لأنه وفي الصطور التالية
يقول الملك:

إنه قد بُت مسامير من القضة والنحاس حول العجيرات المذكورة، وقد استعمل
الماج المحفور من أجل الزينة، أما الجدران الخارجية فقد زُيّنت بالقرميد المطلي
الملون فوق كورنيش وإفريز مائل.

وكما ذكرنا سابقاً فإن سنحاريب قد أرسل مكشافين إلى الخارج للتحقيق
عن مصادر جديدة للمعادن، وذلك لأنه أخبرنا أن الرخام الشفاف الذي كان نادراً
في أيام أسلافه وأنه مكلف جداً، وقد اكتشف في أحد الجبال بحيث إنه
يستطيع أن يصنع تماثيل منحوتة منه.

ووجدت مصادر جديدة من الحجارة الأخرى بما فيها كريمة واسعة من الحجر
الكلبي الذي نحتت منها تماثيل الثيران الهائلة، وقد كانت هذه الحجارة تنقل
فوق نهر دجلة إلى نينوى على أطواف في موسم الفيضان.

وكانت تماثيل هائلة تصنع من البرونز بواسطة عملية جديدة وهي العيكل
المتجوف التي اخترعها سنحاريب نفسه، وقد رُود القصر بمياه الشرب من آبار
مجهزة بمحركات مثبته على عارضة مع وجود سطول ترتفع من البشر وهي مثبتة
بمسلسلة طويلة من البرونز.

أما التدفئة والتهوية فهي مظاهر تختص بتقنية البناء التي لم يتنازل سنحاريب
بإخبارنا عنها ولكن الحفريات الفعلية في قصره والقصور الأخرى تمدنا بما
يساعد على ملء هذه الثغرة، إذ ربما يكون الطقم بارداً بشكل لا زع في نينوى
في فصل الشتاء، ولا بد أن سنحاريب كان لديه طريقته الخاصة للبقاء بشكل
مريح.

فقد كشفت الحفريات هناك وفي قصور أخرى عن إنشاءات بشكل سدك حجرية متوازية موضوعة في أرض القصر وتشبه خطوط القطارات، فقد اقترح أن هذه الخطوط كانت منزل فعم فيه حجرات من نار على دواليب يمكن أن تتحرك في الغرفة إلى حيث كان النصف مطلوباً.

إن استعمال منزل النار المتحرك في القصر يتطلب شكلاً من أشكال التهوية وذلك في حالة رغبة السكان التخلص من أول أكسيد الكربون السام وثانيه الضارة، ولكن لم يستطع علماء الآثار تقديم أي قرينة تثبت ذلك نظراً لأن أي ترتيبات من هذا النوع تتطلب أن تكون موضوعة في الجزء العلوي من الجدران التي لا شك أنها اختفت.

ومع ذلك فإن النصوص تذكر وجود شيء في أحد القصور وهو يدعى بابها النسيم الذي يظن أنه نوع من نافذة للتهوية من الممكن فتحها وإغلاقها.

وبالنسبة للشخص الآشوري كانت الثقافة تقترب من العبادة، وكانت هناك عدة مناسبات كان من الواجب القيام بالاجتماع لأغراض طقسية دينية وهي مختلفة تماماً عن قضايا المحافظة على الصحة والراحة الشخصية، وكانت هذه الحالة تنطبق على الملك، إذ كان هناك في قاعة العرش باب يؤدي إلى غرفة الاستحمام، وهذه كانت مظهراً شائعاً في القصور، وبشكل نموذجي كان للحمام أرض مصنوعة من القرميد المشوي لا يتسرب منها الماء لوجود البيتون، وهذا كان يحمي الأجزاء السفلى من الجدران وفي منطقة منخفضة من أرض الحمام هناك ثقب أو ثقبان لتصريف الماء وفيها سدادات حجرية.

ولا يوجد في قصر منحاريب أي مكان يمكن أن ندعوه مرحاضاً مع أن هناك بعض الثقوب للتصريف من الممكن أن يركب فوقها مقعد، مع أن المقعد غير ضروري إذا كان الآشوريون يقرضون عند التفوط، وذلك كما لا يزال المراهيون يفعلون ما ثم يكونوا قد تأثروا بالمعدات الأوربية.

وبالإضافة إلى بناء القصر فقد رُمّ منحاريب ووسع بنابة ثانية كبيرة من الممكن أن نصفها بأنها ثكنة عسكرية مع أنها لم تحتو على عساكر بل على

خوّل تعمل لمصلحة الجيش والمركبات الحربية (المرات والاشاحات) والانهجرات الميدانية بمشكل عام، وفي البناء هناك، صاحة استعراض كبيرة تستعمل لتدريب الخيالة وتمارين خيول جر العربات فضلاً عن الحيوانات الأخرى المستخدمة عند القيام بالحملات العسكرية مثل البقال والجمال.

لقد اعتنى بمدخل القصر وسّع الشوارع لإنشاء طريق ملكية عرضها نحو تسعون قدماً تولف طريقاً مرتفعاً مصنوعاً من ألواح الحجر الكلسي ومزيناً بمسلات على جانبيه، وقد صكبت إنذاراً على جانب الطريق يذكر أنه إذا عمد أي إنسان إلى إعادة بناء بيته وجعل أسس هذا البناء داخلة في الطريق الملكي فسوف يعاقب بوضعه فوق الخازوق على سطح منزله.

ولم ينسَ سنهاريب أن يزود قصره بمنظر ملائم ولذلك فقد أنشأ ما دعاه بالمنتزه العظيم وكان هذا المنتزه يشبه جبال أمانوس، فقد كان فيه جميع أنواع النباتات المطيرة وأشجار الفاكهة التي تنمو في الجبال وفي أرض سكلدان، وكذلك الأشجار التي تحمل الصوف أي: القطن، وليس من السهل زرع مثل هذه الأشجار في منطقة نينوى حيث درجة الحرارة مرتفعة ولا يهطل المطر ابتداء من شهر أيار حتى تشرين الأول.

ولم يمكن من الممكن جلب الماء من نهر دجلة في زمن سنهاريب لأن مياه النهر كانت منخفضة جداً بالنسبة للأرض حول نينوى، وقد تغلب سنهاريب على هذه الصعوبة وذلك بحفر نظام من الأقنية لجلب الماء إلى حديقته من الجبال والينابيع على بعد نحو ثلاثين ميلاً من ثلاث جهات على الأقل، وكان الجزء من هذا النظام الذي وصلت إلينا معلومات عنه من نقوش سنهاريب والذي كان أهم جزء من هذا النظام على العموم بحيث كانت المياه الجبلية تجر بواسطة الأقنية والقنوات إلى نهر خوسر وهو رافد من روافد دجلة، حيث بنيت السدود والقناطر وذلك لضبط منسوب المياه حالما يقترب خوسر من نينوى.

وما تزال أجزاء كثيرة من هذا المشروع الهندسي الهائل ظاهرة حتى الآن ويمكن رؤية آثار الفن الآشوري في إقامة السدود على أجزاء من نهر خوسر عند

انخفاض منسوب المياه في النهر، كذلك نرى في أحد الأمكنة حيث ينبغي عبور أحد الوديان أنه قد بني نوع من الأقنية طولها حوالي (٢٠٠) ياردة وهي مؤلفة من حوالي مليوني قطعة حجرية ضخمة تزن القطعة حوالي ريع طن وكانت مرسوفة على أساس من الجص الخشن، وكانت قمة القناة تبلغ أربعة وعشرين ياردة طولاً وتدرج بشكل يضمن تدفقاً منتظماً للمياه وفيها دعائم لتقوية جانبيها.

رُما يتساءل المرء فيما إذا كان المشروع الطموح ذا فائدة اقتصادية وذلك من وجهة نظر نمو الاقتصاد الزراعي في جوار نينوى، ومن المحتمل أن الأمر ليس كذلك ولم يكن هذا هو هدف التجربة الواضح اقتصادياً، فإن ما كان سنحاريب يحاول عمله -وهذا يُمدُّ من حسناته- كان تحسين نمط الحياة بالنسبة له ولشعب نينوى وذلك عن طريق بناء مدينة يهيج الإنسان أن يمشي فيها.

وهكذا فإن المياه الآتية من نظام القنوات، وبعد أن تستثمر في سقي الحديقة لا بد أن يسمح لها أن تجري بشكل عشوائي لتصل إلى نهر دجلة للاستفادة منها، كتنفيذ المنطقة التي كانت -لولا ذلك- ستصبح مستنقعا، وتفتديتها للمنطقة سوف تشجع إكثار النباتات والحيوانات حيث أجمت القصب والظهور المائية المفردة والخنازير البرية، ولقد شجع أهالي نينوى على القيام بواجباتهم في جعل المدينة مناسبة ومستقرة، فقد قسمت الأراضي في أعالي الجداول إلى قطع تبلغ مساحة القطعة فداناً واحداً أو ما يقارب ذلك ووهب سنحاريب هذه الأراضي أهالي نينوى لحكي يزرعوا فيها الحنائق.

لقد زادت مساحة المدينة كثيراً، فقد كانت مساحتها سابقاً تبلغ ١٨٠ فداناً والآن بنى سنحاريب سوراً يحيط بالمدينة التي أصبحت مساحتها ألف فدان ويقال: إن السور كان سمكه حوالي أربعين قطعة من الفرميد وعلوه حوالي ١٨٠ مدماًحاً، وهذا يعني أن سمك السور أربعون قدماً وعلوه خمسة وأربعون قدماً وكان هناك ١٥ بوابة في السور وبعد هذا السور الداخلي كان هناك سور ضخم هو السور الخارجي.

والى شمال وجنوب المدينة كانت هناك حدائق أخرى ومن المحتمل أن الأراضي المحروقة التابعة للمدينة كانت منتشرة إلى مسافة تبلغ خمسة أميال وحتى عشرة فيما وراء المدينة.

البيوت الخاصة

لا نعرف إلا القليل عن البيوت الخاصة في آشور كما نعرف عن القصور ولا بد أن يكون هذا الأمر محتوماً، إذ إن الملوك الآشوريين يقدمون لنا معلومات واضحة عن قصورهم في نقوشهم ولكن لم يكن لهؤلاء الملوك أي مصلحة أو اهتمام بوصف البيوت الخاصة.

وهو قد ذلك فإن بقايا القصور التي كانت تبنى على تلال ظاهرة في المواقع الأثرية، هذه القصور كان من الممكن تمييزها بشكل أفضل من تمييز البيوت الخاصة، وكذلك علينا أن نعرف أن القصور من المحتمل أن تحتوي مواد أو أشياء يمكن حفظها في المتاحف، وهكذا كان الوضع حتى الأزمنة الحديثة، نجد أن علماء الآثار في آشور، إذا جاز لهم الاختيار فإنهم يختارون الحفر والتفتيش في قصر أكثر من اختيارهم الحفر في بيت عادي.

وأخيراً نظراً لأن القصور تحتوي على أجزاء لا بأس بها من الحجارة، بينما نجد أن البيوت الخاصة مبنية من الفخار والقرميد حتى أنه ولو كان بالاستخانة الكشف عن بقايا البيوت الخاصة فإن هنالك مشكلات خطيرة تظهر إذ ليس من السهل العثور على معلومات ذات قيمة بالنسبة لشكل البيت.

ومع ذلك فإن لدينا بعض المعلومات الواردة من النصوص حول البيوت الخاصة، وهذه تأتي على العموم من الوثائق التي تشير إلى بيع أحد البيوت مثلاً، وهذه الوثائق التي طالما تعطي جرداً عن محتويات البيت.

وهناك نص من هذه النصوص يسجل بيع بيت مبني وعمه عارضاته وأبوابه مع ما في الباحة والحمام، ومعنى الخدم في البناء النيمية، وكذلك الطابق العلوي، وغرفة المزن والسقيفة والمقبلة.

وهناك نص آخر يعود إلى الألف الأول يصف بيتاً في نينوى، وهو بيت مبني مع عوارضه وأبوابه، وغرفة الطعام وغرفة النوم، وحمام وغرفة غورسو (لا يعرف معنى هذه الكلمة) وغرفة مؤن وطابق علوي، فيه أربعة أبواب.

وبالإضافة إلى ما تذكره مثل هذه النصوص فإننا نعلم شيئاً عن البيوت الخاصة ومحتوياتها باليهماكل الفعلية التي تم العثور عليها من طريق الحفريات في مكلتا العاصمةين آشور وكالاخ، وفي بلدة ريفية وهي شيباكيا (اسمها اليوم تيب غاورا) وهي على بعد نحو (١٢ ميلاً) من نينوى.

لقد أظهرت الحفريات في كالاخ مجعداً مؤلفاً من ستة بيوت متلاحقة إزاء سور المدينة، وكانت الجدران من اللبن الطيني مغطاة بطبقة من الطين، كما أن اللبن المرصوص كان مستملاً في معظم البيوت وأرضياتها، مع أن بعض الممرات والباحات كانت مبلطة بالقرميد المشوي أو بالجر.

وسكان أكبر هذه البيوت يحتوي على اثني عشرة غرفة أرضية، وكان يشغل نحو ثلاثة آلاف متر مربع (حسب الرقم الذي ذكره عامل الحفريات) وهذا الرقم غير دقيق، بل ربما كان (٢٥٠ متراً مربعاً) أو أقل من ذلك، أو ١ من ١٦ من الفدان، ومع ذلك فإن هذا البيت تبلغ مساحته ضعف مساحة أي بيت حديث، يحتوي على أربع غرف للنوم، وكان بعض جدران المنزل التي تقسم الغرف سميكاً، ووجود الأبراج يدل على أن البيت كان فيه طابق علوي.

ولكني تتم الشروط الفعلية اللازمة لجلب الراحة في المنزل ينبغي أن نلاحظ أن جزءاً من المساحة كانت تؤلف بعض البساتين.

وسكان مدخل الدار يبدأ من باحة خارجية، وهناك باحة داخلية مبلطة، وهما غرف للمؤن في جانب من الباحة، وغرفة الاستقبال في الجانب الآخر.

وفي خلف غرف المؤن كان هناك قبو الدفن العائلي نظراً لأن موتى الآشوريين كانوا يدفنون تحت أرضية بيوتهم، وقد وجدت غرفة صغيرة تحتوي هراً مخروطي الشكل لصنع الخبز وهو مصنوع من القمار.

وكان هناك غرفة كبيرة نوعاً ما وجد فيها الهيكل العظيم لكلب الحراسة في المنزل.

وفي غرف أخرى وجدت مجموعة أخرى من أواني جمع الطعام وكفاسات وجرار كانت تحتوي على آثار من القمح والشعير والدخن ويخبر الكتان والزيت وفأس من الحديد. وهناك أدلة أخرى على أسلوب المعيشة المنزلية في بيوت الآشوريين ومنها ملعقة مصنوعة من العظم.

ولم يجد الآثريون أي أشياء مصنوعة من معادن ثمينة ولكن صادف أن كان البيت قد سرقت منه أدواته وأحرق ولا بد أنه قد سرقت منه معادن ثمينة لو وجدت. وكان في بعض البيوت الخاصة الآشورية مراحيض مع مصارف وهي بمثابة أقبية مصنوعة من القرميد ومع أنه وفي الألف الثاني قم أصبح هناك أنظمة للصرف الصحي مصنوعة من أنابيب من الفخار.

وكانت الأبواب الداخلية للبيوت تعلق على ركائز تدور داخل فجوات موجودة ضمن قطع من القرميد المشوي.

وكانت في بعض الأحيان تجويفات تدل على أنها كانت خزائن داخل الأرض وكان هناك مخاين تحت أرض الغرفة تحفظ فيها الأشياء الثمينة.

قوة الحيوانات والمواصلات البرية

هناك مرحلة أخرى مهمة تمثل سيطرة الإنسان على الطبيعة وهي استخدامه لقوة الحيوانات ويبدو أن هذه العملية قد بدأت في منطقة ما بين النهرين في زمن متأخر عن بداية الألف الرابع حين ظهرت الثيران وهي تجر المزارع.

ولقد اخترع الدولااب في هذه المنطقة وبذلك تحولت المزلجة إلى عربة أو مركبة ولقد شكل هذا التطور جزءاً من نظام المواصلات في آشور وقيت العربات (التي قد تحمست بشكل تقني وذلك باستعمال الدواليب ذات الأسياخ بدلاً من الدواليب الخشبية).

هذا وقد ظلت هذه العربات تُجر بواسطة الثيران وعلى مقاييس بواسطة البغال حتى نهاية الإمبراطورية.

وابتداء من زمن الإمبراطورية الآشورية الوسطى بدأ استعمال العربات الحربية السريعة الحركة والتي كانت تجرّها الخيول.

ولقد استعمل الملوك الآشوريون الجدد شكلاً جديداً محسناً من العربات الخفيفة (ذات الدواليبين) وكانت هذه العربات مزودة بمظلة اتقاء لحرارة الشمس.

ثم حدث استخدام الحديد مع الثيران مما شكّل مرحلة جديدة لميطرة الإنسان على بيئته وهو جر المحراث، ثم حدث استعمال ثالث لقوة الثيران في دراسة الحبوب التي كان الحيوان يجرّها نوعاً من النوارج المرسّعة بأحجار صغيرة من الصوان ويعتمد هذا النوع على رؤوس كيزان الذرة المنتشرة على أرض البيدر.

وكانت هناك قوة أخرى حيوانية وهي قوة الحمار ثم قوة الحصان والبغل والهيبن وإلى حد محدود الجمل.

وإن الحمار هو الذي خدم كحيوان يحمل الأشياء بحيث كانت قافلة من الحمير تستطيع نقل كميات كبيرة من البضائع لمسافات طويلة في أرض صعبة التضاريس بحيث يتعدد مدى نشاط هذه الحيوانات بإمكانية توفر الماء.

ومن الواضح أنه كان بالإمكان استخدام الحمير للركوب، ولكن ركوب الحمار أقل راحة من ركوب البغل، هذا وإن الحمار بطيء في سيره إذا قورن مع الحصان.

ولكن بحلول الألف الأول ق.م لم يعد الحمار مقبولاً بشكل عام، فهذا منجم الملك، وهو موظف من الدرجة الثالثة يطلب من الملك:

(أتوني بحمار أركبه لكي ترتاح قدامي).

أما تدجين الحصان ومن ثم تقديمه ووصوله إلى منطقة ما بين النهرين في نهاية الألف الثالث ق.م فقد كان له وقع كبير على حياة البشر.

وبعد أن استعمل الحصان لجر العربات الحربية أولاً من قبل الآشوريين فقد وفر الحصان منبراً ومنصة لإطلاق المهاجم الأمر الذي سوف يضمن النصر في المعركة إذا كانت التضاريس الأرضية ملائمة.

وعندما استعمل الحصان كوسائل للفريسة كما كان الحال بالنسبة للآشوريين في الألف الأول ق.م فقد وفرت قدرة الحصان على إتقان المناورة وإن سرعة الحصان أعطت أفضلية تكتيكية في المعركة مما أسهم إسهاماً كبيراً في نجاح الجيوش الآشورية في الشرق الأوسط ولكن لم يستعمل حصان الركوب في الحرب فحسب، إذ إنه قد وفر الاتصالات السريعة وقد عملت هذه النقطة في إحراز الآشوريين قصب السبق.

وحالما توسعت الإمبراطورية الآشورية اعتباراً من القرن الثامن ق.م، أصبح من الضروري لكي تستطيع هذه الإمبراطورية ضبط وحكم وإدارة نظام هذه السلطة الضخمة تأمين المواصلات المنظمة والمستمرة ما بين حكومات المناطق النائية والماصمة.

وهكذا فقد جعل الآشوريون الحصان طرفاً في هذا النظام، ونشأت شبكات من طرق ومراحل البريد عبر الإمبراطورية مع محطات لتبديل الخيول (أما في المناطق التي يصعب فيها استعمال الحصان فكانت البغال أو الحمير هي المستخدمة) وعلى طول الدروب كان الخيالة يستطيعون وهم يركبون الخيول أن ينتقلوا بسرعة بحيث إنه باستثناء محرم فقط وهي التي تقتضي عبور صحراء سيناء عند الاتصال بها، لم يكن هناك أي جزء من أجزاء الإمبراطورية عاجزاً عن إرسال رسالة إلى العاصمة وأن يستلم الجواب خلال أسبوع من الزمن.

لقد تطلب هذا الوضع صيانة الطرق العامة، وليس لدينا أي شاهد على وجود طريق ممهدة خارج العواصم ولكن كان هناك وبالتأكيد طرق رئيسية كانت مصانة واعترف بها كطرق عامة.

ومنذ بداية القرن الثالث عشر يُخبرنا الملك (توكولتي نينورتا الأول) عن الحوادث التي جرت في أوائل حكمه عام (١٢٤٤ ق.م) فيقول:

إنه قد قام بحملة في منطقة طور عابدين الجبلية (وتقع في ديار بكر في شرقي تركيا): (لقد شققت طريق في جبالهم واستعملت الفؤوس النحاسية ووسّعت ممراتهم التي كانت غير سالكة).

وفي حوالي عام (١٠٠٠ ق.م) نرى الملك تغلات بلاسر الأول يخبرنا أنه مع وجود تلك التضاريس الطبيعية الصعبة:

((لقد شققت الجبال المزعجة والطريق الصعبة بالفؤوس النحاسية فأصبحت الطرق صالحة لمرور عرباتي الحربية وجنودي)).

ويخبرنا الملوك الذين تلوّه عن أعمال مشابهة بالنسبة للطرق.

ومع وجود مثل هذه العناية بخطوط المواصلات في الجبال فإنه من المؤكد أنها كانت على اتصال بالطرق الرئيسية في السهول التي كانت في الحقيقة مصانة، ومع أن تلك الطرق لم تكن مميّدة إلا أنها كانت معدّدة بشكل جيد ودائم بحيث يمكن اعتبارها حدوداً للحقول التي ذكرت في وثائق بيع الأراضي، وأحياناً وفي مثل هذه الأحوال كانت الطرق تحمل تسمية خصوصية أو يشار إليها ببساطة بكونها (الطريق العام الملكي) أو بشكل أوضح الطريق العام الملكي الموصل إلى المكان الفلاني.

أو الطريق الذي يسير من .. وإلى.. مع ذكر أسماء البلدات في نهاية كل قسم من الطريق.

ولا شك أن هذه كانت تعتبر طرقاً عامة دائمة ومعترف بها تصونها الدولة لتأمين نظام فعال من المواصلات.

وفي أزمنة الحروب كانت الممرات الملكية هي التي تستعمل الطرق.

أما في أوقات السلم فإن هذه الطرق كانت تؤمن إمكانية تحميل العربات أحمالاً لمسافات طويلة يصعب على قوافل الحمير أن تقوم بها.

وأما بالنسبة للممرات الفعلية فهي الحقيقة أن التكنولوجيا المحلية لم تكن لتواكب مثيلاتها في البلدان الأخرى.

ونذكر الملك آشور بانيبال وبصورة خاصة أنه ولأجل تنفيذ المشاريع البنائية الخاصة به، كان القرميد يجلب من جميع أنحاء بلاده في عربات عيلامية التي كان قد كسبها كغنائم وهذا يدل أن هذه العربات إما أنها كانت أكبر وأقوى (أو كليهما) من العربات الآشورية والوطنية.

أما الأحمال الثقيلة جداً التي لا تستطيع العربات حملها مثل التماثيل الحجرية الهائلة التي يزن الواحد منها حوالي عشرين طناً فقد كانت تُجر على عجلات بمساعدة أعمدة طويلة تستخدم كرافعات وهذا ما نراه ظاهراً في لوحة جدارية نافرة.

المواصلات المائية

كانت مدن آشور وكالاخ ونيوى وهي العواصم الثلاث الأكثر أهمية في آشور وكل هذه المدن كانت واقعة على طول نهر دجلة، الذي يشكل واسطة مهمة للنقل من منطقة إلى أخرى في الأجزاء المركزية من المملكة الآشورية.

وهناك شاهد على استثمار هذا المصدر المائي قد قدمه وجود جدار لرصيف ميناء ضخمة قد اكتشف في كالاخ.

وهو قريب من بعض الأبنية الملكية، ولقد تويجت آثار هذا الجدار مسافة ٢٤٠ ياردة، فليدَّ يُبنى من قطع حجرية ضخمة ترتفع نحو ثلاثة وثلاثين قدماً فوق الأرض.

وكانت تهبط بمقدار واحد وعشرين قدماً إلى عمق النهر ولقد بنى سنعاريب ميناءً مماثلاً في نيوى وذلك كما يظهر من اسم واحد من الخمس عشرة بوابة لدينته الذي كان يسمى بوابه الميناء.

ويصف سنعاريب أيضاً كيف كان النهر مستعملاً كطريق نقل نهري لجلب الحمولات الثقيلة جداً، وهي في هذه الحالة تماثيل ضخمة من الحجر الكلسي وكانت هذه الموانئ مصدراً من مصادر الدخل الإجمالي الوطني نظراً لأننا نعلم أن استخدام الميناء كان يقتضي دفع رسوم لقاء ذلك.

ولقد استخدمت عدة أنواع مختلفة وعديدة من المراكب على أنها من آشور وإن أكثرها بدائية فكانت طوفاً كبيراً يدعى الصكالكو، وهي كلفة لا تزال موجودة في التسمية العربية في الوقت الحاضر لتعني نفس المعنى وهو كيليك، وإن أطولاً من هذا النوع لا تزال ترى على نهر دجلة حتى عام (١٩٥٠ ب.م) وبعد ذلك بطل استعمالها لأنها غير ملائمة.

وقد وصف هـ. لاهارد لهذه الأطواف وطريقة صنعها قال: إنه قد استعمل مثل هذه الأطواف في الأرمينيات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ب.م) وتستعمل جلود الأغنام والماعز الكبيرة، وقد كانت هذه الجلود تُنزع وتسلخ بحذر حيث لا تسبب أي شقوق في الجلد ويمدها تجفف وتعالج.

ويتم نفخ الجلود بواسطة الرئتين والفم من خلال ثقب يقفل فيما بعد بواسطة خيط.

وبمدها يصنع هيكل مؤلف من أشجار الجوز وأغصان الشجر والقصب وتكون بشكل الطوف المقصود بنائه.

وبمدها يتم ربط الجلود المنفوخة عن طريق أغصان شجر الصفصاف وغيرها من الأغصان وتربط كل هذه المجموعات معاً بإحكام وبمدها يحرك الطوف إلى الماء.

ويجب الانتباه إلى أن الجلود المنفوخة ينبغي أن تكون أفواهاها إلى الأعلى بحيث يمكن فتحها بسهولة في حالة انفجار أحدها أو تفرينه بحيث يتطلب أن يُملأ، عندها يمكن للناسل بالطوف أن يفتحها بسهولة، وفوق الهيكل الخشبي يتم وضع بالات البضائع والأشياء الخاصة بالتجار والمسافرين.

وكان الكيليك يحكم ترصيه حيث من الممكن أن يكون بالحجم الذي تتطلبه البضاعة وكانت وظيفة رجل الطوف أن يوصل الطوف إلى التيار الرئيسي في النهر وأن يتجنب أي عقبات تصادفه في الطريق.

وبناء على ذلك فإن الطوف ينبغي أن يسمي بسرعة تيار النهر أي دجلة إذ لا مجال لاتخاذ مجرى الطوف بشكل معاكس لتيار النهر.

وفي حالة تكون الطوف قد وصل إلى هدفه كان الطوف يفكك عند وصوله إلى المكان المقصود وكانت تباع المواد التي ينقلها فوراً.

هنالك نوع آخر من الأطواف المائية التي لا تزال موجودة على أنهار العراق خلال العقدين الماضيين هو قارب دائري ذو قعر مسطح، وإن اسمه الحديث بأقلية المربية هو: (جوفاً أو كفافاً) هذا هو الاسم الأكادي (كوبا) وهو يعني: السلّة وهذا الاسم يمثل المضمون فهو عبارة عن سلّة كبيرة جداً مصنوعة من القصب القاسي وهي ضد الماء لوجود البيتومين فيها.

ومع أنها ثابتة ومثزنة إلا أنها ليست مناسبة لأن تدفع في مجرى تيار النهر لمسافة وهكذا فهي مفيدة للمواصلات المحلية بما فيها عمليات عبور النهر في الوقت الذي لا تصلح به لعبور المسافات الطويلة.

أما النوع الثالث من القوارب فهو الشكل التقليدي المعروف مع وجود مقدمه ومؤخره أما بالنسبة لقضية دمه فليس هناك من برهان أو إثبات على وجود الشراع إذ إن جميع صور القوارب المائدة لأشور تُظهر أن هذه القوارب كانت تُحرك بالتجديف أو تحريك القدمين في الماء.

وبالنسبة لثقل المائي كما هو الحال بالنسبة للأشياء الأخرى فقد عرف الآشوريون أن هناك أمماً أخرى قد أصبح لديها مقدرة تقنية أعلى من مقدرتها ولذلك فمندما قرر سنحاريب القيام بحملة بحرية ضد عيلام عبر الخليج الفارسي فقد كلّف بعض بناء السفن من شمال سورية لبناء أسطولته في نينوى وقد وثق بالبحارة الفنيقيين وسلمهم سفنه للإبحار جنوباً، وكانت هذه السفن من نفس نوع السفن الحربية الفينيقية التي ظهرت في لوحة آشورية ناهرة والتي كانت ذات ١٧ مجدّافاً على كل جانب.

وخلال الألف الثاني ق م كان نهر دجلة معلوماً بالقوارب التي تحمل البضائع متجهة إلى العاصمة آشور بحيث كانت تحدث بعض الاصطدامات.

وكان هذا يمثل مشكلة ينبغي على قانونيين دولة آشور في القرن الثاني قبل الميلاد حلها بإصدار قانونين حول قضايا المسؤولية إذا تسببت مثل هذه الحوادث في غرق إحدى السفن.

كانت القوارب لا تجول في الأنهار الرئيسية فحسب، بل في القنوات ومن المعتقد أنها كانت تجلب المنتجات إلى العاصمة من الولايات البعيدة ولهم لدينا أي رواية أو قصة عن أحد الأحكام في القرن الرابع ق م وهو يحاول توسيع إحدى الأفتنة بحيث تستوعب قوارب ذات طول يبلغ خمسة وعشرين ذراعاً (تقريباً أربعين قدماً).

وهذا القياس يقدم لنا فكرة عن قيام أصعب القوارب المستعملة بالإشارة إلى طول القارب وليس عرضه.

وعداً عن وظائف القوارب في حمل البضائع على طول القنوات في الأنهار فإن القوارب كانت تعمل كمصلة وصل في نظام المواصلات البرية. وذلك بطريقتين:

أولاً: كانت هذه القوارب تستخدم لمبور الأنهار حيث كانت قوارب العبور الرسمية قد احتفظت بها تحت إشراف الحكام.

ثانياً: كانت هذه القوارب تستخدم كمجسور وكان هذا يحدث بضم عدد من القوارب بعضها مع بعض عبر النهر، ولا يزال هذا النظام مستعملاً في بغداد حتى عام ١٩٥٧ م.

أما في آشور القديمة فكانت كلا هاتين الطريقتين ذات أهمية وطنية بالنسبة للقضايا التي سوف ترفع تقارير عنها إلى الملك.

الفصل الثالث عشر

عالم ما وراء الطبيعة

تستمد الفاليلية من سكان الغرب أولى انطباعاتها حول الأمور الدينية في منطقة الشرق الأدنى من التورات.

ولذلك ينبغي علينا أن ننتبه إلى أن كل ما قيل عن هذا الموضوع من التوراة فيه الكثير من التعامل.

فالأنبياء الإسرائيليون مع ما لديهم من صفات الخوف من الله إلا أنهم كانوا قادرين -عن قصد- على التضليل مع شيء من حسن النية.

فالقضية التي تشير إليها هي الصورة التي تتمثل وجهة النظر في منطقة ما بين النهرين حول آلهتهم، تلك الصورة التي نحصل عليها من أقوال ما يدعى أشعيا الثاني (نبي وهو المسؤول عن السفر ٤٠-٥٥ من كتاب أشعيا):

أولئك الذين يصرفون الذهب من أكهاس دراهمهم، ويزنون الفضة في الميزان. فهم يستأجرون أحد صانعي الذهب ويبدلون الفضة إلى ذهب

وبعدها يخرّون على الأرض وينهمكون في شؤون المبادلة

وهم يحملون آثامهم فوق أكتافهم وينقلونها

ويضعونها في أماكنها حيث تبقى هناك

وليس من الممكن أن تتحرك من مكانها.

(أشعيا ٦١٤٦-٧)

وهنا نجد التباسين حول الدين في منطقة ما بين النهرين:

الأول: وهو أن هؤلاء السكان فكّروا بالإله ليس إلا صورة فحسب.

والثاني: هو أن المتعبدين صوّروا تلك الآلهة بالصورة التي تحلو لهم ونزقوا لأخيلائهم.

ولكن الحقيقة أن كلنا الفكرتين خاطئتان.

لقد كان هناك صور للآلهة وهذا أمر صحيح وقد اعترف بهذه الصور بأنها مجرد منور وليس هي الحقيقة الإلهية المطلقة.

حقاً إن باستطاعة الناس الوصول إلى الآلهة من خلال صورههم، ولكن ما يدعى يهوه عند الإسرائيليين من الممكن الوصول إليه من خلال تابوت العهد، ولم تعد الصورة الإلهية بالنسبة لأحد أفراد منطقة ما بين النهرين هي جوهر إله أكثر مما كان تابوت العهد الجوهر بالنسبة إلى يهوه، أو القلب الذي يقدمه (الشخص الكاثوليكي بالنسبة للمسيح) وكانت الصورة الإلهية بالنسبة للبابليين القدماء أو الآشوريين ما هي إلا النقطة التي من الممكن الاتصال بالإله عن طريقها، فهي النقطة التي ينكشف من خلالها الحضور الإلهي ولكنها لم تكن لتمثل الكمال الإلهي بذاته، وقد كان اللاهوتيون القدامى صريحين حول هذه الأمور.

إذ يقول أحد النصوص:

((إن مردوخ هو الإله الأعظم في بابل)) مع أنه كان من الآلهة المعبودة في آشور، يقول النص:

(العالم السفلي هو الحوض الذي تفتسل فيه، وأعلى السماوات هي الطاسة التي توضع فيها المنجدة التي تستعملها) وهكذا فإن الإله الذي يمتلك مثل هذه الأهمية الفلكية ليس من الممكن أن ينحصر داخل تمثال، وفوق ذلك فإنه بفضل النظر عن مطابقة الآلهة المنظمة بصورها إلا أن هذه الآلهة كانت تحظى بالاحترام والتبجيل ليس لكونها صوراً فحسب ولكن لكونها رموزاً.

هكذا نرى أحد المتعبدين في إحدى النصوص راكعاً أمام مذبح وضع فوقه سيف.

ونرى في إحدى الوثائق القضائية التي تعود إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد ما يشير إلى أن أحدهم قد قام بإداء القسم أمام خنجر الإله آشور.

تعدد الآلهة

هناك مظهر في ديانة ما بين النهرين من الممكن أن يتمرّض للمسخرية من قبل أنبياء الإسرائيليين وهو تعدد الآلهة.

فقد عثرت النقوش التي تذكر ملوك الآشوريين عدداً من الآلهة، مثلاً آشور السيد العظيم والد الآلهة، وأنوما نليل، وايا-أومن-وشمش، وآرات، ومردوخ، ونابو، ونيرجال، وعشتار، والسبعة هم الآلهة العظماء والذين يقفون إلى جانب الملك.

ولكن لم تكن مثل هذه القوائم تحتوي سوى كمية ضئيلة من مجمل الآلهة الكامل الذي اعترف به اللاهوتيون القدماء.

وإن ما ذكره أرميا عن يهوذا لم يكن سوى نوع من التهكم بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين وذلك عندما يقول:

((إن عدد آلهتكم يبلغ بقدر عدد خدمكم)).

ففي منطقة ما بين النهرين نجد أن كل مدينة كان لها آلهتها الخاصة بها، ولكن بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك عدة مظاهر سواء كانت في الحياة المادية أو في المجتمعات البشرية، كل واحد منها كان له ما يحميه من القوى الإلهية.

فقد كان هناك على سبيل المثال آلهة لصنع الخمر وآلهة للبناء.

وهكذا يجد الباحث الحديث الذي يذهب إلى منطقة ما بين النهرين القديمة أنهم يمدّون ألوهاً من الآلهة في المجتمع الإلهي ولكن لم تكن هذه القائمة الضخمة انعكاساً للمعتقدات الدينية العامة ولا انعكاساً لمعتقدات أي فرد من الأفراد، بل كانت من بقايا أفكار الباحثين القدماء الذين حاولوا تجميع عدد من مجموعات الآلهة في محاولة منهم أن ينظموها ضمن نوع ما من أساليب التنظيم، وفيما عدا الدوائر المختصة بالعلماء الباحثين لم يعتبر أي إنسان لا في بابل ولا في آشور أن العالم يسير ضمن هذا المجتمع الضخم المنظم الرسمي من الآلهة.

ولا شك أن الإيتسان الآشوري العادي كان يرى نفسه محاطاً بأصناف متعددة من القوى الخارقة للطبيعة.

ولكن لم تكن هذه القوة للقوى الخارقة هي الهيكل الرسمي المكرس للباحثين، ومع أن الشخص العادي يعلم أن هناك هيكلاً مكرماً إلا أنه كان قد تعرف على التفاصيل بشكل ليس بأفضل من تعرف الشخص المسيحي العادي على القوانين الكنسية المختصة بالقسيسين.

ولكن الآلهة التي كان الشخص الآشوري العادي مهتماً بها كانت قليلة العدد.

وكان أولها: هو الإله القومي آشور الذي لا يمكن لأحد أن ينمنا نظراً لملاقته الوثيقة بما يفعله الملك وكان مكرماً ومقدساً في كل المناسبات الرسمية. ولكن ربما لم يكن الشخص الآشوري العادي عالماً أن آشور امتنع عدة مظاهر من الإله السومري انليل (عضو الثلاث الإلهي) ومن مردوخ إله بابل.

وإلى جانب آشور كانت هناك الإلهة عشتار التي لم تكن بعيدة عن الاعتبار نظراً لملاقاتها بالأنشطة الجنسية من جهة ومن جهة أخرى لارتباطها بالحرب.

وقد أظهرت عشتار نفسها في عدة أشكال، مثلاً، عشتار نهوى وعشتار إريبل وعشتار بيت عنجوري على سبيل المثال، وقد ظن بعض الآشوريين أن هؤلاء كانوا آلهة متميزين، ولهم الحق في ذلك نظراً لأن أشغال عشتار المختلفة ربما تكون قد تطورت وذلك بسبب إضعاف صفة الآلهة عشتار لبعض الآلهة المحلية المعروفة.

وبعد ذلك كان هنالك بعض الآلهة، المختصة بالظواهر الطبيعية مثل إله الشمس شاماش (وكان هذا هو إله العدالة) وإله القمر (مين) وإله الطقس (أداد).

وكل من هذه الآلهة كان مرتبطاً بالحياة اليومية فلا يجوز تجاهلها، وكان إله المحكمة (إيا) يحتل المقام الأول بالنسبة للوعي الديني مع أنه لم يكن مرتبطاً بالمحكمة بقدر ارتباطه بأهميته بالنسبة للمملكات السحرية والعبادات الماثية.

وكان (نيرجال) إله العالم السفلي والموت يهتم بشكل رهيب بأمور المسحر بينما كان نينوترا أحد آلهة الحرب والصيد يحتل مركزاً مرموقاً في حياة الآشوريين.

وفي تلك الفترات الزمنية التي كانت النصوص الاجتماعية تهتم بالملاقات البابلية أصبح الإلهان البابليان مردوخ ونابو يمتلكان أهمية خاصة في آشور.

لكن عدداً عن هؤلاء، لا نحيل لأي واحد من ألوف الآلهة في المجتمع الإلهي الرسمي له ذكر في بعض الحالات في النصوص الآشورية.

هناك شواهد قليلة تدل على أن أفراداً قليلين من المجتمع الإلهي قد دخل في الضمير الشعبي.

ومع ذلك فإن الفكرة الأخيرة هي بحاجة إلى إبداء بعض التحفظات: إذ إن عدداً قليلاً من أسماء الآلهة الأخرى موجودة كعناصر متقلقلة في الأسماء الشخصية.

وربما كان هذا دلالة على وجود ظاهرة عبادة هذه الآلهة وانتشارها الواسع مع أنه ليس لدينا أي شواهد أخرى.

أما مجتمع الآلهة الأخرى فلم يهتم بهاجات العبادة بقدر اهتمامها بالتعبير عن حالة الإجبار التي شعر بها المثقفون من ذوي العقول النيرة في بابل القديمة في آشور وذلك لتظيم جميع مظاهر الحياة.

وعلياً لهذه الفرضية فقد عمد اللاهوتيون إلى ترتيب جميع الآلهة من مختلف الأحوال وضماها إلى مجتمع ديني منظم، يمتلك علاقات متداخلة متعددة مع حق الأفضلية.

ولكن كانت التقاليد المحلية ذات قوة عظيمة بحيث كان الشخص الآشوري المعادي أصبح في وضع حرج أجبره على استحسان تلك التفسيرات الموجودة في المجتمع الديني الرسمي كما هو الحال بالنسبة للرجل المسيحي المعادي الذي يتوجب عليه أن يحدد العلاقة ما بين الإله الأب والإله الابن والروح القدس.

وكانت حالة الأفضلية فيما بين الآلهة الآشورية وقضية علاقاتها المتبادلة، لقد بقيت هذه القضايا ومشكل واضح مشكلة من المشكلات حتى زمن نهاية الإمبراطورية قريباً.

وهكذا نجد الملك سنحاريب مجبراً على أن يؤسس (يمشيئة الآلهة) الترتيب المناسب لأفضلية عدد من الآلهة التي تشترك في الاحتفالات الدينية، وهناك نص آخر يعكس نواحي الشك فهما إذا كانت الآلهة (شيراوا) هذه زوجة الإله آشور الذي كانت زوجته فعلاً تصرف باسم (نينيل) وهذا هو أصلاً اسم زوجة الإله السومري (انليل) أو أخته.

إن الآلهة العظيمة التي ذكرت بصفاتها مهمة بحياة دولة آشور (ويابل) ككل من الممكن في الوقت نفسه اعتبار أن لديها صفات خاصة ببعض المدن.

وهكذا فإن الإله نيرجال الذي كان بصفته إله العالم السفلي كان مسيطراً على أحوال الموت، فقد كان بالاشتراك مع زوجته (لاس) يوصف في بابل بأنه كان يعيش في مدينة (كومتها).

وأما في آشور فهو يوصف بأنه كان يعيش في تاريبو (وهي معر على النهر شمال نينوى).

وأما آشور الإله القومي الآشوري فقد كان طبعاً مرتبطاً بالمدينة التي تحمل اسمه.

وكما لاحظنا سابقاً فقد كانت عشتار في أشكالها المختلفة ذات ارتباطات مختلفة مع نينوى وأربيل.

وأما (سن) إله القمر فقد كان يمتلك بيتاً في (أور) وأما في آشور العظيم فقد كان مرتبطاً بمعبد المتواجد في حران.

وفي الأصل فقد اعتبر الإله ككائنات ذات أشكال إنسانية ولكن خلف هذه المعتقدات كانت هناك معتقدات أقدم عهداً ما تزال تؤلف بعض آثار الصور والنصوص.

وهكذا فقد كان آشور ناصر بمل الثاني يحمل منجلاً بشكل رأس طير
كان يمثل الإله نينورتا ، وهو إله الحرب والصيد عند الآشوريين ، وهناك خرافة
ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد وهي من سومر ولكنها كانت لا تزال شعبية
في آشور في الألف الأول قبل الميلاد وقد أخبرتنا هذه كيف أن هذا الإله قد تغلب على
كائن إلهي بشكل طائر يدعى (أنزو) وسلبه قوته ، وكانت هذه إحدى الطرق
(طبقاً لبعض الإجراءات الشائعة ضمن القصص الخرافية) التي تمكّن كيون
الشكل القديم لنينورتا كان ذلك الكائن الإلهي بشكل طائر.

وبالمقابل فلننا نرى الإله آشور يوصف بكونه جالساً على أسد ، هذه الفكرة
من الممكن أن توحي أنه وفي مرحلة أقدم عهداً كان من المطنون أن القوى الخارقة
التي كان يحملها هذا الإله كانت تتشكل بشكل أسد.

مبدأ التوحيد البدائي

حتى مع وجود مجتمع الألهة ذي الاستعمال المادي ، هناك ميل للانقسام من
شأنه ولقد تأثر هذا الميل بالتطورات السياسية فضلاً عن التغيرات الدينية.

ففي دولة آشور عند المواطن نفسه موجوداً في مجتمع كانت فيه جميع
السلطات التي كان يخضع لها المواطن ، إنما تمثل في نهاية المطاف مصدراً واحداً
من مصادر السلطة وهو الملك.

وقهاساً على ذلك من المعقول القول: إنه وبالنسبة للعالم الإلهي فإن جميع الألهة
في نهاية المطاف ما هي إلا تمثيل لإله واحد محيط بجميع القوى الإلهية ، وإننا نجد
هذا الأمر موجوداً في عدد من النصوص -مثلاً- النص التالي الموجه للإله نينورتا:

عنهك أيها الرب هما تمثّلان الإله أينليل ونينيل

وشفتاك تمثّلان آتو وأنتو

وأما جبينك فهو يمثل الإله شالا وهي زوجته المحبوبة التي تفرح القلب

وأما عنقك فيشبه ويمثل الإله مردوخ

وأما رأسك فيمثل الإله حدد

الذي خلق السماء والأرض

وكتفضية جانبية من الممكن أن نشير أن هذا الشعر يمثل مظهراً آخر لذلك الرُّحْم والتدفق الذي حدث داخل المجتمع الإلهي وعلى الرغم من محاولة اللاهوتيين تبني وجهة نظر واحدة متماسكة.

هنا يقول الإله حدد:

((هو الذي خلق السماء والأرض)).

ولكن لقد مُنح عدد من الآلهة الأخرى نفس اللقب، وكذلك فقد ذكرت كثير من الآلهة بالقدرة على الخلق بالنسبة لعلم الأساطير.

ويذكر نص آخر:

((إن كوكب المشتري هو نجمة الإله (سن) (وهو الاسم الذي يطلق عادة على القمر) وأن الإله (سن) هو آشور)).

ثم يستمر هذا النص في القول: إن نجومًا أخرى متعددة مرتبطة بالآلهة الأخرى هي نجوم الإله آشور.

فهل إن الاعتراف بالآلهة الأخرى كمظهر من مظاهر وجود إله واحد، إنما تمثل الاعتراف بالوحدانية؟

إن الجواب على هذا السؤال يعتمد اعتماداً عظيمًا على كيفية فهمنا للوحدانية.

فالمسيحيون يمدون أنفسهم وخدامتين، ولكن هناك بعض المسلمين الذين ينكرون اعتراف المسيحيين بالوحدانية نظراً لأن المسيحيين يقبلون فكرة الأقانيم الثلاثة الأب والابن والروح القدس.

إن وجود ثلاثة أشخاص إنما يعني ثلاثة آله.

لكن إذا كانت الوحداية تعني الاعتقاد بأن جميع الكهانات الإلهية هي في آخر الأمر كيان واحد، عندها يمكن اعتبار الآشوريين موحدتين، وعلى العكس فإن الاعتماد على وجهة النظر القائلة:

((إنه من الممكن للإله أن يظهر بعدة أشكال مختلفة)) وإن وجهة النظر هذه منافية لبدا التوحيد، عندها يتضح لنا أن الآشوريين لم يكونوا موحدتين.

المعابد

كان الآلهة المعظماء موجودين في كل مكان، لدينا نصوص مختلفة حول الآلهة مفادها ما يلي:

يضع الإله السموات فوق رأسه كانتها عمامة، ويدوس على العالم السفلي كما يدوس على الحذاء.

ولكن وكما هو الحال لدى اليهود والمسيحيين والإسلام فإن المكان الذي يتقابل الناس فيه مع الإله هو الكنيس أو الكنيسة أو المسجد، وهكذا وبالنسبة لآشور القديمة كان المعبد هو المكان الذي يمكن فيه الالتقاء بالآلهة.

لقد كانت المعابد قديمة قدم المدن نفسها، ففي أوائل المستوطنات كان المستوطنون يؤمنون لأنفسهم مساكن مناسبة للآلهة مع أنها كانت صغيرة بالنسبة للإله الذي سوف يسكن فيها، وكان هذا الإله يحضر ومعه عائلته وما يلزمه تماماً كما يفعل الحاكم من بني البشر، وكانت تمثله آلهة أخرى أقل مرتبة منه ولها مساكن عبادة ومساكن ملاصقة لأبنية المعبد الرئيسية، وحالما توسعت المستوطنة لتصبح مدينة كبيرة فقد توسع المعبد معها، بحيث أصبح ابتداءً من فترات قديمة وفي بعض الحالات مؤلفاً من أبنية ذات حجوم لا بأس بها وذات ثروات وأبهة.

وحيثما اتسعت علاقات المدينة مع المجتمعات الأخرى انعكس هذا في علاقات إله المدينة وربما كان هناك بعض المعابد الصغيرة التي كانت تضاف لاستعمال الآلهة القادمة بناءً على العلاقات الجديدة.

ربما يتوقع المرء أن تكون عبادة الآلهة مرتبطة بالمعابد، والحقيقة أنها كانت كذلك مع أنها لم تكن معصورة بالمعابد حين كان القصر الملكي مهتماً بشؤون العبادة، هذا ولدينا عدد كبير من النصوص الواردة من المعابد البابلية، أكثر منها من المعابد الآشورية، وهكذا نتحج بالتالي نعرف معلومات أكثر عنها. ونظراً لذلك علينا أن نتجنب ذلك الانحراف بملء الفجوات حول المعابد الآشورية من المعلومات التي نعرفها حول المعابد البابلية، لوجود فروق كبيرة بالتأكيد.

ففي بابل: كانت المعابد تمتلك بعض الضيع على مقياس واسع، مثلاً في إحدى الفترات كان معبد إيانا في المدينة الجنوبية المدعوة (إيدسن) قادراً على إدارة شؤون اقتصادية موازية وأحياناً مستقلة عن الشؤون الاقتصادية الخاصة بالدولة.

ولم يكن ينطبق هذا على آشور في الألف الأول قبل الميلاد حيث كانت الإدارة الآشورية تملك بزمام المبادرة في جميع الشؤون الاقتصادية والحياة الإدارية في البلاد، في حين أن المعابد هناك لم تستطع امتلاك الأراضي المحيطة بهذه المعابد، وحتى في الأحوال التي كانت فيها أحد المعابد الآشورية يمتلك أرضاً مجاورة للمعبد وحتى في الحالات التي لم يكن المعبد الآشوري يمتلك أرضاً، كان مدى امتلاكها غير كافٍ لتأمين الوظائف الاقتصادية المطلوبة، ولا يعني هذا أن المعبد لم يكن غنياً، فالمعبد الرئيسي ذو الوظائف التعبدية والدينية التي كانت مقررة من الملك يمكنه أن يجد الوسائل من وقت لآخر لتقديم عطايا وهدايا لازمة لإصلاح بناء بعض المعابد.

وكانت التقدمة من المتعبدين أيضاً ذات شأن، فقد ذكر أن أحد القائمين على خدمة أحد المعابد قد أخبر الملك أنه قد حصل على (١٢) مئناً من الذهب حصل عليها من التقدمة التي كان يقدمها المتعبدون وأنه قد خصص هذا الذهب

لعمل زخرفات لزوجة الإله، وتبلغ قيمة هذا الذهب (١٠٠٠٠) جينيه إسترليني حسب سعر الذهب عام ١٩٨٠ ب، وهذا بالتأكيد كان من أعظم المعابد في بابل. وهنا نمود لنذكر مظاهر العبادة في المعابد الآشورية، إذ نظراً لأن المعابد كانت أولاً: هي المأوى الدنيوي للآلهة لذلك فعلياً أن نتوقع شهادة تدل على الوجود الإلهي فيها وكانت العادة أن يتمثل الإله بوجود التماثيل التي كانت مصنوعة من الخشب والحجر المرصع بالذهب أو تماثيل محفورة من النحاس أو المعادن الثمينة، وكان لكل تمثال يقف أو ينتصب على قاعدة أو منصة ولكن وكما ذكرنا سابقاً لم تكن تماثيل الآلهة ذات أشكال بشرية.

وليس لدينا أي شاهد معين عن وجود أي إله آشوري بشكل حيواني ولكن من المؤكد أن يمثل الإله برمز من الرموز الإلهية، مثلاً أحد الخناجر بدلاً من تمثال.

لم تكن التماثيل في المعابد الآشورية تمثل الآلهة حصراً إذ نحن نسمع عن تماثيل كبيرين نصبا في معبد القمر في حران، واحد منهما عند يمين تمثال الإله والآخر عن يمينه، بالإضافة إلى تماثيل صغيرة أمام المائدة الملكية من الأمام، ولم يكن هذا يدل على الهوية الملك بل كان الفرض من هذا أن يحصل الملك على بعض الفوائد السحرية لمصاحبة الدائمة لهذه التماثيل مع إله القمر.

ولقد فسر الحكام الذي رُتب هذه المجموعات بما يلي:

((نظراً لأن الإله القمر المتوج يرتفع ويغيب شهراً بعد شهر فإنه سوف يرسل إلى الملك سيدي بيشانر مشجعة لممر طويل واستقرار للحكم وعظمة للسلطة)).

بيت الإله

إن الحاجات الرئيسية لبني البشر هي المأوى والعلم والملاصق ولذلك فقد نشأت فرضية معقولة من وجهة نظر الإنسان في منطقة ما بين النهرين:

إن الإله إذا كان سوف يتشكل بشكل بشري، ينبغي أن يساهم في الحاجة لمثل هذه الأشياء والحاجات.

كانت أول حاجة للإله هي وجود معبد كبيت له، وكانت الأمثلة الأولى للمعابد في بلاد آشور في الألف الثالث قـم ذات أبعاد متواضعة، ولكنها أصبحت فاخرة فيما بعد، بحيث كانت مضارعة للقصور الملكية.

إلا أن المعبد كان يختلف من ناحية واحدة عن القصر فقد كان يحتوي على برج ذي درجات (وكان هذا البرج مريمأ في آشور) (الزاقورات) وهو يحتوي على سبع درجات، وهناك صورة موجودة على ختم أسطواني يقدم لنا فكرة عن شكله، وهناك عدة زاقورات في آشور تلك الموجودة في نمرود وهي عبارة عن تلة مرفوعة من صنع الإنسان مع أنها لا تظهر بوضوح شكلها المدرج.

أما بالنسبة للزاقورات المعروفة في آشور فكانت حجوما الأصلية تتدرج من شائين قدماً مكعباً حتى ما يزيد عن (٢٠٠) قدماً مكعباً (أي: من ٢٤ متراً مكعباً إلى ٦٢ متراً مكعباً) وكان في ورسبال بقايا زاقورة تحتوي على أربع درجات مع وجود درج منحدر عرضه ستة أقدام مصنوع من الحجر المشوي وهو محمي من الخارج بمئراس دائري.

وأما الأوجه العمودية للدرجات الأربع فقد كانت مطلية بالجص ومدهونة باللون الأبيض والأسود والأحمر والأزرق بالتوالي، وكانت هذه تدل على رموز دينية لم نفهمها ومن الممكن أن يكون هناك ثلاث درجات ولكن ليس هناك من دليل على ذلك.

لقد جرت نقاشات عديدة حول القصد من بناء هذه الزخارف، فمن المؤكد أنها لم تكن مرصدا فلكية (كما يقترح البعض) ولم تكن تحدم ككيبور مثل الأهرامات ربما كان بناء الزاقورات مما له علاقة بالفكرة الشائعة في منطقة الشرق الأدنى القديم وهي:

إن الآلهة كانت تعيش في الجبال بحيث كانت الزاقورة بديلاً عن الجبل في سهول منطقة ما بين النهرين.

ولكن هناك مجالاً للشك فيما إذا كان الآشوريون أو البابليون من الألف الأول قـم يملكون معرفة أكثر منّا حول الأفكار التي تكمن وراء هذه الظاهرة المعمارية في الألف الثالث.

لم يكن من الضروري تأمين معبد للإله بل تأمين الكساء اللازم والطعام اللازم وكانت الملابس الطقوسية للتماثيل العائدة للآلهة جزءاً هاماً من مظاهر العبادة في جميع الأزمنة في منطقة ما بين النهرين القديمة وكان هذا ينطبق أيضاً على آشور كما على بابل.

وفي الفنون الآشورية كان هناك تمثيلات وصور لبعض المواكب التي تظهر فيها ملابس الآلهة ولكن ليس هناك من نصوص تظهر كيف ومتى كانت تلبس هذه الملابس.

ولكن لدينا قوائم فعلية للأردية الإلهية والمجوهرات في بابل وهناك يبدو أن الملابس الاحتفالية التي تخص الآلهة كانت تستعمل في مواكب خاصة أو أعياد وليس في كل يوم ، ونحن نعلم أن الآلهة كانت تقدم لها الأطعمة في المعابد الآشورية يومياً لأننا لاحظنا أن تقديم الطعام في معبد نينوى والوجبات الصباحية والمسائية للآلهة في نينوى قد ذكرت.

وللمرة الثانية نجد أن المعلومات مشوّهة بالنسبة إلى بابل التي نجد فيها نصوصاً تقدم التفاصيل التي لا تخص القضايا الاحتفالية لخدمة الآلهة فحسب بل حتى قوائم مواد الطعام ، فقد كانت الآلهة تزود بوجبتين غذائيتين رئيسيتين ووجبتين خفيفتين يومياً وكان الطعام يشتمل على البيرة والحليب وخبز الشعير وخبز القمح ثنائي البذرة ولحم الفم ولحم البقر ولحم البط والمواجن الأخرى وبيض النعام وبعض البط والتمر والتين.

ومن المريب أنه على الرغم من الكميات الكبيرة من الأطعمة التي كانت تقدم للآلهة إلا أنه لم يرد ذكر قضية التغوط ، إذ يبدو أن هذا كان من وظائف البشر التي كان يستغني عنها الآلهة ، نظراً لأن علم الأساطير يظل صامتاً تجاه

هذه القضايا، ومع أن الآلهة كانت تشترك في معظم الأنشطة البشرية الأخرى كالأكل والشرب وأعمال الحب والجنس وسوء المزاج والعبوس والبكاء والنوم.

وهضلاً عن الواجبات التي تحتم العناية بصور الآلهة إلا أنه كان هناك عدد كبير من المراسم بعضها يجري شهرياً وبعضها في المناسبات في أيام خاصة من السنة، وفي أيام تنصيب الملك الجديد وفي أي وقت كان من الواجب حضور المعبد لأداء بعض الفروض والطقوس، وذلك لتجنب شرور سوء الطالع وكانت بعض هذه الاحتفالات تشمل صورة الإله وتمثاله الذي يلبس بعباية ويخرج من المعبد للاشتراك في الاحتفالات ثم الرجوع. في بعض الحالات كنا نعلم عن الاحتفالات من تلميحات عابرة في النصوص مع نبرة التفاصيل أو عدم وجودها، ومن الممكن مثلاً أن نجد سطرأ واحداً في نص يشير إلى الوقت الذي يضحي به الملك بأحد الخراف أمام النجوم والذي نستنتج منه أن شيئاً ما ذا أهمية وطنية تشمل الملك سوف يحدث ليلاً ربما في باحة المعبد أو في المعبد أو على سطح القصر ولكن لا نعلم فعوى الحادث. وكانت بعض الطقوس معقدة جداً وهي تشمل وجود عدد كبير من الآلهة، وهكذا نجد أحد الطقوس يذكر خمسة عشر إلهاً أنهم واقفون إلى يسار الإله آشور وخمسة عشر إلى يمينه من الواضح أن هذا كان إحدى الاحتفالات الرائعة، ولا نعلم ما كانت تفعله هذه الآلهة في هذا الاحتفال ولكن يبدو أن هذا كان اجتماعاً سرّياً وخلوة للآلهة، لأنهم كانوا مزودين بالطعام المؤلف من الخضروات في هذه المناسبة وكذلك بذور الكتان والمكسرات والفنجان والرمان والتين والخبز والنبيد والبيرة.

كانت معظم الطقوس في المعبد مؤلفة من صيغ معدلة لعناصر مختلفة كصيراث الآلهة والتضحية بالحيوانات وتقديم الطعام والشراب وتلاوة التعاويذ والصلوات وإنشاد الأناشيد واحتمالات الاغتسال، وموسيقى الطبول (وعلى مستوى أهل) تمثيل درامي لحوادث خرافية وكانت عناصر هذه الأخيرة تحتوي على قتال طقوسي وسباق أو الذهاب إلى القراش لممارسة الجنس، وهذا الطقوس يدعو

الباحثون الحديثون، وهم خجلون، بالزواج المقدس، وكانت الطقوس مصحوبة بالموسيقى وبخاصة قرع الطبول الذي كان شائعاً جداً بالنسبة لمختلف الآلهة.

وتُعدُّ إحدى القوائم ثلاثة عشر من هذه الاحتفالات الدينية الإلهية في آشور التي كانت تحدث ما بين أشهر أيلول ونيسان، وتذكر إحدى النصوص القديمة أن الفرض من قرع الطبول كان دعوة الآلهة.

هناك واحد من الأعياد التي نسمع عنها الكثير هو ما يدعى (أكينو) مع أن هذا يترجم باسم عيد رأس السنة، ولكننا لا نعلم ما معنى هذا الاسم أصلاً، ونحن نستعمل الترجمة نظراً لأنه وفي بابل هذا هو ما حدث، فقد كان هذا العيد يتم في الشهر الأول من السنة وهو نيسان.

وفي بابل كان هذا العيد يبدأ بثلاثة جميع أحداث أسطورة الخلق، وكذلك تمثيل الصراع الطقوسي ما بين إله المدينة والوحش البدائي المدعو نهامات (وهو عبارة عن تين بشكل امرأة).

وأما الزواج المقدس فقد كانت هذه الاحتفالات تتم لتأمين راحة المدينة في السنة القادمة وترويج الملك الجديد، ولكن لا يجوز شرعاً الافتراض أن علينا أن نرى في الاحتفالات في آشور نسخة طبق الأصل عن الاحتفالات في بابل.

ففي بابل ليس من الضروري أن يحتفل (بالأكينو) في بداية العام وفي شهر نيسان، بل نجد ذكر مثل هذه الاحتفالات مثلاً في شهر آب وأيلول في مكان قرب إيربيل وفي آذار في مكان ثم يحدّد، ولقد حدثت الاحتفالات في شهر آذار خلال الألف الثاني ق.م.

ومع ذلك فإننا نجد أن هناك احتفال (الأكينو) في شهر نيسان في مدينة آشور مع وجود دلالات قوية أن كثيراً مما حدث كان موازياً للاحتفال الذي حدث في بابل، وهذا لا يمثل المادّات الآشورية القديمة فعصب بل يمثل نفوذ بابل الأخير.

وفي اليوم الثاني غادر الإله آشور معبده بعد أن تناول طعاماً من اللحم، وركب عربة تجرها الخيول البيضاء على رأس موكب من الآلهة متجهاً إلى بنية تدعى

بيت أكيتو، وكان هذا معبداً قد بنى سنحاريب خارج المدينة، ولقد اعتبر سنحاريب الأرض الواسعة هي خير مكان لبناء بيت أكيتو، نظراً لأنه من الواضح أنه عند بنائه هذا المعبد كان يشير بوضوح أن عادة إقامة العيد المختص بوليمة آشور ملك الآلهة قد تطور، وأصبح داخل المدينة بدلاً من إقامته في الهواء الطلق.

ولكن هذا يخدم للبرهنة أنه رغم آراء سنحاريب القوية فقد كان هناك تقليد آشوري بديل في هذا المجال وإن تأكيد سنحاريب على ما هو حق وصحيح لربما كان متأثراً بتجربة البابليين.

ولم يخبرنا أحد ماذا فعل آشور عندما وصل إلى بيت أكيتو، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نستنتج أنه عدا عن ترؤسه للوليمة التي ذكرها سنحاريب فقد استأنف ذلك الصراع الكوني ضد الوحش تيامات، وأن السبب الذي يجمعنا نفكر بهذا الشكل هو أن سنحاريب يصف بيت أكيتو بأنها مزخرفة بنماتل آشور الذي كان ذاهباً لخوض معركة ضد (تيامات) حالما يرفع قوسه وهو راكب في عربته وعلى خصره سلاح الطوفان.

ولكن هنا أيضاً يعجب الإنسان إلى أي حد قد وصلت هذه التفاصيل إلى آشور القديمة وإلى أي حد قد اقتبست آشور هذه التفاصيل من بابل.

لقد كان الدين الآشوري هو دين الدولة وكانت الدولة تعتمد على الملك لذلك لا عجب أن تتركز طقوس المعبد على الملك أيضاً، وقد ظل هذا الوضع صحيحاً حتى بالنسبة إلى المعابد المتوسطة في مدن بعيدة عن العاصمة حيث لا يستطيع الملك أن يحضر بنفسه جميع الاحتفالات، وفي هذه الحالة كان رداء الملك الطقوسي يرسل إلى المعبد ليقوم بالدور الذي كان الملك سوف يقوم به.

وكان من العادة أن يحضر آخرون من أفراد العائلة المالكة وفيهم نساء، الطقوس في المعبد وهكذا نجد أن أخت الملك أو ابنته قد دعيت للاحتفال وذلك لكي تستدعي بالامم زوجة الإله آشور الأعلى حالما يقدم لها شيء من اللحم المطبوخ.

كهنة المعبد ورجال الدين الآخرون

كان المعبد الرئيسي في مدينة رئيسية ربما ينقصها وجود الممتلكات والضيع التي كانت تتمتع بها أي مدينة مماثلة في بابل، وكان هذا المعبد لا يزال مؤسسة معقدة تتطلب وجود موظفين ورجال دين أيضاً.

وبالنسبة للمعبد في العاصمة القديمة آشور فقد تركزت السلطة بموظف لم يكن ذا شخصية دينية وهو يدعى: الأبراهكو (أي: مدير الأعمال) في بيت الإله آشور.

وفي بعض المعابد الآشورية كان المدير الرئيسي يعرف باسم الرجل المسؤول عن البيت بينما كان يدعى في معابد أخرى شانفو وهو الموظف الكهنوتي الأول، وهكذا فقد ترجم لقبه بكلمة كاهن ومن الممكن أن يحمل هذا الرجل لقبين وهما: (الرجل المسؤول عن البيت) ولقب: شانفو وكان يستعمل أحد هذين اللقبين بدل على أي من هاتين الوظائفين وكانت أعلى مقاماً في ذلك الوقت.

وعادةً كان هناك نائب للشانفو نظراً لأن شانفو معبد عظيم كان رجلاً ذا أهمية كبرى وغالباً ما كان ذا اتصال مباشر مع الملك شخصياً أو في المناسبات الاحتفالية أو عن طريق المراسلة حول الحوادث التي تجري في المدينة أو الدولة.

وكان من الممكن أن يكون هذا ذا ثروة هائلة وأن يمتلك الضياع الكبيرة بالإضافة إلى الأجور التي كان يتقاضاها كحصنة من مدخول المعبد.

ولقد كان الملك هو الذي يعين هؤلاء الموظفين مع أن اختيار الملك في مثل هذه الحالات كانت معالجة بماملين:

الأول: وهو قبول مبدأ التوارث، وهكذا إن تقريراً قد أرسل إلى الملك فحوام أن الرجل المسؤول عن البيت في أحد المعابد قد توفي، وكان يقترح على الملك أن يعين بدلاً عن المتوفي إما ولده، أو ابن أخيه وابن عمه الذي سبق أن أقبل بعد أن كان نائباً للشانفو، إذ إن التعيينات في ذلك المعبد كانت منحصرة في دائرة ضيقة.

أما العامل الآخر من القيود على حرية الملك في الاختيار فهي: أن اختيار الملك ينبغي أن ينال موافقة الآلهة واحتمال ديني وهكذا فقد أصبح الكهنة المحترفون مسيطرين على الإجراءات اللازمة للحصول على القرار والتأييد الإلهي، ومن الواضح أن هذا التأييد كان يوفر لهم الفرصة للاعتراض والنقض بالتمسبة إلى أي نهجات لا يوافقون عليها.

الشانفو

كان للشانفو مساعد وهو نائبه عند الضرورة وهو الذي يعني بالشؤون المالية للمعبد فقد كان مسؤولاً عن استلام التقدمة وإدارة شؤون المعبد المالية.

وكان مسؤولاً عن أملاك المعبد بصورة عامة (ما عدا حالة المعبد الرئيسي في آشور حيث كان هناك مدير للأعمال (أباراكو) (معيناً لهذا المنصب)، وهذا وإن حماية أملاك المعبد لا تخلو من مشاكل إذ إن الاختلاسات التي يقوم بها بعض أفراد موظفي المعبد لم تكن نادرة، وفي بعض المناسبات نجد بعض الموظفين الإداريين يقدمون شكواي إلى الملك أن أحد الموظفين المحليين قد نهب أموال المعبد.

وكان الشانفو ونائبه هما المسؤولان عن طقوس المعبد، وطالما لمبا دوراً رائداً في هذا المعبد مع أن شخصيات وفيه أخرى مشكوك فيها.

هذا وكان ملك آشور نفسه الذي كان الرئيس الأسمى لطقوس الدولة يحمل لقب شانفو بين ألقابه الكثيرة.

كان هناك عدة طبقات كهنوتية عدا عن الشانفو مرتبطة بالمعبد، وآخرون كانوا غير مرتبطين ويتوقف تكون مثل هؤلاء الموظفين أصحاب صفة كهنة أو غير كهنة على وجهة النظر الموضوعية بالنسبة لمعنى كلمة كاهن.

وكلمة كاهن تستعمل أحياناً متصلة باصطلاح وصفي (لهامه) ولكن على الرغم من هذا فإن وجهة النظر المعتمدة هنا هي أن هؤلاء الموظفين الدينيين (مع استثناءات ممكنة) لم يكونوا كهنة كما كان الحال بالنسبة للشانفو الذي

كان على اتصال وثيق بالإله لكونه مسؤولاً عن تسيير الطقوس في بيته وهو المعبد.

والحقيقة فإن التميز بين الكاهن وغير الكاهن لم يكن من اختصاص الثقافة الآشورية، إذ كان هناك تمييز واضح بين الأشخاص الذين كانوا أعضاء في هيئة الموظفين في المعبد والذين لم يكونوا كذلك وكان الاسم الذي يطلق على العضو في هيئة موظفي المعبد (أريب ييه) ومعناه الحريء: (الشخص الذي يدخل البيت).

إن مثل هؤلاء الموظفين كانوا مسؤولين بانتظام عن تسيير شؤون المعبد، بينما لم يكن الأشخاص الآخرون مسؤولين عن هذا الأمر.

وهذا الاصطلاح ربما شمل الصنائع فضلاً عن الموظفين الدينيين وأحياناً بعض الموظفين المصكبين، وكان مثل هؤلاء حق المساهمة وأخذ حصة من التقديمات التي كان يستلمها المعبد.

الكالو

إن الطبقة الثانية من طبقات الموظفين الدينيين الذين عُدوا موظفين رسميين في طاقم المعبد كانوا يعرفون باسم: الكالو، وترجمتها: (كاهن الابتهاالات) مع أن هذا الكاهن كان يقوم بأنشطة أخرى عدا عن الأنشطة الكهنوتية، وما عدا الدور الرئيسي والاحتفالات الكبرى التي كان يقوم بها الشانقو أو نائبه، وإن أكثرية الطقوس في المعبد كان يقوم بها الكهنة الذين يُسمون بالكالو ويمساعتهم.

ونحن نجد هؤلاء يقومون بتأدية أعمال كمثل نصب الطبول في فناء المعبد عند إقامة طقوس خاصة بمناسبة خسوف القمر، أو يؤدون طقوساً دينية لييلية ذات علاقة بالمعجزات وعلم النجوم، وبمساعدة الأشييو (سوف يذكر فيما بعد) كان الكالو يقيم طقوس تطهير المعبد التي تشمل عمليات التنظيف الطقوسية ونشر البخور، أو سكب الخمر على جسد الأضحية وهو ما يدعى بالإراقة.

ولقد وجدنا أن سنعاريب قد أرسل أحد هؤلاء الكالو ومعه أحد الأشيبيو لإنجاز الطقوس الضرورية عند شق إحدى الأفتية.

ولكن الوظيفة الرئيسية للكالو كانت الإنشاد وهو ترجمة اسمه التقليدي، فلقد كان الإله يسكن في بيته الأرضي وهو المبد، وكان من الضروري الحفاظ عليه في مزاج جيد، وإبقاء أساليب التواصل مفتوحة وذلك للمساعدة على إبقاء شفقة ورحمة الإله للبشر حين وقت اللزوم.

وكان هذا هو عمل ووظيفة الكالو الذي كان يقوم بترانيله وإنشاداته الطقوسية الموجهة إلى الإله والتي كانت تتخذ شكل الصلوات أو الأبتهاالات بصورة نموذجية، وكذلك الصلوات والأغاني الدينية التي تدعوها بالزامير وترافقه بعض الآلات الموسيقية كالطبل أو القيثارة.

أما الموسيقيون من الطبقة الدنيا فكانوا يساعدون في أداء الأناشيد الفعلية، واللعب تحت إرشاداته، ومن الممكن أن يكون الكالو رجلاً ذا أهمية وثروة، إذ نظراً لأنه كان يقرأ وينشد طقوساً صعبة فإنه كان ينتمي إلى طبقة المتعلمين وهم أقلية.

ونجد بعض هؤلاء الكالو يعملون مكتبةً وفي بابل (ولسنا متأكدين أن هذا ينطبق على آشور) كان الكالو المثقف المتعلم يجمع ما بين عدة وظائف إذ يمكن أن يكون (كالو) و(شانتو) في معبد آخر، ولكن ليس من الضروري أن يكون الكالو من طبقة اجتماعية راقية.

ونحن نجد قضية كالو قد اعتنق من الميودية إكراماً للإله بعل، وليس من الواضح إن كان هذا الكالو عبداً في الأصل أو سيداً، ولكن من الواضح أنه كان تحت سيطرة اجتماعية تجعله مشبوهاً.

موسيقى المعبد واليلاط

لقد لعبت الموسيقى دوراً مهماً في الطقوس في كل من الهيكل والدولة، وبالإضافة إلى ذلك في التراتيل التي كان يقدمها الكالو، وكان هناك طبقة من الناس قد كرسوا أنفسهم للموسيقى، وكانوا يقدمون موسيقى الصوت والمزف على الآلات الموسيقية، وكان الشخص من هذا النوع يدعى (نارو) والمؤت ناروتو، وكان الموسيقيون يذكرون إلى جانب الكالو في الطقوس في المعابد ولكن مراتبهم الاجتماعية كانت أدنى من هؤلاء.

وكانت مسؤولية ترتيب التراتيل تقع على الكالو، وكانت واجبات السارو أن ينشدوا الأناشيد بشكل جيد وأن يمزقوا على الآلات الموسيقية، وقد كان الموسيقيون سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً يذكرون بأعداد كبيرة بما يخص بشرون القصور، إذ إن الملوك الآشوريين كانوا حريصين على جمعهم.

ولدى الاستيلاء على بلاد أخرى كان الآشوريون يجلبون أحياناً مجموعات من مثل هؤلاء الناس باعتباره جزءاً من الفنائم، وكان الموسيقيون يرافقون الملك الآشوري أثناء غزواته.

الآشوري

كان الدين الآشوري معقداً جداً فهو يحتوي على مزيج مختلف من المواقف من أصول مختلفة كانت تعمل على مستويات مختلفة.

إذ لم تكن المعابد ولا المبادئ المؤسسة على الإيمان بأله تتخذ أشكال البشر، هي كل الديانة الآشورية.

وفي هذا المجال كان الاعتقاد السائد هو وجود آله ذات مواقف إنسانية بشرية مع قوى خارقة لقوة البشر، وكان لهذه الآله اهتمام بالبشر الذين يستلهمون الاقتراب من هذه الآله.

وإن هذه الكائنات الإلهية إذا تم الوصول إليها بشكل لائق ومناسب من الممكن إقناعها بأن تستعمل قواها لفائدة الأشخاص الذين يعبدها.

هذا وإن القرءاء إذا كانوا قد نشأوا ضمن تربية وتقالييد مسيحية أو يهودية ربما فكر هؤلاء أن هذه الأقوال بديعية، والحقيقة أنه لم تكن جميع المعتقدات الدينية الآشورية معتقدات متديّنة فقد كان هناك معتقدات بالنسبة لما وراء الطبيعة ذات أصول مختلفة وممارسات مختلفة وتعود هذه المعتقدات إلى أزمنة ما قبل التاريخ قبل أن يكون هناك أبداً أي دولة آشورية، أو أي ملك آشوري، وفي بعض الحالات حتى قبل أن تتشكل فكرة الآلهة ذوي الشكل البشري وهذه اشتملت هذه الأوضاع ما ندعوه في الاصطلاحات الحديثة بالسحر أكثر منه في الدين.

وإن كثيراً مما حدث في هذا السياق كان منعصراً بالنضال ضد التأثيرات الشريرة، وهو الذي كان يبدو أحياناً هلامياً، وأحياناً يُشخص بكونه شكلاً من أشكال الشياطين، ولكن في آشور لم يكن هناك تمييز قاطع ما بين السحر والدين، ونتيجة لذلك وجد بعض رجال الدين الذين كان نشاطهم مُنصباً على مجال السحر وليس مجال الدين كما نفهمه ولهم مركز ضمن الطقوس في المعابد والاحتفالات الدينية.

وكان أشهر وأنشط العاملين من الكهّان في هذا المجال هم الخبراء بالتعاوين السحرية، وهم المعروفون باسم الأشيبو (أو ماش ميشو) التي تترجم باسم طاردي الأرواح الشريرة، مع أن كلمة الساحر أو طبيب الساحرات ربما تبدو أكثر دقة وأكثر إقناعاً عن وظيفة هؤلاء في المجتمع الآشوري.

وكان من المعروف أن الأشيبو كان لديه قوى سحرية هائلة لدرجة أنه وفي النصوص الدينية كانت قد وصفت بعض الآلهة بأنها أشيبو الآلهة وهذا يعني: إن قوة الأشيبو كانت عظيمة جداً بحيث إنها تفوقت حتى على القوى الإلهية، مما دعا الآلهة أنفسهم لتظهر المرور بامتلاكها، وهكذا يصبح الأشيبو متمماً بعبية واحترام.

لم يكن الأشيبو بموجب طبيعة وظائفهم عبارة عن موظفين في المعابد مع أنه كان بعض هؤلاء يمينون في ملاك موظفي المعبد لإنجاز وظائفهم المختصة بهم كما يجب، مثلاً: عند إنشاء التعاويذ، أو عند محاولتهم طرد الأرواح الشريرة والشياطين من حضرة الملك.

وكان معظم هؤلاء يعملون خارج المعبد، وكان بعضهم يعمل في خدمة الملك، وكان بعضهم في ملاك موظفي القصر.

ونرى واحداً منهم يعمل كموظف عبادات يعمل في الاحتفالات الدينية عند افتتاح فنال شقه منجاريب.

وكان آشوريون آخرون يرسلون التقارير المنتظمة إلى الملك حول قضايا تخص أحوال الملك وأحوال عائلته، وأحوال الدولة.

ويذكرون بعض الطقوس اللازمة للتأمين ضد الأخطار، وكان الملك يحترم آراء هؤلاء خصوصاً عندما يصاب الملك بالخوف المريع بحيث يبالغ في الأشياء، وإن لدينا رسالة من أحد الأشيبو إلى الملك يذكر أشياء مشابهة لهذه، ولم نعرف ما سبق هذه الأخبار ولكن هاك ما يقوله الأشيبو:

((لماذا لم تأت مائدة الطعام وللبوم الثاني إلى حضرة الملك لسيدي) الذي هو في الظلام ليلة اليوم، وذلك لأن إله الشمس وهو ملك الآلهة بات في الظلام اليوم بطوله، والليل بطوله، ومدة ثانية لمدة يومين.

ولكن الملك وهو سيد البلاد ما هو إلا صورة للإله الشمس، ولكن ينهي أن يظل في الظلام مدة نصف يوم فحسب)).

يبدو أن شيئاً ما قد حدث للشمس، وربما كان كسوفاً شمسياً، وكانت متطلبات هذا الكسوف تستوجب البقاء في الظلمة.

ويقترح بعض الباحثين أن هذا الفعل يعني: التواضع والتدب (مع أنه هنا ليس المعنى المعادي) أن يبقى في الظلمة لمدة يومين.

فقد كان الملك يلاحظ ويتقيد بهذا الطلب الشديد الوطأة، ولكن عندما أتى الأشيبو وهو يقول:

((إنه نظراً لأن الملك نفسه عبارة عن إظهار بشري للإله شمس فإن فترة بقائه في الظلام (أو في حالة من حالات الدنوب والضجيج) وسوف تتحدد بنصف يوم)).

ولكن لماذا عرض الأشيبو هذا الاقتراح بعد أن كان من الواضح أن الملك قد قضى في الظلام مدة تزيد على نصف يوم؟

ولكن أقوال الأشيبو: إن بمقتور الملك أن يتخلص من الدنوب بقضائه نصف يوم في الظلام هو قول خادع.

إذا كانت هناك قاعدة تقضي بقضاء يومين من العكفارة ضد ذنب أو حادث خاص من سوء الطالع، عندها كان من الواجب أن يكون الملك وهو الذي يمثل دولة آشور هو الذي عليه أن يقوم بهذا العمل.

وقد وجد مكان غير مقروء في رسالة أشيبو، ولكن وحيث أمكن فهمه فإن هذه الرسالة تعطي انطباعاً يبرز السبب الذي جعل الأشيبو يلتمس عذراً للملك في كسر الصيام.

وأما بقية الرسالة (وفيها بعض المقاطع غير مفهومة) فهي حكما يلي:

إن تناول الطعام الطيب وشرب الخمر سوف تملأ الملك من مرضه، وينبغي الأخذ بهذه النصيحة، فإذا كان الامتناع عن الطعام والشراب سوف يقلق ذهن الملك، ويجلب له المرض، والرجاء أن يصفي الملك لما يقوله خادمه حول هذه القضية:

((والحقيقة أن فرض الصيام والانقلاق بالنسبة للملك قد كان سبباً في زيادة قلقه)). وقد اضطر الأشيبو أن يجد طريقة يحدد ويقلل فيها الأضرار التي سوف تصيب الذات الملكية دون المساس بسلطة وقوة المطالب الطقوسية السابقة.

لم يكن الملك وحسب ولكن الأعضاء الآخرين من العائلة المالكة، وربما أيضاً الموظفين الكبار في الدولة، كل هؤلاء كان من الممكن أن يكون لديهم (أشييو) في ملاك موظفيهم الدائمين.

وهكذا نسمع عن وجود أشييو رئيس في بيت ولي العهد وهذا ما يدل أن لدى ولي العهد مجموعة من الأشييو تحت تصرفه إذا هددته بعض الشرور، وقد كان كثير من الأشييو يحصلون على ما يؤمن معيشتهم من الأجور التي يتقاضونها لمساعدة الناس العاديين للتغلب على الأمراض، أو التغلب على سلسلة من الخصوم من النوع الذي ندعوه الحفظ المصين، وفيما يلي نص موضح للطريقة التي كان الأشييو يتصرف بها وهو كما يلي:

لأجل استبدال رجل بشيء يخص أيديش كينال (آلهة العالم السفلي) عند غياب الشمس ينهي على الرجل المريض أن يسطحب معه أنثى من الماعز الصغيرة في السن والتي لم تلحق لتستلقي بجانبه، وفي نهاية الليل سوف تستيقظ عند الفجر ثم ينهي أن تستطح وتغير وجهك إلى الجانب الآخر من الفراش، ثم ينهي على الرجل المريض أن يضع أنثى الماعز بين ساقيه (وفي الحالة) التي تتلق برجل وامرأة يكون معنى هذا الجماع الجنسي مع امرأة.

وأما حالة أنثى الماعز يمكننا أن نعطي الرجل مع ما بلغت حالة مرضه فائدة الشك، ونقبل الفكرة التي مفادها أنه قد اتخذ موقف الاتصال الجنسي غير الفعال ولكنه تكاف لخداع القوى الضعيفة.

وبعدها تجعل الرجل المريض وأنثى الماعز يضطجبان على الأرض وبعدها تلمس عنق الرجل المريض بخنجر مصنوع من خشب الطرفاء (وهي شجرة نحيلة الأغصان) (وكانت الطرفاء تعد ذات خشب سحري) وبعدها تقطع عنق أنثى الماعز بخنجر مصنوع من النحاس.

ثم تفصل أحشاء أنثى الماعز التي ذبحتها بالماء ثم تدخن بالزيت ثم تملأ أحشاؤها بالتوابل، ثم تلمس بعض الملابس وتكس أقدامها بأحذية ثم تكحل

عينها بالكحل، ثم تصب الزيت الحلو على رأسها، ثم تترع عمامة الرجل المريض وتضعها على رأس أنثى الماعز، وأن تعاملها باحترام كأنها رجل ميت.

ثم ينهض الرجل المريض ويخرج من الباب وعندها يبدأ الأشيبو بتلاوة بعض التعاويذ ثلاث مرات وهي: (ذلك الرجل هو الذي مسته لسة الإله) ثلاث مرات.

وبعدها يطلق الأشيبو صرخات من البكاء على المريض قائلاً: (ذهب يواجه مصيره ثم يبدأ بالنواح والبكاء على المريض).

وبعدها تقدم مقدمة الجنازة إلى الإله إيديش كهيال ثلاث مرات.

ثم تضع صحنين من البرغل الساخن أمامه.

وبعدها تقوم بمدح وتكريم (الميت) ثم تصب الماء والبيرة والذرة المسلوقة والعسل والزبدة والزيت.

وبعدها تقدم مقدمة الجنازة لأرواح أفراد عائلتك وكذلك لأنثى الماعز ويعدها تردد بعض التراتيل أمام الإله إيديش كهيال وهي: إن الشي (غالبو هو اسم مرادف لأشيبو) هو أخوم.

وينتهي معاملة أنثى الماعز باحترام كما لو كانت لا تزال على قيد الحياة، ثم تدفنها.

إن كلمات التوجيهات الطقوسية تبدو وكأنها تشير إلى أن هناك اثنين قد اشتركا في القيام بالطقوس:

أولهما: الأشيبو المذكور بقلبه شخص آخر يخاطب بكلمة أنت، ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص هو (بارو) الكاهن الذي كان يهتم بالمرض دائماً. ومن جهة أخرى: فإن النصوص من هذا النوع لها تاريخ طويل على طريق التطور، وإن تغيير الكلام من أنت إلى هو ربما كان نتيجة إضافات تدريجية.

وهكذا فمن الممكن أن تكون كل التعليمات متوجهة إلى الأشيبو، وليس هناك من مجال للشك أن العمليات المذكورة في الطقوس المنقولة ما هي إلا شؤون

صحية تختص بالمحرم، فالرجل المريض متطابق ومتماثل مع أنثى الماعز الصغيرة مع اختفاء صفة الحتمية على أنثى الماعز.

ويفترض أن يكون لحياة أنثى الماعز الصغيرة تأثير عن طريق الحقيقة المجردة وهي وجودها.

ولكن لم تذكر قضية الدين بمعنى التقرب إلى الآلهة للحصول على تدخلها الرحيم في مصير حياة الإنسان.

ومع أنه لم يرد اسم إيديش ككيغال آله العالم السفلي، ولكن هناك أي أقل الدلالات بوجود أي تقرب لها كآله تمتلك بعض العلاقات مع البشر، ومن الممكن الاقتراب منها سواء بقصد الاسترخاء أو التضرع.

هذا وإن تقديم اسم الآلهة إيديش ككيغال لا يبدو أكثر من علاقة طفيفة باتجاه الإيمان بالآله ذات التوجه البشري المستعمل كاصطلاح مضاف لقوى الشر التي لا يمكن تسميتها أو معرفتها وجودها، وهوى الموت التي كانوا يودون خداعها عند القيام بأداء الطقوس.

فمن نعرف فعلاً المناسبة التي أُنم فيها الطمس المشار إليه، فقد كان هناك الطمس بالنيابة عن ولي العهد الذي كان مصاباً بالحمى، وهذا المرض قد عزي الأشيبو حصوله لاقتراف بعض الذنوب (ربما كان الذنب خرق الطقوس الدينية) بالنسبة للملك نفسه.

وهناك مثال آخر عند وقوع النشاط السحري الذي يقوم به الأشيبو وهو يتلخص بالمقتطفات التالية من رسالة أرسلها الأشيبو الرئيس إلى الملك:

بشأن طقوس الايتغال التي تسمى: ((حقاً أنت الشرير)) التي أرسل إلى سيدي الملك رسالة بشأنها فهذه الطقوس تتم من أجل طرد الشيطان الشرير (آلو) وطرد المرض الطارئ وهو مرض السقوط (وهو يعرف على المموم باسم مرض الصرع).

إذا كان حصل للمريض شيء ما فإن الأشيبو سوف ينهض ويلقي فأرة وغصناً من شوكة الجمل على باب عتبة البيت، وسوف يرتدي الأشيبو ملابس حمراء،

ويضع قناعاً أحمر، وسوف يحمل غراباً بيده اليمنى، وصقراً بيده اليسرى،
وبعدها ينشد نشيد الابتهاال: ((حقاً أنت شرير)).

وبعد الانتهاء فإن الأشيبو يصاحبه أشيبو آخر يقومان بدورة حول هراش
المريض وإلى جانبيهما مبخرة ومشكل، وبعدها سوف ينشد نشيد الابتهاال: ((أيها
الشیطان هوكتوبو اغرب عن أنظارنا)) حتى يصل إلى الباب، وبعدها توضع تمويذة
على الباب.

وينبغي أن يكرر هذا الابتهاال صباحاً ومساءً حتى يطرد الشيطان، والواضح
من النصوص النموذجية التي ذكرت أن اسم الطيب الساحر هو أكثر ملاءمة
للأشيبو من اسم العكاهن، ذلك لأن البسمة فضلاً عن الطقوس قد خدمت
للإفناع، فإن قدرته على طرد الآثار السيئة ما هي إلا خرافة من الخرافات.

إذ إن الشوب المستعمل عند أداء أنشطته الرسمية كان ثوباً أحمر، وهذا
وبالنسبة إلى عدة ثقافات هو الذي يخدم قضية طرد الشياطين والعفاريت.

وبالنسبة لبعض المراسيم فقد أعطي النخس الغربية المستهجنة، وذلك لوجود
القناع الذي ليسه.

وتذكر النصوص الخرافية أنواعاً مختلفة من المخلوقات البجينة النحلة مثلاً:
الرجل السمكة، ورجال العفاريت ذات الصفات المسحورية، ونرى على بعض
الأنصاب الأشورية رجالاً يلعبون أوتة تجعلهم يظهرون وكأنهم رجال سمك، أو
رجال أسود، وما شابه ذلك.

وتختص هذه التمثيلات بالطقوس المسحورية وكان الرجال الذين يرتدون
الأوتة ليسوا أكثر من أشيبو وكهنة وهم يمارسون أعمالهم.

العراقون- البارو

لقد عمد الإنسان في معظم المجتمعات لإيجاد وسائل تمكنه من معرفة ما سيحدث في المستقبل.

ولم يكن أهالي ما بين النهرين شواذاً عن هذه القاعدة، ولقد اخترع كثير من تقنيات المرافاة للتعرف عن ما سوف يحدث، وتعود بعض هذه إلى الألف الثالث ق م في منطقة سومر، وربما كانت أصولها حتى أقدم من أزمنة ما قبل التاريخ، وقد ازدهرت هذه المظاهر في آشور في الألف الأول ق م.

وتظهر أهمية هذه الوسائل لمعرفة المستقبل والثقافة الآشورية عن طريق ما نراه من محتويات المكتبات التي أسسها ملوك آشوريون مختلفون، وعلى الأخص آشور بانيبال والتي بناها في نينوى.

ولقد اكتشفت هذه المكتبات في القرن الماضي، ووجد أنها تحتوي حوالي (١٢٠٠) من الأعمال الأدبية القديمة المختلفة، ومنها حوالي ثلاثمائة مختصة بالمرافاة والتنجيم.

ومن وجهة نظر شعب ما بين النهرين القديم كان شكل المرافاة من أعلى المستويات مرتبطاً ببعض الكههان المعروفين باسم (بارو)، مع أنه ولا حوالي نهاية الإمبراطورية الآشورية الجديدة تخلت المرافاة عن وضعها المرموق وتركته للتنجيم.

وقد كان البارو ومنذ أقدم الأزمنة مترافقاً مع تقنيات مختلفة ولكن مرافقته كانت تجري بشكل أساسي عن طريق فحص الأعضاء الداخلية المهمة في الحيوانات المنبوحة والمضخى بها.

وكانت تفاصيل هذه الإجراءات تختلف من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى، ومن مكان إلى مكان، ولكن وبصورة أساسية إن ما كان يحدث في دولة آشور في الألف الأول قبل الميلاد كان كما يلي:

يُكتب سؤال على لوح من القضار، ويوضع هذا اللوح أمام الإله، وبعد ذلك كانت تُذبح غنمة وتُفحص أعضاؤها الداخلية، وبعدما يصل تقرير الإله وتفسيره

على افتراض أن الإله قد وضع جوابه على الأعضاء الداخلية للحيوان بشكل صور وأشكال خاصة، مثلاً الحجوم والألوان واليقع وغيرها من المظاهر الشاذة. ويمكن للمرافين مفاتيح بشكل نماذج من التضار للأعضاء الداخلية (ولاسيما العكيد) وهي تلب على المظاهر الموجية، والمظاهر السالبة. وقد كانت المظاهر الموجية والمسالبة بدقة، ويكون الجواب الذي وضعه الإله مختلفاً حسب غلبة الموجب والسالب.

لدينا النصوص الفعلية لبعض الأسئلة التي كان الملوك الآشوريون يطلبون الإجابة عليها من خلال تقنيات (البارو) وفيما يلي جزء من هذه الأسئلة:
آه- يا شمش، أيها السيد العظيم، أجبني بتأكيد حازم عن المسألة التي أسأل عنها.

أجبني بتأكيد حازم
وابتداءً من هذا اليوم وهو الثالث من شهر الإرحنى
الحادي عشر من شهر آب من هذا العام
خلال هذه الأيام المائة والليالي المائة وهي أنضرها
المنهنية بقضية الاستئصال.

هل سيقوم جنود السيمريين أو الميديين أو المانيين أو أي عدو آخر مهما كان
بمعاولة القتال أو التآمر ضدي؟

ومكان الكهنة البارو يحضرون مشهد المرافة عن طريق عدة تحضيرات ذات
طبيعة سحرية، مثلاً: مضغ خشب الأرز، أو حرق البخور، وعمل التعاويذ وهمسها
في أذن الحيوان المضغى به.

ومن الواضح أنه وتحت سطح إجراءات تبدو أنها تطلب التجدة من إله ذي
شكل بشري، وتطلب الجواب، هناك شيء أكثر بدائية ولكنه ليس ذا طبيعة
إلهية، وهو الاعتقاد بقوة غير مشخصة وخارقة ولكن يمكن السيطرة عليها
بواسطة أساليب سحرية.

وشأنه شأن الكالو والأشييو سكان البارو بحاجة لاستعمال النصوص
المسمارية خلال أنشطته المهنية، ولذلك أصبح ينتمي إلى تلك الأقلية المثقفة مع
جميع الفوائد التي تجمله قادراً على الاقتراب من الدولة، ومن إدارة المعبد.

والحقيقة أن البارو كان منتبهاً إلى الشريحة العليا من المجتمع، ونحن نعلم
مثلاً عن جماعة من (البارو) كانوا أبناء (الشانجو) وهناك نص مسماري يذكر:
إنه ليس بإمكان أحد أن يصبح (بارو) ما لم يكن خالياً من العيوب الجسدية،
وأن يكون من أصل حر.

ولم يكن من الضروري أن يكون البارو موطناً في المعبد أو موطناً في
الدولة، مع أن طبيعة عمله كانت تقتضي أن يخدم المعبد، أو يخدم الملك.

وبالنسبة للمناميات المهمة كان أفراد البارو يعملون بشكل مجموعات،
ويشير كثير من الملوك الآشوريين إلى عدد من عرابة البارو مشرّكين في عمليات
الاستئصال وكانوا موزعين بشكل فرق.

لدينا مجموعة لا بأس بها من الرسائل أرسلت إلى الملك الآشوري من قبل
رجل كان يدعى البارو الرئيسي، وقد خدم هذا في هيئة الموظفين الملكيّة مع
المسؤولية لتنظيم أحوال زملائه من البارو الآخرين، وقد منحت له قطعة من الأرض
كأجر من قبل الملك.

وسكان البارو الرئيسي المذكور يعمل في مكتب متواجد في القصر
الملكي، ولكن لم يسمح لكل بارو يعمل في خدمة الملك أن ينجز أعماله في
خدمة القصر أو المعبد، مثلاً: كان هناك بعضهم يخدم في الجيش الملكي،
وكان مستمداً لإنجاز بعض الطقوس، وإعطاء القرارات عن طريق المرافقة عندما
يطلب منه ذلك.

وكان بعض (البارو) يَخضعون خدماتهم تحت تصرف أناس عاديّين،
وكانوا يخدمون أغراضاً خاصة كالكشف احتمالات الأمراض، وعندما كان
البارو يتعاون مع الأشييو.

لغات العرالمين الأخرى

لقد اعتبرنا البارو أولاً: بأنه يمثل أعلى طبقة من طبقات المراهقين، ولكن كان هناك قوائم أخرى متعددة، مثلاً: هناك قائمة من المحترفين تذكر فئتين تدعيان: شا إيكو، وماهو، فضلاً عن الأشيبو البارو.

لا نعرف إلا القليل من المعرفة التفصيلية عن الشا إيكو وذلك من أخبار آشور في الألف الأول، وربما كان ذلك نظراً لأنه هو أو هي (لأن المرأة تستطيع القيام بهذه الخدمة) قد أصبح منحصراً بالشريحة الدنيا من المجتمع، بحيث إنها لم تذكر في النصوص المسمارية الباقية التي تمكس وبصورة رئيسية مصانع الشريحة العليا المثقة.

وفي مستهل الفترة الآشورية المتأخرة كان (الشا إيكو) وبصورة خاصة الإناث من هذه الشريحة متخصصين بتفسير الأحلام، واستحضار الأرواح بحيث وبسبب حاجتنا إلى شواهد أكثر تفصيلاً ربما افترضنا أن هناك مشتركاً ما بين الشا إيكو وساحرة (ايندور المذكورة في التوراة).

ولكن معرفتنا بالماكو تفوق معرفتنا بالشا إيكو، وبموجب علم اشتقاق الألفاظ فإن هذه الكلمة تعني: الشخص المصاب بجنون مزمن.

وإن الشخص الموصوف بهذا الوصف هو الشخص الذي يقع في حالة من الانجذاب بحيث يعطي بعض الرسائل القادمة من الله.

وهناك عينات من المذكور والإناث المصابين بهذا المرض وهم يكونون هيئة موظفين في المعبد أو أشخاصاً عاديين.

وهناك أوصاف أخرى متعددة استعملت في بلاد آشور للدلالة على أشخاص من هذا النوع، وكانت رسائلهم النبوية على نسق أولئك المذكورين في العهد القديم والذين وسفت نبوياتهم بأنها نبوءات أنبياء كائنين (كما ذكر في سفر الملوك في التوراة) وكانت هذه النبوءات تمثل الموافقة على أعمال الملك وتشجيعه.

ولقد كان ملوك آشور يقدرّون تلك التنبؤات ويأخذونها على محمل الجد، بحيث إنه في إحدى المعاهدات مع أحد الأمراء التابعين عمده الملك اسرجنون على ربح الأمير التابع بتمهيد أن لا يخفي أي كلمة يلفظها أي شخص يمرّقه.

وكان باستطاعة (الماكو) الاشتراك في حفلات المعابد، ومن المظنون أن ذلك الاشتراك يتم بشكل يكون فيه هذا الشخص أحد الدراويش.

وكان هناك نوع آخر من العرافين الذين نشطوا في الألف الأول قبل الميلاد في آشور، مثلاً نسمع باسم ملاحظ الطيور، وهو شخصية رسمية يخدم الملك بأن يقدم تقاريراً للملك تحتوي على تنبؤات فلكية مأخوذة من حركات الطيور.

وتحتوي إحدى الوثائق الآشورية قائمة من الأسماء من الممكن تلخيصها بما يلي:

١٧- أشيبو

٥- باروس

٩- أطباء

٦- كالكوس

والآن لا نعد هارثي كلمة آشورية وطنية، فهي كلمة مصرية تدل على مفسري الأحلام، والكلمات الثلاث التي وجدت كانت كلها مصرية، وليست آشورية.

ولهذا فمن الواضح أن الملوك الآشوريين قد جلبوا بعض مفسري الأحلام من مصر لإضافة هؤلاء إلى ما عندهم من جماعة المتنبئين بالمستقبل.

علم التنجيم

كانت أكبر الوسائل البرّزة للتنبؤ بالنمبة للدولة وأغراضها في حوالي نهاية الإمبراطورية الجديدة هي علم التنجيم، وكان هناك عدد كبير من الخبراء في هذا العلم من الذين كانوا يقدمون تقارير بانتظام إلى الملك حيث يذكرون ملاحظاتهم لأوضاع القمر والكواكب والنذر التي يلاحظونها.

وينبغي أن نشير إلى أن علم التنجيم في آشور كان مختلفاً عما نفهمه من هذا الاسم في هذه الأيام وإذ إن ما يذكر من وراء عن علم التنجيم في هذه الأيام إنما يفترض فيه إخبار عن مصير الأفراد من خلال شموذة مؤسسة على مراكز الأجرام السماوية في الزمن الذي ولد فيه هؤلاء الأفراد.

ولكن علم التنجيم الآشوري ومع أنه خال من الشعوذة إلا أنه لا يلتزم إلا بأخبار شؤون الدولة وليس الأفراد (عدا العائلة المالكة ضمن الوضع الذي تتجسد فيه الدولة في الملك).

ولقد آتت التنبؤات من تطبيق التفسيرات التقليدية على الحوادث الجارية والسموات مثلاً: حوادث الخسوف والكسوف، والحلقات حول القمر، أو أوضاع الكواكب، ويأتي ضمن هذه المقولة الرعد والهزات الأرضية، ومن الممكن فهم طبيعة علم التنجيم الآشوري بالنظر إلى بضعة أمثلة وكلها بشكل تقارير موجهة إلى الملك.

عندما يرى القمر في اليوم الثالث عشر فإمّا سيكون هناك صدقح أو أن يسمع صوت العدو.

وعندما يمد ملاحقة القمر يظهر هذا عالياً في السماء فإن العدو سوف يستولي على البلاد بالقوة.

وعندما يصبح القمر مرثياً في وقت أبكر من ميعاده فسوف تظهر الاضطرابات في هذا الشهر.

وهنا نورد تفاصيل أوفى:

في هذه الليلة أحاطت هالة بالقمر ويظهر كوكب المشتري وتكون كوكبة
العقرب في داخلها ، وعندما تحيط بالقمر هالة ويصبح كوكب المشتري في داخلها
هنا ملك أكاد سوف يُعاصر ويطلق عليه .

وعندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع المشتري داخل هذه الهالة فسوف تحدث
جائحة تسبب موت قطعان المواشي والحيوانات البرية .

هذا وإن نجمة الإله مردوخ عند رؤيتها لأول مرة هي :

S U L - P A . E وعندما يشرق مدة ساعة مزدوجة يكون في حالة :

S A G . M E - N I G وعندما يتوضع في منتصف السماء فهو نيبورو .

وعندما تحيط هالة القمر ويتوضع العقرب في داخلها فإن الكاهنات سوف
يُصلن اتصالاً جنسياً مع الرجال ، أو أن الأسود كما تقدم شرحه سوف تخرب
وتقتل العروق في البلاد .

وتأتي التنبؤات الفلكية من السلسلة التالية :

عندما تحيط هالة بالقمر ويتوضع المشتري (**S U L - P A . E**) داخلها ، فإن ملك
الأراضي الغربية سوف يمارس القوة ويخرب بلاد عدوه ، وهي نذير شرم .

إن ما ذكر أعلاه يتطلب بعض التفسير ، فالظاهرة الأساسية التي لوحظت
واضحة قد كانت هناك حلقة حول القمر تتضمن أجراماً سماوية مضيئة ، ويظهر
أن المنجم قد فتنش عن معاني تلك الملائم في السلسلة (أي : في كتاب النصوص)
الذي يرجع إليه في النهاية ، وشأنها شأن النصوص المسمارية القديمة فقد سميت
هذه السلسلة باسم السطر الأول .

وهو يفسر المسألة وهي : إنه ومن وجهة نظر علم التنجيم فإن الكوكب نفسه
وهو المشتري تطلق عليه عدة أسماء طبقاً لملوّه في الأبراج ، وهو يفوق ذلك بإعطاء
تفسير مناسبة لوضعين مختلفين .

وقد عمد الباحثون الأولون الذين ألفوا كتب النصوص إلى وضع بعض
المعوقات ، وذلك بتقديم تفسير اختياري بالنسبة لكوكبة السرطان ، وهكذا

أصبح مجال الاختيار والتمييزات غير المواتية مما يجعل المنجم يستنتج ان الظاهرة التي رآها إنما تعني شيئاً سيئاً بالنسبة للدولة.

وكان هناك بعض التقارير الأكثر إيجازاً وأكثر وضوحاً ، مثلاً: عندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع قلب الأسد **Regulus** في داخلها فإن النساء سوف تلد في تلك السنة مواليد من الذكور.

ففي هذه الحالة والحالة التي كانت قبلها فإن الظاهرة المذكورة هي ما شاهده المنجم ، وقد أطلق الاسم فوراً وذلك بقصد الاقتصاد بالكلمات.

وأخيراً إننا سوف نقبس جزءاً صغيراً مأخوذاً من تقرير طويل مختص بالتنجيم وذلك من أجل التعليقات الاجتماعية التي يحتوي عليها ، وهو يقول:

((عندما يصل القمر إلى الشمس ويسير جنباً إلى جنب معها ، أي: إن القرن سوف يمانق القرن فسوف تعتمن أحوال البلاد الملوكية ، فالابن سوف يصدق مع والده)).

وهنا من الممكن أن نفترض أن الوضع في ذلك الوقت كان عكس ذلك.

تحتوي بعض التقارير التنبؤية معلومات عن الطقس ربما كانت مؤسسة أصلاً على الملاحظة مثلاً: عندما يسمع الرعد في شهر أيار فإن القمع والخضروات سوف تسوء منتوجاتها.

أو عندما يسمع الرعد في شهر شباط فسوف تمر على البلاد نعمة الجراد.

((وعندما نسمع صوت الرعد في شهر شباط فسوف ينزل البرد)).

وفي هذا التقرير الأخير فإن المنجم يقبس تبليين فلصيين مختلفين قد وجدتهما في مجموعة النصوص ، خاصة والتي تعود إلى شهر شباط ، وإن الإشارة إلى نزول البرد في شهر شباط ما هو إلا نتيجة الملاحظة ، فالرعد في شهر شباط غالباً ما يتبعه نزول البرد.

ومن المحتمل أن يكون هذا التنبؤ غير صحيح نظراً لوجود علاقة عرضية فإن توارد المواقف الرعدية مع درجات الحرارة في شهر شباط يؤيد في المراقب سقوط ترميمات بشكل بارد.

أما التنبؤ حول جائحة الجراد ربما أتت من ملاحظة بعض الأشخاص أنه وفي بعض المناسبات فإن الرعد في شهر شباط كان يتبعه هجوم جائحة الجراد ، وفي هذا المجال ليس هنالك من علاقة عرضية بين الحدثين.

وقد نشأ التنبؤ على أساس الجملة اللاتينية التي فُحوها: ((إن هذا يتبع ذلك، لذلك فإن هذا قد كان نتيجة عن ذلك)).

ومع ذلك فإن معظم التنبؤات كانت على أساس مختلف عن هذا ، وهذا نوع من الرمزية ، ويمكن للمرء أن يرى كيف يحدث ذلك من المقطع المذكور أعلاه الذي مفاده:

((عندما تحيط هالة بالقمر ويتوضع المشتري داخلها فإن الملك الأكادي سوف يُحبس)).

وكان المشتري هو كوكب الإله مردوخ ، وكان مردوخ هو إله البابليين ، وكانت بابل هي عاصمة المملكة البابلية المروفة باسم: أكاد بلقة المنجمين.

وإن الكلمة الأكادية التي نترجمها بمعنى: هالة ، يمكن استعمالها أيضاً بمعنى: حظيرة لحفظ الماشية ، وهكذا فإن رؤية الكوكب المشتري في داخل هالة القمر يوحي بأن القوة العظمى في بابل كانت في داخل الحظيرة التي سوف تمثل الوضع إذا أصبح ملك بابل تحت الحصار.

وبشكل مشابه فإن التنبؤ الذي يشير إلى أن القمر قد وصل إلى الشمس وسار جنباً إلى جنب معها ، وأن الابن سوف يصنع مع والده ، إن هذه الحقيقة تقدم نوعاً من الرمزية إلى الأب والابن اللذين ينبغي أن يعيشا على وئام وسلام.

لقد سببت ظاهرة الخسوف والكسوف الذعر والخوف بالنسبة للأقوام البدائية وأحياناً تغير البدائية ، وطبقاً لذلك فقد كانت ظاهرة الكسوف تدل على فالٍ سيئ.

ومع ذلك فمكان من الممكن أن يخترع المنجم تفسيراً للخسوف والكسوف لكي يوفر على الملك شيئاً من القلق. وهكذا نجد ما يلي:

((لقد حان وقت الخسوف، ولكنه لم يلاحظ في آشور إذ إن ذلك الخسوف قد تجاوز آشور تلك المدينة التي يعيش فيها الملك.

فقد كان هناك غيوم في كل مكان بحيث لم نعرف أن الخسوف قد حدث أم لم يحدث، ألا فاندع الملك يرسل الرسائل إلى آشور وإلى جميع المدن في كل مكان - إلى بابل، وإلى نهور، وإلى العريش، وإلى بورشيبا، إذ ربما قد لوحظ خلال تلك المدن، وليسمع الملك التقارير المنتظمة.

فلقد عمد الآلهة في المدينة التي يعيش فيها الملك إلى تمتعهم السماء، وهكذا لم يظهر الخسوف، وهكذا فإن الملك سيدي من الممكن بالتأكيد أن يتحقق من أن هذا الخسوف لم يكن ضد سيدي الملك، أو ضد أراضيه وهكذا فلنظل الملك سعيداً.))

وهكذا يقرر المنجم أنه سواء حدث الخسوف أم لم يحدث فإن الدلالة مناسبة بالنسبة للملك.

(ومن الممكن أن نلاحظ أيضاً أنه من الغرابة في الزمن الذي نحن بصدده كان المنجمون يعرفون معلومات كافية حول حركة القمر بحيث استطاعوا التنبؤ بالخسوف القمري الذي يحدث عادة كل ستة أشهر، ومع ذلك وبسبب الأفكار المحافظة الخرافية كانت لا تزال تمد ظاهرة الخسوف دلالة على الفال السيئ).

وكان هناك مظهران لهذه التقارير التحجيمية:

أحدنا: أن يقدم للملك إنذاراً وتحذيراً من الحوادث القادمة وهي ذات أهمية بالنسبة للدولة.

أما الثاني: فهو لإعطاء الفرصة لإتمام شملكر الطقوس وذلك لتجنب أي حوادث سيئة قد أنذرت بها هذه التقارير، ولقد اعتنى جماعة الموظفين الآشوريوس بهذا المظهر الثاني.

ربما يلاحظ القارئ أنه مع أننا لا نزال نعالج القضايا الدينية في هذا الفصل من فصول الكتاب إلا أنه قد مضت صفحات وصفحات دون ذكر أي شيء عن الآلهة.

وهذا مكان مناسب لإيضاح الانعكاس الذي كانت الآلهة تشغله في الموقف الآشوري تجاه الحياة.

ولقد بدأنا مناقشاتنا حول الديانة الآشورية بالتحدث حول طبيعة الآلهة المعظام، ولكن هذه المقاربة إنما هي نوع من التنازل لطريقتنا في التفكير حول دور الدين في المجتمع.

وبالنسبة للرجل الآشوري المادي فإن الآلهة المعظام لم تكن هي الجزء من العالم الذي يمثل ما وراء الطبيعة الذي كان متأثراً به إلى درجة عظمى، مع أنه عندما قبل السيطرة على ذلك العالم الذي يعيش فيه مع الآلهة المعظام، فإن تماسه الشخصي السريع بتلك الكائنات الإلهية ربما أصبح ضئيلاً جداً.

ولكن لم يمت هذا أن الرجل الآشوري المادي سوف يهمل عالم ما وراء الطبيعة، بل لقد كان عالم ما وراء الطبيعة هو كل ما كان حوله وقد أثر في حياته بكل معنى الكلمة.

وهكذا فإذا أصابه المرض بسبب الشياطين أو ربما كان شراً من الشرور التي نهاجمه، وإذا فقد ولداً من أولاده فإن الشياطين هي السبب، وهو يرى القوى الشريرة من عالم ما وراء الطبيعة هي التي تعمل.

ولكنه لم ير أي قرار من قرارات الآلهة العظام، فلم يكن هناك إيمان
توكلي عميق بوجود الأهداف الإلهية التي تسمح للأشوري أن يقول عندما تصادفه
مصيبة فادحة: ((إن الله قد أعطى، والله قد أخذ)) ومبارك هو اسم الرب، ولقد
دخل الآلهة العظام في هذه القضية كقوى تستطيع إذا تم التضرع إليها ومناشدتها
أن تحيط بالشر الناجم عن القوى الشريرة.

لقد رأى الآشوري العالم المحيط به مليئاً بالقوى التي تؤثر فيه، وهكذا نحن
عندما نعد الفيضان الحاصل من النهر أو العاصفة كقوى طبيعية أو نرى الأمراض
ونعتبر أن سببها فيروس في الخلايا.

إلا أن الآشوري كان يعد كل هذه الظواهر من عمل مشيئة خارجية، ويمتد
الشخص الآشوري أنه لا بُد من وجود كائنات تتحكم بالفيضان والعواصف
والأمراض.

وبما حالة وجود قوى عظيمة تؤثر في جميع أنحاء العالم وهي تؤدي نوعاً من
وظيفة واضحة ومفهومة في تخطيط ونظام الأشياء، مثلاً نظام العواصف أو حركة
الشمس، فقد بدا واضحاً بالنسبة للآشوري أن المشكلات التي تشعل هذه القوى
ينبغي أن تكون عقلانية، وقد أصبحت هذه المشيئات مشخصة بشكل آلهة
تتصف بجميع الصفات الحسنة، والصفات انسيئة للبشر ولكن على مقياس أوسع.
ولكن حدثت بعض الأشياء غير العقلانية والمستبعدة فقد كان الأطفال
المولودون حديثاً سرعان ما كانوا يهزلون ويموتون. أو كانت الأمهات تصاب بنوع
من التفرغ ذي الرائحة الشديدة بمصاحبة الحمى والبهزيان، وتنتهي بموت مؤلم.

وكان باستطاعة الآلهة العظمى القتل، ولكنها كانت تقتل وعندما غرض
وهدف من هذا القتل إذ إن هذه الوفيات المتعمدة من الأطفال والنساء وعند الولادة
كانت ليست بذات معنى، ولا يمكن أن تكون إلا فعل شيطان شرير.

وقد كان هذا المجرم يتمثل باسم امرأة من الشيطانات تدعى لاماشو التي لم
يكن لها أي وظيفة في هذا العالم سوى مهاجمة تلك الضحايا العاجزة والمسالمة.

كانت لاماتشو الأكثر شهرة ولكنها لم تكن الشيطانة الوحيدة، فقد كان العالم مليئاً بمثل هذه الكائنات اللينة، فقد كانت أي مصيبة أو إزعاج أو شذوذ ذي طبيعة عرضية تصيب الإنسان إنما كانت من عمل أحد الشياطين.

ولكن ليس من الصحيح أن نقول: إن الشياطين ما هي إلا مصائب مجسدة، ولكن كانت بعيدة عن أن تكون مجسدة تماماً، ولكن بعضها كان من الواضح أنها كانت لا جنسية أي: بدون جنس، أو بدون اسم، وبدون شكل وكانت مفكرة لبعض الخصائص التي تثبت أنها كانت وكما تقول بمض التصوم: لم يكن معترف بها من قبل الآلهة الحكماء.

ولم تكن الشياطين عبارة عن مصائب مجسدة بل كانت عبارة عن إرادة سيئة عملت على تشييط الكوارث والمصائب.

إن هذا الموقف بالنسبة إلى الحياة يؤلف الأرضية للأنشطة المسحرة للأشيبو وكان النفوذ الهائل لهذه الطبقة من السحرة لدى البلاط الملكي أو لدى الشخص الأشوري العادي كان سببه وجود الأشيبو بطقوسه التي كانت مفتاحاً لطرد الآثار المشرومة لتلك القوى الخارقة للطبيعة، التي كانت تحيط بالشعب الأشوري سواء كان الملك أو أي رجل عادي من كل الجهات.

ولكن بتقشيرة نوع من التوازن كان هناك اعتقاد مقابل بوجود الأرواح الخيرة التي يمكنها أن تسكن في بيت وتحميه، وأن تحمي البناية، أو ترافق وتحمي أي إنسان، ونحن نجد هناك تصريحاً يتناول قضية الرجل الذي يعمل ككاهن بريد ((أن الآلهة سوف تقدم له (شيدو) وهو نوع من الملاك الحارس الذي يمتني به)).

أما في بابل فإن المصطلح المستعمل للدلالة على الروح الحامية هو (إيلو) أو (عشتارو) ولما كانت هذه الأسماء تدل على الإله أو الآلهة، فإنه غالباً ما يقال: إن لكل إنسان إلهاً شخصياً أو آلهة الشخصية، ولكن مع استثناء الملك فإن ما يدعى بالآلهة الشخصية أو الإلهات لم يكونوا أعضاء رسميين في مجتمع الآلهة، وبذلك تصبح كلمة ((الروح الشخصية الحامية)) هي الانعكاس الدقيق والصحيح لذلك المفهوم الكامل.

المساحرات والسحرة

لقد استخدم الأشييو سحرة لحماية البشر من القوى فوق الطبيعية، أو الشرور التي تحيط بالإيمان، ولكن كان هناك بعض الناس الذين كانوا يستخدمون تقنيات متعددة لتوجيه تلك القوى ضد الكائنات البشرية، وكانت هذه الكائنات الشريرة وهي المساحرات والسحرة الذين كان باستطاعتهم مسح الناس، وإرسال الأرواح الشريرة ضدهم وأن تفصلهم عن الأرواح الخيرة وتجلب لهم أي نوع من أنواع سوء الطالع أو المصائب.

ولدينا سلسلة طويلة من النصوص التي تعطي المسحر المضاد ضد هذه الأعمال السحرية، ومن الغريب أن نجد أحد الباحثين الذي لم ينجح في فهم الدور الذي يتم في كل المجتمعات عن طريق الإيمان بوجود السحرة في مجتمعات عديدة، فحاول أن يمزو إيمان الآشوريين بالسحرة إلى نوع من الهوس النفسي، أو الهذيان، وعلى هذا الأساس فإنه يدعي أن النصوص التي تذكر المسحر المعاكس ضد السحرة كانت من أحد الكتب التي تبحث في الطب النفسي عند البابليين.

والحقيقة أنه كان هناك بضع حالات تزعج أهالي منطقة ما بين النهرين قد فُكر بها هؤلاء أنها مسببة عن السحرة ولكنها بالنسبة لنا نعتبر بأنها حالات مناسبة للطب النفسي، ولكن كان كل إنسان في منطقة ما بين النهرين يمتد بوجود المسحر، وإن عرّو المصائب والكوارث والأمراض إلى المسحر كان من الميزات الثقافية، ولهم قضية هوس نفسياني.

ولم يعد لدى البابليين أي علم مختص بالطب النفسي بالقدر الذي لم يكن لديهم أي معرفة بعلم الفيزياء النووية.

الفصل الرابع عشر

الطب عند الآشوريين

لقد وضعنا الطب عند الآشوريين في فصل خاص خارج عن الالتزام بالتصنيف الحديث.

ولقد ربط الآشوريون أنفسهم باسم الطبيب (أسو) ربطاً وثيقاً باسم الموظف الذي كان يلقب الأشيبو ، والذي ترجمناه باسم الساحر أو الساحر الطيب ، وكان هذا الربط واضحاً جداً كما سوف نرى ، فالموظفان كانا يعملان بشكل وثيق معاً.

ولقد اقتبسنا نصاً يحدد الأطباء مع الأشيبو والكالو (وهم الكهنة الذين يعملون بالنذب والياس) وأيضاً عدة أنواع من العرافين.

ولقد كان هناك في آشور ما يدل أن الأسو كان ذا مرتبة أدنى من مرتبة الأشيبو.

وتظهر لنا إحدى الرسائل التي أرسلها أحد الأشيبو إلى الملك أن الملك قد قام باستشارة الأشيبو قبل أن يسمح لولده ولي العهد أن يشرب شراباً قد وصف له من قبل (طبيب على الأرجح) ولقد نصح الأشيبو الملك قائلاً: إن الشراب لا بأس به ، ولمكنه اقترح كإجراء وقائي أن يشرب أحد العبيد بعضاً من هذا الشراب قبل أن يشرب ولي العهد منه.

وهذا يظهر لنا المرتبة العالية التي وصل إليها الأشيبو بطريقتين:

أولاً: الحاجة للحصول على موافقة طبيب ساحر قبل تناول الدواء. وهذا يظهر أن خبرة الأشيبو كان لها حق الأفضلية.

ثانياً: وبينما كان هناك نوع من فقدان الثقة انعكست باستفسار الملك حول المعالجة بواسطة الأدوية ، إلا أنه ليست هناك من دلالة على أن الملك كان

يسمى للحصول على رأي آخر عندما قرر الأشيبو ضرورة اتخاذ بعض الإجراءات السحرية.

ولقد قام الباحثون ببعض المحاولات لتحديد الحد الفاصل بين أنشطة (الأشيبو) وأنشطة (الأسو) ولكن دون إحراز أي نتائج حاسمة، ويمكن سبب ذلك عدم وجود خط فاصل واضح بينهما فقد كانت وظائفهما متداخلة، وفي بعض الظروف كانت كلتا الوظائفين تملآن بشكل متمازج، مثلاً: هناك رسالة آشورية مؤداها أن أحد الموظفين المسؤولين يعتذر للملك عن الحضور إلى مدينة آشور بسبب مرضه، وقد أنهى رسالته باقتراح بأخذ علاج لمرضه هائلاً: أرجو أن يمين الملك أحد أعضاء الأشيبو وأحد أعضاء الأسو ليكونا تحت تصرفه، ودعمهما يمارسان وظائفهما معاً.

مفهوم الآشوريون للمرض

لقد اعتبر شعب ما بين النهرين القدماء (كل من بابل وآشور) أن المرض حاصل من أحوال ترجع إلى ما وراء الطبيعة، ولدينا كثير من التصريحات حول هذا الموضوع، فكانت الفوائد الفعلية أمراً مشكوكاً به، مع أن الاسم كان يقدم دلالات واضحة لضرورة التكفير على أسس خطوط سحرية، فقد كانت تلاخط وبعد ذلك كان المرض يُنسب إلى تدخل معين مما وراء الطبيعة، وهكذا فسوف نستشهد ببعض الأمثلة المرضية ولكنها نموذجية.

إذا شكك المريض باستمرار هائلاً: يا رأسي يا رأسي فإن هذا من فعل الإله (هالان الفلاني).

إذا شمر المريض يدوار في الرأس وكانت بطناً رجله يارتين فإن هذا من فعل الإله (هالان الفلاني).

إذا استمر رأسه في الوجع وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإله عشتار. إذا كان صدغه يؤلم ويستمر بالصراخ: ((يا بطني، يا بطني)) فإن هذا من فعل إحدى الأرواح، وهناك إمكانيات أخرى أن يكون ذلك من فعل الآلهة عشتار،

وهو سوف يموت، وأما إذا كان من فعل الأرواح فسوف يبقى حياً مدة قصيرة ثم يموت.

إذا تغير كلامه وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإله نهوترا.

إذا سال الدم من قضيبه فإن هذا من فعل الإله شمش.

والثبُّل هو إلى أرض لا عودة بعدها وهي العالم السفلي.

إذا التهاب قضيبه وخصبته فإن يدي الإله ديليات قد أدرجته في الفراش (أي:

إن الإله ديليات قد سببت له المرض).

إن الأمثلة المقتبسة مأخوذة من نص مسجل ليس موجهاً للطبيب أسو فحسب

بل إلى الطيبة الساحرة أشيبو، وهو يحمل عنواناً من المطر الأول بهذا الشكل:

((عندما تذهب الأشهبو إلى بيت رجل مريض)) ويستمر النص في الأسلوب

الموصوف في ذكر أعراض ممكنة، وهناك بعض النصوص المائلة تتعلق بوظيفة

الأسو مع إدراج قائمة بالأعراض، يتبعها وصفة تحدد العلاج (وهو عبارة عن مواد

طبية مع ذكر كيفية الاستعمال) وذلك بدلاً من ذكر الأسباب الراجعة إلى

فضائها تتعلق بما وراء الطبيعة.

وهذا الاختلاف ربما يوحي بأن هناك تعارضاً تاماً بين وجهة نظر الأشهبو

بالتنسبة للمرض (وهي نظرية خرافية) وبين وجهة نظر الأسو (وهي نظرية عقلانية)

ولكن ليست القضية بهذه البساطة، فإن كلا من الطيبة الساحرة والطبيب قد

اتفقا أن للأمراض بعض الأعراض الجسمانية التي من الممكن معالجتها وشفاؤها

أحياناً عن طريق الإجراءات الطبية وباستعمال المواد الطبية.

ولكن وفي الوقت نفسه نجد أن (الأسو) بالإضافة إلى الأشهبو قد اتفقا أن

هناك عنصراً شيطانياً يمود إلى ما وراء الطبيعة قد سبب المرض وهو يتطلب

المعالجة بأساليب سحرية، ولاشك أننا لا نستطيع ربط الفرق بين هاتين المهنيتين

بالقول بشكل ارتجالي أن الأشهبو كان يعمل ويتعامل السحر والتمويذات، وأن

الأسو يلجأ إلى العقاقير والضمادات التي يقلب استعمالها من قبل الطبيب ولكنه من المحتمل أيضاً أن يستعمل التمليز إلى جانب الأساليب العقلانية في العلاج.

وهكذا نجد أحياناً أن الأسو يصف سداة تحشى في الأنف لوقف النزيف كعلاج لنزيف الأنف ولكنه في الوقت نفسه ينصح بتلاوة بعض الابتهالات.

وإذا كان المريض يعاني من انتفاخ في البطن فإن الأسو يجعله يشرب دواء معيناً لكي يرتاح، ولكنه يقرن ذلك بتلاوة تعويذة.

وعندما يعالج الأسو أحد الملوك فإنه يصف له بعض الضمادات التي تُشد بطريقة خاصة، ولكنه وفي نفس الوقت يقدم حججاً يعلقه الملك حول عنقه.

قد كتب أحد كبار الأطباء (راب آسي) إلى الملك يصف له فاعلية بعض العقاقير التي يستعملها ويقول: إن العقاقير التي أرسلتها إلى الملك نوعان يختلف الواحد عن الآخر وربما قال سيدي الملك: ما فائدة هذه العقاقير؟

والجواب: ((إنها مفيدة في طرد السحر، وهي مفيدة للمرأة حين الولادة)).

ومن الواضح أنهم كانوا يعتقدون أن المواد الطبية تستطيع العمل ضد القوى الشريرة فيما وراء الطبيعة، والحقيقة أنه كان هناك ادعاءات متعددة تذكر أن عقاقير (الأسو) يمكن استعمالها ضد التأثيرات الشيطانية التي فشلت أساليب الأشهبو في القضاء عليها، وهكذا يقال: إذا ظل نشاط الأرواح مستمراً وشديداً بحيث لم يعد بمقدور (الأشهبو) أن يزيلها، ولذلك لكي تزيله فإن عليك (أي: على الأسو) أن تحصل على ثمانية عقاقير وتمزجها معاً...

لم يكن هناك أي خلاف في عقول القدماء بين المعرفة بأن إحدى المواد تستطيع تخفيف مفعول بعض الأعراض، وبين الاعتقاد بالأسباب الراجعة إلى ما وراء الطبيعة لهذه الأعراض، مثلاً: كان من المعتقد أن هناك بعض أمراض الحمى التي يسببها سيطرة الشياطين، وكان من المعروف أن معالجة هذه الأعراض بتماطي مادة معينة كانت تسبب ارتياح المريض، وهناك من الممكن التوفيق ما

بين وجهتي النظر هاتين بالقول إن العقار كان مفيداً في طرد ذلك الشيطان
المسؤول عن هذا العمل.

إن استخدام الأسو ليمض الأدوية لا يمكن اعتباره شهادة على وجود موقف
عقلاني بالتمسك للأمراض إذ إن لدينا أسباباً وافرة للاستنتاج أن فاعلية المواد
الطبية كانت تعتبر مدجنة للسحر (أي: العمل ضد الشياطين التي سببت تلك
الأعراض) أكثر منها للمعالجة الطبية، وهذا الأمر يثبت دون أي شك عندما نجد
المواد الطبية موضوعاً في حاوية ومعلقة حول عنق المريض...عندها ليس هناك دلالة
أوضح من هذه أنه وعلى الأقل في بعض الحالات كانوا يعتبرون أن الدواء يعمل من
خلال وسائل سحرية.

إن طبيعة الأدوية نفسها تؤدي إلى استنتاج مماثل، إذ ربما يتبادر إلى الذهن أن
بعض المواد المستعملة سوف تخفف بعض الأعراض إذا لم تحدث الشفاء التام من
المرض، ويدخل في هذه المقولة الزيوت، النبيذ، الملح وحجر الشب، وبعض النباتات
ونماها، ومع ذلك فقد استعملت بعض الأدوية التي كان مفعولها مشكوكاً في
أمره وأن أسماها توحى بإشارات واضحة إلى تفكير يعتمد على السحر.

فهناك مثلاً شيء يدعى العضو التناسلي للحمار وهذه كانت صدقة بحرية
قد اتخذ ذلك الاسم من حجمها وشكلها، بالتمسك كان هذا العضو التناسلي
يستعمل لمعالجة اضطرابات قضييب الرجل، إما بطحنها ونفخها داخل القضييب من
خلال أنبوب، أو توضع في البيرة وتُشرب.

وبالنسبة للفرض المذكور فإن هذه الأعمال ربما لم تكن لها أي فائدة
عملية، ولكن يمكن للمرء أن يرى كيف أن السحر كان يمتلك السيطرة على
التفكير بحيث يُعتقد أن صدقة ذات شكل معين سوف تؤثر على قضييب الرجل.

يمكن للمرء أن يتوقع أن اختصاص الأسو في استعمال الأدوية سوف يؤدي
لولادة علم الصيدلة، ولكن الجو الذهني السائد لم يترك سوى إمكانية ضئيلة
للتجارب والتقدم في ذلك الاتجاه، وحتى لو لم نعتبر تلك العناصر السحرية التي
كانت تتدخل في نشاطات (الأسو) فلم تكن المهارة أو المعرفة التي توصل إليها

الطبيب بصفة شخصية، والتي كان يُظن أنها تسبب الشفاء، والتي لدينا نصوص من الوصفات الطبية التي استعملها (الأسو) بل إن قيمتها الرئيسية كان من المظنون أنها نتيجة عن سلطتها الإلهية القديمة.

وهذا واضح من التذييل (أي: خلاصة التفاصيل التي ألحقها آشور بانينبال ببيض النصوص الطبية، والتي أضافها إلى مكتبته في القرن السابع.

وتصف إحدى هذه التذييلات النصوص بأنها وصفات للشفاء لجميع أنحاء الجسم من الرأس حتى أصابع القدم وهي مجموعة موجودة خارج مجال المجموعات الأخرى وتحتوي على العلوم التجريبية وما يخص وظائف الآلهة الأطباء وهما نينورتا وجولا.

ويضيف آشور بانينبال: ((لقد أودعت هذه النصوص داخل قصري كمرجعية ولأجل الرجوع إليها ومطالمتها وقراءتها بشكل مستمر)) هذا يوحي ومن وجهة نظر آشور بانينبال بأن الحكمة الإلهية الموجودة في النصوص نفسها هي الأداة الفعالة وهذا متوافق ومتباغم مع الموقف القديم، فقد وضعت النصوص الطبية (شأنها شأن جميع النصوص في مكتبة آشور بانينبال) وقد أعيدت كتابتها ونسخت في الألف الثاني ق م بشكل مستقل عن الأعمال الطبية المعاصرة، وكانت للنصوص هذه سلطة وهبة التقاليد القديمة التي كانت تقاوم أي محاولة للتجربة أو التجديد.

الطبيب في الممارسة

نتجه الآن لنذكر ما نعرفه عن الأنشطة الفعلية والإجراءات التي كان يقوم بها الطبيب، وتدل النصوص أن الأسو عندما يفحص الشخص المريض (وهذا ينطبق على الأشيبو) كان يبدأ رأساً بملاحظة الأعراض، فقد كان يلاحظ مثلاً أي أعضاء الجسم كانت ساخنة أو باردة، ويلاحظ لون الجلد ولون البول، وإذا كان هناك دم في البول، والألم، أو الشكّل أو عدم انتظام الحركة وحالة الأوردة الدموية وإفرازات القيح فضلاً عن حالة المريض العقلية، وبعد ذلك يتوجه

إلى معالجة المريض التي تشمل إما إعطاء الأدوية أو الضمادات أو كليهما، وكان استعمال الضماد من المظاهر المميزة للمعالجة التي كان يقوم بها (الأسو).

ولم تكن هذه الطرق تمثل الاستقامة في العمل كما يبدو، نظراً لأن الأفكار السحرية والدينية كانت تتداخل في الأمور، فلم تكن الفروح والجروح هي التي تعالج بالضمادات فحسب بل كانت الضمادات تستعمل في حالة بعض الأمراض التي كانت تعزى إلى أصول ما فوق الطبيعة، مثلاً: (يد الروح) وفي مثل هذه الممارسات كانت الضمادات تثبت بعض الأدوية فوق أجزاء الجسم ونظراً لعدم وجود أي أنسجة في الجسم تلزمها المعالجة فإن الفرض من استعمال الضمادات كان لطرده المرض من الجسم بطريقة سحرية، وذلك بالتعاس المباشر للأدوية المستخدمة ضد الشيطان الذي سبب المرض.

ويظهر المنصر السحري الديني أيضاً عن طريق الابتهالات التي كانت توصف أحياناً لتستخدم مع الضمادات، وكان هناك أيضاً طرق صحيحة وطرق خاطئة في استعمال الضمادات، ونمود في هذه الحالة إلى الرجوع إلى الأفكار السحرية الدينية وليس للاعتبارات العملية.

وقد روي عن أحد الموظفين الذي وُثِّقَ الملك لأنه سمح عندما أصابه المرض أثناء إحدى حملاته الحربية في أراضي العدو باستعمال تقنيات أجنبية في استعمال الضمادات تلك الاستعمالات التي لم تكن مناسبة في بلاد آشور ويضيف الكاتب:

((دعونا نحافظ على المعايير التي وهبتنا إياها الآلهة، ووهبتها للملك سيدي)).

ومعنى هذا أن الطريقة الأمشورية في استعمال الضمادات كانت مباركة من قبل الآلهة، وأن التجارب بطرق بديلة سوف تعتبر عملاً غير شرعي.

لقد أشرنا حتى الآن إلى أنشطة الطبيب بما تختص بالأمراض، وكان عمل الطبيب يعتمد إلى مجالات أبعد وهي الجراحة مع أنها كانت في مستوى بدائي تماماً، وتشير مجموعة قوانين حمورابي (التي هي بابلية وليست آشورية) بشكل

متكرر إلى الأسو في عمله الجراحي موضحة أنه من الممكن أن يحدث جراحة في الجسم (ربما يشير إلى استعمال المبضع) أو معالجة العظام المكسورة. وتشير القوانين الآشورية حوالي نهاية الألف الثاني إلى أن واحداً من (الأسو) قد عالج خصية رجل أصيبت في الحرب دون التأكد من نجاح تلك العملية نظراً لأن القوانين تشترط معرفة ما سيحدث للشخص الذي اقترف حادثة الإصابة، ومعرفة فيما إذا كانت الخصية الأخرى سوف تصاب بضرر.

ونحن نعلم أنه وفي نفس الفترة في آشور كان هناك أطباء ملحقون بالبلاط الملكي الذين كانت واجباتهم تقتضي بالتأكد أن المذكور من الموظفين في القصر قد حصل إخصاً (هم بالشكل الصحيح وهذا لازم للسماح لهم بالاقتراب من السيدات، ونحن نفترض ولكن ليس عن طريق تواتر الأخبار أن عمليات الإخصاء الضرورية كانت تتم على أيدي الأطباء.

المواد الطبية

كانت المواد التي استخدمها الطبيب من أصول مختلفة فقد استخدمت كثير من الأعشاب والخلاصات النباتية التي كانت من أكثر الأدوية شهوفاً، بحيث إن كلمة الأعشاب أصبح يطلق عليها اسم دواء.

وقد قدم الباحث (R.C. Thomp ٥٧) في قاموسه عن علم النبات الآشوري عام (١٩٤٩) بمحاولة بطولية لذكر أسماء جميع النباتات المذكورة مع مقارنة الأسماء المستعملة في اللغات الشرقية المتأخرة بعد أن أخذ بالحسبان معرفة أي من النباتات يمتلك التأثير المطلوب على الأعراض المذكورة.

ولكن لا يزال هناك مجال للشك حول التماثل والمطابقة.

إن المشكلات التي تواجهها عند بحث المطابقة أننا نلاحظ أن هناك ذكراً لنبات اسمه (لسان الكلب) وكان هذا النبات يستعمل لمعالجة السعال واليرقان،

ولكن ليس لدينا أي وسيلة لمعرفة فيما إذا كان هذا الاسم هو نفس اسم النبات المدعو (السان الكلب) والمستخدم في إنكلترا ، وهناك بعض النباتات كانت تستعمل لمعالجة جميع الأمراض ويحمل أحد هذه النباتات اسم ((صالح لمعالجة ألف مرض)) كان بالحقيقة دواء مُسهلاً.

وقد كتب في الوصفة الخمسة للاستعمال ما يلي:

ينبغي على المريض أن يشرب هذا الدواء مع البيرة وبمدها سوف يتسبب ذلك في حركة أمعائه ، وهناك مواد دوائية أخرى ذات أصل حيواني فالدم هو مثل واضح ، فالمخلوقات مثل السحالي والعقارب كانت أقل المخلوقات مناسبة لتكون أدوية ، ولكنها كانت مشمومة ، وقد استعملت بعض المعادن مثل الملح ومادة الشب ، وكان الطبيب يحفظ هذه الأدوية في صندوق أو حقيبة جلدية ، وعندما يحين زمن استعمالها كانت تحضر عن طريق عدة عمليات مثل الطحن ، أو الفلي وبعد ذلك توضع مع مادة مناسبة مثل البيرة إذا كان الدواء سوف يستعمل عن طريق الابتلاع ، أو إضافة الزيت أو الشمع إذا كان الدواء سوف يستعمل كمرهم.

وقد استعملت طريقة غسل الجزء المصاب من الجسم بواسطة غسل كشكل آخر من أشكال العلاج ، وكان من الممكن إدخاله إلى الجسم بواسطة التحاميل والحقن الشرجية ، وكانت هناك إمكانية ثانية وهي أن ينفخ الطبيب المواد الدوائية الضرورية في إحدى فتحات الجسم.

وهكذا نجد بعض الوصفات التي كان الطبيب ينفخ الدواء المطلوب بواسطة نوع من القصب حيث يدخل الدواء إلى أنف المريض أو أذنه أو بواسطة أنبوب من البرونز أو الرصاص حيث يدخل إلى قضيب الرجل.

وكانت فاعلية المواد الطبية تختلف تبعاً لطبيعة الدواء اختلافاً متبهماً ، مع أنه ليس من الممكن أن نقول أقوالاً مسهبة حول هذه القضية ، نظراً لأن كثيراً من المواد المذكورة في النصوص القديمة لم نعرف أسمائها أو هويتها بشكل أكيد دون أي مجال للشك ، فقد كان الكبريت الممزوج مع زيت شجر الأرز مستملاً

لعلاج حكة الرأس وكان هذا الدواء فعالاً جداً تبعاً للحكمة، وهناك أدوية أخرى مثل تقديم الحليب الذي وضعت فيه مسحوقية وغليت فيه، ويتقدم هذا الحليب للمريض ليشره وقد بدا بأنه نوع من العلاج بالسحر أكثر منه علاجاً عقلاً.

وهناك حالة موازية لهذه الحالة في وصفة إنكليزية شعبية لا تزال مستعملة لعلاج السعال الديكي وهو مؤلف من البزاق المغلي بالحليب، وكان المرضى دوماً يشكون بفاعلية الأدوية، وهكذا نجد أن الملك يصبر أن يجرب الدواء الذي وصف لولي العهد ليشره، أن يجرب هذا الدواء أولاً بتقديمه لأحد العبيد ليشره.

دعوة الطبيب إلى النزول

لدينا نص أدبي يخبرنا شيئاً عن الطريقة التي كان الطبيب يتصرف بها ضمن مهنته، وهذه ليست مذكورة في النصوص الطبية، وهناك قصة تمود إلى الألف الثاني قـم (وهي لم تقع في آشور بل في بلاد بابل) واسم هذه القصة (الرجل الفقير في نهبور).

وقد كان هذا الرجل الفقير قد وقع عليه الظلم، ولذلك فقد قرر أن ينتقم من الظالم، ولقد خدعه المحافظ لذلك فقد قرر أن يضربه ثلاث ضربات، وقد عمد إلى القيام ببعض الحيل، والحيلة المناسبة لنا كانت عندما تخفى وأظهر أنه طبيب وذلك بعد الحصول على إذن لدخول بيت المحافظ فقد قص شعر رأسه مما يدل أن الأطباء كانوا حلقى الرأس، وبمدها سار ومعه جرّة ماء ومجمر مملوء بالفحم المحترق، وهذا ربما كان من الأدوات اللازمة للأطباء في ذلك الزمن للمساعدة في تركيب الأدوية، ولقد قدم هذا الرجل الفقير نفسه للبواب وقال: إنه (أسو) ماهر وقد سمح له بالدخول لفحص جروح المحافظ التي أصيب بعد أن ضرب مرتين، وبمدها أنجز الطبيب فحصاً كاملاً جعل المحافظ يثق بخبرته التامة، بعدها أخذ الرجل الفقير المحافظ لوحده معه بحجة أن المعالجة سوف تكون فعالة في الظلام، ولهذا دخلاً إلى غرفة مظلمة وهنا أطفأ الرجل الفقير الضوء الصادر عن المجرمة وذلك بصب الماء فوقها، ومرة ثانية قام بضرب مبرج للمحافظ، والنقطة التي نهتم

بها في هذا الجزء من القصة هي أنه كيف يمكن من القبول إجابة طالب الطبيب
بإجراء المعالجة في الظلام، وهذا يؤكد مرة ثانية المنصر المحوري الديني في
المعالجة الطبية في ذلك الزمن.

الفصل الخامس عشر

الفن الآشوري

إن من الصعب غالباً تجنب فرض نظام أفكارنا على الشعوب القديمة عندما نبادر إلى دراسة هذه الشعوب، وليس هذا الخطر بأقل شأنًا عندما نتحدث عن الفن الآشوري، خصوصاً عندما نميل إلى أن نحيط علماً بكل شيء جميل وذو فائدة.

وحتى لو نظرنا من منطلق وجهة نظرنا نرى أن هناك تقسيمات مقبولة بين الفنون الجميلة (مثل الرسم والنحت) والفنون المفيدة والتطبيقية (مثل فن العمارة) حتى إنه ولو اتبعنا المعايير الحديثة نجد أننا مجبرون أن نفرض بعض القيود في التصنيف.

وقد ذكرنا هذا التعليق نظراً لأن هناك بعض الكتب الممتازة التي عالجت موضوع منطقة ما بين التهرين والفن هناك ولم تترك شيئاً في مجال تعليقاتها إلا وذكرته ابتداء من خطيط وتخطيط المعابد والقصور مروراً بالمقروشات، والمجوهرات والأختام الأسطوانية إلى المنحوتات والرسوم الجدارية واللوحات المجسمة.

إذن ليس هناك من سبب يجعلنا نظن أن الشعوب القديمة قد وضعت شكل هذه الأشياء ضمن تصنيف واحد وهو الفن، والحقيقة أنه لم يظهر هنا أن كلمة أكاديمية ترمز إلى الفن، وتشمل شكل هذه الأجناس الفنية، ومن جهة أخرى ينبغي علينا أن نقبل أنه من الواجب استثناء المخططات المعمارية الأرضية، أما البقية فهناك تبرير لورخي الفنون الذين يدرسون الكثير من أنواع المواد كلها معاً طالما أن نفس الموضوع يتكرر بالتسمية لمواد مختلفة، مثلاً، الختم الأسطوانية واللوحة المجسمة.

لقد قامت عدة سلطات موثوقة بوضع مؤلفات ممتازة حول الفن في منطقة ما بين النهرين مع تخصيص فصول متفصلة حول الفن الآشوري ولا سيما H. Frankfort. الفرانكفورت في كتابه الفن والمعمار في الشرق القديم (١٩٥٦) وكذلك مورنجر A. Moortgar في كتابه الفن في منطقة ما بين النهرين القديمة (١٩٦٩) ولم يمتد أي عالم للادعاء بمهارته وخبرته في تاريخ الفن. وهكذا فإننا سنحاول في هذا الفصل أن نقدم صورة واقعية عن بعض الأنواع الرئيسية من المواد التي يمكننا إدراجها ضمن الفن الآشوري (من خلال تصنيفاتها الحديثة).

الألواح المجسمة

إن أكثر المواد المؤثرة والجديرة بالمعرفة في الفن الآشوري هي الألواح المجسمة الموجودة على جدران القصور في نمرود، وفي كالاخ وكوبونجيك (ننوى) وخورساباد (دورشاروكين) وإن أفضل النماذج موجودة في المتحف البريطاني. ولقد بدأ صنع هذه الألواح المجسمة في زمن آشور ناصر بعل (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) وقد كانت هذه تمثل أصلاً جمعاً ما بين شكلين من أشكال الفن القديم، وأحدهما: الأفريز الذي تُنقش عليه زخرفات واطئة من نوع الأعمدة المربعة الحجرية التي ندعوها المسلة، وكان أقدم هؤلاء عبارة عن منظر منفرد يظهر بعض الأعداء المقهورين، وهم واقفون أمام الملك وتظهر رموز الآلهة الآشورية في الأعلى، وفي مسلة أخرى تعود إلى أواخر ذلك القرن نرى أن هذا المنظر المنفصل قد امتد ليشكل بداية عهد اللوحة النافذة القصصية.

أما النوع الآخر الذي كان من أسلاف الألواح الجدارية المجسمة في الألف الأول ق.م في بلاد آشور فقد كان الرسوم الجدارية، فقد كانت الأجزاء السفلى من الجدران في قصر آشور ناصر بعل في كالاخ مغطاة بالألواح من الرخام الشفاف التي نقشت عليها رسوم مجسمة، ونحن نعلم أنها نقشت بعد تثبيت الألواح نظراً لأن بعضها قد ترك فراغاً، وتظهر هذه الرسوم المجسمة الصلة الواضحة مع

رسومات جدارية أقدم، إذ هناك أحد الثقات البارزين في معرفة الفن في منطقة ما بين النهرين قد ترك لنا وصفاً لهذه النقوش النافرة القديمة على الرخام الشفاف، وهي تنتمي إلى الرسوم الجدارية في قصر آشور ناصر بعل وقد تجسدت في حجر، ولقد تأكدت هذه الصلة بالحقيقة التي مفادها أنه وكما نُتيت الآثار الباقية من الألوان فإن آثاراً من الدهان قد بقيت في المجسمات، وهناك إمكانية تكون الأجزاء العليا من الجدران التي خدمت ككانت مزينة برسومات جدارية تتمم النقوش النافرة على الرخام الشفاف.

وكانت الرسوم النافرة في قصر آشور ناصر بعل تولف نوعين مختلفين من حيث المواضيع، وأحد هذين النوعين يظهر مشاهد طقوسية احتفالية أسطورية متركزة حول الملك، وأما الأخرى فكانت تظهر مشاهد من العهد أو الحرب.

إن المناظر الطقوسية تظهر لأول وهلة تشكيلات ساحنة متوازية مع ملامح الأشخاص وهناك مثال نموذجي مصور في إحدى اللوحات ففي الوسط هناك شيء غريب ومتناسق وغير طبعي يمثل شجرة مورقة مألوفة، وعلى كل جانب من الشجرة يتوضع نفس الشخصين المواجهين للشجرة وهما يفترقان في إظهار الذراعين، وإن أحد الزوجين قد نظر إليه من الجانب الأيمن والآخر من الجانب الأيسر وفوق الشجرة هناك رمز يتكون من جناحي وذنب صقر يرفرف بجناحيه ليتوسطه قرص عليه الجزء العلوي لكائن يدل لباس الرأس على إله.

وأما المشهد الطقوسي فهو سر مقدس، فالمعلومات الإنجليكانية (وهي الكنيسة الإنجليزية) تعرف السر المقدس أنه إشارة خارجية مرئية لنعمة روحية سامية، وإن هذا بالضبط هو ما تدل عليه هذه النقوش النافرة، فهي تخبر المشاهد أن الملك آشور قد امتلأ بالقوة الإلهية، وأما الشجرة في وسط المشهد فهي الشجرة المقدسة، وهي رمز ديني قديم في منطقة ما بين النهرين بالنسبة للآشوريين، وهي موجودة في منطقة سومر ابتداء من بداية الألف الثالث قبل الميلاد وهي تمثل الحياة والخصوبة وهي حلقة الوصل ما بين الأشياء الحية، والقوة الحيوية الظاهرة في

النباتات، وإن صلتها بالآلهة والقداسة يُرمز إليها بشكل الصقر المجنح فوهيا-
بنخبه وجناحيه المنتشرين.

وهذا رمز معقد، ويقول علماء آثار آشور الذين تفضل عقولهم المرنية أن تكون
معطياتهم مصنفةً ثميناً جيداً ونظيقاً، وقد ناقش هؤلاء فيما إذا كان هذا
الرمز يمثل الإله القومي لأشور، أو إله الشمس الذي يدل عليه وجود القرص.

والحقيقة أن الرمز ربما كان يمثل كليهما وأكثر، ففي أوائل العهد
السومري كانت الأجنحة المنتشرة والذنب الخاصة بالصقر تصعبها قوة إلهية
تدعى الأموجود (الرياح العاتية) التي شملت طائراً هائلاً إلهياً يدعى (أنزو)
(وبلاحظ أن كلمة إله قد حذفت عن قصد في هذا المكان) وهذه الرياح العاتية
هي التي سرقت من الإله الأعظم (أنليل) الشارة التي أعطته سلطته وقوته.

وأما أنزو فقد تغلب عليه أحد أولاد (أنليل) وهو الإله نينوترا الذي استلم قوى
أنزو، وكانت هذه طريقة خرافية للتعبير أن نينوترا كان التمثيل المجسم للقوى
التي كانت في مرحلة مبكرة من التطور الديني، وهكذا أصبح نينوترا الذي
تُبَيَّن في النهاية كإله العهد والحرب حائزاً على جميع القوى الطبيعية وعلى
المواطف والحياة الحيوانية.

وهكذا فإن الأمور المفهومة ضمناً في النقوش النافرة التي تمثل الصقر
وأجنحته ليست فقط الإله آشور وقرص الشمس بل أيضاً قوى الطبيعة التي يمثلها
(نينوترا).

والآن نعود إلى الشخصين المرسومين في اللوحة بشكل بشري، إذ إن الشخص
الأقرب إلى الشجرة المقدسة هو في الحقيقة الملك آشور ناصر بل نفسه، وفي كلتا
صورتيه نجد رافعا يده اليمنى بثلاثة أصابع مثنية وأما اليسارية فكانت تُؤشر
والإبهام بارز تحت اليسارية، وهذه علامة يظهر الملك فيها احترامه للإله، وهذه
إشارة تقليدية تمثل احترامه للآلهة، وإن الأوضاع النسبية للقرص المجنح والشجرة
المقدسة وصورتي الملك تصل الملك بشكل حميم بكلا الرمزين الدينيين الذين
يوجدانه مع قوى الخصب في الحياة النباتية والحياة الحيوانية.

وإن مظهر العصر المقدس يؤكد المخلوقان المجنحان الموصوفان ككائنات إلهية لوجود القرون الثلاثية على رؤوسهم ويقف الواحد منها خلف كل صورة من صور الملك، ويحمل كل واحد منهم سطلاً وكوزاً (وهذا رمز آخر للخصوبة) وسكانا يرشان الملك وهذا المشهد يميز عن رفع الملك إلى مرتبة الألوهية حين يسيطر على جميع القوى الطبيعية، بحيث يجعل هذه القوى مستمنة لجلب الخصب والازدهار إلى البلاد التي يحكمها وهذه التصاريح تدل على الاطمئنان والخير لأشور.

وأما الألواح النافرة التابعة لأشور ناصر بعل من النمط الآخر فهي على مستوى مختلف فليس فيها شيء من الخرافة، وليست ساقطة فهي تصور الحركة والعمل وتظهر أنشطة الجيش الآشوري ونشاط الملك الآشوري، وترى فيها مناظر الحصار ومناظر المعارك وترى الأسرى أمام الملك، وترى الملك مشغولاً بقوة بصيد الأسود.

ولكن كل هذه الروايات مع أنها مختلفة في تأثيرها السريع، إلا أنها تضيق التأكيد بأن آشور سوف تظل دائماً منتصرة ومزدهرة ما دامت تحت قيادة الملك بجلالة قدره.

ولقد استمر خلفاء آشور ناصر بعل في إقامة الألواح النافرة مع إجراء بعض التعديلات في أسلوب العمل وظل هذا حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية، ولكن شكلاً آخر من أشكال الفن كان هذا الملك قد قدمه قدّم بعد تولي ابنه الحكم، وهذا الشكل مشغول على البيرونز ويمرّف بشكّل تقني باسم ريوسمي، وإن هذه التقنيات المستخدمة في (الريوسمي) هو عمل صورة على صفحة من المعدن بواسطة طرقها من الخلف.

وفي الأمثلة الآشورية فإن النتيجة هي شرائط من البيرونز تبرز عليها مشاهد مماثلة لتلك الموجودة في اللوحات المجسمة من النقط الروائي.

ولقد وجدت أمثلة من زمن الملك آشور ناصر بعل نفسه وابنه شلمناصر الثالث في موقع صغير اسمه (بالاوار) حيث كان هذان الملكان يملكان مقراً دينياً على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من العاصمة (كالاخ) وقد ثبتت صفائح

البرونز على الأبواب الخشبية الكبيرة التي تفتح المجال للوصول إلى مفيد، ولم تكتشف صور آشور ناصر بل حتى عام (١٩٥٦) ولم يكن قد أصابها التلف، بل قد أصبح من المتعذر الحصول عليها من بغداد.

وأما مقر الملك شلمناصر الثالث فقد اكتشف عام (١٨٧٧) وهو ظاهر بشكل حسن في المتحف البريطاني، وكانت الأشرطة البرونزية المتواجدة على يوابات قصر شلمناصر نحو ثمانية أقدام طولاً وأحد عشر إنشاً في علوها و ١٦ إنشاً في ثقاتنها، وكان كل شريط مقسماً إلى لائحتين بكل لائحة علوها خمسة إنشات.

وعلى هذه اللوحات أنتج حرفيو الملك شلمناصر سلسلة مرموقة من المناظر الروائية وكانت مصحوبة بنقوش قصيرة منقوشة فوق الصور وهي تصف الحوادث، وإن خبراء الفنون يعملون إلى التقرز لدى رؤيتهم هذا العمل، إذ يقول أحدهم: ((هناك مجال قليل في هذه الكتلة من التفاصيل)) بينما يعلن آخر بأنها عبارة عن مجرد نثر واقعي، ولكنهم جميعاً معتمرون بالاهتمام ويعتبرون أن هذه الأثر جديرة بالتحقق.

ونرى على هذه اللوحات خيولاً يستحثها سواصها على جر العربات فوق جبال متعذرة، وكانت أعناق الخيول مريوطة بالثير وهنا نرى عملية جر الفئائم من البلاد المقهورة والمدن المفلوية، وتسليم عدد لا نهاية له من الماعز والخيول والماشية وجمالين ذوي سنامين وكان هذا المنظر مربعاً حيث ترى فيه أيدي الأسرى وقد قطعت وكذلك أقدامهم، ويرى الملك نفسه بجلالة هنره واقفاً تحت مظلة احتفالية مع حرس الشرف في الخلف وهم يستلمون الجزية، ويرى بعد ذلك الملك جالساً على عرشه فوق أسكمة وهو يوجه عمليات الحصار التي كان يقوم بها جماعة من الرماة راغبين خلف المنجنيقات الهدامة.

وهناك سلسلة من المشاهد يظهر فيها الملك وهو يقوم بحملة على منطقة واقعة عند منابع دجلة، وهي واقعة في عمق بلاد الأناضول في أقصى الشمال، ولما كان يحدد أقصى حدود مملكته فقد أقام احتفالات ذبحت فيها الأضاحي ووضع لها

تمثال محفور على وجه الصخور، وقد سميت كل هذه المشاهد على تلك الشرائح البرونزية التي تعلو بمقدار خمسة إنشات لكل شريحة.

ويشكو خبراء الفنون من أشكالك هذه النقوش، ولكن ومن وجهة نظر سلمناصر فإن موضوع اللوحة وهو ما كان يهمه، ومن جهة أخرى ومن خلال أنواع الريموزي فإن كل ما صنع عبارة عن رواية ألفت لتمجيد مآثر وأعمال الملك الآشوري، ولتسجيل إنجازات الدولة الآشورية التي أخضعت جميع الشعوب لسلمانها وذلك حسب مشيئة الإله آشور.

ومع أن أعمال الريموزي لم تمتد تظهر بعد حكم الملك سلمناصر الثالث، ولكن الرسوم الجدارية استمرت وربما كان لطبيعتها الهشة بالنسبة لتلك اللوحات المجسمة المصنوعة من الحجر كانت هذه سبباً لوجود كميات كبيرة منها أكثر مما نعرفه من أمثلة أخرى، وفي جميع العينات الباقية فقد كانت الألوان المستخدمة هي الأزرق والأحمر والأبيض والأسود.

وابتداءً من منتصف القرن الثامن (مع وجود نقاش بين الباحثين حول التاريخ المضبوط والحكم المضبوط) كان هناك أمثلة على رسوم جدارية مأخوذة من قطر آشوري في تل بارسب الواقع على نهر الفرات في سورية، وقد كانت الجدران جميعها مغطاة بصور مناظر تمجد الملك وهي تظهر ارتباطاً من الموظفين والأعداء المهزومين، وهم واقفون أمام الملك الجالس على عرشه في هيئة رائمة.

ولكن هناك أيضاً أمثلة عن تكوينات نهتم بالمجال الطقوسي وما وراء الطبيعة إذا قورنت بتلك التي وجدت في عهد آشور ناصر بعل والتي ناقشناها سابقاً، ابتداءً من نهاية القرن الثامن وصلت إلينا نماذج عن الرسوم الجدارية الآشورية مأخوذة من قاعة العرش للملك سرجون الثاني في قصره الذي بناه حديثاً وعاصمته الجديدة (دور شارووكين).

وهذا هو أيضاً مشهد من المجال الطقوسي في ما وراء الطبيعة، وعلى طول الجدار هناك شرائط من أفاريز ذات طبيعة تزيينية، وقد بنيت بشكل متناظر من مجموعة من الموضوعات الدينية، وفوق هذه الأفاريز يملو اللوح الرئيسي الذي

نحيط به أفريزات مرتفعة نحو القوس وفي داخل هذا اللوح هناك صورة الملك سرجون ومعه أحد الخدم واقف خلفه وهو واقف منتصباً أمام الإله وكانت يده متوقفة بشكل الإشارة التي تدل على الاحترام والتي وصفناها آنفاً.

ولكن تركيب الصور يظهر أن سرجون وليس الإله كان في الوسط، وأن جميع الزخارف الجدارية تلفت النظر إلى عظمة الملك سرجون ومرة أخرى نجد أن الصورة لها وظيفة فهي تعبر عن قوة وجبروت ملك آشور التي تقترب من جبروت وقدرة الإله.

وهنا يجدر بنا أن نعود إلى الألواح النافذة التي تظهر التطور والتحسينات التي حدثت في القرن الثامن والتي وصلت إلى أوجها تحت حكم آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) في القرن السابع قبل الميلاد.

ونلاحظ أن الألواح النافذة في زمن آشور كانت متأثرة وضئيلة بل كانت معدومة كلياً، وبذلك ظلت الحادثة وقد صورت في فراغ ولم يرتبط بأي خلفية من نوع خاص.

ولكن لقد تغير كل ذلك بحلول القرن الثامن. فقد أصبحت المناظر تستعمل بشكل أوسع بحيث تعطي الحوادث انقباعاً يوحي أنها قد حدثت في مكان حقيقي، وكذلك فقد حدثت حالة من الحرية في استعمال الفراغ على الألواح الحجرية. وفي الماضي كان النقش النافر يعامل كشيء كامل في نفسه ولكن الآن أصبحت المناظر تنتقل من لوح إلى آخر وهي تعزز وتؤكد معنى الحركة ولقد توصلت الفراغات الممودية إلى شكل الاستعمال بشكل خبر.

وعليها أن نقول: إنه حتى في النقوش النافذة الروائية الخاصة بالملك آشور ناصر بل لم تكن القضية أن يوضع جميع الأشخاص على الخط الأساسي، ومع ذلك فقد كان الخط الأساسي النقطة المرجعية بالنسبة لجميع الصور، ولكن وفي بعض النقوش النافذة كانت الصور موزعة خلال ميدان العمل بأكمله بشكل مستقل عن الخط الرئيسي، وهناك مثال جيد بصورة خاصة وهو تصوير آشور بانيبال لحادث قهره للميلاميين الذي يصور المعركة في المراء المفتوح وصور

المطاردين والمطاردين والمنصرين والمهزومين وجثث الموتى والمشوهين المبعثرة فوق وجه النقش البارز إنما حققت انطباعاً حياً عن المعركة بل المجزأة التي حصلت في ميدان القتال.

هناك بعض النقوش البارزة المؤثرة وهي تمثل مشاهد الصيد في زمن آشور بانيبال، ومع أن الخبراء الفنيين يمكنهم معرفة الاستعمال المتكرر للموضوعات نفسها مما يظهر أن المنحوتات لم تكن عفوية بل كانت تستعمل موضوعات مقبولة، ولكن ما يؤثر في المشاهد العادية هو الدرجة الجديدة للواقعية بحيث يشعر الإنسان بالمعطف عند رؤية الحيوان من الحصر الوحشية وهي تفر وتظهر إلى الخلف لترى فلولها الذي كانت تلحقه الكلاب وتمسكه وكذلك يظهر الحزن عندما يرى المشاهد أسداً يموت والمهزوم في جملته.

تظهر بعض لوحات النقش البارز بعض الفروق في المقاييس وفي عناصر التشكيل التي تمثل الأشياء الأشد هرباً والأشد بعداً، وهذا ما سبب حصول نقاشات عديدة حول إمكان أو عدم إمكان الآشوريين محاولة تمثيل المنظور في رسومهم، وحول إمكان الإنسان بالتكلم بصدق عن النقوش النافرة عن المقدمات والخلفيات بالنسبة للنقوش النافرة، ولكن يظهر أنه لم يكن هناك أي اتفاق بين الخبراء حول هذا الموضوع.

إن الرواية أو القصة المشاهدة في النقوش النافرة ليست جغرافية إذ إن قصد النقوش النافرة غالباً وصف وضع متطور يغطي فترة زمنية، إذ هناك بعض النقوش النافرة تظهر فيها نفس المجموعات من الجنود تظهر بشكل متكرر في مواقف مختلفة مظهرة تطور الحدث، ويظهر خير مثال بسيط لهذا المبدأ من مبادئ التركيب في مشهد صيد الأسد وهناك يظهر الأسد وقد أطلق سراحاً من قفصه، ولكنه يثار عندما يصيبه سهم في كتفه وعندها يجري ويهجم على الملك ليتلقى من الأخير ضربة الرحمة الصادرة عن رمح.

وهناك في النقش النافر يبدو أن هناك ثلاثة أسود تظهر في ثلاثة مواقف متتالية تماماً كما لو كانت قد صورتها آلة تصوير في ثلاثة مواقف والنتيجة طائفا أدرك المشاهد هذا الشرف وهو تعزيز وتقوية الشعور بالحركة.

النحت الفراغي

كان هناك أيضاً نحت آشوري فراغي يتمثل بالتماثيل الحجرية بحجم الإنسان، ولكن الكتب التي تهتم بالفنون في منطقة ما بين النهرين لا تميز إلا وقتاً قليلاً واهتماماً قليلاً بهذا الأمر، وبالمقارنة مع النقش النافر يبدو النحت مادة فظة ممجوجة، إذا إن الأعمال الرئيسية ما هي إلا تمثيلات للآلهة والملوك وتصف الصور بشكل جامد في حالة استعداد، والوضع الوحيد لتقاصيل الجسم تتعصر في بعض الثبات في الثوب تغطي مائر الجسم، ومع ذلك فإن أفضل المينات مثل تمثال آشور ناصر بل لا يخلو من الوقار والجلالة.

وهناك بضعة تماثيل صغيرة آشورية في المنطقة مصنوعة من مواد ليست حجرية (برونز أو كهرمان) ولكن خبراء الفنون لا يظهرون سوى حماس حذر بالنسبة للمواد المستعملة، ومهارات الصنع وتستحق تعليقات أوفى بالنسبة لهذا العنوان.

وهناك تماثيل الأسود الهائلة المجنحة والثيران التي كانت تخدم كعكس في مداخل القصر وتظهر قوتها الخارقة في أجنحتها والقرون الثلاثية على رؤوسها وهي من علامات الألوهية، ويظهر الانطباع كاملاً بالإحساس بالقوة وهو المطلوب، وإذا أوردنا الكلام بشكل دقيق فإن هذه ليست هي الأمثلة الدقيقة عن فنون النحت في المنطقة نظراً لأنها لم تنزع من كتل حجرية قد نحتت منها، ولما كانت متوضعة بشكل أزواج قريبة من جانبي البوابة فإنها لم تكن قد خصصت لتشاهد من جهتين فحسب وهما الجهة الأمامية والجهة الجانبية.

وبالنتيجة لقد أصبحت لها مناظر توحى أنها قد دعمت بخمس أرجل أربع منها مرثية من الجانب واثنان من الأمام وكانت الرجل الخارجية الأمامية محسوبة في كلا المنظرين.

الماج المنحوت

وهناك نوع آخر متمثل في الألف الأول قيم في آشور وهو الماج المنحوت، ونفهم من هذا الاصطلاح شرائط مسطحة من الماج إما محززة أو منحوتة بشكل نقش نافر قليل العمق من الممكن تطبيقه في تقنيات أخرى ربما توجد، ولقد وجدت كتل كبيرة من الماج في عدة مواقع، ولا تزال كميات لا بأس بها من هذه المادة لم تلمس، مع أنها لكونها من آشور إلا أننا لا نستطيع أن نطلق عليها جميعها اسم الفن الآشوري، فلفد كان الملوك الآشوريون يستفيدون استفادة كاملة من المصادر البشرية في إمبراطوريتهم، وكانوا يستخدمون الحرفيين المهرة بشكل لا يقل عن العمال غير المهرة.

ومن الواضح أن نسبة لا بأس بها من الماج المنحوت في آشور كانت من أصول آشورية شنيقية، وهي تحتوي على عناصر ليست آشورية ويحمل عدد لا بأس به منها سمات مصرية في أهلها وذلك نتيجة للصلات الوثيقة الثقافية التي كانت سائدة عن طريق البحر في الأزمنة القديمة ما بين مصر وبهيلوس على الساحل الفنيقي (أي اللبناني).

ومع أن المواد العاجية قد وردت من عدة مواقع آشورية، إلا أن أكثرها واشدها تأثيراً قد أتت من نمرود، ومن أشهر المواد التي وجدت في نمرود هي قناع مقمر أبعاده لا تزيد عن ستة إنشات طوياً، وخمسة عرضاً ويمثل وجه امرأة في نقش نافر طليعي.

وهو منحوت في قطعة واحدة من الماج وهناك علامات من وقع الأزاميل في خلف القناع تظهر أنه كان سيوضع بحيث تظهر مقبعته فقط، وربما كان ذلك موجوداً على قطعة من المفروشات أو على حائط.

وليس من المحتمل أن يكون هذا القناع جزءاً من تمثال، وهناك لقية من نفس النوع (مع أنها صلبة في خلفيتها بدلاً من أن تكون مقعرة) وهي أكبر من القناع (وأبعادهما تبلغ سبعة إنشات ونصف طوياً مع خمسة إنشات عرضاً) ولكنها لم

تتمكن متقنة الصنع مما دعا بعض خبراء الفنون أن يستنتجوا أنها كانت أقدم من تلك أصلاً.

وهي بالتأكيد أقل جاذبية من وجهة جمالية بالنسبة للذوق الحديث، وإن علم دراسة الآثار والتطبيقات الأثرية لا يقدم لنا أي مساعدة بالنسبة لتواريخها النفسية نظراً لأن كليهما قد وجد في نفس البئر الذي رميتا فيه بعد تجريدهما من جميع الزينات الذهبية التي كان من المحتمل أن يحملها وذلك عند نهب مدينة كالاخ. ومن نفس البئر اكتشفت أيضاً قطعة من العاج منعوتة بشكل كلي بشكل دائري لتشكل رأس أسد يزار، وكان قطرها الكبير يبلغ نحو ثلاثة إنشات مع بعض التفاصيل الواقعية.

وقد وجد في البئر أيضاً قطعتان من العاج مرموقتان وهما زوج من اللوحات العاجية منعوتة بشكل نقوش نافرة وهما متشابهتان كأنهما مصنوعتان بحيث تتكاد إحدهما تكرر الأخرى، ويظهر فيها أسد حامل رجلاً زنجباً يطرحه على الأرض من رقبته.

وهناك بعض الزخرفات النباتية التي تشكل خلفية للأشكال الرئيسية مغطاة بالأوراق الذهبية مع صورة الأزهار تتكون على التوالي من المقيق الأحمر واللازورد الأزرق وهناك نقش بارز من العاج وهو جذاب بالنسبة للذوق القديم، وكانت مجموعة تمثل بقرة ترضع عجلها.

وكانت المنحوتات العاجية متقنة الصنع في وصفها وتصويرها للحيوانات، وهناك بعض المنحوتات العاجية التي تشمل مجموعة من الأجانب وقد جلبوا الجزية المولفة من الحيوانات، مثلاً أحد الأشخاص النوبيين يحمل قرناً على كتفه ووعلاً إلى جانبه وجلد فهد فوق ذراعه الأيمن.

وهناك عدد كبير من العاجيات المنقوشة بشكل نافر وبعض الأشكال الفراغية من التي تستحق الوصف أو الرسم لو سمح المجال بذلك، وكان هناك أيضاً تقنيات فنية مختلفة، مثلاً: تحت شرائط عاجية بشكل نقش نافر غير عميق

على كلا الجانبين أو أشكال ونماذج (تكرارية) وهي تمثل امرأة تقوم مقام عمود في مبنى.

وكذلك ألواح من الأعمال المفتوحة (وهو عمل يُرى من خلفيته ويترك أشكال الأشخاص واقفة بحرية في إطارها) وكذلك التقنيات الضخمة (تتألف من نقوش نافرة عليها مواضع منقوشة).

ولكن الكتلة الكبيرة من الحاج المنحوت تتألف من ألواح صغيرة ليست منقوشة نقشاً نافراً بل كانت المشاهد معززة، وكانت هذه ألواح بصورة عامة جزءاً من الزخارف في المفروشات مع أنها متواجدة بشكل مستقل بشكل أشياء من الأمشاط، والملاعق أو غيرها، وعلى وجه التقريب أي: رسم أو مشهد موجود على النقوش البارزة أو الرسومات الجدارية من الممكن أن يظهر في هذه الاحتفالات مثل الحيوانات (سواء كانت طبيعية أو خرافية أو رموزية) وكذلك مناظر الحرب أو مناظر الصيد أو الاحتفالات الدينية أو النماذج الهندسية أو المناظر الطبيعية.

الأختام الأسطوانية

لا ينبغي علينا مفادرة بحث الفنون الآشورية دون ذكر الأختام الأسطوانية، وكانت الأختام مصنوعة من نوع الحجارة منسجمة من الحجر الكلداني المادي حتى اللازورد الثمين.

وأما طولها فكانت تتفرج من أقل من إنش حتى حجم الإبهام، وهي تحمل تصميمات منقوشة مصبوبة أحياناً باسم ولقب حاملها.

ولقد استعملت هذه الأختام ابتداء من أقدم عهود السومريين وكانت تُدحرج على قطعة كبيرة من الفخار وتطبع على أريطة البضائع وذلك لضبط البضاعة منعاً للمزفة.

أو أن يطبع على الوثائق الرسمية كتأكيد على إعطاء الثقة بالفرق المتعاقد أو الشهود، وفي الأزمنة المتأخرة كان للختم ثقب معفور بشكل طولاني بحيث يمكن أن يُربط بخيط ويلبس.

وتقع أهمية الأختام الأسطوانية في التصميمات التي تحملها، وتكون هذه أحياناً ذات أهمية وجاذبية جمالية ولكن بالنسبة لمؤرخي الفنون فإن الشيء المهم هو وثيقة البواعث والأساليب ومطابقتها مع تطور الفنون الآشورية.

لدينا بعض المعلومات عن هذه مستقاة من الأختام الفعلية التي اكتشفت في الحفريات (أحياناً تحفر بشكل غير قانوني من قبل الأهالي في البلد نظراً إلى أنها سهلة الحمل وغالية الثمن) وأيضاً من طباعة الأختام على ألواح من الفخار.

هناك عدد كبير من طبقات الأختام تعود إلى الفترة الآشورية الوسطى (على المصوم القرن الرابع عشر ق.م) وهي مطبوعة على ألواح من الفخار من آشور بالإضافة إلى عدد كبير من الأختام الفعلية.

وكان القرن الرابع عشر زمناً بدأت فيه آشور تتخلص من تأميمها لميتاني وعندما كانت بابل في الجنوب لا تزال محتفظة ببعض سمات عظمتها الماضية، وتحتوي الأختام الآشورية في العصر المتوسط أمثلة تُظهر نفوذ البواعث والأساليب المثبتة في هذه المناطق.

ولكن الأساليب الآشورية الخاصة كانت تتطور أيضاً، وكانت موضوعاتها مرتبطة بالعناصر التي وجدت في أوج ازدهار الفنون الآشورية المتأخرة لاسيما بالنسبة للنقوش النافذة المذكورة آنفاً.

وما بين هذه الموضوعات نجد أزواجاً من الحيوانات المجنحة المتناظرة، وكان الواحد منها غالباً ما يواجه الآخر على شكل جانب من جوانب الشجرة المقدسة.

وكذلك القرص المجنح أو أحد الأبطال في المعركة أو مناظر الصيد بواسطة المزيات وتظهر بعض هذه المناظر أنها من المجال الخرافي وهي توحى بأنه كانت

الأعمال المشابهة في النقوش النافرة المتأخرة لها أحوالها في إضفاء صفة العلمانية على ما كان يُعرف مثلاً بالموضوعات الخرافية.

ولكن ومع تلك المناظر التي كانت تبدو خرافية، فلن الأختام الآشورية في الأزمنة المتوسطة كانت تشتمل على أمثلة من مناظر الحيوانات ذات الخلفيات الطبيعية مثلاً: الماعز الذي يرتع بجانب شجرة أو الغزالان الوافض بجانب الأشجار. وإن هذا الاهتمام الذي أبداه صانعو الأختام بالحيوانات البرية والمناظر الأرضية من الممكن اعتباره جداراً تلك المناظر الحيّة التي وجدت فيما بعد في الألواح التي تحمل نقوشاً نافرة.

إن الأختام الأسطوانية التي تطورت وتحسنت من البدايات الآشورية المتوسطة، تشمل مناظر طقوسية وبصورة خاصة عدداً من الأنواع المختلفة للشجرة المقدسة التي وجدت أيضاً في النقوش النافرة ولكن فوق كل شيء كانت مناظر الصيد ومناظر القتال حيث تظهر الآثار النافرة من المناظر الخرافية (مثلاً الحيوانات المجنحة والطيّات هذه المناظر تظهر أحوال هذه الطقوس في فنون منطقة ما بين النهرين القديمة).

ولكن وينفس الوقت كانت تحتوي على حيوية تشير إلى الطريق التي تؤدي إلى اللوحات المجسمة والنقوش النافرة التي تصوّر الحيوانات في عهد آشور بانيبال.

الفصل السادس عشر

الجيش الآشوري

إنه وفي أثناء القرن الأخير أو ما يقارب القرن الأخير من عمر الإمبراطورية الآشورية كان هناك عدد قليل من الناس لم يثأثروا بتلك الإمبراطورية بصفة أو بأخرى وكانت الفواحي التي تأثرت فيها الحياة اليومية (سواء تأثراً حمناً أم سيئاً) إنما هي القضايا الاقتصادية والإدارية.

ولكن النقطة التي دخل الإنسان منها إلى حالة التماس المباشر مع دولة آشور بانيبال كانت غالباً هي الجيش الآشوري، وهذه هي أيضاً النقطة التي استطاع القارئ الغربي الحديث (إذا كان قد تعرّف على التوراة) أن يواجه الآشوريين لأول مرة نظراً لأن السفر الثاني من كتاب الملوك (أشعيا) ٣٦-٣٧ يكرّس سفرين (الـ ١٨ والـ ١٩) لقضية حصار أورشليم وهناك ثلث من أسفار أخرى تكرّس لهجوم الآشوريين على مملكة إسرائيل الشمالية.

استطاعت آشور تجييش الجيوش التي كان يبلغ تعدادها مئات الألوف من الرجال، ولكن أنشطه الآشوريين العسكرية لم تكن متمثلة بالحملات الحربية على ذلك المقياس.

وقد تمت بعض العمليات العسكرية عن طريق قوى صغيرة أو عن طريق الحاميات التي كانت تسيطر على النقاط المفتاحية وكان تعداد هؤلاء الجنود بضعة دزينات حسب.

ولكن ومهما كان حجم هذه القوى فقد كان استخدامها الفعال يعتمد على عاملين أساسيين وهما التنظيم والانضباط.

لم يكن جيش آشور العظيم عبارة عن قطع من الفلاحين المتعطشين لسفك الدماء تدفعها قوة من الفرسان الرهيبين الذين لا هم بينهم سوى الفنائم، ولكن في الحقيقة كان الجيش منظمة معقدة تتألف من وحدات متخصصة من عدة أنواع،

وسكان نواتها هي الجيش المرباط وكان هذا الجيش مكلفاً بعدة مهام وواجبات على أسس دائمة.

أولاً: كان توفير الأمن الشخصي للملك الأمر الذي استدعى وجود الحرس الخاص الدائم.

وأيضاً: كان هناك الحاميات الدائمة المتواجدة في نقاط مفتاحية مختلفة في الإمبراطورية وهذه تستلزم تزويد هذه الحاميات بالرجال والعتاد بشكل دائم وعلى أسس من الأمد الطويل.

وهكذا فإنه لن يستطيع أحد سوى الرجال المحترفين أن يؤمنوا هذه الواجبات، ولهذا فقد كان بعض هذه الحاميات موزعاً بشكل مباشر أمام الملك وليس أمام الولاة المحليين، وقد بدأ هذا واضحاً من التقارير التي كانت ترسل إلى الملك من قبل هؤلاء هذه الوحدات.

إن إحدى هذه الوحدات من الجيش المرباط والتي نسمع عنها الشيء الكثير، كانت مجموعة من الجنود من أصول قبلية تسمى (الإنثو) ومن ناحية عرقية لم يكن هؤلاء من الآشوريين، بل كانوا مجموعة من الجنود من أصول قبلية آرامية من جنوب آشور وهم قرييون من مدينة آشور.

ولقد كان هناك في يوم من الأيام مزعجون للسلطات الآشورية ولمكن لقد تم إخضاعهم تماماً.

وعندما نسمع عنهم في المراسلات الملكية ابتداء من أواخر القرن الثامن فصاعداً نجد أنهم قد أصبحوا وحدة متميزة يمكن الاعتماد عليها في أداء واجبات خاصة، ونجد مثلاً أنهم قد جلبوا لإعادة النظام في منطقة لبنان عندما تمرد أهل صيدا بسبب الضرائب وقتلوا أحد مفتشي الضرائب.

هذا وإن قضية (الإنثو) تظهر أن الجيش الآشوري لم يكن مقتصرأ على الآشوريين فقط، إذ وكما ذكرنا سابقاً لم يكن لدى الآشوريين أي تمييز عنصري وقد أدخلوا الشعوب التابعة لهم في جيوشهم واعتبروهم على قدم المساواة مع الآشوريين الأصليين، وكانت كل مجموعة عرقية تحتفظ بشخصيتها وهويتها

بالنسبة لأغراض القتال وكانوا يؤلفون فوجاً أو وحدة صفى ويحتفظون بأنواع أسلحتهم وأشكال ملابسهم المستعملة في مناطقهم الأصلية.

وهكذا نجد في لوحات النقوش النافرة مبوراً لمجموعات من رماة السهام ورماة المقاليع والسيافين وقرق المشاة الخفيفة وقرق المشاة الثقيلة الذين يتميزون بأحذيتهم الثقيلة وملابسهم وأغطية رؤوسهم فضلاً عن أسلحتهم، ولكن هؤلاء المحاربين كانوا بحاجة إلى الدعم التقني وتخبرنا الأفراريز والنصوص بوجود وحدات تقنية متخصصة.

وكان هناك عربات حربية تستخدم في ميدان المعركة مرافقة للجيش، وعربات لنقل المعدات اللازمة التي كانت تشمل الطعام والخيام وقطع خاصة من المعدات مثل آلات الحصار والمنجنيقات، عندما أصبح الطرق صعبة بالنسبة لمرور عربات النقل والعربات الحربية وعندها تصبح الطرق مقفلة.

وكان فتح الطرق من وظيفة جنود الاستطلاع المجهزين بالقنوس البرونزية والنحاسية، وفي بعض الأحيان كان الجيش يصادف نهراً لا يمكن الخوض فيه وعبوره وكان هذا يقتضي إنشاء أطواف أو جسور كانت تضمها جنود الاستطلاع، وكانت الأطواف من نوع الكميلك.

أما الجسور فكانت جسوراً من القوارب أي: الجسور المتشكلة من قوارب مصقوفة عبر مجرى النهر وتوضع فوقها الألواح الخشبية التي من الممكن أن تصبح ممرات للمرات الحربية.

وبعدها وعندما يصل الجيش الأشوري إلى إحدى المدن المراد حصارها عندها يستعان بجنود الاستطلاع مرة ثانية لوضع المنجانيق والسهاليم وأعمال حفر الخنادق.

وكان هناك عدد من الموظفين هة وهم الكتبة الذين يسجلون النتائج وتفاصيل الحملة الأخرى.

وكان هناك فئتان من السكتية الفئة التي تكتب بالخط المسماري على ألواح من الفخار ، والفئة التي تستخدم الحروف الأبجدية الآرامية التي تكتب على الرقوق أو على أوراق (البايروس) المستوردة من مصر ، وكان هناك أيضاً المترجمون ورجال المخابرات.

وكان لدى الآشوريين أيضاً ما يمكن أن نسميهم بشكل فضفاض ومهلل دائرة القساوسة ، وكان هؤلاء مهتمين بالشؤون الدينية ولم يكن لديهم أي علاقة بالاعتناء بالجنود وأرواحهم.

والملاك المذكور من الموظفين كان ملاكاً دينياً وكانوا يرافقون الجيش ، وبالمناسبة فلم يكونوا منشغلين بتضحية القرابين فحسب بل أيضاً في تفسير وعمل التنبؤات الفلكية عند الضرورة.

ويبدو أنه وبسبب تعاملهم مع التنبؤات الفلكية فقد لعب بعضهم دوراً مهماً في الحفاظ على الأخلاق العامة.

ونحن نعلم عن كثير من الأزمات التي ساهم المتنبئون في الجيش في إعطائها غالباً من المال الحسن ساهم في تقوية معنويات المحاربين في الأوقات الصعبة ، وهكذا عندما اغتيل سنحاريب عمده ابنه أسرجدون للتحرك ضد جيش قاتلي الملك وقد كُتبت رساله من الآلهة تؤيد أسرجدون مما ساعد على تقوية قلوب جيشه وزرع الخوف عند قاتلي الملك.

ويروي آشور بانيبال أيضاً طالاً حسناً تلقاه من أحد المتنبئين في زمن قيامه بحمله ضد أخيه المتمرد وهو ملك بابل.

وقد كتب على قاعدة تمثال إله القمر مابلي : (بالنمبية إلى أولئك الذين يتآمرون ضد آشور بانيبال ويوزعون العداوات إنني أدعو عليهم بالموت البقيض ، ومن خلال الخناجر الحديدية اللامعة وبالحرائق الملهبة ومن خلال المجاعة والطلاعون سوف أنهي حياتهم).

وفي مناسبة أخرى واجه الجيش نهراً قد أحدث طوفاناً هائلاً الدّعر، وفي الحال استلم المتبزيون والموظفون الدينيون تواصلاً إليها سبب لهم الطمأنينة.

(رأى الجنود نهر (أديدي) وهو هائج لذلك فقد خافوا العيوز ولكن الإله عشتار التي كانت تعيش في إربيل أرسلت مناماً إلى جنودي في الليل وقد أخبرتهم (إنني وبنفسي سوف أمشي أمام أشور بانهيال ذلك الملك الذي خلقته بيدي) وهكذا فقد تطمعت جنودي من جراء ذلك المنام وعبروا النهر بسلام.)

ويظن أنه كان بين الموظفين الذين مع الجيش من الذين يقومون بطقوس الجنائز بالنسبة للذين ماتوا في الخدمة العملية، مع أنه ليس هناك من شاهد متوفر ومن الممكن أنه كان هناك خطر أو منع الإشارة إلى عدد الأموات الآشوريين في الحرب.

والحقيقة أنه عندما تعلن قائمة الإصابات في نقش رسمي فإن أعداد الموتى المصرح بها تكون صغيرة بشكل لا يُصدق.

مقدمات الرعة العسكرية الآشورية

لم تكن آشور دولة مهتمة للحرب دوماً، ففي بداية الألف الثاني كانت الأهمية العظمى للدولة مؤسسة على الجيش وكانت مدينة آشور مركزاً تجارياً لها مستعمرات تجارية في المناطق الأخرى بعضها يصل إلى أواسط الأناضول، والحقيقة أن العنصر التجاري مع أنه قد طغت عليه النزعة العسكرية لم يخف نهائياً كعنصر مرموق في حياة الآشوريين.

ففي زمن انهيار الإمبراطورية الآشورية وانطوائها في نهاية القرن السابع ق م وقد انتقد هذا أحد أنبياء بني إسرائيل بقوله: (لقد ازداد عدد تجاركم أكثر من عدد النجوم في السماء (ناحوم ١٦: ٢).

ومع ذلك فقد انخفضت أهمية التجارة في القرن السابع في آشور بسبب الحروب، وهكذا كانت الحوليات الآشورية تتكلم في شؤون الحرب ولم تتكلم

في شؤون التجارة ولقد بدأ التغير بعد تسلم الميثانيين على آشور في القرن الخامس عشر.

وقد اضطرَّ الآشوريون أن يحاربوا لاستعادة استقلالهم وبعد استعادة الاستقلال لم يعد لديهم حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها وفي الوقت نفسه يُحافظ على أمن الأراضي المزروعة بالذرة والبلّاء بالمراعي التي شكلت نواة الملاحكة الآشورية، وهكذا ظلوا أنهم قادرون على حماية أنفسهم من خطر تكرار الاحتلال والتهمة السابقة وذلك عن طريق التوسّع إلى المناطق التي من الممكن أن تأتي التهديدات منها.

وهكذا فقد تقلبت آشور على التهديدات الأتية من ميثاني وذلك باحتلال ميثاني نفسها، وما بقي منها.

ولم يكن بعد أن أصبحت ميثاني على الحياد مكان هنالك في طور عابدين جبال في الشمال الغربي وفي الشمال والشمال الشرقي شعب شرس جبلي مستعد دوماً لفزو السهول الآشورية، ولإيقاظهم عند حدّهم اتخذت آشور زمام المبادرة وذلك بالقيام بغارات وحملات خلال الشرائط المعادية للجبال، ولم يكن ذلك لم يكن يضمن سوى سلام هش من الممكن أن يزول بمجرد انسحاب الجيش الآشوري من تلك المنطقة.

وهذا أوجب بذل محاولات تضمن الأمن في تلك المناطق مما يجعلها بلداً عملية تجارياً أو بفرض الإدارة الآشورية المباشرة، ولكن حتى لو أجبرت منطقة معينة على التهادن مع آشور إلا أنه كان وراء ملك المنطقة التهديد القديم للأمن الذي سوف يعود للظهور، الأمر الذي جعل آشور مستترة دوماً طلباً للاستقرار.

ولقد كان هذا العامل في التوسع تعزّزه وتدعمه الاعتبارات الاقتصادية فقد كانت الجبال مصدراً من مصادر الخشب اللازم لبناء المدن الجديدة، ومن الممكن تجهيد المجتمعات القاطنة في وديان الجبال لجلب هذا الخشب، وقد كانت تلك المجموعات من شعوب الوديان تنتج المعادن وتربي الخيول، وكلا هذين الصنفين كانا غنيمة بارزة يتوق الآشوريون للحصول عليها.

وهكذا أصبحت الفوائد الاقتصادية وطلب الأمن عاملين أثرا على نمو حركات التوسع الآشورية بعد القرن الخامس عشر ق.م، ولقد اقترح أنه كان هناك عامل أيديولوجي، فقد كانت إرادة الإله آشور أن يوسع الملك أملاكه، فالأوصاف التي أضيفت إلى اسم آشور ظهر أنها مظهر من هذه المظاهر، فهو الذي يستطيع أن يهزم جميع العصاة، والذي يبعثر الأشرار، وإن الذي يعمل ضده هو الذي لا يحترم كلامه، وإنه الواحد الذي لا يستطيع الشر أن يهرب من ضحكته.

وكل هذه الجمل كانت تأتي في سياق الإساءة إلى الإله آشور إذا عارض ذلك الجبروت العسكري الذي تتمتع به آشور، وهناك أحد الباحثين المتميزين يذهب إلى حد القول عن التوسع الآشوري الإمبراطوري بأنه نوع من اللاهوت الديني الذي يبرز الحرب الحقيقية، وهذا الرأي مؤسس على الادعاء بأن الإله آشور سوف يحكم جميع البشرية.

يظهر أن الأيديولوجية اللاهوتية سوف تحاول أن تضع التوسع الإمبراطوري الآشوري في مستوى أعلى كليا من تلك الفوائد السياسية والاقتصادية المجردة، ولكن لا يمكننا فصل الأيديولوجية عن الاعتبارات العملية فليس هناك من شاهد أنه في بداية الألف الثاني ق.م قد قام الإله آشور بالادعاء بحكمه للعالم بأكمله، إذ إن هذه الفكرة إنما تتبع من فكرة التوسع الآشوري.

ويبدو أن اللاهوت لم يحض على اتباع سياسة توسعية بل لقد حاول أن يعكس ويعطي تمبيراً دينياً لتلك السياسة أثناء تطورها.

وهكذا فإن النظام اللاهوتي بالنسبة للحرب المقدمة لم يكن القوة الدافعة المستقلة بنفسها بل نوع من التفسيرات بمصطلحات الخرافة لما كان يحدث فعلاً تحت دوافع القوى الاقتصادية والسياسية، ولكن وبما أنها قد حدثت فقد خدمت لتدعم وتحافظ على الترخيم الإمبراطوري الآشوري، وهو يمثل ككشي لا يعتبر مجرد جواب بشري على الظروف المبرمة فحسب بل يعتبر نشاطاً قد تقرر على مستوى إلهي.

وغلاقاً ما يشير الملوك الآشوريين لمهنتهم الإلهية، وهكذا نجد أن تفلات
بيلاسر حوالي ١١٠ ق.م يخاطب الآلهة ويتكلم عن نفسه بضمير الغائب ويقول:
(لقد وهبتموه قوته المصيرية لامتلاك السلطة وقررتم أن ذريته العالية المقام
بين الحكمة سوف تظل إلى الأبد وافقة في المعبد)) (أي: المعبد الإلهي القومي
آشور).

وبعد أكثر من أربعمائة عام يدعي أسرجون: ((بأن الآلهة قد فوضتني بالعمل
ضد أي بلاد قد أذنبت ضد الإله آشور)).

وأضاف قائلاً: ((لقد خولني آشور أبو الآلهة إجلالاً سكان وإعادة توطي
سكان آخرين لكي تصبح حدود أراضي آشور أوسع)).

وأما الملك سرجون فيضرب مثلاً في حولياته على الاعتقاد بأن لآشور مهمة
دينية بأن يحكم، وفي معظم الحالات فهو لا يقدم قصة حملاته بالقول والتصريح
عن كل الأمكنة التي ذهب إليها بل كان يفضل أن يعطي تبريراته لهذه الحملة
هكذا:

((في السنة الخامسة بحكمي لقد أذنب (ببسميري) ملك كركميش بحق
عهده للآلهة العظام واستمر في إرسال الرسائل إلى (ميتا) ملك بلاد موسكي التي
تضمير العداء لآشور لذلك رفعت يدي إلى سيدي الإله آشور عندها وقع ببسميري هو
وعائلته أسرى بين يدي)).

أو مرة ثانية نراه يتكلم عن الإجراء الذي اتخذته ضد الكلداني (أبال -
إيدينا) وهو الملك المنقصب للسلطة في بابل وهو يظهر أن عمله كان متناسقاً مع
إرادة الآلهة وهو يقول:

((ولادة اثني عشر عاماً لقد مارس الحكم والسيطرة على بابل مدينة الإله
وذلك بمكس إرادة الآلهة، هذا وإن مردوخ السيد الأعظم الذي فكره الأعمال
الشريرة لهذا الكلداني... وقضى أن ينزع منه صولجانه الملكي وعرشه، كل ذلك
كان مرسوماً بين شفتيه، ولقد ناداني أنا سرجون الملك المتواضع ورفض رأسي

عالياً، ولكي يبعد الكلداني وهو العدو اللدود والشرير فقد عظم شأن
اسلحتي)).

الحرب النفسية

وبالانسجام مع إحساس الآشوريين بمهمتهم الإلهية فقد عمد هؤلاء إلى فرض
التوعي بهذه المهمة على الشعوب الأخرى ولكي يحافظوا على الاستقرار عبر منطقة
الشرق الأدنى ذلك الاستقرار المؤسس على أحقية السلطة الآشورية ، فقد كان من
الضروري إقناع الشعوب الأخرى بأنه من العبث مقاومة آشور.

وكان من الواجب القيام بهذا عن طريق إظهار القوة الشاملة لأشور من جهة
ومن جهة أخرى عن طريق الدعاية، ولم تكن هاتان الوسيلتان منفصلتين أو غير
متصلتين، هذا وإن إظهار قوة آشور بما فيه مماقية أولئك الذين أذنبوا بالنسبة إلى
آشور وأهانوها، لم تكن موجهة ضد أولئك الذين عانوا بشكل مباشر فحسب بل
أيضاً ضد الذين سمعوا بتلك الإهانات عن بُعد.

وهناك مراجع متكررة في الحوليات الآشورية تشير إلى الملك الذي صبَّ جام
غضبه على الأعداء ما يمكن أن نترجمه بأنه سوف يسبب الخوف الرهيب، ولقد
استعملت عدة كلمات أكادية للدلالة على هذا ولكنها جميعاً تمتلك نوعاً من
الفارق الدقيق فهي تشير إلى نوع من الفرع المملوء بالخوف الذي يأتي من مقابلة
شيء على المستوى الإلهي.

وهكذا فإن الملك الآشوري عند تنفيذ بعض الأعمال التي تشمل أحياناً
الأعمال الفظيعة الشنيعة التي توقع الذعر في الأعداء هذا الملك كان يفكر
بنفسه أنه كان يدخل مخافة الله في أولئك الذين من الممكن أن يفكروا
بمعارضة آشور، وهذا يمثل استعمال الآشوريين بشكل واع للإرهاب ليس لأسباب
سارية بل لأجل الحرب النفسية.

وهنا يشير سنحاريب فعلاً إلى الحقيقة التي مفادها أنه قد أزعج نفسه بإجراء
تظاهرة تحديدية ضد عيلام، ولكن الموت المفاجئ للملك عيلام بعد أقل من ثلاثة

أشهر قد نُصِبَ على العرش أخاه الأصغر الذي لم يكن يملك من الذكاء والفطنة ليستنتج الاستنتاج المناسب ويستخلص العبرة المناسبة فيما يتعلق بمطمة آشور، ومن وجهة نظر سنحاريب فإنه من غير المناسب وليس من المتوقع أن تتدخل عيلام في شؤون بابل (وهي التي تدخل تحت النفوذ الآشوري) وذلك بعد إظهار آشور لقوتها.

ولقد تأكد من موقف سنحاريب لتلك الحقيقة التي مفادها أن اختار الملك الميلاسي الشاب إلى الذكاء والفطنة أشير إليه ثلاث مرات من خلال عدد من النصوص.

تظهر نتائج السياسة الآشورية الطبيعية المنتظرة في تلك الحادثة التي عمد فيها الملك آشور باتييال إلى تخريب منطقة من الأراضي المنيية (في شمال غربي إيران) ومصب جام غضبه عليها، ونتيجة لذلك فقد اغتيل الحاكم المناوئ لأشور على أيدي رعيته واستلم المحكم الوسين ابنه الموالي لأشور.

ويذكر الملك سرجون بصراحة أن انتصاراته كان لها مظهر من مظاهر الدعاية.

وبعد هزمه لقوى مملكة (أوراتو) وحلفائها بعد حملته الرئيسية عام (٧١٤ ق.م) يقول: (إن بقية الناس الذين فروا حفاظاً على حياتهم، قد أطلقت سراحهم ولكي يمجّدوا النصر الذي أحرزته سيدي الإله آشور.

ولقد مات بعض هؤلاء التسماء المباحين نتيجة لتصرفاتهم في الجبال ولكن ناضل الآخرون للرجوع إلى بيوتهم حيث إن روايتهم المزعجة حول القوة التدميرية الضارية لأشور وللجيش الآشوري أصابت المستمعين بالهكم.

ويقول سرجون: (لقد كان قوادهم من الرجال الذين كانوا يفهمون معاني الممارك والذين هربوا أمام أسلحتي وصلوا إليهم وهم مضمعون بسُم الموت ورووا لهم عن عظمة آشور بحيث إنهم أصبحوا وكنانهم رجال موتى).

ومن الممكن رؤية نفس مبدأ الحرب النفسية الذي قُصد به تخفيف الحاجة إلى العمل الفعلي من الممكن رؤيتها في التوراة عند حصار اورشليم، فقد أمر

القائد الآشوري على الإعلان باللفة العبرية وذلك ليفهمه كل الناس وكل المواطنين ويمد ذلك أكد بهذه المناسبة أن ليس هناك من بلد قادر على مقاومة قوة آشور بنجاح.

وقد قال: (هل استطاع أحد الآلهة عند الأمم أن يخلص بلاده من سطوة ملك آشور؟)

لقد أظهر المظهر النفسي للحروب الآشورية عن طريق الأسلوب الذي استعمل في تصوير النقوش النافرة لمشاهد الحروب، ففي قصر آشور ناصر بمل في كالاخ كانت مشاهد الحرب هي السائدة والنقوش النافرة ولكن في القاعة التي كانت تستخدم كمعرفة اجتماع المستمعين فقط.

وإنه لاستنتاج معقول أن نذكر أن سيادة المشاهد الحربية إنما كانت للتأثير على رؤية ووعي الزوار من الحكام والسفراء لمظلة آشور وقوتها العسكرية، أما في السرف الأخرى في القصر فقد كانت مخصصة للموضوعات الدينية أو الاحتفالية.

وقد كان بعض الفطاعات التي اقترفتها الآشوريون مظهراً من مظاهر الدعاية، فلم تكن مجرد أعمال عقاب ولا مجرد سيادة، إذ هناك مثال مناسب لهذه الفكرة ما وقع لسرجون الثاني ففي الجانب الآخر من جبال زاغروس على السفح المقابل لآشور في شمال غرب إيران وإلى الجنوب من بحيرة أورما كان هناك شعب (المانيان) الذين كانوا في وضع غير مريح لوقوعهم في منطقة عازلة ما بين دولة آشور ومناقصتها الشمالية الرئيسية وهي مملكة أورارتو في أرمينيا.

وفي عام (٧١٦ ق.م) كان ملك المانيان موالياً لآشور، ومع ذلك فقد أقتنع ملك أورارتو اثنين من الحكام المانيين بأن يقوموا بالمصيان ضد الملك الموالي لآشور ثم قتلاه، وعندها بدأ سرجون بالعمل وهو يقول:

((لقد رهمت يدي لآشور ورجوته أن ينتقم من المانيين ويرجع أراضيهم إلى حدود بلاد آشور، ولهذا فقد استجاب لي الإله وأمسك بأحد الحكام المتمردين وسلخ جلده، ثم عرضه أمام المانيين)).

ولم يكن هذا مجرد عقاب وحشي، فقد كانت الدعاية تقتضي تأكيد حماية الأنشطة الموجهة ضد الحكم الآشوري والتمرد ضد الملك الموالي للآشوريين بشكل لا مجال للشك فيه، ولذا فهم بعض المانيين هذا الدرس.

هذا وقد افتتح (أولوسونو) شقيق الملك المقتول ووريثه الذي كان قد عقد تحالفاً مع مملكة أورارتو بمد أن لمس الحملة التي اقترحتها.

ونرى سرجون يقول: ((لقد تجمع أولوسونو الماني مع جميع رجال بلاده معاً وأمسك بقدمي لذلك فقد أشقت عليه وقد غمرت لأولوسونو ذنبه وأرجمته إلى عرشه واستلمت الجزية منه)).

ومن الواضح أن سرجون لم يكن مهتماً بإزالة عقوبة ضد أي شخص قد عارض آشور في أي وقت من الأوقات، فالجيش الآشوري كان أداة من أدوات الدولة وكانت القضية توجب الرضا إذا تم إرجاع أي حاكم معام إلى الحضيرة، وأن يصبح تابلاً وموالياً بمجرد إظهار القوة.

وحيث كان المارضون المهزومون يتمرضون للمعاملة القاسية كما كان الحال بالنسبة للحاكم المتمرد المذكور أعلاه، لم يكن هذا قضية تعذيب انتقامي بل كان موجهاً لإقامة مثال وإعطاء إنذار بإظهار ما حدث لأولئك الذين قاوموا آشور مقاومة نشطة.

وهناك مثال مناسب لشرح هذا المبدأ يقدمه لنا تصريح لأشور بانبيال، فهو يذكر في إحدى رسائله بمناسبة عصيان بابل أن جد سنحاريب قد قدم وزنة من الفضة مكافأة على قتل الزعيم المتمرد، وقد قال إنه نفسه كان سيعطي هذا المال ذهباً مكافأة لجلب أي زعيم متمرد ضده سواء كان حياً أو ميتاً، وإن الحقيقة التي مفادها أن العرض كان مجرد تسليم المتآمر ولو كان ميتاً، إنما يُظهر بوضوح أن غرض الملك هو إعلان مصير أي شخص متمرد وليس الابتهاج المساري بإيقاع التعذيب على المتمرد، هذا هو غرض الملك.

الجيش أثناء الحملات العسكرية

وطبقاً لما ذكره الملك سرجون فقد كان هناك موسم للحملات العسكرية وهو يصف هذا الموسم بكونه شهر الإله الأعظم والأقوى (نينورتا) ابن الإله أنليل أقوى الآلهة الذي سجله رب الحكمة (نينشيكو) في أحد الألواح أنه هو المسؤول عن جميع الجيوش والمسيكرات بكاملها والشهر المشار إليه هو شهر تموز، وهذا أظهر حسن التدبير لدى رب الحكمة نظراً لأن الحملة سوف تتوجه إلى الجبال حيث ترتفع درجة الحرارة في سهول منطقة ما بين النهرين إلى درجة 120 فهرنهايت، وقد كانت هذه الفترة مناسبة لجميع الجيوش والإمدادات الوصلية لأن عمليات الحصاد تكون قد انتهت في نهاية شهر أيار أو بداية حزيران مما يقدم فرصة مناسبة للإسهام في الخدمة العسكرية من قبل الفلاحين.

ولقد كان تشكيل موسم للحملات عملاً من ابتداء الملك سرجون ولكنه لم يحافظ على مواعيده بانتظام نظراً لأن إحدى حملاته قد بدأت في شهر أيار مع أن ذلك قد حصل بشكل إجباري نظراً لحصول عصيان كان لابد من معالجته، ولكن وبالتأكيد وفي خلال القرن التاسع قم نجد أن الحملات كانت تبدأ في أي شهر من أشهر نيسان أو أيار أو حزيران أو تشرين الأول أو تشرين الثاني مع أن الملك الحاربي آشور ناصر بمل العظيم كان يفضل شهر أيار أو حزيران وكانت الحملات في فصل الشتاء غير مرغوب فيها وغير عادية.

وإن أحد العوامل المسببة لهذا المنع هو أن الأنشطة الزراعية في آشور كانت تبدأ في شهر تشرين الأول وتشرين الثاني بحيث كانت تحدث مشكلات خطيرة إذا كانت جموع المقاتلين بالخدمة العسكرية من الفلاحين وكانت لا تزال تخدم في الجيش في ذلك الوقت.

أما العمليات العسكرية التي كان من الممكن للجيش النظامي القيام بها لوجوده فلم تتأثر بوجود هذا الاعتبار، ولكن العامل الثاني كان الطقس الذي كان يتحكم في العمليات العسكرية في الجبال في فصل الشتاء.

ومع ذلك فإننا نسمع من النقوش الملكية التي تتحدث عن الحملات أن هذه كانت مستمرة في شهر كانون الثاني وشباط، مع أن تلك التعليقات التي تتحدث عن الطقس المعاكس كانت تذكر أن هذه التواريخ تعتبر من الأمور الشاذة.

القواعد العسكرية والتحضيرات اللوجستية

يحتاج الجيش المربط إلى قواعد دائمة، التي كانت تؤمن في العواصم المتتالية والتي نسمع عن وجود مجمع يدعى (إيكاكال مشارتي) وهو يعني حرفياً قصر المكان الذي يتجمع فيه الجيش (أي: الثكنات).

وكانت هذه الثكنات عبارة عن أبنية ذات بأحات واسعة تستخدم لعدة أغراض، ولكن مع تزايد واجبات الدولة العسكرية أصبحت هذه الثكنات صغيرة فلا تستطيع تلبية الأغراض المنوطة بها.

وقد تحدث عدة ملوك بصراحة عن هذا الأمر إذ يخبرنا أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩) أن (الإيكاكال مشارتي) في نينوى الذي أقامه الملوك الذين سبقوني وهم أجدادي وذلك لاستقبال ترتيبات المعسكر وللغاية بالخيول والبغال والعربات ومعدات القتال والفنائم التي تُستخلص من العدو...

ذلك المكان قد أصبح صغيراً جداً فلا يتسع لتدريب الخيول وتمارين العربات. وتشير بعض النصوص الأخرى أن الأسلحة والتمرينات العسكرية كانت تخزن في (الإيكاكال مشارتي) بحيث أصبحت هذه تولى ترسانة أكثر من كونها ثكنة، وكان فيها هيئة من الكتبة وهم يولفون دائرة قسم الأدوات.

كانت الثكنات الدائمة في العاصمة تؤدي أعمالاً أخرى عدا خدمتها كمساعدة للعمليات العسكرية، إذ إن وجود قوات ضاربة مستعدة لتقوية الملك ضد التهديدات أو العصيان ماعداً في حالة حدوث انقلاب يُعده قائد الجيش بذاته.

وربما كان هناك علاقة مباشرة بين الحقائق التي مفادها أن الملك شلمناسر الثالث هو الذي أسس (الإيكاكال مشارتي) في كالاخ وأنه في حوالي نهاية حكمه

حدث عصيان كبير اشتركت فيه كل المدن الرئيسية ما عدا كالاخ، إلا أنه وبقاء كالاخ تحت سيطرته الناعمة فقد انتصر هو ووريثه الشرعي.

لم تكن المواسم المتعاقبة على طول نهر دجلة هي التي خدمت كقواعد للعمليات العسكرية إذ إننا نسمع مثلاً عن وجود جيوش آشورية عاملة ابتداء من (أربيل) إلى مدينة تدعى : (كالبزي) إلى الجنوب الغربي من أربيل وعلى بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الشرق من كالاخ.

ولقد بنيت قواعد في الأراضي المستولى عليها خارج آشور وكانت غالباً عبارة عن معازل قديمة للسكان الوطنيين وقد حطمت هذه المعازل واستخدمت لهذا الهدف، ولكن أطلق عليها أسماء آشورية مثلاً في سجل حملاته ضد أورثوا عام (٧١٤) يتحدث عن وجود قلعة حصينة استولى عليها في شمال غرب إيران ذات موقع استراتيجي بحيث تشرف على مقاطعتين وهو يقول:

(لقد عملت على تقوية ودعم هذه التحصينات في ذلك المعقل وجلبت لها الذرة والزيت والمعدات الحربية).

وعندما يبدأ الجيش بالزحف خارج قواعده وفي داخل الأراضي الآشورية عندها تصبح مسؤولية الحاكم تأمين المؤن المتوفرة وبالتالي فهي أراضي الممالك التابعة فإن هذا العمل يصبح واجب الحاكم المحلي.

وعند العمل خارج الأرض التابعة للدولة الآشورية فإن الجيش مسؤول عن تغذية نفسه من المؤن التي أخذت ككنائهم، وربما كان هذا الاعتبار هو الذي أملى عليهم اختيار الطريق داخل أراضي العدو دون الحصول على المواد الغذائية، وكانت الذرة والتبن تحمل من قبل الجيش وكانت متوفرة ككوجيات للجنود والخيول.

وكانت إحدى الفوائد السريعة للاستيلاء على إحدى المدن هو فتح باب أهراء الحبوب بحيث يستطيع الجنود أن يأكلوا حتى الشبع دون تحديد للوجبات، وكان هناك مشكلة المياه التي كانت تظهر في المناطق المأهولة بالسكان فإذا نفذت المياه كما كان يحصل في مناطق كثيرة من الشرق الأدنى فإن هذا كان

يؤثر على انضباط الجيش، وينسكب سرجون حالة قريبة من التمرد بسبب الإرهاق
وهلة المياه

ولقد صادف أسرحيون مشكلات بالنسبة للمياه أثناء غزو مصر ولم يستطع
أن يسير بجيشه بأمان خلال صحراء سيناء إلا بعد أن عمدت بعض القبائل المربية
إلى نجيته وذلك بجلب الماء للمساكنة في قريّة موضوعة على الجمال.

الجيش أثناء تنقله

عندما كانت تقتضي الضرورة كان باستطاعة الآشوريين أن يقدموا إلى
الميدان القتال عدداً من الجنود يزيد على مائة ألف جندي، ويذكر سلعناصر
الثالث أنه قد عبر الفرات باتجاه الغرب وهو يقود جيشاً تعداد ١٢٠٠٠٠ جندي،
عام ٨٤٥ ق.م وهناك إشارات أخرى تتفق مع هذا الرقم، ومن وجهة عديدة كان
الجزء الأعظم من الجيش الآشوري العظيم يتألف من مجموعات جمعت بمعرفة
الحكام المحليين.

ونجد ذكراً لعدد من المساكن جميعها تحت قيادة أحد الحكام تقدر
بـ (١٥٠٠) جندي من الفرسان و (٢٠٠٠) من الرماة، ولما كان هناك حوالي
عشرين ولاية يستطيع هؤلاء جمع مئات الألوف من الجنود فإن هذا الرقم يصبح
صحيحاً وممكناً.

وهذا يتفق مع الإصابات التي تلحق بالمدى في معركة واحدة، مثلاً المعركة
التي خاضها سنحاريب في عيلام في هالولي عام ٦٩١ ق.م وقد ادعى سنحاريب أن
خسائر الميلايين كانت ١٥٠٠٠٠ قتيل ومن الممكن أن يكون هذا مبالغاً يقصد
بها الدعاية، ولكن إذا كنا سوف نصلّق فإن العدد المذكور لا يمكن أن يزيد
عن الحجم الممكن للجيش الميلاي مع وجود أعداد مقابلة يمكن مقارنتها مع
الجيش الآخر وهو الجيش الآشوري.

وكانت المذبحة التي تلت عندما التقى الجيوش فالمركبة قد ظهرت في مناظر على ألواح النقوش النافرة مثلاً اللوحة التي تظهر أحد الطيور الكاسرة وهو يحمل أحشاء جندي مقتول.

ليس هناك سبب يجعلنا نفكر أن جميع الجيش الضارب في آشور كان يستدعى للخدمة كل عام، فقد كانت بعض الحملات (التي ربما كانت تتم خلال شهر) تجري باستخدام قوى أقل عدداً أو ربما باستخدام الجيش المرابط فقط بخاصة عندما تحدث الحملة خلال الفصول الزراعية.

ويخبرنا أمجدون أنه وأثناء الجزء الأخير من حملته ضد أورارتو عام ٧١٤ ق م فقد أعاد معظم جيشه إلى آشور وقام بنضمه بمتابعة عمله فوق جبال صعبة التضاريس ولم يكن معه سوى عربة حربية والى من الجنود الخيالة.

كان ترتيب الزحف يعتمد على اعتبارات تكتيكية مثلاً الخوف من وجود كمين أو الحاجة إلى السرعة، ولقد سُجلت أخبار عدة حملات يقول فيها الملك بصراحة إنه تحرك دون إجراء احتياطات عادية، ودون استمراض الجيش أو دون تجهيز فرق النقل التي كانت تؤلف مؤخرة الجيش، وفي زمن سرجون الثاني كان الترتيب العادي للمسيرة عند عدم وجود أي اعتبارات أخرى كما يلي:

أولاً: سارت أعلام الآلهة بمرافقة موظفين دينيين وبعدها يأتي الملك راكباً عربة يصاحبه سائقو العربات والفرسان والذين يصنفهم بأنهم الفرق الحربية التي تسير على الجانبين (الحقيقة أن سرجون مات في إحدى المعارك).

وتفيد الدلائل أن هؤلاء الفرسان كانوا تحت إمرة الملك مباشرة وكانوا يؤلفون الحرس الخاص للملك، ورأس الرمح للهجوم ويأتي خلف هؤلاء القسم الرئيسي من الجيش الآشوري، وأخيراً تأتي فرق النقل التي تؤلف المؤخرة.

وتسمح لنا التفاصيل التي نحصل عليها من تحركات وحدات الجيش العسكرية أن نحسب أن الجيش كان يتقدم مسافة ثلاثين ميلاً يومياً وكان هذا سهلاً جداً بالنسبة للخيالة عدا عند مصداقتهم ندائهم أرضية صعبة ولكن هذه المسيرة كانت صعبة بالنسبة للمشاة.

وعندما يدخل الجيش ميدان المعركة كانت الوحدات التنظيمية التي تألف نواة الجيوش الآشورية تظل في حالة تأهب واستتعار دائمة للدخول في المعركة، وهذا واضح مما قاله أسرحدون حول الحوادث في الزمن الذي اغتيل فيه والده سنحاريب عام ٩٨١ ق. م.

وسكان أسرحدون عندما يفقد جيشاً متجهاً نحو الغرب ويخبرنا أنه عندما سمع الخبر وبعد أن تلقى نبوءة مشجعة من الآلهة...

((لم أتأخر يوماً واحداً، ولم أنتظر حتى اكتمال تعبئة جيشي، ولم أهتم بوحدات المؤخرة، ولم أهتم باستلام الخيول والمعدات وتجهيزات القتال، ولم أكون الملون اللازمة على الطريق، ولم أخش من الصقيع ولا الثلج الذي يسقط في شهر شباط ولا صمويلت الشتاء)).

وعلى العكس فقد بدأ بالحركة حالاً لملاحقة قتل الملك وقد كان هذا ممكناً لو كان لديه بعض وحدات جيشه وحدات قتالية في حالة استعداد لدخول القتال فوراً.

لم تكن حملات الآشوريين كلها حملات قتال، فلقد حصل بعض الآشوريين خصوصاً بعض الملوك على متعة كبيرة عند اشتراكهم في مثل هذه الحملات العسكرية خصوصاً عند ارتقائهم التلال والجيال تلك الأعمال المنفصلة عن الاشتراك في المعارك، فالجيال إلى الشرق وإلى الشمال من آشور تتميز بمناظر خلابة وفي الصيف يكون الطقس مبهجاً جداً.

وقد سجل بعض الملوك انطباعاتهم أثناء ذلك فقد ذهل سرجون عند رؤيته مناظر جبال زغروس ولقد اغتبطنا بتلقيقاته الشعرية حول هذه ولكن ابن سرجون وهو سنحاريب كان أقل شاعرية ولسكنه سكان يشمر بالبهجة عندما ذهب لتساق الجبال.

وهنا نقتبس قطعة نثرية كتبها عند صعوده أحد الجبال لطاردة بعض رجال الجبال المعادين له:

((لقد قُدت المجموعة مثل ثور وحشي هائج، ومعي حراسي الخاص المُتقنون، وعساكر الجيش الذين لا يرحمون عند المعركة، ولقد قطعت الوديان والسهول والوهاد والمنحدرات الخطرة وأنا محمول في محفّتين ولكن انطلقت ومشييت على قدمي لتأبئة الطاردة حتى القمم العالية وكنت مثل الفزال، وعندما ثُمّنت ركبتي جلمت على صخرة في الجبل، وعَبَّيتُ الماء البارد من قريتي لكي أطفئ ظمئي)).

المواصلات

كانت سرعة الحركة طبعاً عنصراً هاماً في الحروب الناجحة وإن كثيراً من مناطق الشرق الأوسط خارج منطقة ما بين النهرين كثيرة العقبات التي تعيق التقدم، مثلاً الجبال الوعرة، الأراضي الصخرية أو الصحراء الواسعة، بينما هناك في السهول يجري نهر الفرات ودجلة وروافدهما المتعددة، وهي عقبات تؤخر تحركات الجيش.

وكان لدى الجيش الآشوري مواصلات بالمریات ذات المجالات ولهم بالمریات فحسب بل أيضاً في مركبات تجرها أحياناً البغال وأحياناً الثيران وحتى الجنود، وكانت هذه تستعمل لنقل الملأ والتجهيزات ولقد ذكرنا سابقاً استعمال المهندسين المسكرين لشق الطرق حيث تعطّل التضاريس الطبيعية تقدّم المريات والمركبات، وفي بعض الأمكنة حتى هذه الاحتياطات لم تكن عملية.

ولكن هذا لم يكن ليوقف تقدّم الآشوريين، فقد كان الجيش يترك المريات ذات الدواليب خلفه لكي تجمع ههنا بعد، أو عندما يعلمون أن الطريق سوف يتعصّن فقد كان الجنود يذهبون المريات والمركبات بالأيدي وبذلك يتقلّبون على الصعوبات.

من الممكن أن تعيق الأنهار حركات الجيش الآشوري، لكن الجيش لم يتوقف، وحيث يكون خوض النهر غير عملي وخير ممكن فقد كان الجيش

يستعمل القوارب والأطواف المتوفرة وهي التي كانت تجلب مع الجيش لهذا الغرض.

ويذكر آشور ناصر بعل عن بناء القوارب في إحدى المدن (التي كانت دون شك تحتوي على المواد المناسبة والمعدات المناسبة) حالما يقترّب من الفرات، وفيما يلي بضعة أسطر ذكرها لوصف الحوادث:

((إنه وبواسطة القوارب التي صنعتها وهي القوارب المصنوعة من الجلود، والتي حملتها معي على طول الطريق فقد عبرت نهر الفرات عند مدينة خريدي)).

وإن القوارب المصنوعة من الجلود تشبه الأطواف التي نسميها: الكيليك، ولم تمكن هذه بدعة بالنسبة لآشور ناصر بعل نظراً لأنه في نحو (١١٠٠ ق. م) قد استعمل قذلات بلاسر الأول نفس الوسائل للوصول إلى الآراميين المزعجين الذين تواجدوا عند الجانب البعيد من نهر الفرات.

وفي أوائل القرن السابع قبل الميلاد صنع الملك سنحاريب طريقة طموحة لاستعمال القوارب وكان هذا أشاء حربه مع عيلام (جنوب غرب إيران) لقد كان هذا مشمولاً في مجرى حروبه مع عيلام، وإذا قبلنا الفكرة التي مفادها أن صانعي القوارب النهرية من الآشوريين كانوا غير أكفاء، لذلك فقد جلب بناء للسفن من السوريين لكي يبنوا له السفن في نينوى، وهو يقول:

((إنهم سوف يستعملون أساليب صنع السفن في بلادهم)) وهو يعني: طراز السفن في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ويمد ذلك فقد أبحرت تلك القوارب بواسطة البحارة المتفوقين إلى أسفل منطقة نهر دجلة (إلى حيث تقع بغداد الآن) ومن هناك (نظراً لأن الجزء السفلي من دجلة غير قابل للملاحة) فقد نقلت القوارب بطريقة العمل اليدوي إلى نهر الفرات وهكذا حتى الخليج الفارسي حيث استعملت لتقل الجنود والخيول استعداداً للهجوم البحري.

لم يصاحب الملك جيشه دوماً في حملاته بل كان دوماً على علم بما يجري من العمليات، ونحن نعلم ذلك من المراسلات المتعددة التي كانت تجري والتقارير كان الضباط في ميدان المعركة يرسلونها إلى الملك بملامحه بالنشاطات التي كان الجيش يقوم بها بشكل، أو أخبار الوحدات العسكرية المختلفة.

وكان الملك بدوره يرسل التعليمات إلى القواد العسكريين تشمل في بعض الحالات تعليماته حول المفاوضات مع العول الأجنبية في المنطقة، وقد أصبح هذا الاتصال الجيد بين العاصمة والجنود الذين فيما وراء الحدود الآشورية ممكناً وذلك بسبب وجود نظام المواصلات الفعال.

وقد اشتمل نظام المواصلات الآشوري على نظام مخابرات عسكري، وقد أنشأ المعلومات المستفيضة حول هذا النظام من الحدود الشمالية الشرقية حيث كانت آشور تواجه مملكة (أورارتو) في أرمينيا.

ولقد زوّدت الرسائل المرسلة من الضباط الآشوريين في الجبهة بكثير من المعلومات حول استخدام الجواسيس للحصول على المعلومات حول مراكز الأورارتية ونواياهم.

ومكّذا نجد أن بعض الضباط يرسلون تقارير إلى الملك حول حركات الجنود الأورارتيين مع إيراد التفاصيل عن الإعداد والطرق والوجهات المقصودة.

ونجد في إحدى هذه الرسائل أن خمسة حكام أورارتيين ذكرت أسماءهم قد جمعوا عساكرهم في مدينة ممّنة وكان من الواضح أنهم يستعدون للقيام بحملة.

وبعدها هناك إضافة لهذه الرسالة: ((ويخصوص الأمر الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة حوله يقول: ((أرسل رجال دابالو)) ولقد أرسلت رجلين، وقد رجع بعضهم وقدم لي هذه المعلومات والبعض لم يرجع بعد من أراضي العدو)).

إن هذا السياق لا يدع مجالاً للشك أن رجال دابالو كانوا كشافين أرسلوا للحصول على المعلومات، وللحصول على مثل هذه المعلومات كأسماء الحكام في أراضي العدو فإن هؤلاء العملاء ينبغي أن يكونوا قد أجروا اتصالات مع جماعات

من أهالي البلد ودخل أراضي العدو إما بالحصول على الأسرى واستجوابهم، أو عن طريق الدفع للجواسيس تلك الأمور المعروفة للجميع.

لدينا رسالة تذكر كيفية الحصول على أسرى من العدو لاستجوابهم عن أوضاع الأعداء، مع أنه وفي هذه الحالة كان بعض المتمردين البابليين يحاولون عمل ذلك لاكتشاف تمرکز الجنود الآشوريين أثناء الاستجوابات الآشورية لضباط الوحدة المتمردة، واكتشفت أهدافهم وتحولت الأمور ونحن نعلم شكل هذه المعلومات من تقرير الضباط الآشوري إلى آشور بانيبال.

تشير التقارير التي أرسلت إلى الملك الآشوري أن المخابرات العسكرية لم تكن مهتمة بتحركات عساكر العدو وأحوالهم فحسب، بل بالقضية التي تؤثر على معنويات العدو، وهذا ■ علاقة ببعض التفاصيل للرواية التوراتية حول حصار اورشليم تحت قيادة منهاريب.

وبهذه المناسبة فإن التوراة تصف كيف أن القائد الآشوري (ريشافي) قد قام بهجوم للتأثير على معنويات المدافعين، وأن إحدى الخزائن العديدة لمحاولاته كانت تحديده لاعتمادهم على مساعدة إلههم يَهُوָه.

وكانت محاولاته التي تتحدى وتهدم ثقتهم أن يَهُوָه نفسه الذي نال حزقيا مقامه العالي ومُذَبَّحُه قاتلاً لليهود ولأورشليم:

((إنكم سوف تميدون أمام هذا المذبح في أورشليم)) (٢ ملوك ١٨ : ٥٢).

وهذا كان إشارة إلى بعض الإصلاحات التي قام بها الملك حزقيا بقصد إلغاء أماكن العبادة المحلية القديمة من جميع أنحاء فلسطين وتركيز العبادة في اورشليم.

ولقد ناقش بعض الباحثين في علوم التوراة قائلين: إن القائد الآشوري لم يقل ذلك لأنه لم يمكن يعرف شيئاً عن هذه الإصلاحات إذا كان هناك حقاً إصلاحات، ولكن لم لا وبالتأكيد على الأقل أن جزءاً من خطبة (ريشافي) ينبغي أن يكون قد أتى بشكل أو بآخر من شخص ما قد سمعها.

ولقد تحقق هذا دون أي مجال للشك عن طريق إجراء مقارنة مع رسالة بالخط المسماري مكتوبة إلى أحد ملوك آشور من قِبَل أحد القواد الذي كان يحاصر بابل قبل ثلاثة عقود من حصار اورشليم.

ويخبر هذا القائد في بابل الملك أنه خاطب السكان وحثهم على الاستسلام تماماً كما فعل (ريشافي) فيما بعد في اورشليم.

إن السجل التوراتي من الواجب أن يكون تمثيلاً حقيقياً لنوع الاقتراب الذي قام به القواد الآشوريون في هذا الوقت، ولم يكن بإمكان أي كاتب عبري أن يخترع حجباً وهمية قريبة من تلك الحجج التي أطلقها القائد القديم خارج بابل.

وإذا كان قد تأكد جزء من خطبة (ريشافي) فليس هناك من سبب معقول أن نشك في مصداقية ذلك الجزء المتعلق بإصلاحات حزقيال، أو ربما سكان هناك كثير من عدم الرضا والسخط في يهوذا بسبب إلغاء الأشكال المحلية من العبادة للإله يهوه التي كانت تتمتع بالقدم والقداسة التي اكتسبوها من مخالطتهم للمماركة وللنبي صموئيل، ولا شك أن (ريشافي) الآشوري قد جعل كل هذه المعلومات حول السخط الديني المنتشر واستعاد منه بذكاء.

هذه الحادثة التوراتية تجلب لنا ظاهرة أخرى من مظاهر المخابرات العسكرية الآشورية فقد كانت الجيوش الآشورية تحتوي أشخاصاً يتكلمون اللغة العبرية بطلاقة، مما سبب الذعر لدى السلطات في اورشليم.

وكذلك فإن الحقيقة التي مفادها أن القواد الآشوريين لم يكن لديهم أي مشكلة بالنسبة للتواصل مع الأوراثيين أو الأسرى الآخرين، كل هذا يدل أن الجنرال الآشوري كان يقفني في هيئة موظفيه مترجمين مناسبين في منطقة عملياته، فقد كان بلاط ملك آشور يحتوي على كثير من المترجمين الذين يتقنون عدداً من اللغات وذلك كما يدل النص الذي اهتمننا به.

التكتيك العسكري

لقد استطاعت الجيوش الآشورية أن تدخل التتويج في تكتيكها طبقاً للمناسبات فقد كانوا يشتركون في حرب المصابات في الجبال، وفي معارك نظامية في الأراضي المفتوحة، وفي حصار أي مدينة.

ولدينا روايات آشورية عن كل هذه الأنواع من القتال، وكان أكثرها دعوية تلك المعارك النظامية بين جيشين في ميدان مفتوح.

ويصف سنحاريب إحدى هذه المعارك عندما صدّ جيشه الجيش الميلاي الفارزي عن نهر دجلة عام (٦٩١ ق. م).

((لقد أتوا وكانهم أمشاط الجراد في الربيع، وكانوا يرغبون أن أشترك في معركة معهم، وقد كان الفيل الذي يخرج من تحت أقدامهم ينطلي وجه السماء وكانه العاصفة القادمة في طقس بارئ قاسٍ

وقد رثبوا أنفسهم في نظام المعركة ضدي في (حالومي) على ضفة نهر دجلة، وقد قطعوا طريقي مياه الشرب واستمدوا للمعركة.

(ولقد صلى سنحاريب إلى الآلهة لكسب المعركة ولهم دزعه، وركب عربته الحربية وبادر إلى العمل).

ويأمر من آشور الإله السيد الأعظم اندفعت على العدو وكان عاصفة، ولقد هزمتهم وأرجعتهم الفهقرى، ولقد أثقلت جنود العدو بالرماح والسهم.

ولقد قطعت حناجر جيش هومان - أنداشا القائد الأعلى لجهوش ملك عيلام بالإضافة إلى نبلاته وبدأت خيولي المتعانة على القتال تنفخ في دمانهم المتفجرة وكانها تخوض في نهر، وقد امتلأت دواليب عربتي الحربية بالدم والقاذورات.

وقد ملأت المنهل بجثثهم وجثث محاربيهم كما يمثل بالأعشاب، وكان هناك عربات مع خيولهم قد دُبح ركابها حالاً وصلوا إلى ميدان القتال، وهكذا تحررت الخيول، وبدأت الخيول بالرجوع والتحرك في جميع الجهات إلى مسافات تبلغ ساعتين مزدوجتين (حتى عشرة أميال).

وبالنسبة لشيوخ الكلدانيين لقد ساد الذعر من هجومي عليهم وسكّاني
شيطان، ولهذا فقد هجروا خيلهم وهربوا حفاظاً على حياتهم، وداسوا على جثث
جنودهم وهم يهربون وفي لحظة ذعرهم من شدة خوفهم راحوا يبولون ويتغوطون في
عرياتهم)).

ولقد ادعى سنحاريب أن انهزام الأعداء كان كاملاً بحيث خسروا 150000
رجل، وإذا اعتبرنا أن هذا العدد فيه مبالغة كبيرة وقسمنا العدد على عشرة فإن
الخسائر تظل جسيمة بالنسبة للمركة دامت بضع ساعات.

كانت المركة التي ذكرها سنحاريب قد اشترك فيها راكبو العربات
والمشاة بشكل كثيف وبمجل والبدن سرجون مركة كسبها من طريق
الفرسان، وقد وقعت في جبال شمال غربي إيران، فقد تراجع (روتسا) ملك أورارتو
مع حليفه الرئيس لاستدراج سرجون حتى (وذلك حسب رأي سرجون) امتدت
مواصلاته إلى نقطة انخفضت فيها معنويات جنوده وأصبح من الصعب عليه
السيطرة على جنوده كلهم، وعند ذلك أرسل (روتسا) رسولا (وذلك تحدياً منه لي)
طلب منه أن يقترب ويشارك في القتال.

وعندها بدأ سرجون يصلي للإله آشور ولقد كان له أسلابة، وهنا نجد أن
رجل التكتيك الألماني الشهير كلاوزيفتس يشير إلى ذلك في كتابه عن الحرب
كَمَا يلي:

يا لها من أراضٍ جبلية غير مواتية بالنسبة للمركة الفاصلة، وعن المقاومة
الهائلة التي تقدمها مجموعات صغيرة من الجنود في أرضٍ جبلية يصبح الرأي العام
متأثراً بأن جميع الدفاعات الجبلية هوية للقاية، إن الوصول إلى ملجأ دفاعي في
بلاد جبلية عند حدوث معركة فاصلة صعب جداً، لذلك فإننا ننصح أي قائد وقع
في مثل هذا المأزق أن يتجنب مثل هذه المعارك بقدر الإمكان.

ويمكن (رويا) فقد أدرك سرجون الوضع التكتيكي وقد انتهز الفرصة
التي سنحت له ويفضّ النظر عن المشكلات بالنسبة لجنوده فقد قاد حرسه
الشخصي من الخيالة، وكانت هذه تحت قيادة ضابط ذكر اسمه اندفع إلى وسط

المعركة وكان موجوداً في عربة خفيفة ربما كان ذلك بسبب البروتكول وقد كسر هجوم سرجون خلط العدو واستولى على مقر القيادة ووصل إلى معسكر (روتسا) نفسه حيث عطبوا عربات (روتسا) بقذخها بالسهم وقذف الخيول بالسهم، وعندما ترك ملك أورارتو عربته الحربية وهرب ونزل عن ظهر حصان ولكن لم يكن حصاناً بل فرساً.

وهذا أثار هزة الأشوريين الذين كانوا يعتقدون أن الملك ينبغي أن يمتطي حصاناً فعلاً، وقد حدثت مذبحه عظيمة في صفوف الجيش الأورارتي وهرب الباقون بشكل فوضوي إلى الجبال.

لقد كانت الإجراءات التأديبية للجيش الأشوري في أراضي الأعداء غير منحصرة في الأعمال العسكرية فحسب، فقد كانت إحدى الأعمال التي يرسف لها هي قطع الأشجار التي كان يشار إليها وكانها إجراءات تأديبية.

وكذلك قطع أشجار النخيل والكروم أو غابات أو أشجار مفروسة حول الأمكنة المهجورة، وقد حدثت مناسبات لمست بالقليلة عندما خرب الجيش الأشوري عن عمد مناطق بكاملها، مثلاً يستجل سرجون بأسلوب مرتب يتكرر مراراً مع بعض تغيرات طفيفة كما يلي:

لقد هُدمت قرية أنباشاتنيا ومعهما سبع عشرة قرية حولها وسويت بها الأرض، ولقد أشعلت النار في الموارض الخشبية الطويلة في مقوف منازلهم واحترقت معاصيلهم الزراعية وتبنهم، ولقد فتحت أبواب أهرانهم المصكومة بالذرة، وأمرت الجنود بأكل أكواز الذرة، وقد أرسلت الحيوانات التي كانت في المعسكر إلى مراعيهم وكانها الجراد المنتشر، وقد نزعوا العشب الذي كانت تعتمد عليه المدينة، وقد خربت جميع مروجهم.

وفي مكان آخر يصف سرجون تخريبه لنظام الأتية الذي كان يجلب الأزدهار في إحدى المناطق.

وكان هناك شكل آخر من أشكال الحروب الأشورية وهو عملية الحصار وكانت هذه العملية في غاية التنظيم.

وكان أول مستلزمات هذا العمل هو عمليات النقل الفعالة التي تلزم لجلب آلات الحصار مثلاً منجنيقات القصف المدرعة ذات المجلات التي ترى صورها في اللوحات المجسمة.

أما السلاسل التي تتكون من قوالب من الطين والحجر مع هياكل خشبية قد كانت تبني لتتمكن تلك الآلات من الوقوف أمام النقاط المرتفعة من الأسوار ، أما جنود الهندسة العسكرية فقد كانوا يحقرون الأنفاق لهم أقسام من الأسوار وكان جنود المشاة يتسلقون على السلاسل ويتسلقون الأسوار والأماكن الضيقة بالنسبة للأحوال الدفاعية.

وقد كان وابل من المهام وحجارة المقاليح ينهمر فوق رؤوس المدافعين من الرماة ورماة المقاليح.

وكان هناك سلاح آخر مستعمل وهو النار ، وقد استعملت طريقة ربما أثبتت في منطقة ما بين النهرين القديمة والتي ذكرت في مراجع من النصوص السامرية التي تذكر نيران القصب التي تُقوَس التحصينات وذلك بحكمس حجارة السور بتسلط النار عليه وتكون الحرارة شديدة جداً ، ولعلنا ربما كانت هذه الطريقة فعالة بالنسبة لأسوار هزيلة وليس لدينا أي شهادة تثبت أن الآشوريين قد استعملوا هذه الطريقة من الإجراءات.

وإن ما كانوا يفعلونه هو إشعال النار في المدينة بأكملها وكانت إحدى الوسائل لفعل ذلك هو إطلاق سهام تحمل جمرات ملتهبة وكان المدافعون يرمون المحاصرين بالنار أيضاً وقد كان البترول الخام مُستعملاً لأغراض عسكرية (لا سيما وإن هناك كثيراً من النقاط التي كان يخرج منها البترول بشكل جزئي في منطقة الشرق الأدنى) وقد استعملت هذه الطريقة في أحوال خاصة نعرفها من قبل المدافعين الذين كانوا يحاولون تخريب المنجنيقات والسلاسل التابعة للمحاصرين الآشوريين.

وهنا نرى أسر حثون يصف ما حدث:

وبينما أتجول بشكل المنتصر في هذه المنطقة كان هناك سلم قد نصبته ضد
.. في مدينة (أوبيوم) وفي هدوء الليل صبوا البترول على ذلك السلم وأشعلوا النار
فيه، وبناءً على أوامر مردوخ ملك الآلهة هبت الريح الشمالية وهي النسيم العليل
التابع لصيد الآلهة وحولت ألسنة اللهب التابعة لإله النار نحو مدينة أوبيوم ولم تحرق
هذه النار الصلال بل أحرقت سور المدينة وحولته إلى رماد.

وبينما كانت تجري عمليات الحصار وكان الجيش الأشوري يبني معسكراً
محصناً خارج المدينة يقصد منه أن ترتاح الجنود فيه.

ونحن نرى في النقوش النافرة مشاهد تظهر الخيام المجهزة بالمفروشات ونحن
نرى عملية إعداد وجبات الطعام ونرى عملية سقي الخيول بالماء وعملية سياسة
الخيول وقد فُسر هذا المشهد بأنه صورة جنود خارجين للاستجمام وهم لا يرتدون
ملابسهم العسكرية وهم جالسون في حفلة مع النساء اللواتي كُنَّ يَتَبَنَّى الجيش
في معسكراته، ولكن الأكثر احتمالاً هو أن هذه الجماعة كانت تتألف من
بعض الأسرى وهم تحت الحراسة.

وبينما كانت عمليات الحصار تجري كانت حلقة من الحراس الأشوريين
المنتشرين حول المدينة المحاصرة تحاول أن تمنع المدافعين من تلقي المؤن. وكانت
النتيجة المحتومة هي أنه إذا كانت المدينة قوية جداً بحيث لا يمكن احتلالها
بالقوة إلا أنها سوف تسقط بسبب المجاعة والجوع.

وكانت إحدى الصفات المروعة بالنسبة لفضايا الحصار هي أكل لحوم
البشر الأمر الذي كانت الكتابات المسمارية تشير إليه، وكذلك في التوراة،
ويصف آشور بانيبال بشكل يثير الاشمئزاز تتلخج حصاره لمدينة بابل وهو يقول: لقد
حل بهم الجوع ويسبب جوعهم فقد أكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم وقد مضفوا
الأحزمة الجلدية.

معاملة الأسرى

بعد أن تسقط إحدى مدن الأعداء فقد كانت قضية معاملة الأسرى تختلف بالنسبة للظروف، وهنا تبرز مسألة الفظائع التي كانت ترتكب وهذه تتطلب شيئاً من المناقشة نظراً لأن الآشوريين قد لصقت بهم أسماء وأوصاف سيئة على هذا الصعيد، ولقد عالجت هذه الموضوع آنفاً ولكنه عرضة لتوضيحات أكثر.

وعندما يسمع المرء ما سجله آشور ناصر بعل بنفسه عن قائله، فليس هنالك مجال للشك أنه من الممكن اتهام الآشوريين بممارسة الفظائع وهماو يكتب واصفاً نتائج إحدى معاركه:

((لقد قُتلت ٢٠٠٠ جندي من جنودهم المقاتلين، وقد أحرقت كثيراً من الأسرى الذين أسرتهم منهم بالقتار، وأبقيت الكثير منهم أحياء وقد قطعت أيادي بعضاً منهم حتى الرمخ وقطعت أنوف آخرين وأذنانهم وأصابعهم، وقد سُمِّت عيون كثير من الجنود وقد أحرقت شبابهم وشاباتهم حتى الموت.))

وعند احتلال مدينة أخرى كتب يقول:

((لقد سَكُوتت حكومة من الجثث أمام بوابة المدينة وقد سلخت جلود النبله من الذين تمردوا وقد نشرت جلودهم على أعمدة، وقد سُلِخت جلود الكثيرين من أهل البلاد ونشرت جلودهم على الأسوار.))

إن مثل هذه الأخبار لا تسبب لنا أي ارتياح ومع ذلك ينبغي أن ننظر إلى هذه المشاهد ضمن منظور الحروب القديمة.

لقد مارس معظم ملوك آشور ابتداء من آشور ناصر بعل فصاعداً سياسة توسُّعية ولكن المعاملة المتوحشة من النوع الذي رأيناه في المقتطفات السابقة لم تواجه في كل الأحوال بشعكل من أشكال عدم التمييز بين المدن أو المناطق خصوصاً تلك التي انضمت إلى التلك الآشوري حديثاً وتلك التي قامت بتمردات سابقاً.

والحقيقة أنه في حالة أولئك الذين كانوا من الفئة الثانية أي: الذين أظهروا بعض التمردات هم الذين تعرّضوا لمثل تلك العقوبات التي استعملت فيها تلك البربرية والمنف للسكان المغلوبين على أمرهم.

وإن الحالتين اللتين ذكرناهما آنفاً هما حادثتان متعلقتان بحالتي تمرد من أكبر التمردات التي جرت ضد الدولة الآشورية.

وقد اشتملت إحدهما تمرّداً قام به المستوطنون الآشوريون الذين حاولوا الاستيلاء على قاعدة عسكرية مهمة على مدينة منخفضة لخزن الحن.

أما الحادثة الأخرى فتعود إلى تمرد في مدينة تحكمها دولة آشور حكماً مباشراً وقد قُتل الحاكم الآشوري هناك وجلب رجل آرامي ونصب ملكاً، وكان هذا تابعاً للدولة الآرامية المعادية لآشور.

وفي أمكنة أخرى ذكرت في حواريات آشور ناصر بمل كان هنا رواية عن عملية عسكرية جرت بقصد الاحتلال وليس بقصد قمع التمرد ولذلك لا نجد في هذه العملية أي ذكر لأعمال القتل الفظيعة الجماعية، ولم يحدث سوى أخذ بعض الأسرى دون الإشارة إلى إعدامات أو تشويهات.

إن أي شخص قد غسل دماغه بروح الاعتقاد بأن الآشوريين كانوا ساديين دوماً ينبغي على هذا الشخص أن يلقي نظرة على ثقافتنا التي نود أن نشرحها بالافتباس التالي الذي أخذناه من حملة **Financial Tiner** فاننا نشال تايبي وذلك من برنامج مخصص للأطفال والتلفزيون في عام ١٩٧٨م والبرنامج يقول:

(لا أحد سوف يأخذ روحه سواي سوف أسلخ الجلد عن جسمه الحي وأضعه على جسمي وكأنه عيامة).

إن مثل هذه الأعمال الفظيعة كالتى حدثت في آشور لم تكن مظهراً من المظاهر السائدة بل عبارة عن أعمال تأديبية معتمدة قد أمرت بها السلطات المركزية في الحكومة الآشورية المتمثلة بالملك وليس لدينا أي إثبات عن حالة

وقعت فيها أعمال فظيعة اقترفها أفراد من الجيش الآشوري كفضيحة تتجلى فيها
المادية المجردة.

حقاً لقد كان هناك بعض المشاهد على الألواح والنقوش النافرة بدت فيها
أعمال بربرية (مثلاً سلخ الجلود) بالنسبة للأسرى، ولكن هناك دلالات بأن هذه
الأعمال قد ارتكبت بحق زعماء التمردات ولكن بأمر من الملك ولم تكن أعمالاً
عشوائية بربرية ارتكبتها أشخاص بمفردهم بشكل اعتباطي قام بها جنود
عاديون.

حقاً كان هناك بعض الدلالات عن إصرار الملك على تطبيق النظام بمصرامة
بالنسبة لمعاملة أسرى الحرب، وهناك رسالة ملكية موجهة إلى أحد الولاة
الآشوريين تتعلق بتأمين التموين لهؤلاء الأسرى ويحذر الملك هذا الموظف بقوله:
(ينبغي ألا تكون مهملاً وإلا فإنك سوف تموت)).

إن أفضل مصير عادي للأسرى عند التقلب على منطقة أو مدينة متمردة كان
الترحيل أو النفي، وإن بذل العناية بهؤلاء المرحّلين هو أمر نموذجي، مع أن أساس
هذه المعاملة ربما كان لأغراض عملية أكثر منها إنسانية، فقد أصبح الأسرى
جزءاً من الموارد المتاحة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت السلطات الآشورية
ترغب أن يصل هؤلاء إلى الأماكن المقصودة وهم في صحة جيدة وأن يكونوا ذوي
فائدة هناك.

ولقد اتخذت إجراءات إدارية حازمة لهذا الغرض، وقد سمعنا عن ترهيبات
مفضلة لتنفيذ هؤلاء المهجرين في طريقهم إلى الأماكن التي يقصدها، وقد
اهتمت الدولة حتى بتأمين أحذية لهم وهم في طريق سيرهم.

وفي إحدى الحالات حصلت مساعدة على الزواج، ونحن نرى من ألواح النقوش
النافرة أن بعض العريبات كانت متوفرة لنقل النساء والأطفال أو ركبهم على
الحمير أو ظهور الخيول وهناك دلالات تشير إلى ترحيل العائلات وهذه الدلالات
وأردت في النصوص المسمارية التي تدل على أن عائلات بكاملها ومجتمعات كاملة
أيضاً قد رحلت بشكل مجموعات.

لقد كان هدف الترحيل لا يتعصر في قضية التأديب بقدر ما هو وارد لمصلحة الإمبراطورية الآشورية ولمصلحة الأمن، فلقد استقر بعض المرحلين في المدن حيث شكلوا احتياطياً من اليد العاملة لتنفيذ مشاريع البناء فضلاً عن تأمين مصدر من مصادر الحرفيين المهرة، وقد ذهب آخرون إلى مناطق غير مأهولة وذلك لزيادة مساحة الأراضي الزراعية وزيادة المنتجات الزراعية، وبالتالي إحراز الازدهار الاقتصادي.

زد على ذلك فقد وصل آخرون لإعادة إعمار بعض مناطق في الإمبراطورية وكانت قد أخلقت من السكان بسبب هجرات سابقة أو حالات من العصيان والتمرد، وهناك مثال ثوراتي معروف وهو قصة المماصرة في فلسطين التي أصبحت خالية من السكان لدرجة أن سكنتها الأسود وكانت هذه الأسود مشكلة.

ويبدو أن بعض المهجرين تحت الحكم الآشوري كانوا يستقرون في بيوت جديدة، ويجدر بالذكر أن الإسرائيليين الذين سباهم الآشوريون ونقلوا من السامرة إلى منطقة نهر الخابور في شمال غرب منطقة ما بين النهرين وإلى شمال غرب إيران قد انجموا في المنطقة تماماً نظراً لأننا لم نعد نسمع عنهم شيئاً، ولكن حدث العكس مع اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر وأسكنهم في بابل فقد احتفظوا بحس الانتماء بحيث رجع قسم كبير منهم إلى اورشليم.

والحقيقة أن الفرق ربما يعود إلى أن الآشوريين كانوا يتعمدون تهجير السكان إلى أماكن مشابهة للأماكن التي كانوا فيها، فقد عمد الرجل الآشوري ربشاكاخ في خطابه على تحريض أهالي اورشليم المحاصرين على الاستسلام وأخبرهم بأنه سوف ينقلهم إلى بلاد تشبه بلادهم (٢ ملوك ١٨ : ٣٢).

البواعث الآشورية: الحواجز والإنجازات

لقد ترك الآشوريون انطباعات دائمة في تاريخ العالم بحيث إنه وبعد أكثر من ألفي عام لسقوطهم واختفائهم النهائي، فإنهم استطاعوا أن يثيروا أحكاماً عاطفية موجّهة ضد نزعتهم الاستبدادية وقظاعاتهم (التي ربما كان مبالغ فيها). كيف كان معاصروهم ينظرون إليهم؟

لقد أصدر النبي أشعيا الذي عاش في ذروة السقوط الآشورية، حكمه عليهم ولكن الإدانة التي أصدرها لم تكن بسبب وحشيتهم واستبدادهم، فهو في الحقيقة يمزو هذا ويعتبره جزءاً من المشيئة الإلهية لعقاب اليهود.

آلا يا آشور يا عصا غضبي

وعصا سخطي

لقد أرسلتك ضد أمة لا تخاف الله

وضد الشعب الذي غضبت عليه وأمرته

أن ينهب ويحصل على الغنائم

ويدوس عليهم كما يدوس على الوحل في الشوارع (أشعيا ١٠: ٦٠)

وبالنسبة لأشعيا فقد كان ذنب آشور مختلفاً عن مجرد الاستبداد، بل إنه التكبر وعدم الاعتراف بمصدر وينبوع القوة العظمى وهو يَهُوَّه،

إن يَهُوَّه سوف يماقب ملك آشور على تكبره وتفاخره وكبريائه البهيمية لأنه يقول:

((بقوة يدي قد فعلت ذلك وبقوة حكمتي لأنني أنا مصدر الحكمة (أشعيا،

١٠: ١٢: ١٢).

هذا وإن المباهة والتكبر ما هي إلا استخلاص من عبارة عبرية وهي ثمرة عظمة القلب ((وهي تدل على اعتبار عظمة المرء نامة من عظمة قلبه من الداخل،

وإن ما كان أشعياً بدينه هو الاعتداد بالنفس الذي كان يطغى على آشور، وهذه صفة غير مرغوب فيها في إسرائيل، وينبغي أن تكون للرب وحده.

لقد كانت الثقة بالنفس صفة من صفات ملوك آشور في الألف الأول، ومع أن هذه الثقة كانت ملاحظة بوضوح في الحوليات الملصقة حيث يتباهى الملوك بحرية بصفتهم الشخصية، وبمجزاتهم الوطنية لأنها تظهر أيضاً نواحي أخرى ولاسيما في كثير من المشاهد الحربية المرسومة على النقوش الجدارية النافرة.

ولم يكن في أي مكان تساؤل أو شك بما كان يفعله الآشوريون أو لماذا أو كيف يفعلون ذلك، ولم تكن هناك أي إشارة أو مرجع بعزو نجاح الآشوريين إلى دعم العناية الإلهية.

حقاً إنه كان هناك شيء في القرمص المجنح (الذي يمثل الإله آشور وقوى أخرى إلهية) يظهر عالياً في السماء فوق صورة الملك، ولكن ليس هناك شيء في هذا يشير بأي نقص في ثقة الملوك الآشوريين بأنفسهم ويقواهم.

والحقيقة أنه في مثل هذه المشاهد ليس هناك من دلالة أبداً على خوف الملك من الإله الذي فوقه، بل بالعكس كان الإله هو الذي يبدي الخوف من الملك، نظراً لأن جميع أعمال الإله كانت تربيداً لأعمال الملك (مثلاً تصويب القوس أو ما شابه ذلك).

لقد كان الآشوريون يعلمون أنهم كانوا على حق، وهكذا فقد اعتبروا أنه من المسلمات أن تكون القوى الإلهية العظمى دائماً داعمة ومؤيدة لمصالح الآشوريين.

هناك بعض الألواح النافرة المحتوية على مناظر طقوسية، وفي هذه المناظر يظهر الملك وكأنه قد اتصل اتصالاً مباشراً بالقوى الإلهية، ومع ذلك لم يكن هناك أي انتقام من قيمة الملك وهو واقف أمام الإله.

مثلاً: عندما يقف آشور ناصر بعل أمام الشجرة المقدسة فإن الملك كان بعيداً جداً عن إظهار أو الاعتراف بوجود أي مسافة ما بين الآشوريين والبشر وبين الإله،

بل بالعكس نرى للملك مرفوعاً إلى مستوى الإله عن طريق القوى السرية التي كان الكائنات الفيبيان يوجهانه إليها ، وبالاستفادة من الشجرة المقدسة .

والحقيقة أنه وحيث نرى الملك واقفاً أمام الإله نرى أن الثقة بالنفس لا تزال موجودة ، ففي الرسوم الجدارية التي تمثل الإله سرجون واقفاً أمام الإله آشور أنه الملك وليس الإله هو الواقف في الوسط ، وتشير الصورة أنه ليس من واجب الملك أن يظهر الخشوع أمام الإله ، بل إنه من وظيفة الإله أن يقوي ويدعم الملك .

إن نوع الموقف وهو ثقة الآشوريين المطلقة بقواهم البشرية ، هذه الحالة مرتبطة بضعف سلطة الدين التقليدية المؤسسة على المواضع التي ترجع إلى الألف الثالث .

فالمواقف القديمة تقص وتقول: إن الآلهة هي التي خلقت نظام هذا العالم ، وهذا كان الأزم وجود ثقل اكتسبته القوى الرجعية المحافظة ، وهذا أدى إلى التأثير على أي نوع من التغيير أو التقدم .

فالآشوريون لم ينكروا تلك المعتقدات علناً ، ولكن في بلاد آشور وفي الألف الأول بدأنا نلمس دلالات على نشوء وجهة نظر مختلفة أو طبخاً للأفكار القديمة كان العالم ساكناً أو بالأحرى دوري الحركة أي أنه إذا تغيرت الأشياء فإنها تتغير ضمن إطار متكرر ، فالنظرة الجديدة للحياة وللعالم تتلخص أن الآلهة كان لديها مخطط في التاريخ ، وأن آشور هي العامل الرئيسي في هذا المخطط .

وكان العنصر الرئيسي في هذا المخطط عاملاً دينياً سياسياً لكونه يمثل التوسع المستمر وسيطرة آشور وهي تحت الإله القومي آشور ، ولكن مجرد الاعتقاد وإمكانية التطور داخل التاريخ كان يعني إمكانية التغيير بصورة عامة فالأشكال المخططة بالحياة لم تعد محددة بالطرق القديمة .

وطبقاً لذلك بدأ الآشوريون يقبلون الأفكار الجديدة ، وهكذا أو كما رأينا فقد بدأ الملوك الآشوريون يتبنون الأساليب المعمارية الجديدة من الخارج فقد بدأوا يفتشون على مصادر جديدة للخشب والحجر وقد شجعوا المهنات الجديدة في صنع المعادن ، وشجعوا استعمال المواد الجديدة ، مثل القطن ، واستخدموا الحرفيين المهرة كصناعاتي العاج وبقاء السفن وقد شجعوا هؤلاء على تقديم مهارات جديدة إلى

آشور تحت الحماية الملكية للفنانين للممارسة بأشكال جديدة من الفنون وذلك بالاختراع وبمدهما بتطوير الألواح الناقرة ووضعها أساساً للفن الروائي.

ولقد شجع الملوك الآشوريون وجلبوا الألعاب الأجنبية ونحن نعرف ذلك من الألواح اللعب المعقدة التي تتميز بوجود نقوب صغيرة وورود وذلك أثناء حكم أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩).

وقد أنت هذه اللعبة من مصر، فقد شوهدت هناك قبل قرون من جلبها إلى آشور، وكان أسرحدون أول فاتح لمصر ومن المؤكد أنه رأى اللعبة عندما كان هناك وأحبها، وكانت الألواح التي جلبت إلى آشور من أهل مصر ومن حجارة مصرية، ويقول تفلات بلاسر الأول: إنه عندما كان في الخارج أخذ بمض الفواكه النادرة التي لا توجد في بلاده وزرعها في حدائق آشور وقد جلب سنحاريب نبتة القطن.

وجلب أحد الولاة تربية التحل من بلاد أجنبية وسجل هذه الحقيقة بفخر، وكل هذه البدع تظهر أن الآشوريين شكلوا راغبين في النظر حولهم بعقل متفتح وأن يتبنوا أفكاراً جديدة، وأن يقبلوا عن وعي وإرادة أنه من الممكن تمثيل الإطار القديم للأفكار والأعمال التي وصلت إليهم من الألف الثالث ق.م.

إن كمال الأمثلة المعطاة تعود لصنع الإبداعات التي استعادت منها آشور كثيراً، ولكن اهتمام الآشوريين بالمالم حولهم تقدم إلى أبعد من ذلك.

إذ حالما توسعت أفاقهم الجغرافية فقد توسعت آفاقهم الذهنية أيضاً، وقد اهتموا بطرق الحياة المختلفة عند بعض الشعوب التي قابلوها.

ونجد بعض المراسلين (ربما كان بابلياً في أصله المرقسي بل كان آشورياً بمعكس وجهة النظر الآشورية) يخبر الملك عن بعض القبائل التي صادفها أنهم كانوا يعيشون على الخبز المصنوع من نبات (الموروتو) ويذوق النفيير والشرة تأكله الحمير الوحشية.

وقد علق آشور بانيبال على إحدى القبائل الجبلية التي كانت ترسل الجزية إن الرجال هناك كانوا يقصون شموهم كالتساء.

ولقد أعجب أسرحدون بطريقة الحياة التي يعيشها الفنيقيون الذين وصفهم بأنهم الملوك الذين يسكنون البحر وأن تحصينات أسوارهم هي البحر والأمواج هي جدرانهم الخارجية، وهم الذين يركبون السفينة وكانها عربة وبدلاً من الخيول يستعملون المجاذيف.

ولقد رأينا من قبل الإعجاب الذي أبداه الملك أسرحدون بعملية تدريب الخيول التي كان يقوم بها بعض الشعوب في ما وراء زاغروس.

ولقد أظهر الآشوريون اهتماماً جاداً بالطبيعة أي: كلا المناظر وحياة الحيوانات البرية ولقد ذكرنا أيضاً حماسيتهم تجاه المناظر الجميلة، أما بالنسبة للحياة البرية فمع أن الملوك الآشوريين قد تلقوا قسماً كبيراً منها فقد أنشأ بعضهم حدائق الحيوان في بلادهم وفي عواصمهم وهذه ما تدعى بحدائق الصيد.

وفي هذا السياق كئناً قد اشرنا إلى ثلاث بهلاسر الأول ويخبرنا آشور ناصر بل في القرن التاسع ما يلي:

(لقد اصطدت الحيوانات ومسحكتها وهي أحياء، ولقد جمعت في العاصمة كالأح قطعاناً من الثيران الوحشية والفيلة والأسود والنعام وذكور وإناث القروود، والحمر الوحشية والغزلان والذئبة والنمور ومن جميع أنواع الحيوانات التي تكثر في السهول والجبال، وقد عرضتها على الشعب في بلادي).

ولكن ليس هناك من إثبات أن الحيوانات كانت طليقة في حدائق الصيد أم كانت محصورة في أقفاص، وقد أشار آشور ناصر بل أن أشبال الأسود الصغار في أقفاص، ومن المحتمل أن بقية الحيوانات كانت تعامل بهذا الشكل، ومع ذلك فإنه من المؤكد أن الملك سنحاريب الذي حكم فيما بعد قد أنشأ حديقة من حدائق الصيد حول نينوى حيث كما يروى:

((قد نمت أجمات القصب بسرعة وبنيت طيور السماء اعشاشها وولدت الخنازير البرية والوحوش صفارها بكمية وافرة.))

وتشير اهتمامات الآشوريين بالعالم حولهم ورغبتهم بقبول الأفكار الجديدة على وجود حماس وحيوية ذهنية توازي أو ربما تفزي حماسهم العسكري وبدعهم الإدارية ، وكان لكثير مما فعلوه تحت تأثير هذه البواعث نتائج مهمة في التطورات التي حدثت بعد ذلك في الشرق الأدنى، وهكذا فقد اكتشفت مصادر جديدة من الخامات والحجارة والخشب، وانتشرت التقنيات، ولقد بدأت بعض الوسائل الجديدة في الحكم ذات الأهمية القصوى بالنسبة للشرق الأدنى فيما بعد تحت حكم الآشوريين.

مثلاً: نظام الطرق الإمبراطوري بالإضافة إلى نظام بريدي سريع لتأمين المواصلات بين حكومات الولايات والملك، وينبغي أن يقال: إن بقاء تلك التجم التي نُقلت إلى جميع أنحاء العالم عن طريق الحضارة المومورية هذا البقاء مدين جداً لقوة الآشوريين العسكرية.

وابتداء من زمن الآراميين والموشكي إنشاء حكم تفلات بهلاسر الأول حتى زمن السبئيين في نهاية الإمبراطورية الآشورية ، كان هناك وبصورة متكررة تهديدات من هجرات بربرية جديدة إلى منطقة ما بين النهرين، حيث لم يستطع الآشوريون صد هذه الشعوب ولصكن حيث استطاعت فإن هذه الشعوب وبفضل ردود الفعل الآشورية فقد جلبت هذه الشعوب المهاجرة لتقترب من عادات شعوب ما بين النهرين.

ونحن نلاحظ هذا وبصورة خاصة في حالة الميديين والفرس الذين قابلناهم لأول مرة وهم بشكل بدو رحل في القرن التاسع ق.م.

وقد برهن هؤلاء أنهم تلاميذ أكفاء لأسلافهم الآشوريين، لدرجة أنه بعد قرن من سقوط آشور ظهرت إمبراطورية فارسية حكمت منطقة ما بين النهرين وبقية أقطار من الشرق الأدنى دون إجراء أي انقطاع في النظام المذكور أعلاه.

ولكن ربما كان قد أتى إسهام الآشوريين في التاريخ العالمي كنتيجة لواحد من الأشياء الأكثر بُغْضاً وكراهية في الفكر الحديث، وهذا هو تهجير وإجلاء الشعوب المهجورة، فقد كان عند الناس الخين تأثروا بعملية التهجير كبيراً وهائلاً، ولقد قُدِّرَ أنه في أثناء القرون الثلاثة الأخيرة من عمر الإمبراطورية الفارسية بلغ هذا التهجير حوالي أربعة أو خمسة ملايين وقد كانت النتائج طويلة الأمد لهذا التهجير مؤثرة على عملية الاختلاط العرقي فقد كانت الاعتبارات الجغرافية من جبال وأنهار ومحاري والمضايق إلى العوامل التاريخية التي عملت على تقسيم الشرق الأدنى إلى عدة دويلات منفصلة، والتي تطورت في جو من العزلة ويرى الإنسان مثلاً ممتازاً لهذا الذي في فلسطين حيث وجدت عدة مجتمعات من الفلسطينيين والإسرائيليين وشعب يهودا والموارين والعموريين وشعب صيدوم وعدة شعوب قبلية بقيت متميزة لوقت طويل.

ولقد كانت سياسة الآشوريين المتمثلة في التهجير هي التي عملت على كسر هذه العزلة، وقد كان الإسرائيليون مثلاً على ذلك وعندما نقل هؤلاء إلى صيدا ومنطقة نهر الخابور عندها اختفت لديهم النُصرة الشخصية الوطنية وقد بقوا هناك ولكنهم اندمجوا.

وفي بعض المواقف الكبرى في الدولة الآشورية نفسها كان الآشوريون العرقيون أقلية وذلك بسبب مجيء شعوب من عروق مختلفة واستقرارهم هناك ومما ملتهم كمواطنين متساوين رغم اختلاف أسلافهم وأجدادهم، ومع استمرار عملية إعادة الإسكان المفيدة فوق كامل المنطقة خلال حوالي ثلاثة قرون فقد حدثت زيادة لا بأس فيها في الاندماج والاختلاط العرقي وإضمااف النزعة العرقية الاستثنائية (باستثناء الأماكن التي حافظت على العزلة فيها عن طريق الوسائل الدينية كما حدث مع اليهود).

ولم تكن هذه عملية سريعة ولم تظهر نتائجها حالاً ولكنها مهدت الطريق لنمو الوحدة الثقافية في المنطقة بأكملها مما أثر على التاريخ التالي لمنطقة الشرق الأوسط.

فقد تأمن وجود قاعدة للتجانس الذي مهد لدخول الثقافة اليابانية في الشرق
الأدنى بعد عهد الإسكندر الأكبر، وكانت اليابانية بدورها عاملاً مهماً في
انتشار الديانة المسيحية بسرعة عبر المنطقة، وبعد ستمئة عام انتشر الإسلام.

الفصل السابع عشر

الكتابة والأدب الآشوري

إنه وبدون الوثائق المكتوبة تبقى معرفتنا عن آشور جزءاً ضئيلاً مما هي عليه الآن، فالبقايا الحية لأمة حضارية من هئونها وأدواتها ومفروشاتها وأساليب الدهن فيها بكل هذه من الممكن أن تعرفنا بالشعوب القديمة ولكنها قاصرة عن التمرير الذي يحصل عن طريق النصوص المكتوبة.

لقد اخترعت الكتابة في جنوب منطقة ما بين النهرين في زمن قصير قبل عام ٣٠٠٠ ق.م، وكانت أقدم أشكالها المعروفة تتألف من صور مرسومة بواسطة قصبه تكتب على قطعة من الفخار الرطب المضغوط الذي كان يضغط بين كفي اليد ليتخذ شكل كمصككة مسطحة.

ومع مرور الزمن أصبح شكل الفخار نظاماً كلوح من الفخار مستطيل ذي حواف مسنونة أو مدوّرة أو محدّبة قليلاً، وكان اللوح صغيراً بحجم علبة كهربيت أو بحجم كتاب من قطع الرّيح مع أنه كان بحجم قطعة الصابون.

وفي أوائل الألف الثالث تعرّضت هذه الإشارات لبعض التغييرات عندما بدأ الكتبة يضغطون بواسطة قصبه تسمى (قلم المسمة) وذي مقطع مثلث بدلاً من الرسم، وقد أنتج هذا العمل إشارات مؤلفة من خطوط وخطوط مستقيمة (مسمارية) كانت في بعض الحالات تظهر أنها متماثلة مع الأصل، وهو في ذلك ولأسباب متصلة بالطريقة التي كان الكتّاب يحمل بها لوح الطين والقلم فقد تحولت اتجاهات رسم العلامات إلى الخلف خلال تسعين درجة، وهكذا وضعت جميع العلامات على ظهرها وهذا أضعف صلة الوصل مع الصور الأصلية.

وفي الشكل الذي اتخذته الكتابة المسمارية أخيراً فقد كانت الكتابة تسير بشكل أفقي عبر اللوح وفي معظم الأحيان (وليس دائماً) موازية لمحورها الأفقي من اليمين إلى اليمين، وكانت الألواح الأصغر تنقش في عمود مستقل والألواح

الكبيرة في عمودين أو أكثر، وعندما كان الكاتب يصل إلى أسفل الوجه الأول مكان قلب اللوح حول المحور الأفقي وليس العمودي أي: إنه لم يكن يقلبه كما نقلب صفحات الكتاب عندنا.

ونتيجة لذلك كانت الكتابة على أحد وجهي اللوحة تبدو مقلوبة بالنسبة للكتابة على الوجه الآخر.

كانت الكتابة الأصلية بهذا الشكل تمثل الكلمات باللغة السومرية وربما كانت اللغة السومرية تمتلك نسبة كبيرة من الكلمات ذات المقطع الواحد فلن هذا قد سمح بإحداث تطور أصبحت به إحدى العلامات المعينة لا تمثل معنى الكلمة فحسب بل اللفظ الخاص بها، وكانت الحال مثلاً كما لو رسمت صورة نملة **BEC** وبعدها صورة ورقة شجر **LEAF** وهكذا نستعمل هاتان الصورتان لكتابة كلمة **BEIEF** معناها اعتقاد أو ظن.

وإن قيمة هذا التطور أن أصبح بالإمكان استعمال هذا النظام في كتابة اللغات عدا عن اللغة السومرية، وابتداء من منتصف الألف الثالث استعمل هذا النظام في اللغة السامية وهي الأكادية.

وكانت اللغة الآشورية إحدى لهجات هذه اللغة واللهجة الأخرى كانت البابلية، وقد استمدت بعض الإشارات السومرية التي تدل على كلمات كاملة تستعمل في نفس الأسلوب في اللغة الأكادية مثلاً: الإشارة التي تعني ملك التي تلفظ بشكل لوجال في السومرية كانت تستعمل بنفس المعنى في الأكادية مع أنها كانت تلفظ بشكل (سادرو) ولكن أصبحت إشارات كثيرة تستعمل كمقاطع.

ونظراً لحدوث مثل هذا التطور أصبح النص الأكادي مزيجاً من العلامات التي تعني بعضها كلمات كاملة، والأخرى تعني مقاطع، وكانت نسبة وجود كل منها تختلف حسب نوع النص وحسب الفترة الزمنية.

وكانت الألواح الطينية ومع أنها كانت الوسيلة الأعم لتدوين الكتابة المسماة إلا أنها لم تكن الوسيلة الوحيدة، فقد كان من الممكن تدوين

الكتابة المسمارية على ألواح من الفخار مصنوعة بأشكال أخرى مثلاً الأسطوانات الموشورية أو المخروطية أو حتى (بشكل مفتاح لبعض التعاويذ) نماذج من أعضاء حيوانية.

ولكن حدث تطور من نوع آخر وهو استعمال الألواح لكتابة مصنوعة من قطع خشبية مقطعة بالشمع كانت الإشارات تطبع عليها، وكان من الممكن كتابة الإشارات المسمارية عن طريق نحتها بالإزميل على حجر أو معدن، أو أن تطبع على الفخار أو أحياناً كانت الكتابة المرسومة ترسم بالألوان على سطح من السطوح، ولكن في حالات معينة كانت تعتبر مجرد إضافة إلى لوح منقوش بالطريقة العادية.

وكان الغرض الأصلي الذي جعل السومريين يخترعون الكتابة حفظ السجلات والوصلات والبضائع الموجودة في المخازن، ولكن سرعان ما تطور استعمالها إلى تطبيقات أوسع، فهي أوائل الألف الثانية كانت الوثائق البابلية المكتوبة بالخط المسماري تشمل الأساطير والقصص البطولية وأدب الحكمة (أي: النصوص التي تشبه الأمثال التوراتية) والقوانين والملاحظات الفلكية والمسائل الرياضية والمجلات التاريخية وقرارات المحاكم والجداول التاريخية (أي: تتابع السنوات التي يطلق على كل منها الاسم المشتق من الحوادث التي حدثت فيها) والتعليمات الزراعية، عقود العمل، والوثائق الإدارية والنصوص المستعملة في العبادة والطقوس المستعملة لأغراض السحر، وسلسلة من التعاويذ والتماثيل المدرسية اللازمة للكتابة المتمرنين والمعاهدات الدولية والقواميس التي يدعوها المهتمون بالتاريخ الآشوري باسم جداول المترادفات، وكذلك الترامسات في قواعد اللغة السومرية، وألوف الرسائل الموجهة لأشخاص عابدين أو إلى الملوك وحتى الآلهة.

ولقد ساهم الآشوريون في تراث السومريين، وكانت معظم أنواع النصوص التي وجدت في آشور وجميع الكتابات الأدبية كلها أخذت من بلاد بابل ولكن

كان هناك بعض الاستثناءات وكان اثنان من هذه ذات أهمية لا بأس بها بالنسبة لمعرفتنا بالتاريخ الآشوري.

المخطوطات الآشورية الملكية

كانت المخطوطات الملكية الآشورية تمثل أشهر الأشكال الأدبية التي تطورت في آشور وابتداءً من زمن السومريين في جنوب منطقة ما بين النهرين في الألف الثالث ق.م.

لقد كتب الملوك مخطوطات لها علاقة بالندور أي: المخطوطات التي تسجل تكريم بعض الأشياء المقدمة للإله أو تصنع لأجل الآلهة، وكانت مثل هذه المخطوطات تتخذ أشكالاً مختلفة بسيطة أو معقدة، ولكن العنصر الأساسي كان تحديد شخصية الملك والتعريف به وذكر الهدايا أو الأعمال الخيرية والمناسبات التي حصل فيها الإهداء، ومع مرور الزمن حدثت تطورات قد أنتجت أخيراً الإطار النهائي الآتي:

أ- اسم الملك، ألقابه، وعلاقته الخاصة بالآلهة.

ب- ذكر الحوادث التي تثبت النقطة الزمنية.

ج- ذكر أعمال الخير: عادة عملية بناء.

إن العنصر (ب) يقدم الوسيلة التي يستطيع فيها الملك أن يشير إلى الأشياء الأخرى التي قام بعملها لرضاء الآلهة، ففي آشور بعد أن تطورت الفكرة التي مفادها أن الإله آشور ادعى السيطرة على العالم أصبحت رواية حملات الملك لرضاء الإله مناسبة لتلك النقطة.

وهكذا وابتداءً من عام ٣٠٠٠ ق.م بدأ الملوك الآشوريون (وليس ملوك بابل) بطورون هذه النقطة فأصبحت تمثل وصف ما كان الملوك يفعلونه في المجال العسكري، وبعد قبول هذه الممارسة فقد فتح هذا إمكانات معتبرة لتمجيد الملك لنفسه، وقد تطور هذا ليصبح شكلاً تحكّم فيه الملك بضمير المتكلم مباشرة ويذكر كل ما فعله في المجال العسكري أثناء حكمه ويصلح للتأريخ، ويمكن

ترتيب التفاصيل بعدة طرق إما عن طريق المناطق منطقة بعد منطقة أو عاماً بعد عام.

وإن ترتيب التفاصيل بعام بعد عام من الممكن أن ندعوها حوليات إنما حدثت في آشور في زمن تفلات بيلامر الأول (١١١٥-١٠٧٧) ولقد افترض أن هذا النوع مدين إلى الحثيين ولكن ليس هناك ما يشهد لدعم هذا الرأي عدا الحقيقة التي مفادها، أن الحثيين كانوا يملكون نصوصاً بشكل حوليات في فترات أقدم، ومع أننا نفكر أن هذه النصوص من هذا النوع هي نصوص تاريخية. إلا أنها كانت سابقاً لا تزال نقوشاً تعليمية تنتهي دوماً برواية مناسبة عن عمل شبري من المادة أن يكون بناء معبد أو قصر.

ومع أن هذه المخطوطات كانت مثيرة ولذيذة بالنسبة لنا، إلا أن معظم هذه المخطوطات لم يقصد بها في أول الأمر أن تكون مخصصة للبشر قطعاً أو أن يراها البشر، وذلك لأن كثيراً منها قد كتبت على أسطوانات أو مخاريط ودقنت في أسس بنائية يصفون عملية ترميمها بحيث لا يراها (إلا الآلهة).

وقد كان من المعروف أن ليس هناك من بنائية دائمة البقاء وأنه فيما بعد سوف يمد بعض الملوك الأتقياء إلى الحضر وحتى أساسات البناية وعندها سوف يجدون المخطوطات ويقرؤونها، وكان هناك صحيفة نظامية مكتوبة في نهاية كثير من المخطوطات الملكية وهي تفلي هذه المناسبة:

((في الأيام القادمة إنني أوصي أي ملك من الملوك من أبنائي وأحفادي الذين أعلن الإله آشور أنه قد نصبه ليرعى البلاد والشعب، إنني أوصيه أنه عندما يصبح هذا القصر قديماً وعلى وشك السقوط أن يعيد ترميمه، وأن ينظر إلى النقوش التي كتبت وتحمل اسمي وأوصيه أن يدهن هذه النقوش بالزيت وأن يريق الخمر عليها تكريماً، وأن يعيدها إلى مكانها، عند ذلك سوف يسمح الإله آشور صلاته)).

لم تكن جميع المخطوطات الملكية مدفونة تحت الأرض إذ إن بعضها كانت منقوشة على ألواح نافرة موضوعة فوق جدران القصور، والأخرى كانت منحوتة

على التماثيل الحجرية الملكية التي تمثل الثيران والأسود والتي كانت تحرس بوابات المدينة.

وبعضها كانت منحوتة على الأنصاب الملكية المقامة على الحدود النائية لمكي تخذ ذكرى الانتصارات الآشورية التي حدثت هناك، ولم تمد بعض هذه النقوش من هذه النقش مجرد نقوش للبناء في شمسكها، بل قد تجاوزت الأطر الأصلية وأصبحت نصوصاً مختصة لتمجيد مآثر الملك، وربما تكون هذه التطورات قد حدثت كنتيجة لوجود هذه الأنصاب نفسها أو لوصف بعض أنشطة الملك نظراً لأنها كانت تعتبر من الأعمال الدينية الخيرية المقامة على شرف الآلهة لضاهي في قيمتها المعنوية بناء معبد أو ما شابه ذلك، ونحن نرى إمكانية صحة هذه التفسير بوضوح في بعض النقوش المنحوتة على بعض التماثيل الهائلة التي تمثل الأسود والثيران التي أقامها آشور ناصر بل.

وكان القسم الأعظم من هذه النصوص يمثل إطرأً وتمجيداً للملك عند قيامه بحملة حربية في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكن قبل أن ينتهي النص ينتقل الملك فجأة من الشؤون العسكرية إلى الإدعاء أن الإله نينورتا ونيرجال قد أوكلاه برعاية شزون الحيوانات، وأمراءه أن يصطاد هذه الحيوانات وسرعان ما ينتقل النص لذكر مجموعة من الفيلة والثيران البرية والأسود التي قتلها الملك، ويبدو أن هذا كان تكريماً ضمنياً للآلهة بالنسبة لصيد الحيوانات البرية.

ومن الممكن أن نفترض أن الفرض من إقامة نصب منقوش وعرضه في مكان عام أن يقرأ جميع البشر هذه النقوش بصورة عامة وبإسهاب، ولكن ولو ضمنا النصب في وسط مدينة آشور المكتظة فإن ذلك يظل مستحيلاً لأن المتعلمين النزين يستطيعون القراءة هم أقلية صغيرة، ولكن حينما تنصب الأنصاب في الحدود الشمالية والشرقية البعيدة حيث السكان جهلة بالنسبة للغة الأكادية التي كتبت بها النقوش، ما عدا بعض الضباط في الأقليات الآشورية المبعثرة، فإن إمكانية قراءة السكان لمثل هذه النقوش تكون أقل، ولكن لو كان المقصود بهذه النقوش تذكير الشعوب المقلوبة بمعظمة آشور، فإن الملك الآشوري سيكتب هذه

التقوش بأفنتين أي: الأورارثية والأكادية وذلك كما فعل أحد ملوك اورارتو في إحدى المناسبات.

وبالنسبة للتقوش الفاخرة المتواجدة في القصور الآشورية، فلم يطلع عليها سوى عدد من موظفي القصور، وبعض الموظفين من الزوار والأجانب المرموقين.

جداول ليمو

هنالك نوع ثانٍ من النصوص ذات بعض الأهمية التاريخية التي تطورت داخل آشور وهذه ما تدعى (جداول ليمو).

وقد كان اسم ليمو يعني: الموظف المسؤول عن إقامة المراسيم الحكومية الدينية في مدينة آشور، وقد كان الملك والموظفون الكبار في الدولة يخدمون بشكل (ليمو)، بالدور لكل منهم لمدة سنة واحدة، الملك في أول سنة من سنوات حكمه، والآخرين يتبعون ترتيبات تتم بالقرعة، وفيما بعد حسب الترتيب في المكانة في السلطة.

وقد كانت هذه السمة تعرف رسمياً باسم الليمو الذي خدم فيها، وهكذا كانت جداول الليمو تشير إلى تقايح السنوات.

هنالك عدة أشكال من قوائم الليمو بعضها كان يقتصر على أسماء الموظفين، بينما كانت الأخرى تذكر الاسم وبعده أسماء الولايات التي خدم فيها الموظف بالإضافة إلى نبذة قصيرة عن الحملة التي قام بها أو أي حادث آخر.

وإلى ما يلي سنذكر مقتطفاً قصيراً من القائمة التي تتحدث عن السنوات التي كانت سابقة أو لاحقة لاعتلاء الملك تقلابي بيلان العرش:

بالنسبة لليمو نزال - ناصر	والي تقيبين	نمرد في ككاج
بالنسبة لليمو نابو يعل أشور	والي أوببما	في الثالث عشر من أيار اعتلى تفلان بيلابر العرش ، وفي تشرين ذهب إلى منطقة بين الأنهار إلى الشمال الغربي من منطقة ما بين النهرين .
بالنسبة لليمو نابو يعل أشور	والي ككاج	إلى نامري
بالنسبة لليمو تفلان بيلامر	ملك آشور	إلى أرياد المنتصر على أورارتو
بالنسبة إلى ليمو نابو دالي - نالي	والي ثورنان	إلى أرياد

هذا ، وإن القطع المتناثرة من جداول ليمو تتداخل فيما بينها ، وهذا يساعد على إعادة ترتيب أجزائها مدة (٢٦٤) عاماً متتابعاً ، ولحسن الحظ ان إحدى فقراتها تشير إلى الحادث التالي:

(في شهر سوان "حزيران" حدث كسوف الشمس).

والآن ونظراً لأننا نعلم ويشكل تقريبي السنة التي حدث فيها هذا الحادث عندها يستطيع علماء الفلك أن يحسبوا بدقة في أي سنة رؤي كسوف الشمس في آشور في شهر حزيران ، ويظهر أن هذه السنة هي سنة (٧٦٣ ق.م).

هذا ، وبمد تأكيد هذه السنة يمكن تأريخ السنوات إلى (٢٦٤) في هذه السلسلة ، وبذلك يصبح التاريخ الآشوري خلال هذه الفترة دقيقاً جداً.

وإن ملاحظة وتدوين الحوادث كل عام ولو كان باختصار يمحطنا إظاراً
تاريخياً ثميناً لتلك المرحلة التي تبلغ قرنين ونصف، ولكن ليس كلها تماماً نظراً
لأنه بالنسبة لجزء من هذه الفترة فإن جداول ليمو قد حفظت أسماء الموظفين
فحسب.

تقارير على التجيم

هناك قسم ثالث من النصوص المتعلقة بأشور كان غير ذي علاقة مباشرة
بالتاريخ وهذه النصوص تختص بالتقارير التجيمية التي ذكرت عنها بعض الأمثلة.
ولكن علم التجيم لم يكن معروفاً أبداً في بابل، ولكن في الألف الثالث
بالتحديد عرفت في آشور فقط تقارير تجيمية من هذا النوع وكانت تقدم بشائر
عن المال بالنسبة لخبر ورهاية الدولة.

المواحي

وجدت بعض النصوص التي تعود إلى الألف الأول ق.م في آشور وهي تحمل
رسائل تختص بخير البلاد ولكنها تتألف من تقنيات مختلفة، فهي ليست آشورية
صحيحة، نظراً لأن هناك أمثلة منها في أجزاء أخرى من الشرق الأدنى القديم وبما
في ذلك التوراة ولكن بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين كانت هذه منقولة من آشور،
وحتى في آشور لم تكن شائعة والنصوص التي نمنها تختص بالمواحي التي
يصدرها أشخاص ملهمين وعادة كان نساء من اللواتي كان يدعين أنها رسائل
موجهة إلى الملك من أحد الآلهة وفي ما يلي مثال مما نقوله المواحي:

(لا ينبغي أن تخاف يا أسرجدون، إنه أنا الإله الذي يتحدث إليك، وقد فتشت
في أعماق قلبك مثل والدتك التي وهبتك الحياة، هناك ستون إلهاً عظيماً يقضون
معي لحراسكم فالإله (سن) واقف بجانب يدي، ليمنى، والإله شمش واقف

بجانب يدك اليمىرى، وهناك مئون إلهاً آخرون يقفون حولك وهم يطوفون
الإعصار.

لا تثق بأي إنسان بل وجه عينيك إلى جهتي انظر إلي.
أنا عشتار إلهة أربيل ولقد وهبتك عشتار الهاء.
وعندما كنت صغيراً حملتك بين يدي لا تخف بل احترمني.

الرسائل

إن معظم أنواع الكتابات التي وجدت في آشور كانت مأخوذة من بابل،
وهنا هو الحال بالنسبة لمعظم النصوص التي من الممكن اعتبارها أدباً بالمعنى
الضيق، أو الأمثلة التي كانت حولها من أنماط آشورية ولكنها مأخوذة من
نصوص معروفة بشكل جيد من بابل. هذا وإن أهم الأمثلة من الفئة الأخيرة وعلى
الأقل بالنسبة للمعلومات التي يقدمونها لنا وهي الرسائل، إذ هناك بعض من هذه
الرسائل قد أتت من الفترة الآشورية القديمة (وهي تبدأ اعتباراً من الألف الثاني)
وقد وجدت بين بعض الوثائق التي أتت من ككلاء وككيا.

وهناك بعض الرسائل الخاصة المرسلة من عدة مواقع تعود إلى الفترة الآشورية
الوسطى (وهي نهاية الألف الثاني) وهناك مجموعات من الرسائل المرسلة من ككلاء
شيرجات (آشور القديمة) ومن تل حلف (جوزين القديمة) ومن نمرود (ككلاء
القديمة) ومن (ككويونجيك) (ننوى القديمة) هذا وإن العدد الأكبر منها الذي
يبلغ حوالي ألفين أرسلت من (ككويونجيك) بالإضافة إلى حوالي مئتين من نمرود،
ويرجع تاريخ المجموعتين الكبيرتين إلى القرن الثامن والقرن السابع ق م أما
الأخرى فهي أقدم قليلاً.

ومع أن هذه المجموعات تحتوي على بعض الرسائل الخاصة إلا أن الباقي
كانت عبارة عن مراسلات تخص الدولة، ومعظمها كتاب مرسلاً إلى الملك وقليل
منها مرسلاً منه، وبالنسبة إلى الرسائل من الفئة الأخيرة، فإن الأنواع التي نملكها

ينبغي أن تكون نسخاً احتفظ بها للحفظ وذلك نظراً لأن التمسح الأصلية ينبغي أن تكون قد غادرت العاصمة وأرسلت إلى الأشخاص من المعينين في الولايات.

وقد كانت الرسائل الموجهة للملك مؤلفة من هتتين إحداهما تتألف من رسائل أرسلها خبراء الملك وتختص بالمحور والفبيات، وقد فسر هؤلاء المتعلمون كثيراً من علائم الفأل للملك وأخبروه متى يمكنه فعل بعض الأشياء ومتى لا يمكنه ذلك، نظراً لأنه كان شديد الإيمان بالخرافات، وسوف نورد مثلاً أو مثالين يعطينا فكرة عن محتويات تلك الرسائل:

((إلى سيدي الملك من خادمك عشتار - شم - أيديمس أرجو أن يكون سيدي بصحة جيدة وأرجو أن يباركك يا سيدي الملك الإله نابو والإله مردوخ يا سيدي وبخصوص معبد الإله ناشوخ الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة بخصوصه قائلاً:

اختر يوماً يكون ذا فال حسن واكتب لي كيف تسير أمور بنائه.
وأنا أقول إن شهر حيوان (حزيران) مناسب واليوم السابع عشر منه أيضاً مناسب، ومع ذلك فإن هذا الشهر قد انتهى وذهب وهكذا متى سوف يقربون عملها تمام العمل؟
إن أيلول شهر جيد وهو الشهر المناسب لهذا العمل، دعهم يعملونه ودعهم يبدؤون بالعمل خلال ذلك الشهر)).

وهناك رسالة تعتبر مثلاً عن الفأل الحسن وهي تعود إلى فترة تصيب ملك بابل، إذ عندما حذر الملك بالفأل السيئ أخطر للانزعاج واتخذ لقب مزارع بشكل مؤقت بينما حكم حاكم بديل بالتيابة عنه، ويمدها استقال ذلك البديل وهنا نورد النصف الأول من هذه الرسالة:

((إلى سيدي المزارع من خادمك نابو - زر - ليشر أرجو أن تكون بصحة جيدة يا سيدي، وأرجو أن يباركك الإله نابو والإله مردوخ مدى السنين الطويلة.

لقد كتبت لك جميع البشائر بعدد ما كان سواء كانت من السماء أم من الأرض أو الموالييد بشكل وحوش وقد رددتها الواحدة تلو الأخرى أمام إله الشمس، لقد جعلتهم يطبخون ويأكلون الطهور المحضرة بالنبيذ والتي غسلت بالماء ودهنت بالزيت، أما الملك البديل فقد اتخذ لنفسه نذر بلاد أسكاد).

وأما الفئة الثانية المريضة من الرسائل فقد كانت مرسلة من الموظفين الإداريين إلى الملك، ومعظمهم من الولاة وأمري الحاميات العسكرية، وكانت هذه الرسائل تتضمن الحديث عن أي شيء مع أنها كانت تعطي تفاصيل المخاطر العسكرية أو تفاصيل عن الأعمال العسكرية، وحركات أسرى الحرب، وجميع مجموعات الخيول لمصلحة الجيش وأمور الخصومات التي تحدث بين الموظفين.

الوثائق الاقتصادية

هناك عدة أمثلة آشورية عن مثل هذه النصوص التي كانت واسعة الانتشار وخلال منطقة ما بين النهرين في جميع الأوقات، وكانت عناوينها تحتوي محتويات فضفاضة تقضي عدة فئات متميزة، ولكن هناك مبررين اثنين لاستعمالها:

أولهما: إن أهم ما نشر من النصوص الآشورية الجديدة من هذه الفئات قد عولج بشكل جماعي.

أما المبرر الثاني: فهو أن الأنواع الاقتصادية العائدة لكثير من الفئات المختلفة كانت مخزونة لدى الآشوريين أنفسهم. واعتبرت جزءاً من قضايا شخصية خاصة، وتشمل أنواعاً من هذه النصوص التي تندرج تحت هذا العنوان المريض، مع أشياء أخرى كالأتي:

وثائق الأراضي التي منحها الملك، ووثائق بيع (الأراضي، والبيوت، والعبيد) وعقود الزواج واتفاقات التبنّي، وتقسيم الإرث، وعقود القروض (بيع الشعير، والفضة، والبرونز) والإيصالات عقود العمل (الحصاد، وبناء البيوت) وقرارات

المحاكم وقوائم الأجور، وفي بعض الحالات وبعض الفترات الزمنية وكانت وثائق العقود تحفظ من التغيرات والتبديلات بشكل غير قانوني فقد كانت هذه الوثائق تحفظ في ظروف من الطين والفضار، وكان الطرف منقوشاً بمحتويات العقد أو خلاصة تلك العقود، وفي حالة نشوء خلافات كانت الظروف تكسر للكشف عن محتوياتها.

القوانين

كانت أول مجموعة من القوانين المدونة تعود إلى القرن الثامن عشر وإلى حمورابي ملك بابل، ولكن هناك مجموعات أخرى من بابل ولدينا أمثلة من آشور، ولقد اكتشفت مجموعتان من قوانين آشور في مصر المتوسطة في مدينة آشور وكانت واحدة منهما تختص بامتلاك الأراضي والأخرى تختص بالنساء.

وبعكس قوانين حمورابي فلم تكن هذه مكتوبة بشكل قرارات اتخذها الملك بل كانت عبارة عن ملاحظات حصلت مع رجال القانون (الذين كانوا يملكون ضمن إرشادات الملك) وتتضمن الممارسات القانونية التقليدية في مناطق معينة.

ومن المهم أنه لم يثر على أي آثار من هذه القوانين في مكتبة كيونيجيك الكبيرة المحتوية على نصوص تعود إلى القرن السابع ق.م، ومن الممكن أن يكون هذا ناتجاً عن المصادفة ولكن ليس هذا محتملاً نظراً لوجود كميات هائلة من محتويات المكتبة، وحتى التي كانت بشكل قطع مكسورة، وكانت الملاحظات هي أنه مهما كان غرض تأليف القوانين في الفترة الآشورية المتوسطة، إلا أنها لم تكن تخدم كمجموعة كاملة مكتوبة للقوانين الوطنية التي كانت تستعمل كأساس للقرارات القانونية.

ولم تكن هذه القوانين أيضاً جزءاً نظامياً من منهج الدراسة الذي يدرسه الكتبة، وإلا فمن الواجب أن نكتون قد وجدنا أمثلة متأخرة عنها وهي بشكل نماذج نسخت لاستعمال الطلاب (شأنها شأن نصوص أخرى).

النصوص المنقبة من بابل مباشرة

إن الفئات التي ذكرت حتى الآن إما أنها قد تطورت في آشور أو أنها صنعت في آشور على غرار النماذج البابلية، ولكن عدا عن هذه فإن أغلبية النصوص التي وجدت في آشور كانت منقوبة من بابل بشكل مباشر، وإن أكثر الأمثلة التي تريد هذا القول هي مجموعة من النصوص التي وجدت في المكتبة الملكية في نينوى التي اكتشفت عندما كشفت الحفريات عن كويونيجيك في القرن الماضي، وقد جلبت هذه النصوص إلى المتحف البريطاني، والحقيقة أنه كان هناك أكثر من مكتبة نظراً لأن بعض التذييلات ذكرت أن النصوص قد وضعت في القصر، وفي تذييلات أخرى ذكر أن النصوص تنتمي إلى مكتبة المعبد في نابو. ولذلك ونظراً لأنها كانت تحت سيطرة ملك واحد وأنها جميعها الآن موجودة بشكل المجموعة نفسها في المتحف البريطاني لذلك فمن المناسب أن نعالجها كوحدة منفردة، وقد رتبها العالم الألماني كارل بيزولد **Carl Bezola** بشكل خمسة مجلدات عنوانها ((فهرس الألواح المسماة في كويونيجيك)) ومجموعاتها موجودة في المتحف البريطاني (١٨٩٨-١٨٩٩).

وهناك عدد كبير من القطع المتناثرة لم تضبط في أي بيان أو فهرس، وإن المجموع النهائي لهذا الفهرس يبلغ ٢٥٠٠٠ أو أكثر ولحسن ونظراً لأن كثيراً منها كانت عبارة عن قطع مكسورة ولهمت ألواحاً كاملة لذلك يتناقص العدد إلى (٥٠٠٠) وفي بعض الحالات فإن ألواحاً عدة تكرر النص ذاته ولهذا فإن العدد المقدر ينحصر ما بين ١٠٠٠-١٢٠٠ لوح.

ولقد وجدت مكتبات أصغر تحتوي على نصوص مسمارية في مواقع آشورية أخرى ولاسيما في مدينة آشور وكالاخ، وأيضاً في موقع سلطان تيب (حوزيرنيا القديمة) قرب حران في جنوب شرقي تركيا، ولقد نشرت أعداد كثيرة ثبتت أهميتها بالنسبة لمرقنتا بالشؤون الطقوسية في آشور مع أنها تشير إلى مظاهر أخرى من الحياة الآشورية أيضاً.

ولذلك فإننا نعتبر أن القوانين الآشورية في الفترة المتوسطة قد أتت من آشور، هذا وإن المجموعة التي وجدت في كالاخ إنما تؤلف مكتبة معبد الإله نابو الذي كان يحتوي على مكتبة أيضاً نظراً لأنه كان هو إله الكتابة، ولكن هذه لم تنشر بعد، ما عدا استثناءات قليلة أما نصوص (سلطان تيب) التي نشرت في مجلدين فهي تحتوي على كثير من المادة الأدبية. لم تأت جميع الألواح والقطع المتناثر المسجلة في فهرس كيونيجيك في المتحف البريطاني لم تأت من مكتبة نينوى أو من نينوى نفسها على الإطلاق.

إذ لم تشمل وسائل الحفريات في القرن التاسع عشر أي تسجيلات دقيقة حول البقعة التي وجد فيها كل لوح مسماري، وبالنسبة لموقع مساحته حوالي مائة فدان ويحتوي على عدة قصور، فلمس من الضروري أن نفترض أن جميع الألواح التي وجدت قد أتت من نفس البناية.

والحقيقة أننا نعلم من محتويات الألواح أن بعض تلك الألواح التي أظهرت ضمن مجموعة كيونيجيك قد أتت من أحد المواقع غير موقع كيونيجيك، ولكن هناك مثلاً عدة ألواح يرجع تاريخها إلى قرن من الزمان بعد سقوط نينوى.

ولكن حتى ضمن الأكثرية الهائلة التي أتت بالتأكيد من كيونيجيك إلا أن هناك البعض التي ظهر أنها لهمت من مكتبة آشور بانيبال.

وإن معظم الرسائل الرسمية من المحتمل أن تكون ضمن بعض المحفوظات الرسمية الظاهرة من المكتبة، وإنه ومن المؤكد أن المكتبة الوطنية الملكية لا يمكن أن تكون مأوى تلك الوثائق الاقتصادية التي كانت تملأ قضايا مثل عقود بيع خاصة بالعبيد أو اليهود، وعقود تختص بالحصاد وما شابه ذلك، وأحد تميزت هذه الاستنتاجات عن اكتشاف وثائق اقتصادية مشابهة في نينوى في السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٠م) في منطقة بعيدة عن تلك القصور.

ومع ذلك فإن معظم الألواح التي وجدت في مجموعة كيونيجيك لم تكن تنتمي إلى القصر الملكي أو المكتبات الملكية في نينوى.

إلا أننا نعلم شيئاً عن أحد هذه المكتبات وهذه المعلومات أنها كانت بفضل آشور باتييال، مع أن النواة تعود إلى أسلافه الذين منيع بعضهم بعض المجموعات من الألواح.

وابتداءً من حوالي ١١٠٠ ق م لقد أسس تفلات بيلامر الأول مكتبة في أحد المعابد في مدينة آشور قد عرف حوالي المائة من الألواح فيها من اللقيات التي وجدت هناك.

ولكن لا يشك أن مجموعة آشور باتييال في آشور هي أعظم جامع للألواح، ولقد نشرت أنشطته المختصة ليس بذكر اسمه في نمبة كثير من الألواح التي وجدت في نهوى فحسب، بل عرفت أيضاً عن طريق إحدى الرسائل التي كانت تعالج هذه القضية، والرسالة هي كما يلي:

((هذا أمر ملكي إلى كودورانو: أمل أن تكون بخير، وأن تكون مسروراً في اليوم الذي يقع بصورك فيه على هذا اللوح، خذ تحت إمرتك (عدة أشخاص ساهم، والخبراء في الكتابة من بورشيبا - وهي مدينة قرب بابل) وفتش عن جميع الألواح التي سوف تجدها في البيوت، والألواح المتواجدة في (إيزيدا) وهو المعبد الرئيسي في بورشيبا والتي إليها هو نابو.

وبعد ذلك تستمر الرسالة الملكية وتذكر بعض النصوص سلسلة من النصوص التي كان يرغب الملك في إيجادها، وهذه كانت تشمل سلسلة من المعارك بالإضافة إلى الألواح التي تنتمي إليهم مهما كان العدد.

مثلاً: النصوص الطقسية من نوع الصلاة التي تدعى: "رفع اليد" والنصوص التي تدعى: "التقوس على الأحجار" و: "ما هو مفيد للملك".

وتستمر تفاصيل تعليمات الملك كما يلي:

((فتش عن وأرسل لي أي ألواح نادرة من الألواح المروثة لديك وهي غير موجودة في آشور....

وينبغي أن لا يستكشف أحد عن إظهار الألواح التي تطلبها ، وإذا هناك أي لوح أو أي طقوس لم أذكرها في حين أنك تجد هذه الألواح مناسبة لقصري عندما حصل عليها وأرسلها لي)).

ومع أن هذا الأمر الملكي لم يحتو على اسم الكاتب (ولا تشير الوثائق إلى ذلك) إلا أن ذكر آشور لا يبق مجالاً للشك أن هذه الكتابة هي كتابة الملك الآشوري ، وإن مظاهر اللغة تظهر أن هذه الرسالة قد كتبت قبل سقوط الإمبراطورية الآشورية ، ولهذا فإن الملك المقصود معرفته هو آشور بانيبال.

وتظهر محتويات الرسالة السبب الذي جمعه هذه الألواح ، ولهذا فإن الفئات التي تقع تحتها هذه الألواح تملؤد الفال ، والطقوس والصلوات والابتهالات وكان لهذه النصوص أهمية خاصة.

فقد كانت الحياة على الأرض مقطعة بظلال ما وراء الطبيعة التي كانت تأثيراتها تدل على عدم التنظيم مثل قضية الخط ، وليس هناك من شخص يهتم بهذه الأشياء إلا الملك وهو تجسيد للدولة ، فسي أي وقت ربما تحدث المصيبة ، ولكن إذا تمت قراءة علاماتها كما يجب فإن إنذاراً سوف يتم إعطاؤه لإظهار الأخطار القادمة ، وهكذا فسوف تتخذ خطوات وتدابير مسعرة للتخلص منه ، وهكذا فقد أظهرت نصوص الفال أن هناك خطراً يهدد الدولة وليس هناك سوى الطقوس والابتهالات والصلوات ، القدرة على تقديم وسائل للتغلب على هذا الخطر.

في هذه الرسالة كان من الواضح أن آشور بانيبال قد صادر الألواح الموجودة في معبد بورشيبا وقد وجدت ألواح كان مصدرها بابل (لكونها متميزة عن النسخ المأخوذة من ألواح بابلية) في مكتبته ، وكان هناك أشياء أخرى أخذها من العواصم الآشورية القديمة وهي مدينة آشور وكالاخ ، ولكن الممد الأعظم من الألواح الموجودة في مكتبته (أو بشكل أدق في مكتبته) قد نسخت بشكل خاص خدمة له.

ونحن نعلم مثل هذه التفاصيل من التنبيلات، فالتنبيل إذا قصد به اللوح المسماري ما هو إلا تصريح مكتوب في النهاية يقدم بعض التفاصيل حول أحد الألواح، وأما تلك التي استعملها آشور بانيبال فهي واقعة ضمن ثلاثة وعشرين نموذجاً وهناك ثلاثة أمثلة كما يلي:

((آشور بانيبال الملك العظيم، الملك القوي، ملك الجميع، ابن اسرجدون ملك آشور وهو ابن منعاريب الذي كان هو أيضاً ملك آشور، لقد كتبت هذا اللوح وأنا بصحبة خبراء في كتابة الألواح وكتابة الألواح الأصلية من بلاد آشور ومومر وأكاد (أي: بابل) فحسنتها وراجعتها ثم وضعتها داخل قصري لاستعمالي الملكي الخاص، إنني أدعو على أي شخص يمسح اسمي ويكتب اسمه بدلاً من اسمي أن يمسح نابو العكاتب العالمي اسمه أيضاً)).

والمثال الثاني يمثل أطول نوع من الأنواع التي وجدت:

((أنا آشور بانيبال، ملك الجميع، ملك آشور الذي وهبني نابو وتاشميتو (زوجة نابو) الذكاء (في الأصل أفناً وأعية) ووهبني عيوناً صافية لأرى فيها أثنى أخبار المعرفة، أنا الذي من بين الملوك الذين سبقوني ولم يفهم هذه الأمور غيري، لقد كتبت على الألواح حكممة نابو أو رسم العلامات المسمارية مهما كان عددها وبمدها فقد حسنتها ومارنتها وقد وضعتها في مكتبة معبد سيدي الإله نابو السيد الأعظم، تلك المكتبة التي هي في نينوى وذلك حفظاً لحياتي وحراسة روحي بحيث لن يصابني المرض، وكذلك لتأمين وتقوية أسس عرشي: أيها الإله نابو انظر إليّ نظرة عطف وحبور وبارك مملكتي، وخذ بيدي كلمتي دعوتك وأرجوك أن تبارك خطواتي وأنا سائر في بيتك ومعبدك، وعندما أصبح هذه التموص في معبدك وأمامك انظر إليها وتذكرني بمطبخ وحنان)).

إن هذا التنبيل يكشف لنا أشياء كثيرة فهو يوضح أن اهتمام آشور بانيبال بالألواح لم يكن مجرد الحماس الأدبي بل كان فيه عنصر ديني قوي، فلم تكن النصوص أدباً بقدر ما هي نص من نصوص العكاتب المقدسة، وذلك بما تعنيه تلك الكلمة من معانٍ لها علاقة بالأسس التوراتية فهي تحتوي على حكممة نابو، وهذه

النصوص القديمة كانت كلمات مقدمة أيضاً ، وهذا هو السبب في ورود التأكيدات والتنزيلات بوجوب فحص ومقارنة هذه النصوص بالنصوص الأصلية التي كانت تحمل الأشكال القديمة.

وحتى عندما كانت التنزيلات مختصرة جداً إلا أنها كانت تشير إلى التطابق مع النص الأصلي كما هو الحال في المثال الآتي:

لقد كُتِبَ وقُورِنَ طبَقاً

لكلمات اللوح الأصلي من كوثام

هذا وإن الاهتمام الذي ظهر في التنزيلات التي ذكرت لتأمين مصداقية اللوح هذه المكتبة ينبني أن تكون قد عكست نظاماً بارعاً من أنظمة ترتيب المعلومات. دعمت وجهة النظر هذه بوجود فهارس لعناوين النصوص ، ولصور الحظ ونظراً لعجز علماء الآثار القدماء عن تسجيل الأمكنة التي وجدت فيها هذه الألواح والتفاصيل المرفقة بها إذ ليس لدينا أي معرفة من الدرجة الأولى عن كيفية تخزين هذه الألواح في مكاتب فنيوى.

ومع ذلك فقد ملأت الحفريات التي حصلت في نمرود هذه الثغرة ، فقد أتت الرسائل الرسمية التي وجدت هناك من أرض غرفة في البناء الواقع هناك والمعروف بالقصر الشمالي الغربي ، ولا تزال الحاويات التي حفظت فيها هذه الألواح ترى هناك.

وكانت هذه الحاويات بشكل صناديق يبلغ حجم الواحد منها قدماً مكعباً ونصف قدم ، وهي مصنوعة من الحجر المشوي الكبير ، ويبدو أنه من المحتمل أن تكون ألواح مكاتب آشور بانيبال قد خزنت بنفس الطريقة.

إن أنواع النصوص التي وجدت في مكاتب آشور بانيبال تعطينا دلالات عن وجود أدب تعليمي مدرسي رئيساً كان من أصل بابلي وهو مستعمل في آشور ، ولا يقدم لنا الاستعراض التالي قائمة مستفيضة بل هو يدل على بعض الأصناف الأساسية للنصوص.

وأما الأصناف الموصوفة من قبل في أول هذه الكتب فلم تذكر مرة ثانية ما لم يكن هناك نقطة خالية ينفي ذكرها حول هذه الأصناف.

نصوص تماثيل الفال

كان أكبر فئة من فئات النصوص التي وجدت في مكتبة آشور بانيبال مختصة بالفال، وقد قدر أن أكثر من ربع المجموع المقدر بـ ١٠٠٠-١٢٠٠ لوح كانت من هذا النوع.

ولقد شكلت قضية ملاحظة ومعرفة الفال في الثقافة البابلية والآشورية جزءاً هاماً بارزاً من هذه الثقافة.

فقد كانت وسيلة يستطيع بها الملك أو أي شخص عادي أن يعرف ممبياً أي حوادث سيئة تنتظره بحيث يستطيع القيام بالخطط اللازمة لتجنب النتائج الخطرة. ولقد نشأ في دولة آشور في الألف الأول شكل من أشكال التفسيرات وهو استعمال النصوص الأثرية، ولقد أنتجت بابل ومن وقت مبكر أنواعاً أخرى كثيرة وهي الأصناف التي ذكر أكثرها في مكتبة آشور بانيبال.

وإن قضايا الفال يمكن ملاحظتها في عدد واسع من الحالات والظروف مثلاً: ظهور عدد كبير من النمل أو الحشرات أو المواشي أو الفم أو الحيوانات الأخرى أو الطيور أو الأفاعي أو العقارب أو الأحلام والنامات، أو من ظهور النار أو من الدخان أو من نماذج طفو الزيت فوق الماء، أو من الممارسة الجنسية للبشر، أو من الولادات الوحشية، وقد رثبت هذه الحالات من الفال بشكل تتابع طويل اتخذ في المستقبل، على المدى البعيد من الزمن شكلاً رسمياً أو دينياً.

وقد عرفت مثل هذه النصوص بشكل تقني كسلاسل لكل واحدة منها اسمها الخاص ووضعها الخاص مثلاً: إذا كانت المدينة مبنية على تلة إلخ.

ولكن الحقيقة أننا نحتاج لصفحات عديدة لتعطي أمثلة على كل نوع من الأنواع الرئيسية ولكن هما يلي نوضح بعض هذه الأشكال:

إذا رأى أي رجل متامناً يظهر فيه ككته من صلتني الأختام فإن ولده سوف يموت

وإذا رأى نفسه يقوم بعمل قمار للتسيج بواسطة القمع أو الإجماء
فإن كان ذلك الرجل فقيراً فإن ذلك يعني: أن المصائب سوف تطارده ولن تصيبه.

إذا صب الإنسان الماء على باب داره واتخذ الماء المصبوب بشكل أفعى.
فإن هذا الرجل سوف يمارس شيئاً من الأفعال الشريرة.
وإذا رأى المرء نفسه مقطوعاً بالثليل
فإنه سوف يجد ملعاماً يأكله إذا حدثت مجاعة في بلده.

نصوص تعليم الكتابة

لقد كانت هذه المرتبة الثانية لأهم مجموعة من النصوص وأصلاً كانت هذه
عبارة عن مضاعفات مصاحبة للمعرفة التقنية الأساسية المطلوبة لتأهيل الكتابة في
اللفة الأكادية والسومرية.

وكانت هذه تشمل قوائم من العلامات المسمارية مع تفاسير وقوائم مشابهة،
وقوائم من الكلمات السومرية أو الأجنبية مع ترجمات أكادية ونصوص مكتوبة
بلفتين: لغة سومرية ولغة أكادية مشابهة في أساسها الموسوعة روجيه (Roger's
Thesaurus).

الطقوس والابتهالات

تشمل هذه الرجاء المباشر من الآلهة وما ندعوه طقوساً دينية وسحرية لتقديم الحماية ضد الشر أو لإطلاق سراح شخص من تلك القوى الشريرة، وقد كانت بعض هذه التصوص مخصصة للطقوس الملكية الرسمية بينما تطبق الأخرى على فرد من الأفراد المهنيين بالمصائب أو المصابين بها.

ولقد ذكرنا بعض المقتطفات من هذه الفئة في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب والنصوص التي نحن بصيحتها تشمل سلسلة مستمعة ضد عمل السحر، وأخرى ضد الأرواح الشريرة التي كانت مفضية وغير ظاهرة وباستطاعتها أن تهاجم الإنسان في أي زمن وفي أي مكان، وهناك سلسلة ثالثة تحمل اسم الحرائق وهي مأخوذة من الابتهالات والطقوس المصاحبة لهذه الظواهر.

وكانت تستعمل لملاج أي رجل يشكو من مرض يظن أنه قد أصابه من دخول إحدى الأرواح الشريرة إلى جسده نتيجة لارتكابه إحدى الممنوعات الدينية أو المحرمات أو نظراً لافتراضه ذنباً من الذنوب، وهناك مجموعة خاصة تموز وتحدد أسباب الإصابت وتشمل الذنوب التي نصنفها حسب معاييرنا الحديثة بأنها خرافات ضمن المجتمع والدين ومن الممكن أن يكون الأذى ناتجاً:

عن الممنوعات الشريرة التي تناولها في طابعه.

وعن كثير من الأعمال السيئة والذنوب التي ارتكبتها.

وعن تقريظه جماعة من الناس

وعن الجماعة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً والتي فصلها بعضها عن البعض الآخر.

وعن عدم احترامه لأحد الآلهة وإحدى الآلهات

وعن حنثه بوعده فتمه من قلبه وهمه ولم ينفذه.

وهناك قسم من هذه السلسلة يشيرون بشكل حازم إلى الألقاب الاجتماعية والعرقية واعتبارها بسبب من الأساليب إصابة الإنسان بالأذى وهذا القسم يدعو إلى التخلص من:

أن فلاناً الفلاني، ابن فلان الفلاني، وأبنة فلان الفلاني
والهته الفلانية وإن أسماء فلان الفلاني مذكورة بالضبط في النص (بعد الدعوات والابتهالات يذكر اسم الشخص المصريح)

وفلان الفلاني هو مريض ومضطرب البال

وهو الذي فرق الابن عن أبيه

والذي فرق الأب عن ابنه

والذي فرق الابنة عن أمها

والذي فرق الأم عن ابنتها

والذي فرق الكنة عن حملتها

والذي فرق الأخ عن أخيه

والذي فرق الصديق عن صديقه

والذي فرق الرفيق عن رفيقه

والذي لم يطلق سراح الأسير ولم يطلق سراح المبد

والذي لم يدع الرجل السجين وهو في السجن يرى ضوء النهار.

إن معالجة الأمور المستعملة في سلسلة سحرية تشمل طقوس التطهير مع استخدام السحر العاطفي، وإن المظهر المركزي فيه هو أن الأشياء تناول شيئاً من البصل أو الثمر أو قطعة من الصوف وثم مرّوها إرباً إرباً وألقاها في النار في الوقت الذي يتلو بعض الابتهالات، وحالما كان البصل يقشر ويترك يحترق هكذا كان الشرف حسب الإنسان يقشر ويحترق ويتلاشى.

وهناك قسم من هذه الابتهالات هكذا تأتي:

ابتهال: حالما يقشّر هذا البصلة ويرميها في النار
ويلتهمها اللهب نهائياً
بعيث لن نزرع في حديقته
ولا نقف بإزاء خندق أو شاة لكري
ولا تمتد جذورها داخل الأرض
ولا يظهر لها أغصان ولا ترى الشمس
ولا تميل إلى مائدة أحد الآلهة أو أحد الملوك
وهكذا أرجو أن يقشّر المرض الذي أصاب جسمي ولحمي وأوردتي كما
قشّرت هذه البصلة
وأرجو أن تلتهم النار الآمي في هذا اليوم.

الأساطير والملاحم (القصص البطولية)

هناك طبقة من النصوص البابلية والآشورية تروى للقارئ العادي في هذه
الأيام، ولم تكن ليس هناك من سبب يدعونا أن نفترض معاملة أمالي منطقة ما
بين النهرين في هذا الإعجاب.

والحقيقة أن الأساطير والقصص البطولية كانت متغلّفة بالنسبة لتصوص
القال والأدب المدرسي في عدد الألواح الموجودة في مكتاب كيونيجهك، ويدخل في
هذه الفئة نحو أريمين نصاً.

إنّ التمييز ما بين الأساطير والملاحم أي: القصص البطولية هو أن الأساطير
تعالج الأنشطة على المستوى الإلهي والديني، بينما تهتم الملاحم بأعمال الأبطال
ومع أنها تحتوي على كميات كبيرة من مواضيع ما وراء الطبيعة إلا أنها لا تخرج
عن المستوى الإنساني.

ولقد أنتج بحث أصول وهدف الأساطير ولا يزال ينتج كميات واسعة من
التخمين الذي ليس هناك من مجال لبحثه هنا.

ولكن من الواضح أنه وبالنسبة ليلال القديمة (التي أخذ الآشوريون أساطيرهم منها) من الممكن تمييز مظهرين من مظاهر الأساطير:

أحدها: تفسير حول النظام في العالم.

والآخر: تقرير النوات التي سوف تظهر على المستوى السياسي وحتى الشخصي.

وقد اشتملت الموضوعات الخاصة بالأسطورة على المجالات التالية:

وأصل هذا الحكون والخلاقات بين الآلهة وخلق الإنسان والنظام الاجتماعي.

إن أهم أسطورة وجدت في منطقة ما بين النهرين في الألف الأولى كانت أسطورة الخلق التي اركز عليها عيد رأس السنة في بابل.

وقد اشتمل هذا على ثلث من عدد من الأساطير الأقدم عهداً والتي تم جمعها وتجويدها بقصد تمجيد مردوخ إله بابل.

ولقد قدمته الأسطورة كإله صغير ولكنه جبار وقد قلب على قوى الفوضى التي كانت بشكل التهيئة تيامات وجنودها ، ولذلك فقد وهبت الآلهة السيادة لمردوخ في مجتبع الآلهة التي كانت حاكماً على الآخرين.

وقد كانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى بابل وهي المدينة التي كانت المجلية بالنسبة لكثير من المدن الأخرى التي كانت تعود في أصولها إلى زمن السومريين.

انتقلت إلى بابل المكانة والهيبة كمركز من المراكز الدينية الأشد احتراماً.

ولقد اهتم الآشوريون تلك الأسطورة ، ولكنها بدورها سببت لهم مشكلة لاهوتية ، فقد ادعوا أن الإله القومي آشور احتفظ بالقوة العالمية وهذا غير منسجم مع اللاهوت البابلي الذي ينعص على سيادة مردوخ ، ولقد حل الآشوريون هذه المشكلة بأن استبدلوا مردوخ بالإله آشور خلال تلك الأسطورة.

لقد كانت الملحمة العظمى في كل من بابل وآشور هي ملحمة جلجامش.

وهناك شاهد جيد يشير إلى أنه كان هناك شخص اسمه جلجامش وقد كان حاكماً على مدينة أوروك (أبريش) في أوائل الألف الثالث ولقد أنشئت عدة ملاحم حول هذا الرجل مكتبها جماعة من الكتبة السومريين في الألف الثالث.

وفي أوائل الألف الثاني ظهر شاعر بابلي عظيم استلم هذه الملاحم السومرية وترجمها إلى اللغة الأكادية وجمعها كلها معاً بأسلوب ذكي ليشكل ملحمة واحدة عظيمة، حتى أنه تدخل في قصة الطوفان التي لم يكن لها علاقة بجلجامش، وهناك عدة مواضع ثانوية في هذه الملحمة ولحسن الحظ السمة الأساسية التي تجري وتستمر فيها هي مشكلة موت الإنسان ومعلولة الإنسان أن يساوي نفسه مع الآلهة الخالدين، فضلاً عن القتل المحتوم لهذا الهدف عند انحدار الإنسان في هاوية الشيخوخة والموت، ومع ذلك وفي النهاية ينتصر جلجامش والإنسانية التي يمثلها جلجامش معبراً عن منجزات البشر الخلافة.

وقد كانت هذه الملحمة معروفة خلال منطقة الشرق الأدنى القريبة، وذلك طبقاً لما كنا نعرفه من مقاطع من النصوص التي وجدت في عدة أماكن بما فيها فلسطين الواقعة خارج منطقة ما بين النهرين، ولا عجب أن تتمثل بوجود عدة نسخ منها (ولكنها ليست كاملة) في مجموعة كويونيجيك.

ونحن لا نعرف ما هي الأغراض التي خدمتها ملحمة جلجامش بالنسبة لأشور، وليس هناك من سبب أن نفترض أنها قد استعملت في الطقوس، ولكن دون أي رموز درامية، ويمكن أن نخمن أن هذه الملحمة كانت تنلى أشاء الحفلات في القصور الملكية، ولكن ليس هناك من شاهد ملموس يؤكد هذا الرأي.

تشتمل نصوص كويونيجيك معظم الملاحم الأخرى المعروفة من بابل، ولكن هناك ملحمتين قد تم تأليفهما في آشور ولكنهما لم تكونا تقارنان مع ملحمة جلجامش في عمقها وفي قيمتها الأدبية.

ولكن كليهما قد خلدتا انتصارات ملوك آشور في الفترة المتوسطة، وفي هذه الحالة نحن نتعرف على هدفهما، وقد كان هذا الهدف هو الدعاية فقد كان لهما

غرض سياسي ديمتي وهو إظهار حادث استيلاء آشور على بابل بأنه كان طبقاً
لرغبة الآلهة.

أدب الحكمة

تمثل هذه الفئة من الأدب القديم في الشرق الأدنى المعروف لدى الشعراء
الغريبيين، ما كتب في التوراة عن هذا الموضوع مثلاً: سفر الأمثال، سفر أيوب،
سفر الجامعة.

ولا نعلم عن أي عمل من هذا النوع كان أساسه آشور، ولكن معظم أدب
الحكمة البابلي كان موجوداً في آشور، وما عدا وجود مثل عربي مقتبس من
الرسائل فليس هناك أي دلالة أن مثل هذه النصوص قد نمت دوراً مرموقاً في
الحياة الآشورية والفكر الآشوري، ولم تكن الأمثلة الرائجة في آشور لتخرج عن
الدوائر الكتابية المحدودة.

ولكن هناك ثلاثة أعمال ذات أهمية جوهرية فلا يجوز إغفالها.

الأول: هو تاليف ما يدعى (الأسف أمدح إله الحكمة) حيث نرى
المتكلم في مرتبة الأمراء المرموقة، ولكنه يجد نفسه مهجوراً من قبل الآلهة
ويطرد من الوظيفة والامتلاكات، ويصاب بالأمراض والألم، ومع ذلك فهو يصبر
على أنه لم يهمل واجباته تجاه الآلهة، وهكذا فإن النص مؤلف نوعاً ما من
الامتنان كما هو في سفر أيوب التوراتي، وبالنسبة لمشكلة الشر فهو في مستوى
أدنى بكثير.

وفي النهاية نقول: إنه من الممكن نشوء نزاع نظراً لأنه ليس بمقدور البشر أن
يعرفوا إرادة الآلهة المغفية، إن ما هو مناسب للإنسان ربما كان ذنباً بالنسبة
للآلهة. وما يبدو حقيراً أو خسيساً بالنسبة للإنسان ربما كان مناسباً بالنسبة
للآلهة، ولكن من هو الذي يعرف إرادة الآلهة في السماء.

وهناك عمل آخر معروف (التبرير البابلي للاهوت البابلي) وهذا ظهر بشكل حوار جرى بين شخص متألم وصديقه، يشكو المتألم من الظلم الذي يكثف الحياة.

ولكن الصديق يقدم أجوبة مبتذلة عن روح التدين البابلية التقليدية وعندما يشير المتألم إلى أمثلة عن أولئك الذين خدموا الآلهة دوماً ومع ذلك فإنهم يتألمون ويصادفون الصعاب، فإن الصديق يؤكد أن التقيد الكامل بالتقوى وبالتدين ينبغي أن يكافأ بالخير والأزدهار، وعندما يشير الشخص المتألم إلى وجود رجال أشرار ولعنهم ناجعون ومزدهرون، فإن الصديق يؤكد له أن هؤلاء سوف في النهاية يتألمون عقاباً على أعمالهم السيئة دون شك.

وهناك تأليف آخر يدعى (حوار حول التسليم) وهذا يمثل حواراً بين أحد الأسياد وأحد العبيد الذين يملكهم هذا السيد.

وهنا يقترح السيد إعلان مجموعة معينة للعمل، ولكن العبد يوافق بشكل باعث على الفشان، وعند ذلك يفهر السيد رايه فوراً مشيراً إلى الفباء الذي عرضه في اقتراحه الأول، وعندما يتفهر رأي العبد ويقدم أفكاراً تدعم وجهة نظر السيد الأخرى، وهكذا تبين أن هدف القصيدة هو الإشارة إلى أن الأنشطة البشرية هي في غاية التفاهة.

أصناف أخرى من النصوص

هناك نصوص أخرى كثيرة مأخوذ بعضها من مجموعة هكينيونجيك وبعضها من مواقع آشورية أخرى ليس أهلها من آشور ولكنها لا تتناسب بسهولة مع أي فئة من الفئات الرئيسية الأخرى.

مثلاً القصة المعروفة باسم (الرجل الفقير من نيبور) وهي تتحدث عن رجل فقير قد غشته حاكم المدينة، فلهذا استعمل هذا الرجل الفقير وسائل ذككية للحصول على وسائل الانتقام.

وقد ذكرنا هذه الحادثة في فصل سابق وفي مناسبة أخرى، وهناك على الأقل نصان آشوريان يعودان إلى القرن الثامن أو أوائل القرن السابع وهما يُخَصِّفان بالميل نحو الدعاية السياسية ضد بابل تحت ستار ديني، كما وجد نص متماثل مع البابليين.

ويحتوي أحد النصوص المؤثرة وهو من أصل آشوري قصيدة من الشعر حول حملة مرجون وقد اقتبسنا من تلك القصيدة بعض أبيات بشكل رسالة إلى الإله آشور وهناك رسائل من هذا النوع معروفة.

وليس لدينا سوى مثال واحد عن نصوص تشمل عقد معاهدات مع الأتباع، أو شرعة تحدد بعض الامتيازات الخاصة التي موفى تتمتع بها مدينة آشور، وهناك نص يتناول تدريب الخيول ولكن هذه القائمة لم تكتمل ولن تكتمل، وحتى القائمة الكاملة لن تكون نهائية نظراً لأن هناك مئات الألوف من الأنواع المسماة التي لا تزال مجهولة ولم يقرأها أحد، وهي محفوظة في متاحف العالم.

وهناك أعداد أكبر لم تكتشف بعد ولم تُجر أي حفريات بالنسبة لها ولهذا فمن الممكن أن تبرز أي نصوص تقدم لنا أشياء جديدة كلياً بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين القديمة.

الفصل الثامن عشر

اكتشاف بلاد آشور من جديد

بعد أن سقطت آشور في نهاية القرن السابع قـم حُلَّ محلها كمركز للإمبراطورية العالمية أولاً بابل وابتداء من عام (٥٣٩) إيران. ولم تُعمر بنايات آشور زمنًا طويلاً بعد الدولة التي أنشأتها..

وحتى في أيام عز آشور فإن المعابد الرئيسية والقصور لم تكن لتستمر في بنائها، وإذا حكمنا عن طريق سجلات الترميم فإن أكثر أيامها كمراكز صالحة للاستعمال قلما تجاوزت ثلاثة قرون، وغالباً ما كانت أقل من ذلك.

ومع أن أبنية منطقة ما بين النهرين القديمة كانت جميلة بما فيها من الحجارة والقرميد المشوي، إلا أنه وعلى العموم كانت أبنية كثيرة تتألف من القرميد والطين وهو الوضع الذي يتأثر بهطول الأمطار، ومع أن المعدل الوسطي لهطول الأمطار في آشور منخفض نسبياً فإن مثل هذه الأمطار التي تصاحبها أحياناً العواصف الطويلة الأمد في آشور القديمة مما يسبب دخول الماء في شقوق موجودة في سقف المنازل.

وبعد سقوط آشور ساءت الأحوال، فقد حدثت الحرائق التي ساهمت في تخريب كثير من المنازل بشكل سريع، وفي خلال قرنين لم يبق أي شيء يمكن تمييزه في العواصم الآشورية ما عدا المعالم الخارجية لأسوارها وحصونها.

وقد علمنا ذلك من الوصف الذي أطلقه كئز نيفون وهو أحد الجنود المورخين اليونانيين عندما حضر في عام ٤٠١ قـم بصفته قائداً لأحد الجيوش المرتزقة التي كانت تحارب في طريق رجوعها من بلاد الفرج إلى بلاد اليونان.

فقد نصب بعض المعسكرات مع رجاله في أمكنة لم تكن معروفة بالنسبة إليه، ولكننا نعرفها عندما يشير إلى أماكن مثل كالاخ ونيئوي، ويبدو بأن كلا المدينتين قد أصبحتا أمثلة لما كنا نعرفه من الكلمة العربية (تل) فالتل هو مرتفع

صناعي ناتج من احتلال بشري قديم، وقد كان المستوطنون الأوائل يبنون بيوتهم ومعابدهم على أرض بكر وغالباً ما تكون على مرتفع طبيعي بسيط.

وعندما انهار وسقط هؤلاء المستوطنون الأولون وانهارت الأبنية فإن الجيل الثاني كان يسوي الأنقاض ويعيد البناء فوق الأبنية القديمة.

وهكذا يرتفع مستوى سطح الأرض، وهذه العملية تسهم في زيادة تراكم الأتربة والأوساخ، وفي بعض الحالات كانت المعابد والقصور تبنى فوق منصات، وكانت هذه العملية تستمر دون كلل أو ملل بحيث إنه وفي خلال قرون أو آلاف السنين كانت المستوطنة ترتفع عالياً فوق السهل الأصلي.

ونحن نعرف على سبيل المثال أن جزءاً من كوينونجيك ومنطقة القصر في نينوى ترتفع سبعين قدماً فوق الأرض البكر.

وعندما أصبحت المستوطنة خالية من السكان بسبب الحرب والأمراض أو لأسباب أخرى عندها أصبحت هذه المناطق وبسبب العواصف الرملية التي طالت اجتاحت العراق والتي كانت تقطعي خرائب الأبنية وبالتدريج عملت على إنشاء مرتفع ذي سطح أملس ومكسور.

وذلك باستثناء بقايا التراجورات والأبنية المرتفعة التي تجرز إلى الأعلى فوق المستوى المعروف، وإن مثل هذه التلال المتدرجة في أشكالها ابتداءً من أقل من فدان حتى ما يزيد على ثلاثمائة فدان بالنسبة لقلعة مروحان (آشور القديمة) وهذه الأبنية متناثرة في جميع أنحاء منطقة ما بين النهرين.

وهناك أماكن يزيد عددها على المئة ومن الممكن رؤيتها لو زار كنز نهبون منطقة كالاخ ونينوى في ظروف مواتية فإنه كان سوف يعلم شيئاً عن هوية تلك الأمكنة وتلك الخرائب من السكان الأصليين، إذا إن سقوط الإمبراطورية الآشورية لم يسمح من الوجود السكان الأصليين فقد كان هؤلاء وبشكل واضح مزارعين وفلاحين.

ونظراً لأن آشور كانت تحتوي أفضل الأراضي المختصة بزراعة القمح في الشرق الأدنى، فإن أنسال الفلاحين الآشوريين سوف يبنون قرى جديدة حسب ما تسمح به الظروف فوق المدن القديمة، ويستثمرون في حياتهم الزراعية وهم يتذكرون تقاليد المدن السابقة.

وبعد سبعة أو ثمانية قرون أصبح هؤلاء مسيحيين، وقد عمد هؤلاء المسيحيين مع المجتمعات اليهودية المبعثرة بينهم إلى إحياء ذكرى مواقع أجدادهم الآشوريين، بل لقد ربطوها مع التقاليد المأخوذة من التوراة، ولقد أصبحت التوراة عاملاً قوياً في إحياء ذكرى آشور ولاسيما نينوى، فقد كانت نينوى واقعة في مركز الخرافات التوراتية، هناك قصة النبي يونان الذي حاول عبثاً أن يتخلص من واجباته الدينية بالتشير لدى العاصمة الوثنية.

وفي جزء من خرائب مدينة نينوى كان هناك مرتفع مقدس وكان هذا معبداً آشورياً عمد المسيحيون واليهود إلى وصفه بأنه المكان الذي كان النبي يونان يبشر فيه، ولذلك فقد بنيت كنيسة في ذلك المكان وعلى ذلك الموقع، وعندما استولى المسلمون على منطقة ما بين النهرين في القرن السادس بم جعلوا يونان (يونس) وأصبح محترماً عند المسلمين واليهود والمسيحيين، ولقد حل محل الكنيسة مسجد ولكنه ظل محتفظاً باسم يونان.

ولقد كتب الجغرافيا المسلم "المقدمي" في القرن العاشر عندما وصف منطقة الموصل: ((هنا سامع الإله شعب النبي يونان)) أفلا تحتوي هذه المنطقة على مسجد النبي يونس في تل التوبة الذي يقال: إن سبع زيارات لهذا المسجد تعادل الحج إلى مكة، وهناك زائر آخر مسلم وصل إلى الموصل في نفس القرن وهو ابن حوقل قد تحدث عن أرض نينوى الخصبة حيث دفن النبي يونان.

روايات الرحالة

إن أحد العوامل التي ساهمت في عظمة آشور هو موقعها على الطريق الطبيعي الرئيسي على نهر دجلة، ولقد أكد هذا العامل مرور الحجاج الكثيرين والتجار في كل قرن من القرون بخرائب آشور، وكان أول الرحالة هؤلاء الرابي اليهودي بنيامين من توديل في إسبانيا، وقد رحل هذا إلى عدة مدن من الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر بـم وكان يستطلع المجتمعات اليهودية والمواقع التوراتية ويكتب ما يلي عن الموصل:

((إن الموصل تمثل آشور العظمى، ويمر فيها حوالي سبعة آلاف يهودي، وتقع الموصل على نهر دجلة وهناك جسر يصلها بنينوى، وينتهي هذه الآن خربة ولكن ضمن خرائبها هناك بعض القرى والمجتمعات ويمكن تحديد مساحة نينوى من خلال أسوارها البالغة أربعين ميلاً فارسياً، وتمتد حتى مدينة أربيل وفي بلدة آشور هناك كنيس (عوبيا) الذي بناه (يونان)).

وهنا ومع التحديد الدقيق لموقع نينوى نجد تقديرات مبالغاً فيها عن طول أسوار المدينة، ولقد تأثر هذا بالرغبة في التوافق مع الأقوال التوراتية التي تذكر أن نينوى كانت بلداً كبيراً للغاية على مسيرة ثلاثة أيام.

وقد وقع (بنيامين) بالخطأ عندما ذكر أن الموصل هي نفس مدينة آشور، ومع ذلك فإن التحديد الصحيح لموقع آشور إلى الجنوب معروف بشكل تقليدي وذلك كما نعلم من جغرافيا عربي آخر، وهو أبو الفداء من أوائل القرن الرابع عشر بـم وهو يقول عن الموصل:

((وفي المقابل على الضفة الشرقية تقع خرائب نينوى وإلى الجنوب من الموصل يلتقي نهر الزاب الأصفر بنهر دجلة قرب خرائب مدينة آشور)).

وفي القرن السادس عشر زار الموصل شخص اسمه (راؤولف) وهو ألماني يوصف بأنه مشهور بمهارته في معرفة المنتجات الطبيعية وأعمال الحجاج، ويقول ما يلي في وصفه تلك الزيارة:

((وفي هذا المكان وفيما حوله تقع المدينة الجبارة نينوى التي كانت عاصمة آشور ، ولكن ليس هناك في هذا الوقت أي آثار ظاهرة ما عدا القلعة الواقعة على التل وبعض القرى التي يقول السكان عنها بأنها كانت تابعة لها في الأزمنة القديمة)).

إن غياب الآثار البارزة ذُكر مرة ثانية في أوائل القرن السابع عشر من قبل المبعوث الإنكليزي إلى بلاط دولة فارس وهو (أنطوني شيرلي) ، وهو يخبرنا أنه لم يبق هناك حجر مستقر في نينوى من المصكن أن يعطي الانطباع بوجود مدينة صغيرة ، ونظراً لافتقارها إلى وجود الآثار لم يكن لدى (المسير أنطوني) أي شك بالنسبة لموقع نينوى وذلك لأنه يضيف ما يلي:

((وعلى بعد ميل واحد من هناك مصلان يدعى الموصل وهي شبه صغير ولكنها شاهد على عظمة الآخرين وعظمة الآلهة أكثر من إظهار أي مظهر من مظاهر العظمة نفسها)).

وكان هناك أحد المعاصرين وهو (جون كارترايت) الذي كان يستطيع أن يرى في الخرائب أكثر من رأي (المسير أنطوني) وهنا نراه يصف وصوله إلى الموصل ويقول:

هنا وفي هذه السهول الآشورية على ضفاف دجلة بُنيت نينوى من قبل نمرود ولكن أنهاها نينوس ، ويبدو أنه بمشاهدة الخرائب والأسس (التي رايتها رأي العين) إنها كانت مبنية ولها أربعة جوانب ، ولكن لم تكن هذه الجوانب متساوية ، ولم تكن مربعة لأن الجانبين الطويلين كان كل منهما بطول مائة وخمسين فيرلونج أي: ستون ميلاً ، وأما الجانبان القصيران فيبلغ طول الواحد (٩٠) فيرلونج أي: (٣٦) ميلاً.

لقد كان تخمين (كارترايت) مبالغاً فيه ولكنه قد حنّد بدقة أطوال أسوار نينوى ، ولقد سبقه في ذلك الرحالة المسلم في القرن الرابع عشر وهو ابن بطوطة الذي ذكر موقع نينوى بالموصل وهو يقول:

((لا تزال آثار السور المحيط بالمدينة قائماً ومن الممكن رؤيته وتُرى مواقع البوابات التي كانت فيه بوضوح)).

وهناك رجل فرنسي هو (ج. شافير بارون أويوني) وهذا قد زار الموصل في النصف الثاني من القرن السابع عشر وقد زاد على تقديرات كارترايت حول أبعاد مدينة نينوى وهنا نقرأ ترجمة معاصرة لما ذكره نقرأ :
ليس هناك ما يستحق الذكر في موقع الموصل..

ولكن الآن دعونا نعبّر دجلة ، وهناك جسر من القوارب ، لنرى منظرًا حزيناً لخرائب مدينة أثار ضجة كبيرة في العالم مع أنه لم يُعد هناك ما يذكرنا بعظمتها الماضية.

ولقد بُنيت على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة على الجانب الأشوري ولكنها أصبحت الآن كومة من القاذورات ممتدة على بعد حوالي فرسخ على طول النهر ، وهناك عدد من المراديب والكهوف غير المسكونة ولا يمكن لأحد أن يحزر فيما إذا كانت هذه هي المسكن القديم للسكان أو فيما إذا قد بُنيت أي بيوت في ذلك الموقع في الأزمنة القديمة وعلى بعد نصف فرسخ من نهر دجلة تقع ثلة صغيرة تحيط بها البيوت وقد بُني مسجد هناك.

ويقول سكان المنطقة إنها هي المكان الذي دُفن فيه يونان ، وبعد أن قطعنا نهر دجلة سافرنا لمدة ثلاثة أرياع الساعة من نينوى (أي: ميلين أو ما يقارب ذلك) وابتداءً من ضفتي النهر حتى المكان الذي سكننا فيه في ذلك المساء ولم نر أي شيء سوى الخرائب المستمرة التي تجعلني أعتقد أن المكان الذي تقع فيه نينوى القديمة.

وحتى الآن تتفق التقاليد وتقارير الرحالة بشكل إجماعي وتؤكد أن الخرائب المقابلة للموصل هي نينوى القديمة.

ولكن ظهر أخيراً أحد المعارضين ، ففي حوالي منتصف القرن الثامن عشر سكن الرجل الفرنسي (م. أوتو) يميل إلى وجهة النظر التي مفادها: إن نينوى لم

تكن مقابل مدينة الموصل، ولكنها كانت تتمثل في بعض الخرائب الواقعة في مكان يدعى (أسكي موصل) (أي: الموصل القديمة باللغة التركية) وهي على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال.

وقد أبد هذا الرأي بما قيل إنما هو ادعاءات باتصال أسكي موصل القديمة ببونان مع أنه كان علماً بالتقاليد التي نقلها أبو الفداء وغيره من الجغرافيين العرب، وقد أنهى كلامه بقوله :

((إن كلاً من أبي الفداء والسكان الأصليين كانوا مخطئين)) ولكن نظراً لأنه لم يمس هناك من تعرف على التقاليد بالنسبة للموصل القديمة لذلك فمن المرجح أن هذه المشكلة كان سببها هو (أوتور) نفسه.

وعندما نتحدث عن التقاليد الخاصة بالموصل في الأزمنة القديمة فإن السكان في شمال العراق لا يزالون يفضلون استعمال الاصطلاح الذي يمين الموصل القديمة. وهذا وفي زمن أوتور كانت اللغة التركية هي اللفظ المائد في شمال العراق، وقد كان أوتور يتكلم تلك اللغة بنفسه ، فإذا كان أوتور يستعمل اللغة التركية لكي يسأل السكان المحليين عن تقاليدهم فإنه كان من الممكن أن يشير إلى الموصل في الأزمنة القديمة باسم الموصل القديمة.

إن تحديد (أوتور) لمكان نينوى كان نوعاً من الضلال والخطأ ، إذ كان من الواجب أن يكون أكثر معرفة ودراية بالأمر، وذلك لأنه وفي منتصف القرن الثامن عشر كانت الموصل مشهورة بخرباتها حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يذهبوا إلى هناك.

وقد عرفنا ذلك من شخص اسمه (بارثلميو بلاستيد) وهو مهندس ومساح كان يعمل في شركة الهند الشرقية ففي عام ١٧٥٠ قد سافر إلى وطنه من بلاد الهند براً من البصرة ومع أن طريقه إلى الوطن كانت تمر ببغداد بعد الصحراء السورية إلى حلب فقد أشار ناصحاً المسافرين الآخرين أنه كان هناك بديل مناسب فقال :

((إذا كنت سوف تشعر بالتعب من فترة الانتظار في بغداد عندها يمكنك التقدم نحو الموصل، وذلك سوف يقدم لك كمية كبيرة من التثبير نظراً لأن هناك كثيراً من بقايا وخرائب قديمة سوف تسبب لك شيئاً من المتعة والتسلية خصوصاً إذا كان لديك ميول من هذا النوع.

وخلال عقدين من الزمن بعد (أوتبير) صرّح الممتدكشف الدانيمركي (كارستين نيبون) بأن ليس لدى أي شك أبداً أن خرائب نينوى تقع قرب الموصل، وهو يذكر اسم قرية تدعى تونيا وأهمه على تلة كبيرة ومسجد كان قد دفن فيه النبي يونان.

وهناك تلة أخرى في هذه المنطقة تدعى (كالكونيا) أي: قلعة نينوى.

وفي التلة الأخيرة كان هناك قرية تدعى (ككونقس جاغ) ويقوم بإبراز صورة عن منظر المسجد وقرية نونيا وأسوار المدينة.

تفسير المخطوطات

لم تشمل إعادة اكتشاف آشور إعادة معرفة وبيان الحفريات في مواقعها فحسب، بل أيضاً تفسير كتاباتها، إذ إنه وابتداءً من القرن السابع عشر ق.م. ظهرت تقارير عن وجود كتابات غريبة مؤلفة من إشارات إسفينية منقوشة على القرميد والحجر في مواقع قديمة مختلفة في الشرق الأدنى.

مثلاً: هناك رجل إيطالي يدعى: (بيروتود بلا فالي) قد كتب لأحد أصدقائه في عام (١٦٢٥) بعض ما قد وجده في بعض الأطلال في منطقة ما بين النهرين الجنوبية التي تدعى: (موكيجد) التي تعرف الآن باسم (أورو) القديمة، وقد كتب يقول:

((لقد وجدت على الأرض قطعاً من الرخام الأسود وهو قاسٍ وجميل، وهو منقوش بنفس الحروف المنقوشة على القرميد، وبين الأحرف الأخرى التي اكتشفها في ذلك الوقت القصير وجدت حرفين متكررين في نفس المكان، أحدهما يشبه الهرم المثلث هكذا ...

والآخر: يمثل نجمة ذات ثلاثة أبعاد.)

ولكن المنطقة التي جُذِبَت الانتباه كانت في جنوب بلاد المجمع، ففي مكان يدعى: (تخت جاشد) وهو معروف الآن بموقع: (بير سوبو ليمس القديمة) إلا أن هناك بقايا ذات مظهر مؤثر لقصر رخامي وفيه عدة حجارة منقوشة.

ولقد نشر (بيثرو) هذا بحثاً عن الكتابات التي وجدت هناك مع بعض المعينات، وقد أتبع هذا النظام عدة أشخاص آخرين خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وبعضهم قد نسخوا ونشروا نقوشاً طويلة.

ولقد أتى الإسهام الهاماً من (كلارستن نيبور) إذ إنه لم يَقم بإعداد بعض النسخ الممتازة من النقوش في (تختي جامشيد) فحمب، بل أيضاً قد عرف أنها كانت تحتوي ثلاثة أنظمة مختلفة من الكتابات وكان أحدها أبجدياً.

ونحن نعرف الآن أن الملك الفارسي داريوس الذي بنى (بيرسوبوليس) قد كتب مخطوطاته بثلاث لغات البابلية والعلامية والفارسية القديمة، وكان لكل لغة من هذه اللغات نظام خاص من العلامات المسمارية.

أما بالنسبة للغة الفارسية القديمة فقد استعملت الأبجدية، هذا وإن نشر نسخ نيبور في عام (١٧٧٤-١٧٧٨م) قد أثار الاهتمام فيما بين الباحثين في أوروبا وقدم المادة اللازمة والحوافز لإجراء محاولات لتفسير المخطوطات، وكان الباحث الذي أحرز أعظم نجاح هو الألماني (ج. ف. جروتفند) من (جوتنجن) ولقد عرفنا مبادئ طريقته وسوف لا نعيد هنا.

ويكفي أن نقول: إنه وفي عام ١٨٠٢ استطاع نشر ورقة تشير إلى القيم الصحيحة بالنسبة إلى حوالي ثلث الأحرف الهجائية الفارسية المسمارية. ولكن الفضل في التفسير الكامل يعود إلى رجل إنكليزي يدعى (هنري كريسويل رولنسون) الذي سوف نقابله فيما بعد.

دعونا نرجع إلى منطقة ما بين النهرين فلقد أرسل عدد من الرحالة قطعاً من الفخار المنقوش إلى أوربة، ولكن لم تحدث أي حضريات علمية بعد ذلك، وإن أول

محاولة في هذا المجال بدأت خلال عقد من زمن (جروتفند) وأبحاثه ويحافظ تلك الأبحاث جزئياً، وكان الرجل المني هو (كلوديوس جيمس ريتش) وقد ولد هذا في فرنسا من والدين إنكليزيين عام ١٧٨٥ بهم ولقد عيّن في عام ١٨٠٢ موظفاً في شركة الهند الشرقية نظراً للسهولة التي أبداه في تعلم اللغات الأجنبية الشرقية.

وبعد سفره بعدة سنوات في الشرق الأدنى بقصد إجادة معرفته باللغة العربية والتركية وصل إلى بومباي في أواخر عام ١٨٠٧ بهم وقد اشترك في معيشته مع السير (جيمس ماكنتوش) المسجل المدني في مدينة بومباي وهو فيلسوف إنكليزي متميز ورجل مثقف وفي ربيع عام ١٨٠٨ تزوج (ريتش) بالابنة الكبرى للسير جيمس) ثم تعين وهو لم يبلغ الأربعة والعشرين من العمر في وظيفة مرموقة وهي المندوب السامي للحكومة البريطانية في بغداد، والتي كانت وظيفة شاقة.

وعندما استقر في منطقة ما بين النهرين التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، فقد قام بخدمات عظيمة للمصالح البريطانية التجارية والقضائية السياسية، وكذلك خدماته بالنسبة لعلم الآثار ككبيرة، ويستحق حماء (أي والد زوجته) بعض الفضل بالنسبة للخدمات الأخيرة وهي علم الآثار، وذلك كما سوف نلاحظ من النصيحة التي أرسلها السير جيمس إلى ريتش:

((إنه وعلى الرغم من الأبحاث والتحريرات في المناطق المجاورة (لهيلا) التي قام بها (بيرو ديلافالي) و(نيبور) و(بوشامبه) إلا أن هناك الشيء الكثير الذي ينبغي عمله بخصوص آثار بابل)).

ويقول الميجور دينيل: ((إن وضع أسوار المدينة لا يزال من الممكن التحقق منها حتى اليوم نظراً لأن التضاريس والخنادق قد تركت آثاراً واضحة، هذا وإن تخليط ووصف الموضع والآثار سوف يبرهن على وجود إحدى القطع الأثرية الغريبة التي صادف وعرضت في الأزمنة الحديثة.

ولهذا فإني أعتبر أن هذه القضية مهمة وتستحق إعطائها اهتمامك ومواهبك، وإن موهبة الرسم عندك سوف تقدم لنا خدمات مهمة، فإذا استطعت أن تجد آثاراً مهمة فإنك تكون قد أدت خدمة عظيمة)).

وبالانسجام مع اقتراحات ونصائح حماد (أي والد زوجته) بدأ ريتش بتنفيذ أولى حفرياته العلمية (المختلفة عن الحفر لإيجاد أشياء تكنولوجية) وذلك في بابل وقد نشر في عام ١٨١٢ كتاباً اسمه (مذكرات حول طرائف بابل) ويمدحها تيمه في عام ١٨١٨ المذكرات الثانية ، وقد خلد الشاعر بايرون هذه البداية في قصي علم الآثار من منطقة ما بين النهرين بقوله :

البعض من الكفار الذين لا يريدون

نظراً لأنهم لا يستطيعون أن يمشوا

على تلك البقعة في بابل بل لأنهم لا يريدون

مع أن كلوديوس ريتش المحترم قد حصل على قطع من الفرميد

وكتب كتابين من مذكراته في هذا الشأن

وفي عام ١٨٢٠ ولكي يهرب من الحرارة المخيفة في بغداد قام ريتش برحلة استكشاف من خلال جبال كردستان ، ويمد رجوعه عن طريق أربيل والموصل تقدم ببعض الملاحظات القيمة حول المواقع الآشورية في كل مكان قام بالتمرف وتسجيل الشواهد على وجود الآثار القديمة ، مثلاً : ((الثلة الاصطناعية العالية من الزمن القديم)) في (مكاروايمس) (وهذا موقع آشوري ولم يكشف عنه بعد).

وفي أربيل تأكد أن ذلك المرتفع القديم الذي يطل على المدينة الحديثة كان يحتوي على كتل من المواد الفخارية مع أنه ربط هذا الفخار ببلاد المجمع وليس بالآشوريين.

وكذلك قام ريتش بفحص شامل لأطلال نينوى وحتى ذلك الوقت وبمساعدة مساح يوناني قام بفحص المنطقة لإنتاج مخطط ثمين لموقع نينوى.

ويدعى المرتفع الجنوبي الرئيسي لنينوى يونس (الاسم العربي للنبي يونس) ويعتبره المسلمون في تلك المنطقة مقدساً بسبب المسجد الذي يملو المنطقة ، وبالنظر لافترائه مع يونان بحيث أصبح من الصعب إجراء حفريات في تلك المنطقة حتى هذه

الأيام نظراً لقدمها وهكذا أصبح البحث عن الآثار الآشورية متحسراً في الأبنية أو ترميم البيوت، وقد استفاد ريتش من هذا الوضع وكتب يقول:

تضم قرية النبي يونس حوالي ثلاثمائة ألف بيت، وهي مبنية على المرتفع الاصطناعي القديم وهي لا تغطي مساحة كل هذا المرتفع، ولقد تأكد قدم هذه المنطقة عن طريق وجود بعض الآثار التي ظهرت عند الحفر فيها بشكل عميق عندما ظهرت قطع من القرميد وقرميد كامل، وقطع من الجبس وكلها مغطاة بالنقوش على الطريقة المسمارية.

واليوم وجدنا بعض القطع تحت أسس بعض الأبنية، وكان أحدها قطعة مكسورة من الجبس وعليها أحرف مسمارية، وجدت في مطبخ بيت ضئيل، وقد ظهر أنها جزء من جدار ممر صغير يقال: إنه يصل إلى الجبل.

ولقد حفر بعضهم في هذه المنطقة في السنة الماضية، ولكن نظراً لأن هذه الحفريات ينبغي أن تتم تحت المنازل وخوفاً من تعرض هذه المنازل للهدم فقد أقتلوا هذا المشروع، وملأوه بالقاذورات.

وعلى بُعد قليل وفي غرفة صغيرة تمسكنها امرأة من سكان البلدة، وقد كانت هذه المرأة لطيفة جداً، وبشكل أدب سمحت لنا بالدخول وفحص المكان في أوقات فراغها.

وهناك وجدنا نقشاً آخر محفوراً بأحرف مسمارية كبيرة على قطعة من الجبس، وهذا النقش محبر وهو يمثل مركزه العادي، ومن الممكن أن نجد آثاراً قديمة أخرى في هذا التل، ولكن القسم الأكبر منها كان مغطى بأبنية من البيوت الصغيرة، ولهذا فإنه لا يمكن اكتشاف أي شيء إلا عند ترميم هذه البيوت أو سقوطها وهدمها.

وفيما بعد قام ريتش بفحص كامل سطحي في أكبر هذين المرتفعين في نينوى وسكورنيجيك وهو يصف هذه الأعمال بما يلي:

((إن جوانب هذا المرتفع منحدره وقمته منبسطة، وعلوه حوالي ثلاثة وأربعين قدماً، ومحيط قاعدته (٧٩٦) قدماً، وإن قمة هذا المرتفع لا تشير إلى أنه كان أعلى مما هو عليه في الوقت الحاضر، ولكن من الواضح أنه كان هناك أبنية فوقه وهي على الأقل حول أطرافه.

ومن الممكن استخلاص الحجارة والقرميد في كل مكان من هذا المرتفع، وبينما كنا ننظر حول هذا المكان وجدنا قطعة من القرميد والقضار مضطأة بشكل كثيف بكتابة مسمارية جميلة.))

لقد تعرف ريتش طبعاً على القصص التي تنطق بالخرائب قرب الموصل في نينوى، ولكن لم يكن لديه أي برهان حول هويتها، وقد اهتمت بالقول هذا بالنسبة للخرائب الباقية التي رآها في النبي يونس وكيونيجيك والأسوار المحيطة، ولكن سواء كانت هذه تنتمي إلى نينوى أو أي مدينة أخرى فإن هذا مسألة أخرى لم تثبت صحتها بعد، ولكن ليس هناك مجال للشك في كونها من عمر واحد وصفات واحدة.

ولقد لفت ريتش النظر إلى أهمية المرتفع في قلعة شيد خان الذي نظم الآن أنه موقع عاصمة آشور القديمة، وقد قدم صورة له تظهر أدناه:

((يظهر أن هذا المرتفع مصنوع من التراب وفي أسفله جدار متهدم، وهو مرتفع فوق منصة من الخرائب، ولقد كانت هناك أكوام من القمامة مبعثرة هنا وهناك حيث يمكن أن تُرى صفوف من الحجارة المبنية وعليها إسمنت ككلسي فوق سطحها، وهناك قطع من القرميد المربع.

وقد كانت هذه الخرائب تستحق الاهتمام والفحص، وهي تشكل كتلة علوها نحو عشرين قدماً، وهي ممتدة باتجاه شمالي جنوبي على طول الضفة الغربية للنهر لمسافة ميلين تقريباً.))

وفيما بعد وفي نفس السنة رحل ريتش إلى شيراز في بلاد المعجم عند انتشار وباء الكوليرا هناك، وقد هجر المدينة الأمير مع جميع عائلته وجميع القبلاء، والطبقات العليا من السكان، ومن كان قادراً من الطبقات الدنيا.

ولم يكن السيد ريتش رفض مفاداة المكان، واستمر في تطمين السكان بشكل نبل ووفاء، وفي مساعدة المرضى الذين هم على وشك الموت، ولم يكن أخيراً انتقل إليه المرض وتسبب في وفاته، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، ولقد وصلت مجموعته عن آثار منطقة ما بين التهرين إلى المتحف البريطاني، وأصبحت من ممتلكاته.

بوتا ولايار وفولنسون آباء علم اللغويات الآشورية

لقد بدأت الحفريات الرئيسية بعد وفاة ريتش بعشرين عاماً، ولكن عمل عاملان بصورة خاصة على حدوث هذا.

وسكان العامل الأول والأهم: هو حدوث نوع من الاهتمام بالآثار لدى الطبقات العليا من المجتمع، وقد بدأ هذا الاهتمام ابتداءً من أوائل القرن السادس عشر بـم. فقد أطلق هنري الثامن ملك بريطانيا على قسميه الخاص لقب (مسؤول الآثار لدى الملك) ولقد زاد انتشار هذا الاهتمام أثناء القرن الثامن عشر، وفي نهاية هذا القرن انتشرت عادة جمع الآثار خلال أوربة حتى أن تشارلز ديكنز يذكر على مميل الدعابة اللطيفة هذه الدعابة في كتابه (أوراق الكوبيك) نشر عام (١٨٣٦-١٨٣٧) حين أشار السيد بكوريك لاكتشافه على جانب الطريق حجراً يحمل نقوشاً مكتوبة هكذا:

Bilst
UM
Pshi
S.M.
ARK.

وقد كتب تشارلز ديكنز كراسة أو مکتبياً يحوي على ست وتسعين صفحة بالحرف الصغير، وفيها سبع وعشرون قراءة مختلفة لتلك النقوش. وقد كوفئ على ذلك بانتخابه عضواً فخرياً، في سبع عشرة جمعية ومثلية وأجنبية لقاء اكتشافه هذا.

وكان العامل الآخر الذي ساعد على بدء الاهتمام هو عامل سياسي، لقد كانت هناك عدة بلدان أوروبية مختلفة في مقدمتها إنكلترا وفرنسا مهتمة اهتماماً كبيراً بالهند.

وكانوا يفتشون عن طريق برية للاتصالات بالهند، ولذلك فقد انتهرزت بريطانيا وفرنسا أي مناسبة ممكنة للاستيلاء على مناطق مختلفة من الشرق الأدنى والأوسط مثل مصر ومنطقة ما بين النهرين وبلاد المجمع وبسط نفوذها على هذه البلدان لحماية الطريق إلى الهند، وكانت إحدى الوسائل الموصلة لهذه الغاية هي الاهتمام بعلم الأثر، وأرجو أن أقول قوياً:

بأنه لم يحدث أي اقتراح مهما كان ضئيلاً ولا أي تلميح، وإن علم الآثار في الشرق الأدنى كان بداية لهذا التدخل.

إذ إنه كان غطاءً لأعمال التجسس والتخريب، ولكن كان له نتائج شريفة سواء في كسب المعرفة حول الأحوال المحلية أو بإنشاء رويط محلية من الصداقة.

هذا وفي الأرمينيات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ فقد كان من المحتمل بسط نفوذ البلدان الأوروبية خلال المناطق ذات العلاقة في الشرق الأدنى.

وفي عام ١٨٤٢ أنشأت الحكومة الفرنسية قنصلية لها في الموصل وعيّنت لهذه القنصلية (بول أمهل بوتنا) وقد كان رجلاً مرموقاً ولم يكن من العرب الذين مارسوا الخدمة القنصلية فحسب، بل إنه بعد أن درس الطب في شبابه، قام برحلة حول العالم في بعثة خاصة بعلم النبات، ومع أن مواقفه وميوله كانت ضد بريطانيا بشكل عنيف، ولكن هذا لم يمنعه من إقامة صداقات حميمة مع بعض الإنكليز كأفراد، حيث قال أحدهم: إن (بوتنا) قد تنمر وشكا مرة أو مرتين.... وأرغب السفير الفرنسي في القسطنطينية بذكره قصصاً مثيرة وعجيبة حول دساتنفا في بغداد.

ولقد وعدت الجمعية الأسبوعية في باريس التي كانت متأثرة كمجموعة (ريتش) من الآثار الموجودة في المتحف البريطاني لقد وعدت هذه الجمعية بدعم بورتا دعماً كاملاً في أي نشاط في علم الآثار من الممكن أن يقوم به.

وهكذا بدأ بالحفريات في كيونيجيك في كانون الأول عام ١٨٤٢ ولكن نتائج حفرياته كانت ذات مردود ضئيل نظراً لأنه لم يكن يحفر في أعماق كافية.

وفي شهر آذار عام ١٨٤٩ نقل عمليات الحفر إلى خورماباد على بعد عشرة أميال إلى الشمال الغربي من الموصل، وفي خلال عشرة أيام توصل عماله إلى جدران من الألواح الحجرية محفور عليها مشاهد من النقوش النافرة.

وعندما وصلت أخبار هذه اللقى الحساسة إلى باريس بادرت الحكومة الفرنسية إلى وضع أموال جديّة تحت تصرف بورتا لكي يستمر في هذه الأعمال، وإن ما وجده بورتا لم يكن سوى أحد القصور التي بناها الملك سرجون الثاني في عاصمته الجديدة (دور شاروكين).

والآن ينضم إلى المشهد رجل إنكليزي آخر وهو أحد عمالقة عالم الآثار في منطقة ما بين النهرين وهو (هنري أوتن لايارد) وقد ولد في باريس عام ١٨١٧ وقد رُبي حتى أصبح في الثانية عشرة من العمر في فلورنسة ثم تمهده أخيراً خاله وكان معامياً ناجحاً في لندن.

وفي شهر حزيران عام ١٨٢٩ وجد نفسه مقبولاً كمدّح عام في المحكمة الملكية، وبناءً على نصيحة عمه الأصغر الذي كان قد أنهى خدمته وتقاعد من منصب عالٍ في الخدمة المدنية في سيلان، لهذا قرر الذهاب إلى سيلان حيث من الممكن أن تسمح له موهلاته أن يصبح معامياً عاماً حيث كانت علاقاته العائلية تؤمن له النجاح.

ولقد انضم لايارد إلى شخص يدعى (إدوارد ميمفور) للقيام برحلته الموعودة وكان هذا رئيسه في العمل، وقد بدأ كلاهما الرحلة في شهر تموز عام ١٨٢٩ من بروكسل براً، ولكن حماس لايارد للرحلة رافقته رغبة في التبرص والتمتع في

الأمر، إذ قيل مفادته اتخذ خطوات لتعلم شيء عن فن الملاحة والإبحار والطرق
وعادات الشعوب، وتلقى معلومات ابتدائية عن الطب والإسماءات الأولية وتعلم
كتابة اللغة العربية وقليلاً من الفارسية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اطلع على ما أتيج له من معلومات حول منطقة ما بين
النهرين وبلاد العجم، وبمضى الكتيب عن الكتابة المسماة وفي شهر تشرين
الثاني كان الرجلان في حلب، وبعد مخاطرات ككل لا يارد أن يفقد حياته فيها من
القبائل المعادية وملا إلى الموصل في نيسان ١٨٤٠.

وهناك نزلا ضيفين على (وليم دانيس اينسويرث) وكان هذا طبيباً كثيراً ما
يسافر في طلب الآثار، وكان لديه اهتمامات بعلم الآثار وكان قد أصدر كتاباً
عنوانه "أبحاث حول آشور وبابل وبلاد الكلدان" وعلى شخص اسمه (كريستيان
ريام) وهو رجل مسيحي من أهل البلاد قد عمل كمساعد فتصل، ولقد قضى
لا يارد وقتاً طويلاً في الموصل واهتم بمرتفع كيونيجيك، وكان يقوم بالقياسات
ويبحث عن قطع من الرخام والأجر التي تحمل نقوشاً مسمارية، ولقد أخذ
مضيفوه هؤلاء المسافرين إلى الصحراء لرؤية من آخرى مهدمة.

وهنا يصف لا يارد الانطباعات التي أثرت به ويقول: ((يستحق المشهد حوائها
للتأمل، فالوحشة تتلو الوحشة، ويتأهي الشموخ بالرهبة إلى الدهشة ولقد ولدت
هذه المرتفعات الضخمة في آشور انطباعاً عميقاً في نفسي، وأنتجت أفكاراً أكثر
جدية، ولكن المكان المقصود كان سيلان.

وهكذا توجه لا يارد ومنفورد إلى بغداد حيث التحقا بقافلة مسافرة إلى بلاد
المجم، وهناك كانت الصعوبات تنتظره، فقد منعنا من السفر شرقاً في الطريق
الذي اقترحه نظراً لأن هذا الطريق يؤدي إلى أراضي مختلف عليها ولكن قدمت
لها بعض البدائل.

ولقد قبل منفورد ولم يقبل لا يارد، ولذلك افترقا وكان لا يارد يأمل أن يسير
في طريقه المقترحة فسافر جنوباً إلى أصقهان، وعندما وجد أنه لا يزال تائهاً قرر
أن ينمط نحو لوريستان حيث جبال زاغروس وإن جزماً مما كان يجذبه إلى

هناك هو تحديداً أطلال مدينة شوشان (سوسة) التوراتية، والمعروف أنها كانت موجودة في تلك المنطقة مع أن ذلك الموقع قد وقع عليه خلاف.

ولقد قضى بيلارد عشرة أشهر في تلك الجبال مع قبيلة بختياري وقد قسم وقته ما بين فحص الأنقاض بقصد الحصول على معلومات دقيقة حول إمكان القيام بأعمال تجارية في المنطقة، والقسم الثاني لمعالجة بعض الدسائس السياسية دعماً للقبيلة التي كانت على وشك العصيان ضد الشاه، وبعد اعتقال الخان رئيس القبيلة وضع لايارد تحت الاعتقال المصريح ١٨٤١ وبعد أن تخلى عن فكرة الذهاب إلى سيلان هرب ورجع إلى البصرة، وكانت تحت الحكم العثماني.

ولقد أرسل تقريراً عن رحلاته في لوريستان إلى حملة الجمعية الجغرافية الملكية التي نشرت خلاصته في عام ١٨٤٢، وبعد رحلاته في جنوب المنطقة ما بين البحرين وبلاد المصم المجاورة وذلك لفحص الآثار والإمكانات التجارية قرر الرجوع إلى إنكلترا.

وفي هذا الوقت كان القائم بالأعمال البريطاني الكولونيل تايلور مهماً بإعطاء السفير البريطاني في استنبول معلومات كاملة عن الخلافات الحدودية بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الفارسية تلك الخلافات التي كانت تؤثر على المصالح البريطانية، وقد كان لايارد قد قرر الرجوع إلى إنكلترا عن طريق استنبول، وهكذا ونظراً لمعرفته التامة بشؤون الخلافات القبلية قرر تايلور أن يوكل به أمر الرسائل المرسلة إلى السفير ككاندج مع التفاهم بأنه سوف يضع نفسه تحت تصرف السفير ككاندج لتقديم معلومات إضافية إذا طلب منه ذلك.

بدأ لايارد بالرحلة تحت حماية أحد التتار (الذين كانوا مسؤولين عن المراسلات الحكومية) ولقد قضى لايارد ثلاثة أيام في الموصل ومن ضمن حظه أن تعرف على القنصل الفرنسي الممين حديثاً وهو بوتا الذي عامله معاملة حسنة، وقدم له المساعدة بأن اصطعبه إلى الخراب وكينونجيك والبي يونس.

وفي القمسططينية عمل لايارد انطباعات جيدة بالنسبة لكاندج الذي كان مسروراً للاستفادة من معرفته لايارد وخبرته ولم يرغب ككاندج أن يخسر خدمات

ذلك الرجل الشاب فاخترع له وظيفة ودعاء للذهاب في مهمة لكشف الحقائق في المنطقة التي تصرف بيوغوسلافيا حيث كانت الاضطرابات هناك تهدد المصالح البريطانية والمصالح الأوروبية.

وهكذا فقد خدم لايارد كسكرتير خاص للسفير، وشكل بذلك جبهة مفيدة يستطيع السفير أن يستفيد منها بممارسة نفوذه عن طريق اشتراكه في تحرير الجريدة المشهورة في حوض البحر الأبيض المتوسط وهي **Malta Times** مالطة تايمز.

وعندما أنجز بوتنا لقيادته المرموقة في خورماباد في شهر آذار عام ١٨٤٢ أبدى كرمياً بإرساله إلى لايارد وصفاً دقيقاً عن هذه المكتشفات، وقد استخدم لايارد هذه المعلومات لزيادة اهتمام السفير فكانتج به فأصبح يدعى خاص بالأنار في الحفريات المقامة في منطقة ما بين النهرين.

والآن سوف نقابل شخصاً انكليزياً آخر سوف يتقاسم مع لايارد وبوتنا شرف بداية علم الآثار الآشوري وهو (هنري كريسبيوك دولنسون) وكان باحثاً كلاسيكياً جيداً رياضياً جيداً وكان موظفاً في شركة الهند الشرقية، وبعد أن حصل على معلومات جيدة في اللغة العربية والفارسية عين في دائرة المخابرات.

وفي عام ١٨٢٥ أرسل إلى بلاد المجمع بصفة مستشار عسكري لأخي الشاه، وهناك كرس وقت فراغه في نسخ النقوش المهمة القديمة الموجودة على الصخور والتي كان أشهرها نقش كبير مكتوب بثلاث لغات عالياً فوق صخرة عالية في مكان يدعى: بيستون قرب كركيسي.

وفي عام ١٨٤٢ عين رولنسون قائماً بالأعمال في بغداد خلفاً للكونولونيل تابلور وهذا قدم له الوقت لحل رموز نقوش بيستون، وسرعان ما استطاع حل رموز الحروف الهجائية الفارسية القديمة التي بدأ بها جروتيفند قبل أربعين عاماً.

وفي أوائل عام ١٨٤٥ نجد رولنسون يبدأ في مراسلات مع لايارد شجعت عليه تلك المقالات التي كان لايلارد قد كتبها في صحيفة مالطة تايمز **Malta Times** حول حفريات بوتنا وكذلك تلك الملاحظات حول النقوش التي كان

تركها مع الكولونيل تاليلور ، ولقد عرف رولنسون من بعض النقوش التي كان لايارد قد نسخها ولحكنه طالب إعطاء تفاصيل عنها من أي مثال كان من الممكن أن يساعده في التحاليل التي بدأ بها.

وفي أثناء ذلك فقد كان بوتنا ويعد أن تغلب على معارضة والي الموصل التي سببت له بعض التأخير قد بدأ في متابعة خبراته في خورساباد بعد أن أحرز نجاحات مرموقة ، ولذلك فقد أقفل مشاريع حضرياته في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٤ وقد جمع منتجات من أفضل اللقيات المحفوظة التي تشمل تماثيل هائلة من الثيران الحجرية ، كل هذه أرسلت إلى فرنسا عن طريق نهر دجلة بواسطة طوف ينقلها إلى إحدى السفن ومن ثم إلى فرنسا.

لقد أعطى نجاح بوتنا دفعة قوية لقضية الحضريات في منطقة البحر الأبيض المتوسط، ولقد كان رولنسون يطمح بأن تبذل بعض المجهودات البريطانية في هذا السبيل ، ولذلك فقد قام هو بنفسه بحضريات على مقهى ضيق في جنوب العراق وقد كتب إلى لايارد في تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ما يلي:

((سوف أكون في غاية السرور إذا استطاع السفير من خلاله جعل الحكومة البريطانية أن تقتنع ببذل بعض الاهتمام بالآثار القديمة في هذه البلاد ، وإنه ليؤمني غاية الألم أن أرى الفرنسيين يحتكرون هذا المجال ، وذلك لأن ثمرات أعمال بوتنا التي تم إحرازها ولا يزال يتقدم ليست من الأشياء التي سوف تمر في يوم أو يومين بل إنها ستؤلف المجد لتلك الأمة في المصور القادمة في المستقبل عندما تصبح الإمبراطورية العثمانية التي نحن لا نزال نجاهد لإبقائها سوف تصبح قضية من قضايا التاريخ.))

وفي هذا الوقت كان لايارد قد أقنع السفير في دعمه مادياً لبدء فترة صفيرة من العمل في الحضريات في منطقة ما بين النهرين ، هناك مذكرة مكتوبة بخط كانانج نفسه والتاريخ مكتوب (ليس بخط كانانج) في ٩ تشرين الثاني عام ١٨٤٥ كما يلي:

((إنني أمل أن ينتبه السيد لايارد مشكوراً إلى النقاط الآتية:

١- أن يستمر في إعلامي عن عملياته وعن أي شيء ذي أهمية أو أثر قد
يكشفه.

٢- أن ينتبه غلبة الانتباه للمصائل السياسية والدنيوية وبأكثر ما يمكن بشؤون
المبشرين أو زعماء القبائل الوطنيين الذين تضمهر لهم السلطات التركية العداء
والفيرة.

٣- الحصول على رضا الباشاوات وموظفي السلاطان الآخرين بكل معنى
الكلمة.

٤- أن يتذكر دائماً طبيعة أعماله كرجل سائح مولع بالآثار القديمة والمناظر
الجميلة، ويأنه يستحسن معرفة جميع المعدات الفريدة في آسيا.

٥- أن لا يبدأ بترك العمل والرجوع إلى الوطن دون الحصول على موافقتي
المسبقة بعد تقديم تقرير عن تحرياته الأولى ومحاولاته الاستكشافية.

٦- في حالة إحرازه أي نجاح ينبغي عليه أن يقدم لي معلومات مبكرة ودقيقة
عن طبيعة المواد المستكشفة وأحسن الطرق لاستخراجها الخ... مع التقديرات
اللازمة للتكاليف بالإضافة إلى راتب قدره ٢٠٠ جنيه إسترليني سنوياً، وهذا راتب
مستمر بالإضافة إلى ٢٠٠٠ قرش قد حصل عليها مقدماً لقاء مصاريف
التجهيزات، فإن السيد لا يارد سوف يستلم من السيد هانسون مبلغاً آخر قدره
٢٠٠٠ قرش على حساب نفقات السفر، وقد زُوِّدته بالرسالة المرفقة إلى السيد
رسم في الموصل التي تضمن بالإضافة إلى توصيه بالتكثُر بالمساعدة، وتحتوي
على الثمان أو دين واجب علي بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ ليرة تركية.

إنني أقدر أن يصل السيد لا يارد إلى الموصل حوالي نهاية شهر تشرين الأول
حيث سوف يتمكن من إتمام دراسة مستفيضة حول أفضل الأمكنة ملائمة
للاستكشاف خلال الشهرين التاليين، وإذا كان لديه من الأسباب التي تقتضي
إضافة عشرة أيام أو أسبوعين على الموعد المحدد فله ذلك، وهو مخوّل أن يستعمل
عقله وإدراكه في هذا الخصوص.

ولقد ابتهج رولتسون عند سماعه خبر وصول لايلارد إلى الموصل (٢٧ تشرين أول عام ١٨٥٤) وكان مستعداً لإهداء نصيحة.

وهكذا فقد كان لدى لايلارد فكرة واضحة عما ينبغي عليه عمله، وبعد تقديم أوراق اعتماده إلى حاكم الموصل المستبد مع أنه لم يخبره عن أهدافه فقد تقدم فوراً لتنفيذ خطته، وكان من الضروري أن يتخذ جانب الحذر نظراً لأنه لم يملك أي تفويض رسمي من السلطات التركية لإجراء الحفريات، لهذا فقد تظاهر بأنه ذاهب لصيد الخنازير البرية وانطلق راكباً قارباً يدعى الكيليك جنوباً فوق نهر دجلة يرافقه صديقه هنري جيمس روس وهو تاجر بريطاني في الموصل، وحارس وعامل بناء مع بعض الأدوات اللازمة للعمل قد تم صنعها.

وقد كانت وجهته نمرود وهو تل متميز على بعد نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو على ارتفاع نحو أربعين قدماً فوق السهل وهو يغطي مساحة قدرها حوالي ستين فداناً مع بقايا نافورة واقعة على تلة بارزة واقعة في الزاوية الشمالية الغربية، وهو يعرف كهف أنه وفي إحدى المناسبات عندما كان مسافراً إلى بغداد بواسطة كيليك في نيسان عام ١٨٤٠ عندها رأى تلة نمرود وهو سائر فوق نهر دجلة وقد قرر في ذلك الوقت أنه سوف يقوم باستكشافها في يوم من الأيام.

((رأيت خرائب نمرود للمرة الثانية، وأصبحت لدي فرصة أفضل لفحص هذه الخرائب، وكان قد حل المساء عند وصولنا إلى المنطقة، وقد عملت أمطار الربيع على إكساء التل بالعشب الأخضر.

وقد كانت المروج الخصبة الممتدة حوله مغطاة بالأزهار من مختلف الألوان، وفي وسط هذه الخضرة البهيجة كانت هناك قطع من القرميد والفخار والمرمر التي كان يظهر فوقها الآثار الإسفنجية ذات الصفات المسمارية، ولقد امتدت خطوط من المرتفعات والقلل المتتالية التي لا تزال محتقطة بمظهر الجدران أو المتاريس وهي ممتدة من قاعدة الخرائب مشكلة ساحة رياضية الزوايا واسعة.))

وجد لايلارد أن القرية القريبة من نمرود قد أصبحت مهجورة نتيجة لعمليات النهب التي كان يمارسها والي الموصل الوغد ، وكان الشخص الوحيد الموجود في القرية هو أحد شيوخ القبائل الذي نهبت قبيلته وتفرقت ، وقد لجأ إلى كوخ مهجور هناك وقد استخدمه لايلارد لتنظيم جمع بعض العمال من المستوطنات المجاورة للمساعدة في عمليات الحفر.

بدأت الحفريات في يوم تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ولقد تلا ذلك النجاح الأكيد وبعد أسبوع استطاع لايلارد أن يكتب ككاندج :

((بعد أن فتحت خندقاً صادفت حجرة طولها ٢٥ قدماً وعرضها ١٤ قدماً وهي مشككة من ألواح من الرخام طولها ٨,٥ قدماً ويحتوي كل لوح على نقوش بالخط المسماري ، وبعد عمل أربعة أيام أصبحت بحمى خفيفة أجبرتني على الرجوع إلى الموصل ، وبعد ذلك تركت الحفريات تحت حراسة (القوامس) وهو الحارس المخلص وأمرته أن ينظف الحجرة)).

لقد انتهز لايلارد فرحة وجوده في الموصل للتفاهم مع الوالي وقد كتب إلى ككاندج يقول: ((لقد زوت الباشا الذي كانوا قد أخبروه أنني قد اكتشفت كنزاً ، ولكنني فسرت له طبيعة أبحاثي ولذلك لم يمارض ولقد تجنبت أن أحدثه في طلب الإذن للاستمرار في عملية الحفريات)).

لم تكن المشكلة هي الوالي فحسب ، فقد علم لايلارد أن القنصل الفرنسي (م. روتيه) وهو خليفة بوثا كان يقوم بالتعرض على إيقاف الحفريات ، وبالتالي إلى سعيه للحصول على الأولوية بإتمام ما يمكن إتمامه من العمل قبل أن تتخذ الخطوات لإيقافه عن العمل ، لذلك أمد عماله بالقيام بحفر خنادق في ستة مرتفعات آشورية أخرى ، والتي كان ككاندج قد أمره بحفرها ، ولذلك استمر هو نفسه في متابعة الأعمال في نمرود وهناك وفي نهاية شهر تشرين الثاني وجد ألواحاً تحمل سلسلة رائعة من النقوش النافرة التي تصور المارك الحربية لآشور ، وكان قد أخبر ككاندج عن إحرازه النجاح عندما نجح الفرنسيون في إقناعهم التي أنتجت تدخل الوالي لإيقاف الحفريات ، ولكن كانت هذه نكسة مؤقته حاول لايلارد

الالتفاف عليها عن طريق صداقته الشخصية مع أحد الضباط المسؤولين عن قيادة الجنود المحليين، وقد كان يأمل أن يجد متحولات كبيرة وسرعان ما تسنى له ذلك.

في ١٩ كانون الأول استطاع أن يرسل تقريراً إلى كانننج يحبره أنه قد وجد ثورين مجنحين عظيمين، وكذلك وحوشاً من الحجر العظمي بارتفاع أربعة عشر قدماً، وقد كان يوتا قد وجد تماثيل مشابهة قد أثارت ضجة كبيرة في أوروبا على الرغم من أن النقوش لم تكن قد وصلت إلى فرنسا بعد.

لقد استمر لايارد في مواجهة التدخلات من أن لآخر بشؤون حفرياته التي لم يحصل على إذن بالاستمرار في القيام بها بعد، ولكن إحدى مواهبه كانت مهاراته في التغلب على معارضيهِ، وهكذا استمر في الحفر وتسجيل وتفسير لقياته التي تشمل نقوشاً نافرة تحتوي على صور ليران حجرية وأسود.

ولكنه لم يكتف بأعمال الحفر والقدرة في علم الآثار ولذلك فقد أشغل نفسه في محاولة حل رموز النقوش الآشورية، فقد كان رولنسون في بغداد يقوم بنفس العمل ومع أنه كان في ذلك الوقت متقوفاً عليه في هذا المضمار (فقد كان قد أكمل حل رموز حروف الهجاء الفارسية) لكنه كان يعامل آراء لايارد بالنسبة للنقوش الآشورية باحترام وكان يمتنن بأرائه.

لقد كان كانننج متحمساً لما لمسه من نتائج أحرزها لايارد والاهتمام الشمسي الذي سوف تصادفه هذه النتائج، وحتى ذلك الوقت كانت تمويلاته للايارد شخصية أي: من جيبه الخاص ولكنه خطط أن يتصل بالوزير السير روبرت بيل عند رجوعه إلى بريطانيا بعد وقت قصير ويطلب منه مساهمة الدولة في مساعدة لايارد كما حدث بقضية يوتا بالنسبة للحكومة الفرنسية.

وفي أثناء ذلك حاول كانننج جاهداً الحصول على رسالة من الصدر الأعظم التركي تقدم للايارد الصلاحية بإجراء الحفريات في محافظة الموصل وهذا نص الرسالة التي حصل عليها:

((هنالك وكما يعلم سعادتك في جوار الموصل كميات من الحجارة والأثار القديمة، ولقد أتى أحد الرجال الإنكليزي إلى هذه المنطقة للتفتيش عن مثل هذه الحجارة، وقد وجد على ضفاف نهر دجلة في بعض الأماكن غير المأهولة بالسكان بعض الحجارة القديمة التي تحتوي على صور ونقوش، ولقد طلب السفير البريطاني بأن لا تقام العقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل الإنكليزي المذكور أعلاه عند أخذه تلك الحجارة التي ربما كانت مفيدة له بما فيها ما يمكن أن يكتشفه خلال تلك الحفريات، ولا مانع من إرساله تلك المكتشفات إلى إنكلترا)).

وكانت الصداقة الحميمة التي وجدت بين الحكومتين سهلت قبول تلك المطالبات، ولذلك لم يكن هناك من مانع لأخذ تلك اللقيات والحجارة الموجودة في تلك الأماكن المهجورة وهي حجارة قديمة تحتوي على صور ونقوش فقد طلب السفير البريطاني عدم وضع العقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل، أو عندما يقوم بإجراء حفريات في أماكن غير مأهولة بالسكان حيث يمكن إجراء ذلك دون إحداث أي إزعاجات لأحد، أو في أخذ هذه الأشياء حسب رغبته بين تلك التي استلاع استكشافها.

لم يكن كاندنج فحسب هو الذي تأثر بلقيات لايلارد فقد كانت المجتمعات الإنكليزية والأمريكية قد بدأت بالاهتمام العميق بأقوال التوراة وتاريخ الممالك العبرية القديمة، وكان هناك كثير من الناس في ذلك الزمن يشعرون بنفس شعور تلك السيدة التي كتبت عنها الشاعر ماثيو بروور:

لقد حفظت هذه السيدة بعض أجزاء التوراة عن ظهر قلب

وقد ابتهجت بقراءة الأخبار التاريخية في ذلك الزمن

ويعلم الجميع أن الآشوريين قد أسروا القبائل المشرقة الإسرائيلية وأن سنحاريب وعن طريق قائده رابشا قد حاصر مدينة أورشليم المقدسة وقد كانت هذه الأشياء قد حازت على اهتمام الرأي العام والثقافة البريطانية والأمريكية والوعي في تلك البلدان، وبالنسبة لتلك الأقلية من المثقفين المهتمين بالتاريخ القديم

فقد كانت اللقيات التي وجدها بوتا ولايارد ذات أهمية بالنسبة للثقافة البشرية على العموم، ولكن معظم الزخم كان منصباً على الحوادث التوراتية.

وبالإضافة للقياته الرئيسية التي تتمثل في تلك الألواح من النقوش النافرة والتماثيل العظيمة في نمرود فقد صلافاً لايارد نجاحاً في خطوط سيره في مكان آخر، فقد كتب يقول:

((لقد فتحت عدة خنادق في التل الكبير في (باشيخا) واكتشفت قطعاً من النقوش وقرميداً منقوشاً وأوانيّ فخارية، وفي ككارامليس أزيح التراب عن منصة من أعمال القرميد، وقد ثبت الأصل الآشوري لهذه النقوش عن طريق قراءة النقوش المرسومة على الصخور التي احتوت على اسم ملك خورسيباد.

وكان من الواضح أن لايارد أصبح قادراً على فهم الكتابة المسمارية بشكل استطاع أن يميز به اسم الملك والأسماء الأخرى في مواقع أخرى.

وحتى الآن فقد امتنع لايارد عن المقر في المرتفع الكبير في كيونيجيك عبر نهر دجلة من جهة الموصل نظراً لأنه مع اهتقاره لإنز رسمي بالحفر كان يخشى التدخلات من قبل الشعب في الموصل.

ولكن بعد أن تسلم بحساب المصدر الأعظم بدأ بالعمل بثقة وشعور بالإفلات من العقوبة، وكانت المعارضة الوحيدة التي صادفها هي معارضة القنصل الفرنسي الذي ادعى بأن له حقوق الأسبقية، ولكن لايارد لم يأبه لهذه المعارضة.

منذ أن رحل بولسار حل محله (روتيه) حصلت مناقشات بين الإنكليز والفرنسيين، وقد وصلت هذه المناقشات إلى الصحافة، فقد كتب أحد أصدقاء لايارد رسالة له من القسطنطينية في (٨ حزيران عام ١٨٤٦ م) يقول:

قبل بضعة أشهر ظهر في جمعية **literary gazette** من القسطنطينية رسالة تتحدث بلغة مثيرة عن أعمال روتييه الفرنسي، وبشكل استغفاف واضح عن أعمالك لذلك أمل أن أكون قادراً على كتابة شيء موثوق إلى رئيس التحرير بخصوص النتائج المقارنة لتلك الحفريات.

وكان هناك مظهر آخر لهذه المناقشات: وهو الأول الذي يمرض اللقيات
الأسورية أمام الجمهور في أوربي، فقد أرسل (بوتا) عينات ولصقتها تأخرت في
بفداد، وعندما علم لايارد بذلك كتب إلى الصغير كاندج في أوائل سكانون الأول
عام (١٨٤٥ م) ما يلي:

((أظن أن علينا أن نُبَيِّر أمر إيصال منعوتاتنا إلى أوربي بشكل أسرع من
الفرنسيين، وهذا أمر هام بالنسبة لمُعَقِّبَاتنا)).

وقد دعم رولنسون هذه الفكرة فكتب إلى كاندج، وعرض استعمال
باخرة تخص شركة الهند الشرقية الراسية عند مصب نهر دجلة وقد أرسل إلى
لايارد مَوْضَعاً هذا الأمر:

((إذا استطعت أن تخلي محتويات حجرة أو حبرتين قبل بداية شهر آذار،
وان تجهز الأطواف، فإنني صوف أرسل الباخرة في ذلك الوقت مع تجهيزاتها.

ومن الممكن أن تصل هذه إلى إنكلترا في أوائل الخريف حيث تعرض
مروضاتنا في معرض له حق الأولوية ويكون نصراً لنا.

ولقد كُنْهت إلى سفيرتنا شيئاً حول الموضوع وهو سير باخريتنا صموداً إلى
أعلى المناطق في النهر، مشيراً إلى الفوائد السياسية عندما يظهر عَلمنا صاعداً في
أعلى النهر.))

ولكن المنحدرات النهرية منعت استمرار سير السفينة إلى أعلى النهر حتى
نمرود، وفي تلك الحالة اضطروا إلى نقل الأثاث إلى بفداد بطريق الطوفد.

ولكن الفرنسيين ربحوا قصب السبق أخيراً ضمن مدة ثلاثة أشهر، فقد
عرضت لقيات بوتا في متحف اللوفر في شهر أيار عام (١٨٤٧).

بينما تأخرت الأنواع الحجرية الإثنا عشر من النقوش النافرة التي وجدها
لايارد والتي عُرضت في المتحف البريطاني في شهر آب (١٨٤٧).

إن العمل الذي قام به (روثيه) والذي استحق به الشاء والمديح في مجلة: literary gazete لم يكن سوى شيء زهيد بالنسبة لما فعله بوتنا في خورساباد مع أنه قد حصل على بعض النقوش النافرة على وجه صخرة في موقع آخر.

وقد زار لايارد خورسا باد في أواسط صيف (١٨٤٦) وذكر ما يلي:

منذ رحيل السيد بوتنا فقد امتلأت الحجرات بالروميات بسبب تهدم الخنادق، وهكذا فقد تلفت جميع المنحوتات ولم يبق سوى القليل من هذا النصب المرصوف، ونضيف عبارة ممتعة وهي أن الجغرافيين العرب القدماء يصفون خورساباد بأنها تحتل موقعاً يدعى سراجون.

وهذا شاهد قديم يدل على موثوقية التكاليد القديمة الشفوية التي تذكر أن سراجون ما هي إلا شكل من أشكال كتابة اسم سرجون الذي كان عنصراً مهماً من عناصر هذا الاسم.

لقد قضى لايارد شهراً أو أكثر اعتباراً من نهاية آب (١٨٤٦) وهو في حالة سفر في الجبال إلى الشمال من الموصل، وعندما رجع إلى الموصل وجد أن كاننذج بعد رجوعه من إنكلترا قد حصل على دعم رسمي للحفريات، وقد كتب كاننذج يقول:

سوف يتمهد المتحف البريطاني قضية الحفريات في نمرود بدلاً عني، وقد سمحت الخزانة بصرف مبلغ (٢٠٠٠) جنيه إسترليني في هذا السبيل.

(إنك أنت الموكل بالعمل وسوف تأخذ (٥٠٠) جنيه لك فضلاً عن (١٠٠) جنيه البهنية.

أما المبلغ الذي أنفقته أنا فسوف يستدونه لي، وسوف يخصص مبلغ يتراوح ما بين (١٠٠٠-١١٠٠) جنيه لمتابعة إتمام العمل بما فيه أجره شحن المنحوتات التي سوف تجدها، وعليك أن تنهي كل ما ذكر في نهاية حزيران القادم.

ولكن لايارد اعتبر أن هذه الإعلان المالية غير كافية، وفيها شيء من الشح والبخل:

((إن هذه المنحة قليلة، وأنا أشك أن باستطاعتي إتمام التوقعات التي توقعوها، وإن المبلغ الذي منح لبونا لقاء حفرياته في خورسباد لوحدها قد زاد بشكل كبير على جميع المنح التي وجهها المتحف البريطاني التي كانت تشمل المصاريف الخاصة، ومصاريف النقل وكثيراً من النفقات التي لا بد منها في الشرق.

ولممكن قد قررت أن أقبل هذا التكليف وهذه المسؤولية، وقررت أن أقتصد بالقدر الذي أستطيعه بحيث تمتلك الأمة من المواد الأثرية الآشورية ما هو أرقى من ضالة المبلغ الذي خصص لهذا الموضوع)).

ولقد استمر لا يارد في تلخيص سموياته فقال:

((لقد أصبحت كثير من المنحوتات بالتلف وهذه حالة يجب إصلاحها، ولم يكن التصوير الفوتوغرافي متوفراً بعد، وإن التمجيد لا يمكن إنجازه إلا عن طريق الرسم)).

ثم يقول لا يارد: ولم يكن هناك أي دلالة بأنهم سوف يرسلون رسماً لمساعدتي، ولذلك فإن علي أن أراقب الحفريات عن كثب، وأن أرسم جميع النقوش الناضرة بنفسي والتي تم اكتشافها.

وأن أنسخ وأقارن النقوش التي لا تمتد ولا تحصى، وأن أصنع قوالب عنها، أو أن أشرف على أعمال تحريات وتعليب المنحوتات)).

وكان عليه أيضاً أن يبنى بيتاً لنفسه وبيتاً للعمال، وأن ينظم الدفاع ضد غزوات القبائل العربية، وهو قد فقد مكان البدو يفضلون أن يضعوا بين يديه قضايا خصوماتهم الخاصة وخلافاتهم المائلية ليقرر ما يجب عليه أن يحكم فيها، وفي إحدى الحالات كان عليه أن يجد زوجاً لفتاة قد تقدمت إليه طلباً لحماية.

هذا وقد استأنف عمليات الحفر على مقهى واسع في نمرود في شهر تشرين الثاني عام ١٨٤٦ وذلك عندما اشتعلت لقياته على أنواع من النقش النافر ذات الأهمية وتستحق الذكر، وهو يقدم لنا وصفاً جيداً لمجموعات مختلفة.

مثلاً: تحتوي السلاسل السفلية من الألواح ذات النقوش النافرة على ثلاثة مواضيع: حصار قلعة ، والملك وهو يستقبل الأسرى ، والملك مع جيشه وهو يعبر النهر ، ويرى المحاربين وقد جذبوا منجنيقاً للقصف (وهو موجود في برج متحرك مصنوع من الأغصان المجدولة من القصب) وترى أحجاراً كثيرة قد تم إطلاقها من المنجنيق وهي تتساقط على القسم الخارجي من السور ، ويرى أحد الجنود النذين قد حوصروا وقد نجح في إمساك المنجنيق بسلسلة وهو يحاول رفعه وتحريره من مكانه.

ويرى جندي آخر وهو يلقي النار من الأعلى إلى آلات الحصار (وترى آثار الدهان الأحمر لا تزال عالقة على المنحوتات) ويرى الجيش المحاصر في الأسفل وهو يحاول إطفاء النار وذلك بصب الماء عليها من صنبورين موجودين في البرج المتحرك ، ويرى شخصان يلهمان ككامل الدروع والأسلحة وهما يحفران تحت الأسوار بواسطة أدوات تشبه الرماح المثلمة ، بينما نلاحظ أن اثنين آخرين قد وجدا ممراً سريعاً يوصل إلى داخل القلعة.

وبالإضافة إلى النقوش النافرة وجد لايارد دروعاً من الحديد والنحاس وخوذاً وأواني من الرخام الشفاف ومن الزجاج ، وكذلك ثوراً مجنحاً هائلاً وسلّة سوداء من الرخام علوها ستة أقدام ونصف ، وإن أفضل وصف لهذه الأشياء ذكره لايارد بنفسه:

((لقد كانت هذه منحوتة من جوانبها الأربعة ، وكان هناك أربعة وعشرون لوحاً من الألواح المنقوشة النافرة وفوقها وتحتها وفي ما بين جوانبها كتبت نقوش تحتوي على ٦١٠ أسطر وقد كانت كلها محفوظة بشكل جيد ، ولم يكن هناك أي حرف من حروف النقش ناقصاً أو مفقوداً ، وكانت صور الأشخاص واضحة ومحددة كما لو أنها قد نحتت قبل أيام ، ويرى صورة الملك مرتين يتبعه رجاله ، وأسيراً قد ارتقى تحت قدميه ، ويرى الوزير ومعه بعض الخصيان وهم يقدمون رجالاً يقودون حيوانات مختلفة ويحملون مزهريات وأشياء أخرى تتعلل بالجزية..

والحيوانات المصورة هي الفيل والكركدن والجمل ذو المنامين والثور
البري، والأسد والوعل وأنواع مختلفة من القرد، وبين الأشياء التي يحملها الرجال
سكجيزية وكانت أنياب الفيل، والشالات والمزهريات المصنوعة من المعادن الثمينة،
والفواكه والقضبان من المعدن أو حُرم من الأخشاب النادرة)).

تحتوي نمرود على عدد من القصور تعود إلى فترات مختلفة خلال القرن الثامن
والقرن التاسع، وكانت معظم اللقيات المذكورة من القصر الشمالي الغربي،
ولكن لا يارد كان يحفر في أنقاض قصر في الزاوية الجنوبية الغربية من التل وهنا
وجد آثاراً من نوع مشابه ولكن كانت هناك فروق سجلها ينفية وقد وصفها بأنها
تعود إلى تاريخ مختلف، وإن أحد العوامل التي أعطت لعمل لا يارد أهمية خاصة عند
اكتشاف بلاد آشور من جديد كانت خبرته في المجالات الفنية، وربما كان ذلك
نتيجة لتربيته الأولى في فلورنسة الأمر الذي ممكنه أن يرى بسرعة مالا يستطيع أن
يراه أحد من تتابع قطع من هتون النحت تتابعاً زمنياً.

في هذه الأيام ربما اعتبرنا عملاً غير لائق أن نسال عالم آثار عما وجده، فإنه
من المحتمل أن يجيبنا بتكلف أنه يفتش عن أجوبة لعدة مشاكل وهو لا يبحث عن
أجوبة عن الأشياء، ولكن كان لا يارد موقف صلب وقد كوفى بذلك النجاح
الحقيقي الكبير وذلك بأنه استطاع أن يرسل حمولة كبيرة أخرى من اللقيات إلى
الأماسكن الموجهة إليها في المتحف البريطاني وهنا نراه يقول:

((وفي يوم عيد الميلاد عام ١٨٤٦ شمعت بالرضا والامتنان لولية طوف وهو
يحمل ثلاثاً وعشرين محفظة ومن ضمنها المسلة وهي عائسة فوق النهر، وقد
راقتهم حتى غابوا عن الأنظار، وبعدها أسرعوا ركضاً إلى الموصل لأحتفل بعيد
الميلاد مع حفنة قليلة من الأوروبيين الذين جمعهم الواجب أو شؤن العمل في هذه
البقعة النائية من بقاع العالم)).

وبعد عطلة الميلاد تابع لا يارد عمله في الحفريات في نمرود وبصورة رئيسية في
القصر الشمالي الغربي خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٨٤٧، وكانت إحدى
لقيات الممتعة حجرة مملوءة بالتماج المحفور، وكانت هناك أيضاً غرف فيها رسوم

جدارية باللون الأحمر والأزرق والأسود والأبيض، ولكنه ولسوء الحظ لم يستطع أن يحفظها من التلف.

كان هناك مكتشفات مهمة أخرى بحيث لا مجال لذكرها هنا، ولكن لا يارد قد ذكرها في مذكراته وهنا يذكر خلاصة أعماله في نمرود:

((لم يكن بوسعي القيام بأعمال الاستكشاف كما يجب، ولكن ومع وجود ذلك المبلغ الضئيل من المال تحت تصرفي لم استطع أن أمارس أعمال الأبحاث إلى المدى الذي كنت أتوقعه وأرغب به، ولهذا فقد تركت مرتفع نمرود لمن سيأتي بعدي من المستكشفين الذين سوف يعملون على استكشاف خرائب آشور)).

وكما سوف نرى فإن هذا التحدي المطروح لم يتطرق إليه أحد إلا بعد قرن من الزمان وينجاح كبير على يد ب. د. مالوان (المير ماكس) فيما بعد وهو زوج أجاثا كريستي.

وعندما نشر لا يارد نتائج أبحاثه فقد وقع في خطأ وهو أنه طابق اسم نمرود مع نينوى التي تمثل بالحقيقة بكيونيونيك والنبى يونس ولم يكن الخطأ سببه لا يارد الذي ترك السؤال مفتوحاً مدة طويلة بل كان السبب هو رولنسون الذي كتب إلى لا يارد بتاريخ ١٠ كانون الأول عام ١٨٤٥ ما يلي:

((لقد فحصت مؤخراً بقناية تامة القضية الجغرافية والتاريخية المتعلقة بنمرود وأخيراً توصلت إلى استنتاج قاطع وهي أن نمرود هي نينوى التي هدمها (سارد أنابا لوس) أما الخرائب الموجودة في النبي يونس فهي خرائب نينوى الثانية وهي عاصمة الأسرة الآشورية الأخيرة)).

لم يعتمد رولنسون عن الصواب، كما من الممكن أن تتصور فإذا استبدلنا كلمة عاصمة آشور بكلمة نينوى فإن ما قاله رولنسون يبدو صحيحاً، إذ إن فكرته بأن نمرود كانت عاصمة أقدم وقد حلّ محلّها عاصمة كانت النبي يونس جزءاً منها، فهذا كلام صحيح ودقيق مع أن اسم نينوى يخص العاصمة المتأخرة.

لم يحفظ لايارد بعمليات الحفر في نمرود وكميونيجيك، فقد سمع قصصاً من الزوار العرب من موقع يدعى قلعة شيرجات (باللغة العربية قلعة الأرض) وهي واقعة على نهر دجلة على بعد حوالي ستين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو يقول:

((كان هناك أحد العرب من قبيلة شمر (وهي قبيلة رئيسية في الجزيرة العربية) كان يقضي من وقت لآخر ليلة بين عمالي ويسليهم برواية القصص حول الأصنام والأشكال المنحوتة التي تمثل المردة التي كانت سبباً في دخول الخوف والرعب في قلوب القبائل المتجولة الذين ينصبون خيامهم قرب ذلك المكان)).

ويقول: ((إن المنظر كان خطراً للغاية لكونه كان لقاء لكل الجماعات التي تعمل في السلب والنهب، ولكن أصبحت حركات القبائل الآن تعمل ظروفها يستطيع خلالها ان يذهب حياً منها بأمان وأطمئنان ولكنه وجدها بقعة موحشة)).

ويقول لايارد: لقد توجهنا نحو الخرائب بعد الظهر وركبنا بمعاذاة الغابة فوجدنا الأرانب البرية والذئاب والثعالب وبنات أوى والخنازير البرية وكانت تمر الطرق أمامنا باستمرار، وكانت طرائد الصيد متوفرة ومن جميع الأنواع وتوجد الأسود أحياناً قرب قلعة شيرجات، وحالما توجهت إلى بغداد قبل عام سمعت زئير أسد ليس بعيداً عن المنطقة.

ولقد أرسل لايارد جماعة من العمال قبل ذهابه ببضعة أيام لكي يبدؤوا بالحفريات فوجدوا تمثالاً مقطوع الرأس ممنوعاً من البازلت الأسود، وقد ساعدت لايارد إجلدته وتمكنه من معرفة وفهم الحروف المسمارية تمكنه فوراً أن يحدد هوية هذا التمثال وأنه يعود إلى لقيت نمرود.

وكانت قطعة الحجر التي توضع عليها التمثال مقطوعة من ثلاثة جوانب بالنقوش المسمارية، وكان السطر الأول يحتوي على اسم وألقاب الملك ولكن بشكل غير واضح، ولكن وجدت بعد قراءة كلمة أو كلمتين استطعت أن أستعيد اسماً مطابقاً للاسم المكتوب على التمثال الثور العظيم الواقع في منتصف قلعة نمرود، وعندما توجهت عيناى إلى الأسفل نحو العمود الأول من النقوش وجدت اسمي والد (وهو باني أقدم قصر في نمرود) واسم جد.

وهذا أثبت أن القراءة كانت صحيحة، وبعد ذلك جلب أحد البدو قطعة من الفرميد تحتوي على خرافة صغيرة فيها ثلاثة أسماء كاملة، وهكذا استطعت أن أعين الفترة الزمنية لتلك الخرائب المستكشفة حديثاً.

ونحن نعلم الآن أن الملك الذي دعاه الجد لم يكن سوى توكونوتي نينوئرا الأول (٨٩٠-٨٨٤) ق. م، وأما يأتي أقدم قصر في نمرود فهو آشور ناصر بمل الثاني (٨٥٨-٨٢٤) ق.م، وإن التمثال المصنوع من البازلت الأسود كان ابنه سلمناصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤) وهو التمثال الجالس الذي يعطي جمالاً لمصالة نمرود المركزية في المتحف البريطاني في لندن.

لقد كانت الحالة الأمنية في قلعة شيرجات سيئة مما حرم لايارد من فرصة استمرار العمل هناك ما عدا نظرة خاطفة، وكان على عمليات الحفر أن تنتظر قدوم بعثة ألمانية في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، هذا وقد عاد لايارد إلى نمرود لإكمال حفرياته الأساسية، ولكي يرتب قضية نقل الثور المجنح العظيم والأسد وقد فعل ذلك بواسطة عجالات وعربة صنعت خصيصاً لهذا الغرض، وقد جرها حوالي ثلاثمائة رجل كانت تشجهم الموسيقى والنساء المنشدات مسافة ميل تقريباً من التلة إلى نمرود إلى ضفة نهر دجلة، وهناك تركت هذه الآثار لتنتظر ارتفاع ماء النهر الذي سوف يساعد في زحزحة التمثال الكبير وإدخاله إلى الطوف (الكهليك).

وبمناسبة حدوث موجة من القحط انتقل سكان جميع القرى الواقعة حول نمرود إلى القلال حيث كانوا يأملون في زراعة بعض الحبوب، وكذلك فقد نزح البدو الرعاة وقبائلهم شمالاً، وهكذا لم يكن هناك أي عربي في المنطقة سوى عمال لايارد، وحالما حصل ارتفاع في منسوب النهر أصبح من السهل إدخال المنحوتات إلى القارب ولكن الرجال من العمال ظنوا أن لايارد بحاجة إليهم وإلى مساعدتهم فقد قاموا بعمل إضراب طلباً لرفع الأجور، ولكن لايارد لم يكن بالرجل الجبان الذي من الممكن إرهابه، ولذلك سمح لهم بالذهاب فذهبوا ولكن بعض المائلات رفضوا مغادرته.

ولكن كان هناك قبيلة من البدو الرحل كانت تربطها علاقة الصداقة مع لايارد فأرسل لهم لايارد رسالة مع شخص على ظهر حصان، فترسلوا له رجالاً لا يكفون لإتمام العمل، وعندما رجع المضيرون وعرضوا استئناف العمل بأي شروط، ولكن لايارد استماع أن يتم العمل بدونهم.

وبعد أن تم نقل المنحوتات عمد لايارد إلى دفن المنحوتات الباقية بناء على تعليمات وردت من أمانة المتحف البريطاني، وقد ترك تمرود في منتصف شهر أيار عام ١٨٤٧.

ونظراً لوجود بعض المال الذي بقي من المنحة التي قدمت له قرر أن يستعمل هذا المال في عملية حفر في كيونيجيك، وقد كان يقصد بذلك غرس النفوذ البريطاني هناك بقصد إحراج القنصل الفرنسي الجديد وهو م. غولويس الذي كان قد قدم طالباً السماح له بالحفر هناك، وكان لايارد صريحاً بالنسبة لأهدافه عندما كتب إلى كاندج بتاريخ ١٤ حزيران عام ١٨٤٧ ما يلي:

((لقد قمت بعمليات الحفر في كيونيجيك خلال الأسبوعين الماضيين وقد نجحت العملية إلى حد ما، ولقد كشفت عن ثمانية حجرات، هذا وإن استكشاف هذا البناء والمدى الذي توصلت إليه الحفريات ربما تؤكد وتدعم ادعائنا بأحقية العمل في المستقبل في هذا التل فيما لو رغب أمناء المتحف البريطاني باستمرار البحوث في هذه البلاد)).

لقد كان المشكل العملي بالنسبة لأعمال الحفر في كيونيجيك والمشكل الذي جمد نشاط بوتان في محاولاته هناك عمق التربة الكبير فوق مستوى الأرض في بلاد آشور، ولقد كان لايارد عالماً بهذا الأمر، فقد حفر خنادق على عمق عشرين قدماً لكي يصل إلى الأرض التي بني فوقها القرميد المشوي بالشمس، وهنا أيضاً وجد ألواحاً من النقوش النافرة وثيراناً مائلة مجنحة.

هذا وإن معرفته بالرموز المسمارية جعلته يعلم أن الملك الذي كانت هذه الآثار تنتمي إليه كان هو ابن الملك الذي بنى خورساباد، وكما نعرف الآن أن قصر كيونيجيك الذي يمثل نينوى قد بناء سنحاريب الذي كان والده سرجون باني

قلعة مرجون (خورسباد) وقد سجل هذا الملك أيضاً عدة ألواح مستطيلة مصنوعة من القصيريد غير المشوي مع وجود بعض النقوش المسمارية فوق جوانبه.

وكانت هذه أول الدلائل لوجود تلك الثروة الهائلة من الألواح المسمارية في كويونيجيك التي كانت في غاية الأهمية بالنسبة لمرفتنا بتاريخ منطقة ما بين النهرين.

لقد نال لا يارد مساعدات لا بأس بها في كويونيجيك من هنري جيمس روس، وحالما كان لا يارد يقوم بالاستعداد لمفادرة منطقة ما بين النهرين تكلف المتحف البريطاني (روس) بالاستمرار وعلى مقهاس ضيق بالحفريات في كويونيجيك وكان الفرض الأساسي الاحتفاظ بحق بريطانيا في هذا الموقع، وقد غادر لا يارد المنطقة متوجهاً إلى القمطنطينية في شهر حزيران عام ١٨٤٧ ووصل إلى إنكلترا في وقت عيد الميلاد وذلك بعد أن عرض رسوم المنحوتات الآشورية على رجال علم الآثار في إيطاليا وقضى بعض الوقت في مناقشة اللقيات مع (بوتا) وزملائه في باريس.

ولكن أعماله أصبحت معروفة جيداً في إنكلترا، وفي أوائل شهر تشرين الأول عام ١٨٤٦ عقد اجتماعاً للمؤسسة الملكية للعمارة برئاسة الإبريل دي جري، وذلك لأجل بحث ما وصفه لا يارد لأحد البنى الأثرية في (تل هافور) في منطقة ما بين النهرين، وكذلك لمناقشة بعض الآثار المكتشفة حديثاً في نمرود (وهو موقع نهني) وقد كان أولى لقيات لا يارد قد عُرضت في المتحف البريطاني منذ شهر آب عام ١٨٤٧ وقد أثار ذلك العرض ضجة لا بأس بها في الرأي العام، وقد كان اصداؤه حريصين أن ينال الشرف الذي يستحقه.

فقد كتب كانننج (ينبني عليك أن تقدر معظم الآثار الآشورية وأن تحصف هذه الآثار وأظهر أفضلها وأجمل الجمهور يفهم أنهم قد حصلوا على جائزة مكبرى).

وهكذا بدأت آيات الشرف تتوجه نحوه، إذ إنه وبعد وقت قصير من عودته إلى بريطانيا انتخب عضواً في المجمع العلمي، وفي شهر تموز عام ١٧٤٨ منح درجة الدكتوراه بـ D.C.L من جامعة أكسفورد.

ولقد اهتم اهتمام الترابي العام بالآثار الآشورية أمانة المتحف البريطاني باستئناف عمليات الحفر في منطقة ما بين النهرين ومن المفضل أن تكون تلك العمليات بإشراف لا يارد، ولكنه فضل رفض هذا الطلب لمببين وكان أحدهما مادياً نظراً لأن سُلّم الأموال التي يخصصها المتحف البريطاني لمثل هذه الأعمال كان ضئيلاً.

أما السبب الآخر: وهو أنه رغم نجاحه المرموق في عمليات الآثار إلا أن ذلك كان مجرد هواية بالنسبة له، فقد كان هدفه الحقيقي هو العمل في الحقل الدبلوماسي، فقد أحرز درجة راقية في هذا السبيل وذلك بتعيينه ملحقاً ثقافياً للسفير سائر أنفوري كانانج في القسطنطينية (ولكن دون راتب) وقد ترك بريطانيا للعاق بذلك المنصب في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٨ وقال كما أخبر صديقه: إنه سوف يلتحق بوظيفة ملحق ثقافي دون أجر وهو لا يملك سنة بنمات.

وفي أثناء ذلك كان مستعداً لنشر مكتبته ونتائج أعماله، فأصدر مجلداً يحتوي رسوم الأنصاب الذي ظهر في عام ١٨٤٩ تحت عنوان ((أنصاب نينوى)) وبعد ذلك صدرت له إصدارات جديدة عام ١٨٥١ بعنوان (مخطوطات بالرموز المسمارية من الأنصاب الآشورية) وقد وضع فيها لوحات من نسخ من النقوش المسمارية كانت في غاية الدقة بحيث إنها لا تزال ذات قيمة للباحثين بعد قرن وربع من الزمن من صدورها.

ولكن رائحته وأفضل مؤلفاته كانت كتاب (نينوى وأثارها) وكان في مجلدين وهو يعطي همة حية ليس بالنسبة لحفرياته بصورة عامة في نمرود التي وردت خطأ باسم نينوى) فحسب، بل أيضاً بالنسبة لرحلاته وقد نشر هذا الكتاب في بداية عام ١٨٤٩ ولم يكن هذا الكتاب نجاحاً كاسحاً فحسب، بل كان

ضجّة قوية وقد أصيب لايلارد بالذهشة بقدر ما أصيب بالسرور وقد كتب من القسطنطينية في ٥ شباط مخاطباً أحد الأصدقاء:

((لقد غمرني العجب من المديح الذي لاحظته بالنسبة إلى كتابي المتواضع، وأنا أشك أن أحداً يمزح معي. وإن (موري) الناشر يفكر بإصدار طبعة ثانية ومع ذلك كانت تقديرات الناشر غير كاملة)).

ففي شهر أيار صدرت الطبعة الثالثة، وفي تموز ظهرت الطبعة الرابعة وقد كتب أيدوين لاوريس إلى لايلارد من مكتب الخارجية في ١٩ شباط يقول:

((أهنتك لأنك أصدرت كتاب الموسم، الحقيقة لم ينل أي كتاب ما ناله كتابك من التقدير وحيث ما أذهب أسمع السؤال:

ما هو رأيك في كتاب لايلارد؟

وليس هناك أي شخص يسأل: هل قرأت هذا الكتاب؟

لأن ذلك أمر مقروغ منه.

فقد زار كل شخص ذي أهمية ابتداء من الأمير الهولندي الأثر الأثوري في المتحف البريطاني.

وقد كتب صامويل بيرتش من المتحف البريطاني إلى لايلارد في ٢٨ آذار ما يلي:

لقد جنّ العالم شوقاً لرؤية الذهب والجميع يصيحون: الثيران، الثيران ولقد أتميتني تلك الجماهير من الناس القادمين من صفوف اللوردات والسيدات الذين أتوا لرؤية نمرود.

ولكن حدثت بعض المتفصصات من جراء هذا المديح، فقد كتب له رولنسون من بغداد بتاريخ ١٧ كانون الثاني يقول:

ما رأيك بتلك الهجومات الموجهة إليك من قبل المجمع العلمي الذين ينمتونك بكونك أحد برابرة القرن التاسع عشر؟

هل تعتقد أن بونومي يفكر أن نمرود هي اثينا؟

أما يونومي فكان يكبر لايارد بعشرين عاماً وكان من الثقات في النحت وقد حاز على شهرة عندما رسم الأنصاب المصرية.

وقد تابع هجومه على لايارد بنشره كتاباً ناجحاً عنوانه (نينوى وقصورها) مع عنوان إضافي (اكتشافات بوتا ولايارد بالنسبة لشرح الكتاب المقدس) وكان هذا تكيفاً لكتاب لايارد نفسه وهو (نينوى وأطلرها) ولكن بشكل أقل أناقة وروعة.

وفي القسطنطينية كان لايارد يشك بالحكمة في اشتراكه مرة ثانية في الحفريات في منطقة ما بين النهرين، ولكنه سمع الآن أن الحكومة البريطانية قد أعطت التلميحات لكأنه قدج بالاستفادة من خدمات لايارد لذلك الفرص (أي: بالحفريات) وبعد وقت قصير علم أنه سوف يوظف كمحقق ثقافي ولكن بأجر قدره (٢٥٠) جنيه إسترلينياً سنوياً كاعتراف من الحكومة بأهمية خدماته بالنسبة للتاريخ القديم.

وقد هناء كاندج قائلاً أتمنى لك السرور لأنك قد أصبحت ملحقاً ثقافياً براتب، وإن هذه الوظيفة هي بمثابة كمسكة رقيقة الحجم لتنين الجدد العنيف الذي حظيت به، ولكنها ليست شيئاً على كل حال.

ولقد صوّت البرلمان على إعطاء منحة قدرها ١٥٠٠ جنيه إسترليني لمدة سنتين كمكافأة على القيام بمهمات الحفر في منطقة ما بين النهرين، ولقد تم تأمين هيئة صغيرة تتألف من أحد الفنانين وطبيب وهرمز رسام وهو الأخ الأصغر لرائد القنصل البريطاني في الموصل، ولقد أرسل المتحف البريطاني مذكرة إلى لايارد مؤرخة بـ ١٤ تموز تُلخص شروط الحفريات:

إن العملة التي سوف يصعب السيد لايارد مسؤولاً عنها قد شكلت للحصول على أوسع المعلومات وأدقها بخصوص الآثار القديمة في منطقة ما بين النهرين التي من المحتمل أن تستطيع الموارد المالية للأمانة العامة للمتحف تقديمه في هذا الصدد. وكانت هذه المعلومات التي سوف تقدم للمتحف البريطاني سوف تكون بشكل عينات مختارة من الآثار المنحوتة والمنقوشة، وجزء منها بشكل مخططات

الأبنية المكتشفة ورسوم النقوش والمنحوتات ونسخ عنها مع أوصاف مفصلة عن الأشياء والمواد التي من الممكن أن تظهر أثناء الحفريات.

ولا تمتد الأمانة العامة أنه من المناسب تقييد حركة السيد لايارد بتحديد المواضع التي سوف تشملها أبحاثه، إذ إن خبرته الواسعة بأحوال تلك البلاد ومواقفها الأثرية سوف تكون أفضل مرشد.

ولقد اعتبر لايارد أن المبالغ التي وضعت تحت تصرفه كانت ضئيلة وغير كافية، لذلك كتب إلى أحد أصدقائه يقول:

((لا يمكنني القول إن أمناء المتحف البريطاني قد سلوكوا سلوكاً مناسباً وتصرفوا بسخاء، ومن جهة أخرى أظن أن الرأي العام قد عاملني معاملة سخية وممتازة مما يعوضني عن معاملة الأمناء.

وفي السنة التالية كان أكثر شكوى من السنة الماضية وهو يقول:

((إن أسوأ ما في الأمر هو أن الأموال المخصصة مقتنة، ومن المنتظر أن أفنن وقتي أيضاً، فلو منحوني المبلغ مباشرة فإني أستطيع أن أنهي العمل في مدة سنتين. أما في الظروف الحالية من تقشير الأموال فإني لا أستطيع إنهاء نفس العمل في مدة خمس سنوات أو ست سنوات، أما الرسام الذي أرسلوه لي فهو غير لائق لعمله وليس بإمكانه أن يخدم المصلحة بجدارة وعدل)).

لقد غادر لايارد القسطنطينية متوجهاً إلى الموصل في أواخر شهر آب عام ١٨٤٩، ولقد كانت أعمال الحفريات التي قام بها في حملته الثانية أوسع مدى من حملته الأولى، فقد امتدت إلى بابل جنوباً حتى نيبور مع أن نجاحه كان محدوداً بسبب الأحوال غير المستقرة هناك.

وأما في آشور فقد كان عمله موزعاً ما بين كويونيبيك ونسرود مع قضاء بعض الوقت في قلعة شيرجات ومواقع أخرى.

وكانت طريقته في الحفر هي الاستمرار حتى الوصول إلى أرض الحجرات المائدة إلى القصور الآشورية وبمدها يعمل حول الجدران حتى يجد أمثلة مناسبة

من اللقيات مثل الألواح من النقوش النافرة التي كانت متوفرة في القصور الآشورية.

ولكن في إنشاء تنظيف أراضي الفرف فقد وجد عدة لقيات ممتعة اشتملت نمرود على مجموعة مهمة من المواد البرونزية كالأجراس والأسلحة والمراجل والمزهريات وحتى العروش الملكية.

وكذلك اكتشف تمثالاً بالحجم الكامل للملك آشور ناصر بعل في حالة جيدة تقريباً.

أما في كيونيجيك فقد اكتشف مجموعة ضخمة من النقوش النافرة وبعضاً من تماثيل الثيران المجنحة ولكن أهم لقيه وجدها في الموقع الأخير كانت أول مجموعة كبيرة من الكتابة المسمارية من مكتبة آشور ناصر بعل والتي إذا حلت رموزها فهي سوف تقدم المفتاح للوصول إلى الأدب والدين والطب وطرق المعيشة والتفكير بالنسبة للناس الذين سكنوا منطقة ما بين النهرين القديمة.

لقد دامت أعمال الحفريات أثناء حملته الثانية ابتداءً من تشرين الأول عام ١٨٤٩ حتى نيسان عام ١٨٥١ ولكن سادت صيحة لا يارد وأصابه الاكتئاب لاسيما بالنسبة إلى المزن والأموال التي خصصها المتحف البريطاني وهو يقول:

((لقد وصلت البعثة إلى حالة ميؤوس منها ، ولم يعد لدي أموال مناسبة ولا عون أو مساعدة مناسبة ولمسوف لا تصل الأمور إلى النهاية إلى المستوى الذي كنت أتوقعه)).

ووصلت الأمور إلى درجة أن قرر أن يترك الأعمال الأثرية إلى الأبد . وقد أخبر أحد أصدقائه قائلاً:

((أظن أنه حان الوقت لكي أترك أعمال الحفر وأن أعود للاهتمام بواجباتي في هذه الحياة وأن أسمى لتكوين وضع دائم لنفسي)).

ولقد أصبر على هذا القرار رغم الجهود التي بذلت لإقناعه للقيام بحملة ثالثة ، وعند رجوعه إلى إنكلترا في شهر تموز كان قد قرر أن ينتهي ويشكل

نهائي من ميدان علم الآثار وهكذا فعل، ولكن أنجز لايلرد التزاماته من خلال إصدار كتابين آخرين وهي سلسلة ثلثية من كتاب نصب نينوى والثاني قصة بعثته الثانية تحت عنوان: (اكتشاف بين أطلال نينوى وبابل) ولقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً يضاهي نجاح كتاب (نينوى وآثارها).

وفي أثناء ذلك استمر رولنسون بالمراسلة مع لايلرد حول شؤون التعاقد الزمني حول قراءة المتحولات المسمارية، وسوف يستغرق معنا وقتاً طويلاً إذا بحثنا هنا عن تاريخ الخطوات والمراحل التي مرّ بها تقدّم رولنسون.

ولقد رأينا أنه قد أكمل حل الأبيدية المسمارية الفارسية القديمة عام ١٨٤٥ وفي عام ١٨٤٩ أعرب لايلرد عن رضاه على مقدرة رولنسون قراءة الشكل الآشوري من الرموز المسمارية، فقد كتب لأحد أصدقائه في إنكلترا.

لقد كان رولنسون هنا مؤخراً وقضى يومين أو ثلاثة أيام معي، ولقد سلمته رسالة إلى الضيوف، وهذا التصرف لم أكن لأقدم عليه لولا معرفتي أن رولنسون أصد حقيقي فهو صديق من الطراز الأول ومن المؤكد أنه الأول في مجاله، ولا شك بأنه سوف يدهش الناس في إنكلترا باكتشافاته في مجال الكتابة المسمارية، ولا شك أنه الآن أصبح ملماً بجميع القضايا المبدئية بالنسبة لكل رموز النقوش، وأن الكتاب الذي ينوي نشره وهو في إنكلترا سيكون ترجمة تقريبية إن لم تكن كاملة لتلك النقوش الموجودة على العملة ومعظم السجلات المهمة في آشور والتي اكتشفت حتى الآن.

فكتور بلاس وهرمز رسام

في أثناء حملته الثانية أقام لايلرد مساعداً وهو هرمز رسام وهو أحد مواطني الموصل من المسيحيين وهو الأخ الأصغر للرجل الذي خدم مساعداً للمفصل البريطاني، وكان لايلرد قد أرسله إلى كلية أوريل في أكسفورد لإتمام تعليمه، وعندما رفض لايلرد القيام بالحملة لثالث مرة وهي التي خططت لها الأمانة العامة

للمتحف البريطاني، فقد اقترح تعيين رسام في هذه المهمة، ولقد حدث عندما أرسل رسام في عام ١٨٥٢ لمزاولة أعمال الحفريات تحت إشراف رولتسون في بغداد.

ومع ذلك في بداية شهر كانون الثاني عام ١٨٥٢ وصل إلى الموصل قنصل فرنسي جديد اسمه فيكتور بلاس، ولقد أخبر هذا رولتسون عن نيته بأن يزاول أعمال الحفر في كيونجبيك، ولذلك لم يمكن من مانع لدى رولتسون نظراً لأنه كان يعتقد أن لا يارد قد نظف المكان وأخرج منه كل المواد ذات الأهمية الأثرية. وعند وصول رسام الذي كان يعرف جيداً أن هناك أشياء كثيرة ينبغي عملها في كيونجبيك لذلك لم يمانع.

وبعد ذلك بدأ بلاس ورسام يعملان بكل على حدة في أماكن مختلفة من الموقع، ولقد أحرز رسام حظاً أوفر من النجاح، فهو لم يكتشف سلسلة رائعة من النقوش النافرة من التي كانت تصور صيد الأسود من قبل آشور بانيبال فحسب تلك النقوش التي تعتبر إحدى أمجاد المتحف البريطاني، ولكن اكتشف أيضاً مجموعة من الألواح المسارية التي تولى مكتبة الملك والتي كانت تولى أسس علم الدراسات الآشورية.

وبعد ذلك دخل بلاس ورسام في منافسة للحفر في قلعة شيرجات ولكن لم ينل أي واحد من هذين الرائدتين أي نجاح هناك، ولكن كان هناك مجال مرهق للعمل في نمروود حيث استمر رسام في إنجاز أعمال لا يارد وكانت نتيجة جيدة ولا سيما في خورساباد، وهناك كشف بلاس عن مائة وست وثمانين حجرة أخرى في أحد القصور الآشورية بالإضافة إلى أربع عشرة غرفة كان قد وجدها بوتنا.

ولقد كان لدى بلاس أهداف تختلف عن أهداف بوتنا ولا يارد مثلاً: بدلاً من التركيز على لقيات قابلة للعمل فقد كان مهتماً باكتشاف المخططات المفصلة للأبنية وإن ما كشفه في خورساباد لا يزال أفضل مثال لقصر آشوري.

وقد عرض بلاس أيضاً بعض الرسوم الممتعة لواجهات الأبنية بعد ترميمها، ورغم مظاهر الاحتكاك ما بين الرجلين حول حقوق الحفريات إلا أن العلاقات ما بين رولتسون وبلاس كانت على مايرام، ولقد تبادل هذان الممثلان لدولتين

مختلفتين النُصب التذكارية من كيونيبيك ونمرود وخورسباد وأرمسلاها إلى متاحفها المختلفة، ولكن حدثت مصيبة للأثار الغريبة وهي على نهر دجلة عام ١٨٥٥ ولذلك أعيد إرسالها بواسطة كيكليك بالطريقة المعتادة، ولكن وفي المنطقة التي يلتقي فيها نهر دجلة مع نهر الفرات تعرض المركب لهجوم من بعض القبائل المربية المتمردة وهكذا غرق اثنان من الكيكليك واختفت حمولتهما من الآثار في مياه نهر دجلة، وهناك بقيت هذه الآثار تنتظر الأموال والتقنيات والاستقرار السياسي والحظ للمساعدة على إنقاذها واستعادتها.

ولقد أنهى بلاس ورسام حفريتهما عام ١٨٥٤ وبعد رحيل رسام أنجزت بعض الأعمال في كيونيبيك من قبل شخص آخر يمثل المتحف البريطاني وهو W.KLOFUS (كلوفوس) الذي انحصر عمله الرئيسي في الحفر في المنطقة في جنوب بابل وقد بدأ الاهتمام الآن بالانتقال من المواقع الآشورية إلى الجنوب، ولقد بدأ ميدان علم الآثار يظلل بتلك الأهمية التي حصل عليها تراكم الألواح المسمارية.

وفي عام ١٨٥٥ استقال رولفسون من منصبه كمتنصل عام في بغداد وعاد إلى إنكلترا حيث حكرس نفسه لتفسير ونشر النصوص المسمارية، وقد كان هناك عدد من الباحثين يعملون في تفسير الرموز المسمارية ولكن كان هناك موجة من التشاؤم لدى الرأي العام بخصوص مصداقية الترجمة المقدمة، وأخيراً قررت الجمعية الآسيوية الملكية اعتبار رولفسون وثلاثة من الباحثين الآخرين البارزين المعتمدين في تحضير الترجمات بالنسبة للنفوس الطويلة، وعندما قورنت النتائج ظهر أنها متشابهة إلى حد كبير، مما أثبت أن تفسير الرموز المسمارية من النظام البابلي والآشوري قد تمت بنجاح وثقة.

ولقد خولت الأمانة العامة للمتحف البريطاني رولفسون وأعطته كعامل المسئولية لتحضير سلسلة من المجلدات تحتوي على نصوص مسمارية مع أن معظم عمليات النسخ قد قام بها أناس آخرون، وربما كان أشهر هؤلاء المساعدين شاب يدعى: جورج سميث، وكان تحلّت لدى أحد نقاشي العملة وهو في الرابعة عشرة

من العمر، ولكن اهتمامه الشديد في التاريخ التوراتي والآثار الآشورية والنصوص المختصة بذلك، الموضوع أدباً به أن يقضي معظم وقته في المتحف البريطاني.

وقد لاحظ المسؤولون هذا الاهتمام، ويعد أن أثبت بأن لديه معرفة لا بأس بها بالموضوع، قدّمت له وظيفة توصّل قطع الفخار بعضها ببعض ووصل الأنواع المكسورة المأخوذة من نينوى، وفي أثناء هذا العمل علّم نفسه كيفية قراءة وفهم الحروف المسمارية، وفي عام ١٨٦٦ عيّن معامداً في دائرة الآثار الشرقية حيث عمل على نسخ الألواح المدة للنشر.

وفي عام ١٨٧٢ أحرز جورج سميث اكتشافاً رائعاً فقد عرف أن أحد الألواح المكسورة من كيونيجيك والتي كان يشغل في ترميمها كانت تحتوي على نظير آشوري لقصة الطوفان في التوراة وكانت إنكلترا ما تزال أمة مسيحية لديها اهتمام عميق بالتوراة.

وعندما أعلن هذا الاكتشاف وعرضه على جمعية الآثار التوراتية في شهر كانون الأول خلق هذا العرض ضجةً كبيرة فقد ظهرت الأصوات التي تتادي بضرورة استئناف عمليات الحفر في كيونيجيك لإيجاد الأجزاء المفقودة من لوح الطوفان وقدمت صحيفة **Daily Telegraph** ديلي تليغراف ألف جنبه إمبرليني لهذا الغرض، مع الاقتراح الذي يشترط أن يسافر جورج سميث ويقوم بالحفريات.

سافر جورج سميث في أوائل عام ١٨٧٢ ويعد معارضات قدمها الوالي هناك بدأ بالحفريات في أيار وفي خلال أسبوع وجد لوحاً عليه نص يحتوي القسم المفقود من قصة الطوفان.

وعندما عاد سميث إلى إنكلترا في شهر تموز ولكنهم أرسلوه للمرة الثانية ووصل إلى الموصل في أوائل عام ١٨٧٤ وقد وجد عدة مئات من الألواح في موقع كيونيجيك، ولكن قلة خبرته والتعامل مع البيروقراطية الشرقية أنتج مصادرة بعض هذه الألواح، وقد نشرت قصة سفراته وعمله الملوءة بالترجمات والمناقشات حول النصوص المسمارية، في عام ١٨٧٥ تحت عنوان (الاكتشافات الآشورية) وفي

عام ١٨٧٦ رجع جورج سميث إلى الشرق مرة ثانية ولكنه عثا بمرض الدونطاريا دون أن يستطيع القيام بأية حفريات أخرى.

ولكن وفي هذا الوقت حدث اهتمام شعبي مرموق بالكتابة بالخط المسماري في إنكلترا وأصبح الخط المسماري هو الطراز الملائم في بريطانيا، وضح نجاح جورج سميث في إيجاد مزيد من الألواح في كيونيغيك سيباً معقولاً لاستمرار التحدث بهذا الشأن.

وكان الشخص الظاهر في هذا المجال هو هرمرز رسام الذي أرسل في أواسط عام ١٨٧٧ وبعد التأخيرات الناتجة عن المطالبات البيروقراطية استطاع أن يبدأ حفرياته في شهر كانون الثاني ١٨٧٥ وقام بحملات مماثلة في عام ١٨٧٨-١٨٧٩ و ١٨٨٠ و ١٨٨٢ وكان نجاحه في جميع النصوص من المواقع الأثرية الآشورية قد أدى إلى جمع مجموعتين من الألواح فيها حوالي ١٦٠٠ نص من النصوص.

وقد حملت هذه النصوص اسمه في المجلد الرابع في المتحف البريطاني، وكانت إحدى لقياته المرموقة في تل يدعي (بالاوات) على بعد حوالي عشرين ميلاً من الموصل، هي بوابة آشورية مزدوجة من الخشب (التي أصبحت مهترئة) وهي مزينة بالألواح من البرونز مع وجود مشاهد حربية، وهذه الألواح البرونزية قد حفظت بشكل ملاحظ، وجيد ترى الآن في المتحف البريطاني.

ولكن الجزء الأعظم من مجرودات (رسام) قد كُتبت للصوامع في جنوب منطقة ما بين النهرين وليس في آشور، فقد حدث هناك انتقال هام بالاهتمام في المواقع في بابل وكانت تقدم نصوصاً مُتَدَّ بالآلوف، وخلال السنوات العشرين بعد إتمام رسام لملياته في عام ١٨٨٢ لم يتم أي عمل في بلاد آشور.

الحملات الأثرية

هناك باحثون آخرون عدا عن الإنكليز والفرنسيين قد اشتغلوا في النصوص المسماة وما تبعا من التصب التذكارية.

وهناك عمل هام نشر في عام ١٨٨٢ ساعد على انتشار وشهرة علم الدراسات الآشورية في البلدان التي تتكلم اللغة الألمانية، وذلك في المؤلف الذي نشره شرادن وهو النقوش المسماة والمعهد القديم.

وسكان هذا واحداً من العوامل التي أدت إلى تأسيس الجمعية الألمانية الشرقية عام ١٨٨٩ تحت رعاية القيصر، وقد رعت هذه الجمعية عمليات الحفر في بابل التي استمرت ابتداءً من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩١٧.

وقد اشتمل نشاطها الحفريات في قلعة شيرجات وهي مدينة آشور القديمة، وقد استمر العمل تحت إشراف W. Andrac (أندراك) من عام ١٩١٤.

ولم يكن عمل أندراك هذا منعصراً بالبحث عن الألواح أو الآثار الأخرى، بل في عمليات تويعة باهتمام وهوس وهي مختصة بأبحاث علم الآثار مع محاولة الكشف عن مخطط المدينة وأسوارها وأبنيتها، والعلاقات المتبادلة بينها وبين غيرها من المدن في فترات مختلفة، ولقد تركزت عملية الحفر الآشورية على الفترة ابتداءً من النصف الأول للألف الأول وقد رجع أندراك عند بحثه عن تاريخ علم الآثار إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وتكهن مع أن غرضه لم يكن الكشف عن الألواح إلا أنه وجد مجموعة لا بأس بها من الألواح ذات الأهمية العالية بالنسبة للتاريخ الآشوري وهي الدين والقانون.

وبعد الحرب العظمى الأولى أعطى الانتداب الإنكليزي على العراق أبعاداً جديدة بالنسبة لعلم الآثار ويتشجع من جرتويديل أنشأت دائرة الآثار وفي عام ١٩٢٤ تم تأسيس متحف بغداد، وفي نفس السنة أعلن قانون الآثار الذي بموجبه وبموجب أفضل شروطه أن دائرة الآثار العراقية ينبغي أن تستلم كل اللقبات الثمينة المكتشفة من قبل البعثات الأجنبية ونصف اللقبات غير الثمينة.

أما السنوات الواقعة ما بين الحربين العالميتين فقد أتت النتائج المروقة من المواقع السومرية في جنوب منطقة ما بين النهرين ومنها ثقيات العير (ليونارد وولي) في آشور (١٩٢٢-١٩٢٤) ومع ذلك فقد حلفت بعض الحفريات في آشور مرة ثانية، وفي أعوام ١٩٢٦-١٩٢٦ حضرت بعثة أمريكية في مواقع قرب كركوك وفتحت أضافاً جديدة في تاريخ بلاد آشور في الألف الثاني قم وذلك بتصنيفها تحت اسم أفضل مدينة معروفة فيها وهي (نوزي) وقد وجدت الوف الأنواع ذات الأهمية بالنسبة لفهمنا المجتمع في الشرق الأدنى بما فيه تاريخ البطارقة والنوراثيين، وتعد حدثت حفريات أمريكية أيضاً فيما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٨ في موقعين على بعد حوالي اثني عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من الموصل وهو (تل بيبلا) حيث صنع لا يارد بعض الحفريات وثيب جاورا، وكان كلا الموقعين هامين في كون تلك الفترات المتتالية من الاحتلال وكانت ترجع إلى عهود قديمة جداً وفي حالة تيب جاورا كانت تعود إلى العصر الحجري الحديث.

ولقد قامت بعثة أمريكية تابعة لجامعة شيكاغو بالحفر في خورساباد عام ١٩٢٥ متجاهلة حقوق الفرنسيين القديمة بالحضر، وكانت الأهمية الرئيسية لنتائج أعمال تلك البعثة هي أحداث بعض التصحيحات في مخططات المدينة والأبنية التي نشرها فريق (بلاس) قبل سبعة عاماً مضت.

وفي أثناء نفس الفترة أعاد المتحف البريطاني والمؤسسات التابعة له عمليات الحفريات في كويونجهيك (١٩٢٧-١٩٢٢) وكانت أهم تطورات هذه الأعمال هي محاولة فحص فترة ما قبل التاريخ في ذلك الموقع عن طريق الحفر العميق الذي أعاد تاريخ الاحتلال إلى الألف الخامس قم، وكان هذا العمل صعباً جداً من وجهة تقنية بحيث كان الشخص المساعد والمسؤول وهو م. ي. ل. مالون كان مجبراً أن يحضر حضرة عمقها تسمون قديماً للوصول إلى الأرض البكر وذلك للحصول على معلومات مستقضة حول المستويات التابعة لفترة ما قبل التاريخ المختصة بالاحتلال والاستيطان في تلك المناطق، قام مالون كذلك وفي عام ١٩٢٢ بالحفر في الموقع القريب وهو (أريشية) حيث لم يحصل أي احتلال في تلك المناطق.

وكان المظهر الدولي للمريض للأبحاث الآشورية فيما بين الحريين العلميتين قد ظهر في اشتراك بعثة إيطالية بدأت موسماً من الحفريات عام ١٩٢٢ في مدينة آشورية تدعى (كاليهي) (قراة سابقاً باسم كاكوزو إلى الجنوب الشرقي من أربيل).

ولقد منعت الظروف السياسية استمرار العمل، وكان هذا لسوء الحظ من وجهة نظر علمية، حيث إن السكان المحليين هناك وجدوا وهم يحضرون دون إذن من السلطان ألواحاً مسمارية لا تزال تعود إلى ملكية خاصة لم ينشر أي شيء عن هذه الألواح ولم يقرأها أحد.

إن الحدود الآشورية القديمة لا تتطابق بدقة مع حدود الجزء الشمالي من دولة العراق الحديثة، ونتيجة لذلك هناك مواقع في شمال شرق سورية لها علاقة بتاريخ آشور، ولقد جرت أعمال الحفر في بعض هذه المواقع مع الحصول على نتائج مهمة، وكان أشهر هذه هي حفريات قل خلف قرب منبع نهر الخابور والتي قام بحفرها (هارون ماسكس طوان وانهايم) قبل الحرب العظيمى الأولى ويعد المشرقات من القرن العشرين ١٩٢٠ وقد كان أهمية هذا الموقع تعود لسببين:

أولاً: لكونه مصدراً من مصادر تأمين الوثائق المسمارية المتصلة بمركز ولاية آشورية وهو (جوزانو).

وثانياً: لكونه موقفاً يعود إلى أحد المواقع الثقافية في فترة ما قبل التاريخ لمنطقة أصبحت تدعى آشور.

ولقد فُحص بالوان ابتداء من عام ١٩٢٤ تلالاً رئيسية أخرى في منطقة نهر الخابور، وهذه المناطق مهمة بالنسبة للتاريخ الآشوري إلى أن أوقفت الحرب العالمية الثانية جميع الأنشطة في مجال علم الآثار، ولقد كان آخر وجه من أوجه إعادة اكتشاف آشور قد بدأ عندما قرر (مالوان) إعادة فتح مشروع الحفريات في نمرود عام ١٩٤٩، وقد استمر العمل متقطعاً حتى عام ١٩٦٢ وقد كان مالوان المشرف على هذا العمل شخصياً أو عن طريق بعض علماء الآثار الشباب الذين يعملون تحت جناحه.

ولقد بدا أن معظم علماء الآثار البريطانية كانوا يحاولون أن يلتزموا عن وعي أو بدون وعي بالنموذج الذي اختطه لايارد ولكن مالوان كان قادراً على شك النموذج بشكل أفضل.

ولقد أحرز نجاحاً بالنسبة للقياسات من الممكن مقارنته بنجاح لايارد، ومع أن مظاهر قليلة جديدة قد فتحت بالنسبة للحياة الآشورية (ماعدا سور الحرفا) إلا أن العمق والتفاصيل قد أضيفت إلى مآرفنا لآشور في عدة نقاط، ولكن نجاحاته قد بدت وكأنها حجر عثرة بالنسبة لبعض علماء الآثار المتأخرين الذين كانوا مدينين في كثير من الفرص لمجهوداته.

وهنا نجد إحدى السيدات النافذات تكتب في عام ١٩٨١ باشمئزاز عندما تشير إلى أعمال مالوان وهي تقول:

((إن الرأ بفيضاً متخلفاً من مخلفات القرن التاسع يؤكد الناحية الموجهة نحو المادة أكثر من التأكيد على المعرفة وعن الأهداف الموجهة نحو السلوك الحسن، خصوصاً أنه وقع في الإثم عندما فكر أن المجموعة الرائعة من العاجيات المنعوتة التي اكتشفها هي كنز من الكنوز)).

ولكن بدا الهدف الوحيد لتخصيص الأموال العامة لمصلحة علم الآثار وهو أن يفني حياة أولئك الأشخاص غير المهتمين بعلم الآثار الذين يدفعون المال في آخر الأمر، ومن المؤكد أن جمال العاجيات الآشورية المنعوتة لها دورها الذي سوف تلمبه تجاه تلك الغاية على الأقل من حيث العلم بالتفاصيل الخاصة بمثل هذه القضايا مثلاً قضية ملكية الأراضي.

لقد كانت أعمال الحفريات التي قام بها مالوان في بلاد آشور آخر حفريات حدثت حسب الأسلوب القديم وهو الذي كان يصير ضمن خطوات ذات نتائج سريعة يقصد بها كسب اهتمام الرأي العام وذلك طبقاً للمثل اللاتيني الذي يقول:

Sic briviter gloria mudi

ومعناه: هكذا يمر الجد الدنيوي ويسرعة.

لقد جرت أعمال الحفريات التالية في شمال العراق ولكن على نطاق أضيق إذ قد أثرت عليها أهداف مختلفة وأسهمت عوامل كثيرة في الوصول إلى تلك النتائج، وإحداها: تنقيح قانون الآثار العراقي بعد ثورة عام ١٩٥٨ حين ألغيت حقوق البعثات الأجنبية بالحصول على نصف اللقيات المتطابقة أي: التي لها مثيل طبق الأصل، ولقد أزال هذا الإجراء أي حافز لإعطاء الأفضلية لأي نوع من المواقع الأثرية الذي من المنتظر أن يكشف عن آثار تستحق أن توضع في المتاحف.

أما العامل الآخر: فهو عامل مادي مالي، فقد ارتفعت تكاليف العمل في العراق ارتفاعاً فاحشاً منذ عام ١٩٥٨ فقد أصبحت الآن وفي عام ١٩٨٢ في مستوى الأسعار في البلدان الغربية، وهذا ما منح الأفضلية للمواقع الصغيرة التي تمتاز بأن الطبقات الاستيطانية فيها ليست مغطاة بشكل كثيف باطلال المراحل اللاحقة بها.

وهناك عامل ثالث: وهو أن السلطات العراقية أصبحت تعتبر أن المواقع الأثرية هي من الأماكن السياحية التي تجذب السياح من جميع أنحاء العالم، ولهذا فقد ضغطت السلطات العراقية على البعثات القائمة بالحفريات أن تقبل مسؤولية ترميم الأنصاب باعتبار ذلك تكملة للحفريات، وهذا أمر مكلف مادياً لاسيما إذا احتوى الموقع بنايات كبيرة ومنحوتات، وهناك أيضاً قضية المراحل التاريخية وأي مرحلة هي بحاجة ماسة إلى شرح وتوضيح أكثر من غيرها.

ونتيجة لهذه العوامل المتراكمة انحصرت أعمال الحفريات التي تجري في آشور منذ زمن بعثات المدرسة البريطانية في نمرود، في الواقع أقدم عهداً من زمن الإمبراطورية الآشورية.

ومع ذلك فلم تهجر المواقع الإمبراطورية الآشورية نهائياً، إذ عمد فريق بولندي إلى إجراء بعض الحفريات في نمرود في محاولة لحل بعض المشكلات المتروكة منذ أيام لايارد ومالوان، هذا وإن السلطات العراقية التي انتخبت علماء آثار من وزن عالٍ جداً قد قامت بأعمال مهمة في كل من شريف خان (وهي تاربيزو القديمة الواقعة إلى شمال نينوى) وفي كيونجيك، وقد انحصر العلم في المواقع

الأخيرة في المحافظة على النصب وترميم الأبنية، مما جعل أسوار وتحصينات
وبوابات صنعاريب ماثلة للعيان مرة ثانية ليراها جميع المهتمين بهذه الأمور، وفوق
ذلك فإن العالم مدين للسلطات العراقية ولعلماء الآثار العراقيين إتقانهم نبؤى من
التجار القارين الذين كانوا قد خططوا لإقامة وبناء منازل وأبنية في ذلك الموقع.

انتهت الترجمة في ٢٠٠١/١١/٢٦ .

الفهرس

٥	المقدمة
٧	١- الفصل الأول
٧	آشور- الخلفية - والبدائيات
٧	الإطار الجغرافي
١٢	فترة ما قبل التاريخ
١٧	أقدم القرى الأولى
١٩	تل حسيونة
٣١	تل حلف
٣٣	عبيد
٣٦	فجر التاريخ
٣٨	التطورات في سومر
٣٩	أسرة أككاد
٣٠	نشوء البلدات والمدن
٣٣	آشور الأولى
٣٥	٢- الفصل الثاني
٣٥	ملوك آشور الأوائل
٣٥	قائمة ملوك آشور
٤٠	سُلالة أور الثالثة
٤١	آشور والتجارة
٤٢	مستعمرات كبادوكيا التجارية

٤٩	.. الفصل الثالث ..
٤٩	.. الفترة الفاصلة الحورية ..
٤٩	.. من ظلال التبعية حتى الاستقلال ..
٤٩	.. مملكة شمسي أداد الأول ..
٥٢	.. المهاجرون الحوريون ..
٥٤	.. مملكة ميتاني ..
٥٥	.. ضم آشور ..
٥٧	.. استقلال آشور ..
٥٨	.. الروابط مع مصر ..
٥٩	.. من الملكية إلى الإمبراطورية ..
٦٢	.. الفصل الرابع ..
٦٢	.. توسع آشور ..
٦٢	.. حشد نيراري الأول ..
٦٦	.. شلمناصر الأول ..
٧٠	.. نوكلتي نينورتا الأول ..
٧٥	.. صمت مرحلة الانحطاط ..
٧٩	.. الفصل الخامس ..
٧٩	.. الإمبراطورية الآشورية الوسطى ..
٨٠	.. تجدد آشور ..
٨١	.. الحرب الوثائقية ..
٨٢	.. تغلات - بالاسر في الأناضول ..
٨٤	.. تهديد الآراميين ..
٨٩	.. مراكز الحدود البابلية ..

٩٠	الهجرات الآرامية
٩١	الاتفاق الآشوري البابلي
٩٣	الممالك الآرامية
٩٥	الفصل السادس
٩٥	نشوء الامبراطورية الآشورية الجديدة
٩٥	الأمن العسكري والتطور الاقتصادي
٩٨	آشور فاصر بعل الثاني
٩٨	الاستراتيجية الإمبراطورية في آشور
١٠١	البحر الأبيض المتوسط
١٠٢	مدخل على حقن الأنعام في نصوص العهد القديم
١٠٣	فيما وراء جبال أمانوس وطوروس
١٠٤	فيما وراء زاغروس.. الميديون والفرس
١٠٥	الحرب الأهلية
١٠٦	الأم الملكية التي أصبحت أسطورة
١٠٧	أورارتو - المملكة المنافسة
١١١	الملوك الضعفاء والولاة المفالون في القوة
١١٥	الفصل السابع
١١٥	عنقوان الإمبراطورية
١١٥	الإصلاح الإداري
١١٧	السياسة تجاه الدول التابعة
١١٨	التوسع خلال حكم تفلان بلاسر الثالث
١٢٢	النزاع مع السكثديين
١٢٤	اعتلاء سرجون العرش

١٢٥	المشكلة الأورارتية الحل النهائي
١٢٩	سرجون في بلاد بابل
١٣٠	بناء قلعة سرجون
١٣٢	سنغاريب
١٣٢	نينوى العاصمة العالمية
١٣٤	قلاقل كلدانية جديدة
١٣٥	حصار أورشليم
١٣٧	الحرب مع عيلام
١٣٨	نهب بابل
١٤١	الفصل الثامن
١٤١	بداية الثورة ثم السقوط والانهايار
١٤١	وراثه العرش الملكي
١٤٣	عطف المشيئة الإلهية على بابل
١٤٤	مبطرة الميديين
١٤٦	السلام الآشوري في الغرب
١٤٧	غزو مصر
١٤٩	آشور بانتيبال
١٥٢	إبادة عيلام
١٦١	سقوط الامبراطورية الآشورية
١٦٩	الفصل التاسع
١٦٩	المجتمع الآشوري والعادات الآشورية
١٦٩	الآشوريون أمة وليس عرقاً
١٧٩	الطبقات الاجتماعية


١٨١	الأساس الزراعي للحياة الآشورية
١٨٥	الفلاحون الفقراء - الأثنيان والمبيد
١٩٠	العائلات الفلاحية
١٩٢	ولادة الأطفال ووفياتهم
١٩٥	الزواج
٢٠١	الحياة الجنسية
٢٠٦	التعليم
٢٠٧	الملك والبلاط
٢١٥	الفصل العاشر
٢١٥	الحياة المنزلية
٢١٥	الملابس
٢١٩	لباس القدم - الحذاء -
٢٢٠	المجوهرات
٢٢١	الشعر وأغطية الرأس
٢٢٢	المفروشات المنزلية
٢٢٤	الحكراسي بلا ظهر - الطاولات والحكراسي العادية -
٢٢٦	الأسرة
٢٢٧	الإضاءة الاصطناعية
٢٢٧	أدوات التجميل والتواليت
٢٢٨	أدوات المائدة
٢٢٩	وسائل التخزين
٢٢٩	تعميدات المياه
٢٣٠	الأوزان والمقاييس

٢٣٢	.. الفصل الحادي عشر .
٢٣٣	.. الزراعة وتربية الحيوان والتجارة .
٢٣٤	.. الزراعة .
٢٣٩	.. تربية الحيوانات .
٢٤٢	.. الحمير والخيول واليغال .
٢٤٦	.. الطيور .
٢٤٧	.. التجارة .
٢٤٧	.. التجارة الداخلية:
٢٥٥	.. التجارة الخارجية
٢٦٢	.. الفصل الثاني عشر .
٢٦٢	.. السيطرة على البيئة .
٢٦٣	.. الأشوريون والموارد الطبيعية
٢٧٢	.. التكنولوجيا الكيميائية .
٢٧٥	.. تخطيط المدن .
٢٨٥	.. البيوت الخاصة .
٢٨٧	.. قوة الحيوانات والمواصلات البرية .
٢٩١	.. المواصلات المائية.
٢٩٥	.. الفصل الثالث عشر .
٢٩٥	.. عالم ما وراء الطبيعة
٢٩٧	.. تعدد الآلهة .
٣٠١	.. مبدأ التوحيد اليدائي .
٣٠٣	.. المعابد .
٣٠٥	.. بيت الإله .

٣١١	كهنة المعبد ورجال الدين الآخرون
٣١٢	الشانفو
٣١٣	السكرانو
٣١٥	موسيقى المعبد والبلاد
٣١٥	الأشيبو
٣٢٣	العرافون- البارو
٣٢٦	فئات العرافين الأخرى
٣٢٨	علم التنجيم
٣٣٦	الساحرات والسحرة
٣٣٧	الفصل الرابع عشر
٣٣٧	الطب عند الآشوريين
٣٣٨	مفهوم الآشوريون للمرض
٣٤٢	الطبيب في الممارسة
٣٤٤	المواد الطبية
٣٤٦	دعوة الطبيب إلى المنزل
٣٤٩	الفصل الخامس عشر
٣٤٩	الفن الآشوري
٣٥٠	الألواح المسجمة
٣٥٨	النحت الفراغي
٣٥٩	العاج المنحوت
٣٦١	الاختام الأسطوانية

٢٦٥	.. الفصل السادس عشر .
٢٦٥	.. الجيش الآشوري .
٢٦٩	.. مقدمات النزعة العسكرية الآشورية
٢٧٢	.. الحرب النفسية .
٢٧٧	.. الجيش أثناء الحملات العسكرية
٢٧٨	.. القواعد العسكرية والتحذيرات اللوجستية
٢٨٠	.. الجيش أثناء تنقله .
٢٨٢	.. المواصلات .
٢٨٨	.. التكتيك العسكري .
٢٩٣	.. معاملة الأعداء .
٢٩٧	.. البواعث الآشورية : الحوافز والإنجازات .
٤٠٥	.. الفصل السابع عشر .
٤٠٥	.. الكتابة والأدب الآشوري .
٤٠٨	.. المخطوطات الآشورية الملكية .
٤١١	.. جداول ليمو .
٤١٢	.. تقارير على التجهيز .
٤١٢	.. المواحي .
٤١٤	.. الرسائل .
٤١٦	.. الوثائق الاقتصادية .
٤١٧	.. القوانين .
٤١٨	.. النصوص المقتبسة من بابل مباشرة .
٤٢٤	.. نصوص تعاوين الفأل .
٤٢٥	.. نصوص تعليم الكتابة .
٤٢٦	.. الطقوس والابتهاالات .

١٢٨	الأمماتير والملاحم (القصص البطولية)
١٢٩	أدب الحكمة
١٣٢	أصناف أخرى من النصوص
١٣٥	الفصل الثامن عشر
١٣٥	اكتشاف بلاد آشور من جديد
١٣٨	روايات الرحالة
١٤٢	تفسير المخطوطات
١٤٨	بوتا ولايار ودولنسون آباء علم الدراسات الآشورية
١٧٦	هكتور بلاس وهرمز رسام
١٨١	العمليات الأهمية
١٨٧	الفهرس



عظمة آشور

لقد قصى الباحث (هاري ساغرا) الكثير من لصف حياته وهو يدرس الحضارة الآشورية، مما جعله أحد أكثر العلماء في العالم قدرة على تقديم وصف شامل ومتعمق لهذه الحضارة التي كانت أحد أهم بنائر النهضة الإنسانية.

نشأت الدولة الآشورية في شمال ما بين النهرين ثم توسعت سريعاً مشكلة أول إمبراطورية في التاريخ امتدت من مصر إلى مرتفعات طوروس و زاغروس، ومن آسيا الصغرى إلى صحراء شبه جزيرة العرب.

عند قراءة هذا الكتاب لا يمكن إلا أن نشاطر المؤلف حبه الجم لهذه الحضارة.

ف رغم الانتقادات الكثيرة الموجهة للآشوريين بوصفهم شديدي القسوة تجاه الشعوب المغلوبة، فإن فسوتهم هذه مبالغ في وصفها بسبب الاعتماد على الادعاءات التوراتية، ويكشف واقع حضارة جواثب رائعة في كل المجالات سواء منها الأدبية والفنية أم العلمية والثقافية.

يضيف الكتاب ثقافة شواحيق السواء والموت بتاريخ الحضارة في الشرق القديم.

Bibliotheca Alexandrina



0673412